

ولادة وفكر الأمير عبد الله

(1847 - 1832)

مكة أميل شهاكة العام 1420 هـ

إشرافه
عمير أوي الحبيبة

السنة الجامعية

1419 - 1420 هـ / 1998 - 1999 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأمير

الإسلامية



كان هذا البحث ثمرة جهود مشتركة تضافرت معا حتى خرج إلى الوجود بالشكل الذي هو عليه، لذا فإني أقدم شكري لكل من مَدَّ يد المساعدة لي من قريب أو من بعيد.
وأخص بالذكر الأستاذ المشرف عمير اوي احميدة الذي واصل رعايته لي بالنصح والإرشاد وسار إلى جانبي مسير المشرف الخبير المحقق، وفي جو من الأخوة المثالية، كان يقدم مساعدته كلما دعت الحاجة فله جزيل الشكر وخالص التقدير من دون أن أنسى الأساتذة الأفاضل ومنهم: الأستاذة عاشور بوشامة، الأستاذ خليفة حماش، والأستاذ زروخي اسماعيل.

كما أذني عرفانا وتقديرا لوالدي الكريمين اللذين بذلا من الرعاية والتشجيع لي طيلة حياتي الدراسية، خاصة في مرحلة إنجاز هذا البحث، ولا أنسى الزوج الكريم الذي بلغ معي ثمرة إنجازهِ.
كما أشكر القائمين على مكتبة جامعة الأمير عبد القادر، وجميع الأصدقاء والزملاء الذين أسدوا لي العون في الحصول على المادة العلمية وفي عملية الإخراج.

وختاما أترك تقدير هذه الجهود التي بذلتها لإخراج هذا البحث إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة الموقرة شاكرة لهم حسن النظر.

قاسي فريدي

المختصرات المستعملة في البحث

- ✧ ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- ✧ م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- ✧ م.د.و.ع: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ✧ ج.رقم: جزء الكتاب ورقمه.
- ✧ مج.رقم: رقم المجلد.
- ✧ ع (خاص): عدد خاص.
- ✧ د.ت: دون تاريخ.
- ✧ د.ط: دون طبعة.
- ✧ ص: صفحة.

- ✧ *A.N.T : Archives Nationales Tunisiennes*
- ✧ *A.O.M : Archives d'Outre- mer à Aix-en-Provence*
- ✧ *R.A: Revue Africaine*
- ✧ *R.O.M.M : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*
- ✧ *S.N.E.D : Société Nationale d'Edition et de Diffusion.*

مفاهيم محلية مستعملة في البحث

1. **الدوار:** هو من مخلفات العرب الأولين ويقصد به المكان الذي تقطنه القبيلة أو فرع منها، وفي العرف الإداري فهو يؤلف منطقة إدارية يتولى إدارتها موظف يسمونه " قائدًا " وكل دوار له مجلس بلدي يسمى "مجلس الجماعة " ، ولا يكون أهله إلا من المسلمين، والحياة فيه بدوية عادة.
2. **أرض بايلك:** هي عادة الأراضي الخصبة المحيطة بالمدن حيث توجد حاميات الجند موزعة على الأراضي بالاعتماد على السخرة المفروضة على القبائل المجاورة، أو مباشرة من قبل الخماسين الذين ينالون خمس الإنتاج كأجر لهم.
3. **البراني:** سكان المدن النازحون من الأرياف .
4. **بلدي:** أي حضري ابن المدينة خلاف المعنى المتعارف عليه في المشرق العربي الذي يعنى ابن الريف.
5. **الحضر:** أعيان المدينة الأصليون.
6. **التعوش:** التزام يدفعه الباي للداي.
7. **اللزمة:** نوع من الضريبة يدفعها الخلفاء كل ستة أشهر.
8. **قبائل المخزن:** معناه في الجزائر: قبائل موالية من أهل البلاد يختلف عن معناها في المغرب الأقصى الذي هو الحاكم، وعن معناها في المشرق العربي الذي هو القبائل الأجنبية الموالية، والمعروف بصفة عامة في المغرب كله وهو البايك أو الحاكم.
9. **المعونة:** وهي ضريبة استثنائية تفرض في كافة المناطق وتدفع مالا أو عينا لخزينة الدولة في أيام الحرب.

مُقَدِّمَةٌ

إن مسيرة الأمير عبد القادر وتراثه فعل ناتج عن تنظير علمي كان هادفا إلى تغيير المجتمع تغييرا جذريا ونقله من التخلف إلى النهضة، من الهيمنة عليه إلى الحرية. إن منظومة القيم هي النسق القيمي الذي كان يتحرك به الأمير عبد القادر، من خلاله سنحدد الماورائية الفكرية القيمية للأمير عبد القادر التي هي ثقافته ومعرفته وتدينه في الواقع في جدال مستمر حقق له تكاملا بين فكره وعمله.

بحثنا في مسيرة الأمير عبد القادر وتراثه كنص تعاملنا معه دون أن نفضله عن سياقه الزماني بكل ما يحمل زمن النص من دلالات تضع النص في إطاره المعرفي الاجتماعي أمكن تحديد منهج التغيير عند الأمير بعد تحديد عناصر هذا المنهج وهي وطنيته وموقفه من الاستعمار ومكانة التصوف في حياته وتأثيره في معالم فكره السياسي وربطه بتصوره للدولة وللإصلاح.

تصور الأمير للوطن أو "الوطنية":

تعدّ مبايعة الأمير حركة وطنية لأنها الحركة الوحيدة التي جمعت أكثر الصفوف الجزائرية وعملت على تقليص نفوذ الزعماء المحليين وتراجع المعارضين. وتبين هذه الوطنية في عنصرين اثنين:

أولهما: عنصر عملي دفع به إلى الدفاع عن المسلمين، وثانيهما عنصر عاطفي هو الحنين إلى الأقطار الإسلامية، فإن هذا العنصر الدفاعي قد اتسع نطاقه حتى صارت بعد أن وضعت المقاومة أوزارها يشمل جميع الأقطار الإسلامية. لقد كان هدف الأمير الأساسي إيقاظ وإذكاء ذلك الضمير، بجعل الجهاد في سبيل الله وسيلة والوحدة الشعبية هدفا.

إن مشروعه الوطني كان يقف في وجه عزم فرنسا التي كانت تريد أن تكون الجزائر مستعمرة أهلة بأبناء جلدتها وهو ما أدى بها إلى اقتراح جرائم شنيعة منها: تقويض الدولة الجزائرية وتفكيك إطارات المجتمع العربي الإسلامي بها ومحاولة استئصالهم من وطنهم.

منح الأقليات الأوروبية حريات واسعة وفتح باب الإستيطان واسعاً، بينما بقي الشعب الجزائري أعزل لا سلاح له في الميدان السياسي. فكان خطاب الأمير من أعماق الشعب ومن أركان الوطن فإذا بريح الوطنية تطوي المسافات وتجتاز الحدود القبلية والروح الإقليمية والنزعة الصوفية لتصبح شعلة واحدة تحرق وجه العدو الدخيل.

لم يكن الجهاد وحده هو الذي جعل الناس يتبعون راية الأمير، بل كانت هناك مشاعر متأججة حبا في الأرض، وحباً في الوطن الجديد الذي رسم معالمه الأمير، وجعل عليه قضاته وخلفاءه وممثليه فاعترف له العدو بحدوده.

واختلفت الكتابات الفرنسية حول فكرة الوطنية وعلاقتها بالأمير عبد القادر، فمنها ما تهمل الفترة ما بين (1832-1847) وتعالجها معالجة سطحية مع أنها الفترة التي شعرت فيها الجزائر بأن لها كيانا لتدافع عن استقلاله ومؤسساته بقيادة الأمير عبد القادر.

وهذه الكتابات تتصور بأن الشعور الديني أو التعصب الإسلامي هو وحده الذي جعل الشعب الجزائري يلتفت للدفاع عن قضية تعتبر روحية أكثر مما تعتبر قومية، فالشعب لم يتحرك ضد العدو الغاصب لمدة سبعة عشر سنة إلا بدافع من الدين ولم يكن للشعب من محرك لطاقته الجبارة سوى التعصب.

وهذا في الحقيقة تفسير غير تاريخي، فالجزائريون لم يرفعوا السلاح باسم التعصب الديني (رغم أن معظم قوادهم كانوا من المرابطين خاصة فترة القرن التاسع عشر) ولكن باسم الشرف الذي أهين والأملك التي اغتصبت والمساجد التي ديست والثقافة التي انتهكت لأن المبدأ هو محاربة الأجنبي الغازي وطرده من البلاد.

بعد مخطط الأمير الذي لمسناه من إنجازاته ثورة تعتمد على الشعب، ثورة تقيم الأنظمة لحمايته والنجاة به والإنقاذ المستمر لوسائل حضارته من ثقافة واقتصاد وغيرها.

كان عبد القادر بعيد الرؤية في تخطيطه إذ رفع نظرتة السياسية إلى مستوى السياسة الدولية، وإلى التحولات العميقة الجارية شمال البحر المتوسط، وإلى التطور الحضاري وإلى المكتسبات الانسانية الجديدة في العلم والتقنيات والأخلاقيات معتمدا على فكرة وهي: أنه في إحياء التراث القومي تعميق لأسس الوحدة بين عناصر الشعب المتماسكة، ودفع لقواه الإنتاجية الحية حتى لا يقع فريسة للاستعمار الذي لا يرى في الشعب المستعمر سوى استغلال لثرواته وبالتالي لا بد من الحيلولة دون تحرره من قبضته.

كان عبد القادر يرى في هذا الشعب أمة تمتلك مقومات حضارة متميزة وذات إمكانيات هائلة، ومن ثم انعتاقها من الأسر الاستعماري يؤدي إلى الوحدة والنهضة، إن هذه الأمة لا تتشد حريتها وتقدمها لتضيف فقط إلى معسكر الأحرار أمة جديدة، وإنما لتعود من جديد إلى مواصلة العطاء الحضاري، فالهدف ليس فقط لتحرير الأرض واستغلال الثروة وامتلاك سبل العصرية ومنهاج التقدم، وإنما الهدف هو أيضا توظيف كل ذلك في سبيل بلورة الشخصية الحضارية العصرية لهذه الأمة. فعلا أصبح الأمير عبد القادر نقطة الارتكاز التي تدور حولها فكرة الوطنية الجزائرية بسبب تلاقي الفكرتين الدينية والوطنية.

فكر الأمير السياسي وعلاقته بالتصوف:

الأمير عند الدارسين لم يخلف أثرا يعبر عن فلسفته في النظام السياسي والإصلاح الاجتماعي ولكنه عبر عن هذه الأمور في مواقفه وأفعاله وكانت كتاباته الفثرية تعبر عن فكرة التصوف والعمل الروحي.

ومن خلال رسائله التي تبادلها مع الفرنسيين وفي أوامره وتعليماته لجيشه وخلفائه ورؤساء القبائل وفي تنظيمات جيشه المعروفة بوشاح الكتائب، هذه الرسائل والتعليمات لوجعت لجاغت في بضع مجلدات ولوجد فيها الباحثون خبايا فكر الأمير في نظم الحكم وتطور المجتمع والموقف من الحضارة والدين.

ولكي نتبين معالم الفكر السياسي عند الأمير فهو لا يخرج عنده عن الفكر السياسي المنصهر من الثقافة العربية الإسلامية في تصوراتها لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة ومن الممارسات الفعلية لنظم الحكم في الأشكال التي آلت إليها عبر العصور بتأثير من الأحداث التاريخية منذ قيام الدولة الإسلامية إلى عهد الأمير.

والفرق الوحيد يكمن فيما أتى به من آراء ناشئة عن تجاربه الشخصية باعتبار المحيط الذي عاش فيه وظروف الخاصة التي مر بها في مختلف مراحل حياته وما أمله من دوافع إلى ممارسة السياسة في أصعب مظاهرها.

فمعرفة فكره السياسي يقتضي بالضرورة تناوله داخل الإطار العقائدي التاريخي من جهة، والمحيط الجغرافي الذي كان سائدا من جهة أخرى. لأننا عندما نتكلم عن فشل مقاومته كثيرا ما نتناسى أنها كانت تتدرج ضمن حركة انحدار عامة بدأت منذ زمن وفي مناطق أخرى غير منطقة الأمير وقد كاد يكون من الخارق أن يستطيع وحده رد نقطة ثقل تلك الحركة إلى اتجاه معاكس. وركونه إلى التصوف لا يعبر عن كل في عزيمة وإنما عن خيبة في آمال رجل السياسة أمام انسداد الآفاق وانغلاق المنافذ.

وينبغي مراعاة المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية وهذا يضطرنا إلى اعتبار الوضع الذي كانت تعيش فيه الجزائر آنذاك سواء في الحقل الداخلي حيث كانت تتقاسمه سلطة عثمانية مستمدة من دولة لا تكاد تقوم هي ذاتها على قدميها لما كانت تجره من أعباء ورثتها عن القرون الوسطى، وسلطات محلية متعددة الأهواء والمشارب لا تعرف من ممارسة الحكم إلا ما يمتنع من الاستيلاء على السلطة الراهنة المحدودة ومن السياسة إلا ما يخدم مصالح الجهة في حدودها الجغرافية المحدودة.

أما خارجيا فكانت دولتا فرنسا وبريطانيا حيث كانت مراكز القوة والنفوذ تتحصر فيهما بفضل التطور الصناعي والعلمي (الصناعة الحربية) ورغم محدوديتها ميدانيا فهي كانت تستطيع أن تبهر الخصوم وتؤثر في معنوياتهم تأثيرا بالغا.

1. دواعي اختيار الموضوع:

يدخل اختياري للموضوع الذي عنوانه: الدولة في فكر الأمير عبد القادر في إطار اهتمامي بالشخصيات التاريخية التي صنعت تاريخ الجزائر، الذي يعتبر الأمير عبد القادر واحدا ورمزا من رموزها. فبعد قراءة تمهيدية حول الموضوع من خلال المصادر والمراجع لاحظت إهمال الباحثين والمؤرخين الذين تناولوا حياة الأمير عبد القادر بالدراسة لجانب مهم وهو فكره السياسي حيث كانت دراساتهم عامة وغير متخصصة.

وبغض النظر عن الأسباب التي كانت وراء إهمالهم لهذا الجانب فقد نتج عن ذلك فراغ وافتقرت المكتبة الجزائرية لمثل هذه الأبحاث، والدليل على هذا أن الملتقيات التي انعقدت حول حياة الأمير عبد القادر كلها تدور حول الدولة الجزائرية على عهده، وتحديد معالم فكره السياسي ومع ذلك لم نحظ بدراسات وافية. فكان هذا الإهمال وذلك الافتقار دافعا لي لبذل الجهد وإلقاء الضوء على جانب مهم من فكر الأمير عبد القادر أقدمه كمساهمة قصد الإثراء. هذا، إضافة إلى تشجيعات الكثير من المتخصصين على اختيار موضوع حضاري يعالج تخصصا دقيقا في موضوع الدولة في فكر الأمير عبد القادر.

أما عن أسباب تحديد هذا الموضوع بالفترة الممتدة ما بين 1832-1847 فلأنها المرحلة التي تجسدت فيها معالم الفكر السياسي للأمير عبد القادر حيث شهدت بناء دولة جزائرية على يده لها دستورها ومؤسساتها، وبقيت قائمة إلى حين توقيفه عن الجهاد سنة 1847.

2. إشكالية الموضوع:

فرضت قضية الدولة الجزائرية على عهد الأمير عبد القادر نفسها كنموذج في تاريخ الجزائر على الباحثين فدار الجدل بينهم إلى وقتنا الحالي حول طبيعة هذه الدولة ومرآحتها ومؤثراتها.

ففكرة الدولة عند الأمير ليست واضحة كل الوضوح، والبحث عنها يعتبر جديدا وقد ظل النقاش حولها مستفيضا ومثيرا للحجج ومبطلاتها. وهذا النقاش يعرض الباحث إلى نوع من التعمق إذا أراد أن ينسب إلى الأمير نظرية كاملة أو متكاملة عن الدولة.

ذكر بعض المؤرخين الفرنسيين أن الجزائر كدولة لم تكن موجودة قبل الاحتلال. وقال آخرون أن الأمير رغم شخصيته القوية لم يؤسس شعورا وطنيا عند السكان الجزائريين، والتساؤلات التي تطرح وتثار هي:

1. هل أسس الأمير دولة ؟

2. وإذا كان الأمر كذلك ما نوع الدولة التي أسسها ؟

3. ما هو الامتداد والتشابه المؤسساتي بين الإيالة العثمانية في الجزائر والدولة

التي أسسها الأمير عبد القادر ؟

4. هل يعتبر الأمير رجل دين وجهاد وتصوّف أم رجل دولة أو كلاهما معا ؟.

5. اهتمام الأمير بعنصر الشعب في إطار المحافظة على قيمه ومبادئه وكيانه، من

جهة بمقاومة المشروع الاستيطاني الفرنسي، ومن جهة أخرى بإخراجه من الانعزال الحضاري الذي كان يعيش فيه في ظل الوجود العثماني في الجزائر. والسؤال ما هي وسائل الكفاح التي اعتمدها الأمير من أجل تحقيق هذا الهدف من خلال مجهوداته في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية في إطار دولة هي في طور الإنشاء ؟.

6. كان الأمير يهدف إلى إقامة دولة أو بالأحرى نظام حكم جديد مشدود إلى

مرجعية تراثية إسلامية في إطار الحدود الجغرافية التي سمحت له بها الظروف، واعتبار هذا النظام أو تلك الدولة في إطار دعوة لإصلاح العالم الإسلامي. وهذا يدفعنا إلى طرح التساؤل الآتي: هل كان الأمير عبد القادر مصلحا ؟ وإذا كان الأمر كذلك ما هي دلالة ومعنى الإصلاح عنده ؟

3. هيكل الموضوع:

حاولت أن أتمّ بمختلف جوانب الموضوع وحيثياته علني أستطيع أن أقدم صورة

تقريبية على ما كان عليه تصور الأمير للدولة الجزائرية، ونظرا لتشعب الموضوع وتعدد جوانبه فقد ارتأيت تقسيمه إلى ثلاثة أبواب ولكل باب فصول، ولكل فصل فرعيات مرقمة من دون الاعتماد على المباحث لسببين:

الأول: لأن طبيعة الموضوع المتضمنة فرعيات كثيرة تقتضي هذا التقسيم الدقيق.

الثاني: لأن هذا التقسيم الرقمي معمول به كتقاليد علمية جامعية عالمية.

وعلى هذا الأساس كان الباب الأول بعنوان: شخصية الأمير عبد القادر وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي يتكوّن من ثلاثة فصول.

فالفصل الأول بعنوان الوضع العام في الجزائر أواخر العهد العثماني تناولت فيه الوضع العام في الجزائر بإلقاء نظرة عامة على أوضاع الإيالة الجزائرية أوائل القرن التاسع عشر أثناء حكم العثمانيين، ثم تناولت بالعرض تفصيلا للوضع السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي والتعليمي، ثم تعرضت إلى العوامل التي أدت إلى ضعف الدولة في هذه الفترة وأثر ذلك على المجتمع الجزائري. كل هذا لكي نستخلص ما إذا كان هناك ترابط أو امتداد وتشابه مؤسسي بين الفترتين العثمانية والأميرية.

وفي الفصل الثاني الذي عنوانه جوانب من شخصية الأمير عبد القادر، تطرقت إلى مولده ونسبه، وركزت على الظروف التي أحاطت بشخصيته سواء البيئية منها أو العامة التي هيأتها لقيادة الشعب والدولة الجزائرية فيما بعد.

وعالجت في الفصل الثالث الذي عنوانه البيعة وتأسيس الدولة، بدايات ظهور الأمير عبد القادر كمقاوم للاحتلال الفرنسي، ثم تأسيسه للدولة الجزائرية، حيث استعرضت أهم العوامل التي هيأتها للإمارة ورشحته لها، ثم كيف تم اختياره عن طريق البيعتين الخاصة والعامة ودلالتهما، وأخيرا طور البناء والتأسيس بإبراز أهم المبادئ والأسس التي اعتمد عليها في حكمه، والأهداف المرجوة من تأسيس الدولة، وكيف نظم الحياة "الدستورية" بإنشاء أجهزة تشريعية وتنفيذية وقضائية إلى جانب مجلس شوري ينظر في القضايا الداخلية والخارجية بما يتوافق مع طموحات الجزائريين وآمالهم.

أما الباب الثاني الذي عنوانه التصور المؤسساتي للدولة الجزائرية الأميرية. والذي عنوان الفصل الأول منه: *مصادر فكرة الدولة عند الأمير عبد القادر* ركزت فيه على مفهوم الدولة ونشأتها في الفكر الغربي والإسلامي، بتبيان مفهوم الدولة لغتها واصطلاحا وأهم مؤسساتها ووظائفها، لكي نخلص إلى طبيعة ونوع الدولة التي أسسها الأمير، هل هي مشدودة إلى مرجعية إسلامية أم إلى منظور القانون الحديث.

أما الفصل الثاني والثالث والرابع فقد خصصتهم للحديث عن *التصور المؤسساتي المدني لدولة الجزائر الأميرية* فيما يتعلق بالإدارة والقضاء والتعليم والمجتمع والجيش، وكذا سعيه لبسط سيادته على إقليم الجزائر باعتبار الشرعية التي اكتسبها حكمه من خلال المبايعة، وإصراره على تحريره من المحتل الأجنبي.

وقد تضمنت هذه الفصول مختلف الأعمال التي قام بها والسياسة التي طبقها كحاكم فعلي جسد الدولة الجزائرية في أعمال وتنظيمات متميزة إدارية وسياسية مكنته من تكوين دولة قائمة على العدالة الاجتماعية والحرية والمساواة، وكذلك تكوين جهاز إداري محكم وإحداث مناصب إدارية لتسهيل تسيير شؤون الإقليم.

كما أبرزنا اهتمام الأمير بالحياة التعليمية والثقافية التي ازدهرت على عهده حيث جعل من تآقمت مركزا علميا، وبنى المدارس للتعليم وشجع الأهالي على الإقبال عليه، ورفع مكانة العلماء، فساهموا بدرجة كبيرة في انبعاث المجتمع الجزائري من جهله وتخلفه. إلى جانب التنظيم العسكري الذي كان وراء إنشاء جيش مدرب ومقسم إلى قسمين: جيش نظامي وغير نظامي من المتطوعين، وبنى الحصون والمصانع التي مونت الجيش بالأسلحة والعتاد وإسناد هذا الجيش إلى مجلس عسكري كان له جميع الصلاحيات في إدارته. وقد كان له نشاطاً عمراني الذي هو دليل على الرخاء الاقتصادي النسبي والتطور الاجتماعي بينائه للمدن العديدة بغض النظر عن أنها قامت على أنقاض مدن قديمة، وتناولت هذه المدن على أساس أنها ظاهرة اقتصادية واجتماعية، وختمت ذلك بذكر أهم المنشآت العمرانية كالأسوار والحصون والقلاع والمسكن الخاصة، وأخيرا مناقشة مسألة توقف الأمير عن مواصلة الجهاد ببيان أسبابه ونتائجه.

أما الباب الثالث الذي أدرج بعنوان: التصور الاقتصادي والدولي للدولة الجزائرية الأميرية، فقد خصصناه للجانب الاقتصادي والعلاقات الخارجية للدولة الجزائرية على عهد الأمير. حيث عالجت فيه أهم القطاعات الاقتصادية لدولة الجزائر، ثم قدمت نبذة عن النشاط التجاري وركزت على أهم الصعوبات التي واجهته.

ثم انتقلت إلى الحديث عن التنظيم المالي للدولة الجزائرية الأميرية بحيث عالجت نظام الجباية الذي كان متبعاً فذكرت الموارد الشرعية التي لا خلاف فيها كالزكاة والعشور ثم ذكرت موارد أخرى مستحدثة، وأخيراً نظام النفقات.

كما ركزت على العملة التي أنشأها الأمير باعتبارها مظهراً لسيادة الدولة واستقلالها عن التبعية الخارجية، فذكرت نوعها وشعارها ومجهودات الأمير في سكها وسعيه لانتشارها.

أما جانب العلاقات الخارجية فقد أبرزت فيه الأمير كرجل دبلوماسي استطاع أن يجعل من الأداة الدبلوماسية وسيلة لتدعيم حكمه وإثبات شرعية دولته على المستوى الخارجي، وكيف نجح في إقامة علاقات خارجية مع دول إسلامية شقيقة وأوروبية واتصاله حتى بأمريكا.

4. منهج البحث:

لمعالجة الإشكالية والإجابة على التساؤلات الواردة فيها، تم اختيار المنهج الوصفي والاستنتاجي والمقارن الذي ينطلق من العام إلى الخاص، بحيث انطلقنا من وضع عام بالجزائر إلى وضع خاص يتعلّق بمنطقة الغرب الجزائري، إلى وضع أخص يتعلّق بالأمير عبد القادر.

5. الصعوبات:

تَبَيَّنَ أن يخرج هذا البحث بالصورة التي هو عليها كانت قد اعترضتني صعوبات وعراقيل لم تضعف من عزمي أمام الإصرار على تحدي الظروف ومواصلة البحث.

◊ **أولى** هذه العقبات تمثلت في الاستقرار النهائي على عنوان الرسالة: حيث كانت عناوين كثيرة فمن مشروع دولة إلى إسهامات الأمير في وضع أركان الدولة، مقومات دولة الأمير، نظام الحكم في عهد الأمير عبد القادر، مفهوم الدولة الجزائرية في فكر الأمير.

◊ **العقبة الثانية**: تداخل عدة جوانب في شخصية الأمير فطرية ومكتسبة كانتمائه إلى طريقة صوفية (القادرية)، وهذا يبرز الجانب الصوفي وأثره في الفكر السياسي للأمير، كذلك تداخل التصوف مع السياسة والحكم، وتداخل الجانب الوطني والديني، كل هذا أدى إلى صعوبة تركيز هذه المقومات في شخصه وإيجاد التوافق فيما بينها إضافة إلى حيرة في توزيعها وإيجاد موضعها على مستوى الخطة وعبر الفصول بعد معالجتها.

◊ **العقبة الثالثة**: عدم وجود مصادر متخصصة تتحدث عن الفكر السياسي الجزائري عامة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وكذلك عن شخصية الأمير عبد القادر، إنما كل ما كتب سواء مصادر عربية أو أجنبية حيازة عن كتابات عامة عن الوجود العثماني بالجزائر، ووصف لشخصية الأمير وما أنشأه مجرد وصف دون تعمق.

إلا أن هاته العقبات أمكن التغلب عليها وتذليلها إلى حد كبير بفضل إرشادات وتوجيهات الأستاذ المشرف التي كانت تشكل لي قوة دافعة كلما اعتراني الوهن، وإنني لأعترف أنه لولا التشجيع المتواصل والحث الدائم من طرفه ما استطعت أن أنجز هذا البحث بهذا الشكل وعلى هذه الصفة.

6. نقد لأهم المصادر:

لا نقول أننا اعتمدنا على مخطوطات في إنجاز هذا البحث، إذ أن المخطوطات التي تتعلّق بالفترة المدروسة قليلة، وقد تمّ تحقيقها ونشرها، أمام هذا الوضع كان لا بدّ من الاعتماد على المصادر المطبوعة.

وأهم المصادر التي تعرّضت إلي حياة الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر للأمير عبد القادر، وهي عبارة عن سيرة ذاتية كتبها في السجن تنشر لأول مرة، قام بتحقيقها

محمد الصغير بناني، وهي تحوي حقائق تاريخية عن حياة الأمير عبد القادر ابتداء من مولده ونسبه ونشأته، إلى حروبه ضدّ الفرنسيين وعلاقته بزعماء الطرق الصوفية خاصة التيجانية. وهي ذات أهمية كبيرة لأنها كتبت من طرف الأمير نفسه، وبمقابلتها مع بقية المصادر يمكن الوقوف على الصحيح من الأحداث وبالتالي رد الروايات التاريخية التي فيها كذب أو تشويه.

ومثلها في الأهمية كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر لابنه محمد بن عبد القادر، وهي سيرة مفصلة - جد التفصيل - مسهبة أوفى الإسهاب في تاريخ الأمير، كتبها "محمد باشا" الذي رافق والده من 1830 إلى 1883، سجل فيها الحوادث تسجيلًا يكون يوميًا، وهي بهذا ليس كتابًا في التاريخ، بل كتابًا في سيرة الرجل، وقصة متحدث عادي لم يلم الموضوع لما علميًا أو ينظر إليه بمنظار موضوعي إلا عرضًا وفي القليل النادر بصورة سطحية.

وهذا لا يقدر في الكتاب بل يزيد في قيمته، لأن ما فيه من بساطة وسرد، يساعد المؤرخ على التقاط وجهة النظر من غير مشقة.

ولمحمد باشا نظرة ضيقة خاطئة لبعض المفاهيم التاريخية بفعل تقصير في فهم الأسباب السياسية والاقتصادية خاصة في حملة فرنسا ضدّ الجزائر، وعدم غربلته للأنباء والأحداث، وجهله لربط الأسباب بالنتائج، ولكن هذا لا يدخل في حساب كتب السير من جهة ومن جهة أخرى فإن المؤلف ابن القرن التاسع عشر وبديهي أنه ملم بعلوم الدين فقط ولا معرفة له بالعلوم العصرية للقرن العشرين. والملاحظ أن الذي دفعه إلى تأليف الكتاب هو التفاخر بالمجد وتسجيل المحامد.

ثم يأتي كتاب حياة الأمير عبد القادر لهنري تشرشل الذي ألفه في شتاء 1859 - 1860 عندما التقى بالأمير - بعد إطلاق سراحه - في جبل لبنان.

وتتجلى قيمة الكتاب في أنه كتب بعيدا عن مسرح المعارك، بحيث تمكن المؤلف أن يصدر حكمه على الأحداث بعد مهلة طويلة، وبالتالي بعيدا عن الخطأ في تصوير الأشياء وتقديرها.

أخذ عن الإسكندر بلمار الكثير ومما يعاب عليه إهماله فترة عشرين سنة من حياة الأمير، وعدم التحري أحيانا والدقة في إصدار الحكم على الأحداث التاريخية. إضافة إلى مذكرات أحمد باي الذي يعود الفضل في نشرها إلى "مارسيل إيمرت" (Emerit .M) في المجلة الإفريقية سنة 1949، وكان أحمد باي قد كتب هذه المذكرات في الفترة الأخيرة من حياته، ولسنا ندري أكان أملاها أم كتبها بخط يده بالعربية.

ومهما يكن فللمذكرات أهمية كبيرة نظرا لما تشتمل عليه من حقائق تاريخية حيث تحدثت عن ظروف الحرب أثناء نزول القوات الفرنسية، وعن مقاومة أحمد باي لفرنسيين، واستفدنا منها في تحليل علاقته بالأمير عبد القادر، وبعد المقارنة نجد أن ما قاله حمد باي في المذكرات مطابقا لما في مراسلاته مع رجال الباب العالي.

ومن المصادر المهمة أيضا كتاب السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي ألفه أرجمنت كوران سنة 1953، حيث يعتبر من المؤلفات الهامة لأنه اعتمد على الأرشيف العثماني في حين اعتمد أغلب الدارسين على الأرشيفات الأوروبية. ولكن ما يؤخذ عليه أنه لم يتوسع في موضوع هذا البحث، ولم يستخدم وثائق كثيرة، وعلى رأي التميمي فإنه حصل على جملة من الوثائق ولم يدرس إلا قليلا فاضطر إلى حصر الموضوع في مساعي السياسة العثمانية لاسترجاع الجزائر، وقد تحيز للنظام العثماني وحمل فرنسا كامل المسؤولية في احتلالها للجزائر.

هذا عن المصادر والمذكرات العربية، أما المصادر الأجنبية فلدينا كتاب تاريخ الجزائر الماصرة (Histoire de l'Algérie contemporaine) لشارل أندري جوليان، هذا المصدر لم يدرس تاريخ الجزائر فكرا وحضارة وثقافة، إنما درس الاحتلال الفرنسي وهو ما عبّر عنه أبو القاسم سعد الله في كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر": "إن جوليان لم يؤرخ للجزائريين إنما للقوة الاستعمارية التي احتلت الجزائر". لهذا جاءت كتابته عبارة عن

تراجم ثم انتقى وقيم (هو القاضي والمحامي)، بينما من المفروض أن يكون قاضياً فقط ويكون هدفه هو التوفيق بين المعمرين والجزائريين.

وقد تجاوزته كتابات فرنسية مثل كتاب أجرون، ونوشي، ويعتبر مؤلفه أقصى ما كتبه فرنسي يساري الاتجاه أثناء العهد الأخير من الاحتلال.

ولا تختلف منهجية جوليان عن منهجية ليون روش في كتابه:

« Trente deux ans à travers l'Islam ».

وكذا الإسكندر بلمار في كتابه « Abd El Kader sa vie politique et militaire », حيث أن كتاباتهم اعتمدت المنهج الوصفي دون تحقيق وتمحيص فيما تعلق بالأحداث التاريخية على عهد الأمير، وإن أبدت وجهات نظر فمن باب تقديم مصلحة المعمر الفرنسي.

وبالنسبة لحوليات جزائرية « Annales algériennes » لبيليسي دي رينو (1800-

1858) وهي في ثلاثة أجزاء:

◊ الجزء الأول: يشتمل على ستة عشر قسماً، تحدث فيها عن أسباب الحرب بين

الجزائر وفرنسا، وسقوط مدينة الجزائر، والتوسع الفرنسي في الغرب والشرق، وعن إدارة من تولى القيادة العامة بالجزائر وعن علاقات أعيان الجزائر بإدارة الاحتلال.

◊ الجزء الثاني: ويشتمل على ستة عشر قسماً، بداية الحديث فيه عن المارشال

كلوزال الحاكم العام، والحديث عن المعارك التي دارت بين الجزائريين وجيش الاحتلال، وعن المفاوضات التي جرت بين الحاكم والأمير عبد القادر، وعن الحملة إلى قسنطينة.

◊ الجزء الثالث: يحتوي على أحد عشر قسماً بالإضافة إلى ملخص هام يبين

الأحداث السياسية والمفاوضات التي جرت بين الأمير والإدارة الفرنسية، وعن لجوء الأمير إلى التراب المغربي وإلقائه السلاح. وتعتبر مهمة وقيمة نظراً لمعاصرتها للأحداث واعتمادها على مصادر أولية.

أما عن مصدر السياسة التركية بالشمال الإفريقي لـ«Jean Seres» فيعتبر من أهم المصادر في إثراء أي بحث خلال هذه الفترة، لأنه اعتمد في دراسته على أهم المراسلات المحفوظة بأهم الأرشيفات خاصة مراسلات السفراء والقناصل بالإضافة إلى أهم الدوريات والمؤلفات القيمة، ويؤخذ عليه في بعض المواطن أنه تحيز لفرنسا وبرر غزوها للجزائر بعدة أسباب وصفها بالموضوعية.

ويلاحظ مما تقدم أن بعض المصادر أعطت صورة شاملة والبعض الآخر لم يف بالغرض، الأمر الذي تطلب الاعتماد على المراجع والأبحاث المتعددة بالإضافة إلى الدوريات.

الباب الأول

شخصية الأمير عبد القادر وجهاده ضد
الاستعمار الفرنسي للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير
العلم الإسلامي

مُقدِّمة:

نتناول في هذا الباب شخصية الأمير عبد القادر وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي من

خلال الفصول الآتية:

1. الوضع العام في الجزائر أواخر العهد العثماني.

2. جوانب من شخصية الأمير عبد القادر.

3. البيعة وتأسيس الدولة.

❁ الفصل الأول: الوضع العام في الجزائر أواخر العهد العثماني

1.1 / الوضع السياسي - الإداري:

انضوت الجزائر تحت لواء "الخلافة" العثمانية بداية من القرن السادس عشر، وباستمرار هذا النظام تعينت حدودها إلى حد ما¹ وكذا مجال سيادتها، واستطاعت بقوتها البحرية التي فرضت نفسها في حوض البحر المتوسط صيانة أراضيها وحمايتها من الاعتداء المسيحي²، كما فسح لها المجال واسعا لتشكيل دولة مترامية الأطراف³.

عرف النظام السياسي الجزائري خلال العهد العثماني مراحل تاريخية متميزة بصلاحيات الحكام في إدارة شؤون البلاد من دون أن يفصلوا علاقتهم بالباب العالي. ومن مميزات هذا النظام السلطاني عدم التدخل في الشؤون الداخلية للجزائر حيث كانت التبعية للحكم المركزي باسطنبول ظاهرية، فقد استبقى أوضاع الجزائر على حالها بسننه قوانين إدارية ووضع أنظمة اقتصادية واجتماعية وانتهاجه علاقات سياسية تتماشى ووضع البلاد ضمن الوحدة الطبيعية التي تربطها بالبلاد العربية وباقي أجزاء الامبراطورية.

¹ - يقول أندري برينان أن الأتراك هم الذين حملوا فكرة السيادة "وثبتوا" الحدود الشرقية والغربية للجزائر.

أنظر: لاکوست وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح إسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص.11.

² - الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج.3، ط.6، دار الثقافة، بيروت 1403هـ/1983م، ص.466.

³ - نقول دولة بناء على ما توصل إليه مولود قاسم نايت بلقاسم في كتابه شخصية الجزائر الدولية قبل 1830، إذ استقبلت الممثلين وأمضت المعاهدات وأعلنت الحروب وعقدت الصلح وتفاوضت بصفة رسمية. لمزيد من المعلومات أنظر: هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص.23.

وباستطاعتنا القول إن الجزائر في إطار السياسة المنتهجة من طرف العثمانيين عرفت استقرارا سياسيا واجتماعيا ورخاء اقتصاديا متميزا خاصة أثناء فترة حكم البيلربايات (1518-1587) والباشوات (1587-1659) أما بالنسبة لعهد الدايات فقد تميز وضع الجزائر بعدم الاستقرار فانتشرت الفوضى داخل القطاعات المختلفة بما في ذلك جهاز الحكم نفسه وتأثر الجانب الاقتصادي بسبب ضعف النشاط البحري وهو المورد الرئيسي للخزينة مما أدى إلى اضطرابات داخلية تمثلت في ثورة بعض القبائل وزعماء لطرق صوفية على نظام الحكم.

كان الوضع الداخلي مرتبطا بالظروف الخارجية حيث طرأت متغيرات دولية جديدة لم تكن في صالح الجزائر تمثلت في انعقاد مؤتمر "فيينا" و"إكس لا شابيل" لمواجهة القرصنة الجزائرية¹، إضافة إلى أن التسهيلات التي قدمها السلطان عبد المجيد لإرضاء الدول الأوروبية أثرت سلبا على وضع الجزائر².

وبالنسبة لطبيعة النظام السياسي العثماني في الجزائر وبخاصة عهد الدايات يرى حمدان خوجة في مذكراته أن الجزائريين اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري ورئيس الجمهورية هو الداوي³. لكن الواقع التاريخي يؤكد أنه لم يكن دستور "للجمهورية الجزائرية" وإنما تأسس هذا الرأي بناء على أنه حكم من نوع خلص.

كان الباب العالي يتدخل في التولية والعزل لكن بعد اغتيال الباشا "محمد بكداش" أصبحت الجزائر في استقلالية من دون أن يكون هناك فصل تام عن السلطنة بفعل الرابطة الروحية. ومع ذلك لم يتعد النفوذ العثماني الحواضر الكبرى في المناطق الساحلية، بينما كانت المناطق الجبلية والنائية مستقلة إلى حد بعيد.

¹ - ذكر لاكوست معلقا على هذا الوضع أن الإطار الدولي للحكم الجزائري مع الدايات تميز بالمزايدة المطردة لاستنزاف الاقتصاد إضافة إلى انقراض عوائد القرصنة والاعتماد على الأرباح التي حققتها الغرف التجارية الأوروبية وهذه الأرباح تفوق ما عليها إزاء الحكومة من الضرائب.

أنظر: لاكوست، المصدر السابق . ص - ص. 167-168.

² - المحامي محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت 1397هـ/1977م، ص. 254.

³ - Khoudja (H.), Le Miroir, traduit par H.D., Goetschy, Paris 1833, livre. I, Chapitre 10.

من خلال هذا يتضح أن النظام العثماني تميّز بسياسة حكم لم تكن لصالح غالبية السكان، ويتضح هذا أكثر عند تناولنا - لاحقاً - للسياسة الإدارية والاقتصادية العثمانية المطبقة إزاء الأهالي.

على المستوى الإداري احتفظت الجزائر إلى حدّ ما بالتقسيم الاجتماعي خلال الفترات التاريخية التي سبقت العهد العثماني لأنّ الحكام "الأتراك" اكتفوا بوضع تقسيم إداري مرّن تكيف مع الأحوال المختلفة للبلاد وطبيعة سكّانها¹.

كان الداي يمثّل السلطة العليا في البلاد بمساعدة مجالس؛ وهناك ديوانان الديوان العادي ويضمّ عدداً من المستشارين الكبار والديوان الأعظم الذي يتألف من ثمانين عضواً من كبار قادة الجيش، أمّا الحكومة فقد كانت مشكلة من خمسة وزراء: الخرناجي² وأغا العرب³ وخوجة الخيل⁴ وبيت المالجي⁵ ووكيل الحرج⁶. إضافة إلى وجود وظائف أخرى إلى جانب الديوانيين.

وفيما يخصّ التنظيم الإداري فقد قسّمت البلاد إلى أربعة أقاليم: دار السطان وهي المنطقة الخاضعة للداي رأساً وإقليم قسنطينة وإقليم التيطري وإقليم وهران. وإدارة هذه المناطق عين الداي على كلّ منها موظفاً سامياً يحمل لقب "باي" ويمثّل سلطة الداي في بايلكه وتتخصّص مهامه في حفظ الأمن وجباية الضرائب ومراقبة النقاط الاستراتيجية وطرق المواصلات وتعيين القواد وحكام

1 - الهلالي الميلي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج.3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ص.12.

2 - يتولّى المرتبة الثانية بعد الداي ومكّلف بالشؤون المالية .

3 - هو القائد العام للقوات البرية والمهتم بالشؤون الأهلية في المناطق التابعة لمدينة الجزائر.

4 - مهمته جمع الضرائب والإشراف على أملاك الدولة.

5 - يشرف على صيانة الأوقاف وإدارة أملاك الموتى الذين لا ورثة لهم ويراقب الأموال الآتية من البيات والشخصيات المعزولة.

6 - كان يهتم بشؤون البحر والشؤون الخارجية وإليه يعود التصرف في قضايا التموين والقرصنة والتحصينات أنظر: سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال، ط.3، ش.و.ف.ت، الجزائر 1982، ص.52.

المدن¹. وتساعد في أداء هذه المهام حامية عسكرية ومجلس إداري يدعى "ديوان الباي" يتكون من موظفين إداريين ساميين من العناصر التركية والمحلية. ويأتي الخليفة في المرتبة الثانية في الهرم الإداري للبايك فمن مهامه نيابة الباي وحمل الدنوش إلى الداي كل ستة أشهر وقيادة المحلة عند جباية الضرائب من القبائل التابعة لإدارته.

ولتسهيل إدارة البايك الذي كان شبه مستقل عن الإدارة المركزية، قسّم بدوره إلى عدد من الوحدات الإدارية تتمثل بالنسبة للحضر في المدن والموانئ، وكان يرأس كلاً منها قائد يكون تارة تركياً وأخرى عربياً يدعى "قائد البلاد" أو قائد الدار يساعده شيخ من العرب يدعى "شيخ البلد" الذي كانت مهمته الإشراف على الأمن وفرض الضرائب بواسطة شرطة تابعة له².

أما بالنسبة للأرياف فكانت القبيلة تمثل غالباً الوحدة الإدارية، ويدير الريف قائد الوطن الذي يكون إما "تركياً" أو عربياً مزوداً بسلطات مدنية وعسكرية وقضائية ويقع تحت سلطته شيخ القبيلة³.

وكان قائد الوطن يعين من طرف الباي في حين يعين هذا الأخير - قائد الوطن - شيخ القبيلة الذي تتمثل مهمته في إحصاء الأراضي لتحديد قيمة الضريبة ومراقبة القبائل وفض النزاعات التي كانت تحدث بين بعضها.

وكان اعتماد البايك على قبائل المخزن كبيراً فهناك قبائل نائية لا تصلها يد السلطة وهم سكان الصحراء والمناطق البدوية وهناك قبائل ذات استقلال ذاتي تدفع ضريبة الخضوع وهناك قبائل الرعية، وهي أنواع منها ما هو خاضع بشكل

¹ - Khoudja (H.), *Op. cit*, p.150.

• يحيى جلال، السياسة الفرنسية في الجزائر (من 1830-1960م)، ط.1، دار المعرفة، القاهرة 1959، ص.30.

² - هذه الوحدات هي الأوطان والقبائل والدواوير، فبالنسبة للوطن وتنطق "لوطن" وهي كلمة تعني موطن القبيلة ثم اتسع مدلولها ليشمل الريف كله. أنظر: حقي إحسان، الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، ط.1، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت 1961، ص.108.

³ - سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال - ، ص.52.

جزئي ومنها ما هو خاضع بشكل تام، وهذه الأخيرة كانت متحالفة مع السّلطة المركزية تمّدها بالرجال والمال عند قيامها بحملات عسكرية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي وهذا مقابل حصولها على امتيازات مالية واسعة.

مما سبق ذكره يمكن استخلاص أهم مميزات الإدارة العثمانية في الجزائر على النحو الآتي:

1- مرونة النّظام الحاكم الذي فضّل فرض السيطرة المباشرة عندما يكون ذلك ممكناً وهو ما تحقّق في المنطقة التّابعة لدار السّلطان وبعض مناطق بايلك التّيطري بوضع مسؤول تركي في أعلى سلم تاركا لأبناء البلاد حرّية التصرف في شؤونهم الداخليّة.

وهذه المرونة هي التي حقّقت وحدة الجزائر جغرافياً دون أن تحقّقها معنوياً إذ ظلت في ذلك العهد محتفظة بأصناف اجتماعية مختلفة، وكان العامل الموحد لها هو الدين واللغة والتّقاليد¹، على خلاف ما أدّى ببعض المؤرخين الفرنسيين الذين يبرّرون فكرة الغزو إلى اعتماد هذه الوضعيّة في فكرتهم القائلة بأنّه لم يكن هناك وجود للأمة الجزائرية في العهد العثماني وتعتبر سنة 1830 نقطة الانطلاق لبناء الوطن الجزائري².

2- تمسك الإدارة بتقاليد اجتماعية لا تخدم مصلحة الأهالي حيث اعتمدت على نظام اجتماعي طبقي يبدأ بالعبيد وينتهي برؤساء الوجد العثماني ماراً ببطقة وسطى يمثّلها عادة العرب الحضريون (التجار، الصّناع، أصحاب الحرف، العلماء...).

3- نقشي الرّسوة والغشّ والتّوريط والتّواكل في الجهاز الإداري.

¹ - قدورة زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت 1985، ص.491.

² - لاكوست، المصدر السابق، ص.170.

من خلال هذا يتضح أن النظام العثماني تميز بسياسة إدارية لم تكن لصالح غالبية السكان برغم أن الدايات طبقوا سياسة مغايرة اعتمدت على تقريب الأهالي ومحاولة إشراكهم، مما حدث في عهد الداوي "علي خوجة" و"حسين داي" إلا أن الاضطرابات وعدم الاستقرار السياسي لم يتح الفرصة لتحقيق البعد "الوطني" لنظام الحكم القائم والتجسيد لمعنى السيادة على كامل القطر الجزائري.

والسؤال المطروح هو كالاتي: هل استمر هذا النظام الجزائري مثلما هو في عهد الأمير عبد القادر أم حدثت مسججات؟ . سنحاول الإجابة على هذا من خلال تعرضنا للسياسة الإدارية للأمير عبد القادر في الفصل الثالث من الباب الأول.

1. 2/ الوضع الاقتصادي و الاجتماعي

1. 2. 1/ الوضع الاقتصادي:

الغرض من تناول النظام الاقتصادي العثماني عشية الاحتلال الفرنسي هو التعرف على بنية هذا النظام من حيث أسسه ومميزاته وتأثيره على المستوى الاجتماعي وعلى علاقته بما أحدثه الأمير في نظام حكمه.

سبق وأن ذكرنا أن المسؤول الأول أمام الداي في تسيير شؤون البايك هو الباي الذي كان يتولى جمع الضرائب وكان مطالباً بتقديم مبلغ مالي مرتين في السنة. وبالنسبة للأغا والخليفة قائد الدار والباش كاتب فهم يمثلون الوجود ويقتسمون مع الباي المناصب الإدارية الكبرى والتصرف في المناطق الجهوية التابعة له. ومسؤولية القائد- كما أوضحنا- تتمثل في إقرار سلطة الباي ونفوذه في إدارة شؤون الأوطان التي تقيم بها بعض الوحدات القبلية التقليدية بمؤازرة أفراد الجيش في المدن والأبراج المقامة في البلاد¹، وتحتصر اختصاصاته في جمع الضرائب والسهر على تنفيذ القوانين وتبليغ التدابير لحكومته².

وكان القواد وعلى رأسهم البايات تساعدهم في حدود تلك الأوطان قبائل الدوائر والزمالة وغيرهم من أهل المخزن³ لبيسط نفوذهم على مختلف قبائل الريف الجزائري.

¹ - لاكوست، المصدر السابق، ص - ص. 133-134.

² - Khoudja (H.), *Op. cit.*, p. 73.

³ - المخزن في الأصل مكان لخرن البضائع والمؤن، ثم صار هذا المصطلح يطلق في الغالب على القبوة التي يستعملها الداي لفرض سلطاته خاصة في الأرياف، وهي عبارة عن تجمعات سكانية تعمرية متميزة في أصولها مختلفة في أعراقها، فمنها من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها لتكون سندا لهم وهي القبائل المخزنية العريقة، ومنها من استقدم كأفراد متطوعين من جهات مختلفة وهي القبائل الاصطناعية حيث تولى جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحاكم العام في الجزائر العاصمة.

أنظر: سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، م.و.ك، الجزائر 1984،

ولنتبين السياسة الاقتصادية المنتهجة من طرف البايك التابع للنظام المركزي وأثر هذه السياسة داخل التّشكيلة الاجتماعية يحسن بنا أن نركّز على الملكية العقارية وما يتّصل بها من نظم في المعاملات وطرق استغلال الأرض بتحديد شكلها خاصة في المناطق الريفية وطبيعة النمط الإنتاجي الذي يتمثل في الفلاحة والرعي وتربية الماشية¹. لأن الأهالي في تلك الفترة ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالأرض وزاولوا فيها نشاطهم الاقتصادي.

1. 2. 1 / نظام ملكية الأراضي:

كانت الملكية الجماعية² للأرض هي أكثر الأنواع انتشاراً خاصة في المناطق القبلية البدوية موزعة بين العشائر والقبائل أما المناطق المستقرة فملكية الأراضي فيها ترجع إلى الجماعات القروية. إلى جانب الأراضي المشاعة ذات الملكية الخاصة كانت أراضي الدولة وأراضي الحبس. وعلى هذا الأساس تألفت الملكية من الأنواع التالية:

- ◊ أراضي العرش: غير قابلة للانتقال إلى الغير حيث يحق للقبائل أن تنتفع بها دون توزيعها، ويكفي أن يكون الفرد عضواً من القبيلة ليكون له حق الانتفاع والتمتع بمردود الأرض³.
- ◊ أراضي الملك: وهي ملكية خاصة قابلة للنقل للغير عن طريق البيع والشراء.

¹ - يعتبر عدّي الهواري عن هذا النمط بقوله: "ويتسم الواقع الاجتماعي بازواج نمط الحياة الحضري والبدوي، الأوّل ينتمي إلى الجبل والآخر إلى السهل، ليست الحياة الحضرية مدنية بوجه الحضرة بل ريفية إلى حد كبير بحيث أن البلد ريفي أساساً مع وجود دائم لتجمعات سكانية مدنية".

أنظر: عدّي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830 - 1960)، ترجمة جوزيف عبد الله، ط.1، دار الحداثة، بيروت 1983، ص. 15.

² - إن نمط الملكية الجماعية للأرض استقر بالمغرب العربي منذ العصر الوسيط، لمزيد من التفصيل أنظر: بن حسين محمد، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، ط.1، دار الرياح الأربع للنشر، تونس 1986.

³ - عدّي الهواري، المرجع السابق، ص. 16.

◊ أراضي الوقت: وهي أراضي موهوبة، وتتكون من الهبات الخيرية وتشرف عليها المؤسسة الدينية ولا يجوز نقل ملكيتها. وكان هذا النوع منتشرًا في المدن أكثر منه في الأرياف.

وتبعًا لهذا النمط من الملكية فقد توزعت الأراضي كما يلي:

◊ أولاً: الأراضي القبالية أو القروية: التي تعتبر ملكيتها غير مستقرة بسبب آليات الحيازة العائلية.

◊ ثانياً: أراضي العزل: وهي من أجود الأراضي التي كانت تؤجر لكبار موظفي البايك ولبعض شيوخ القبائل والأسر المحلية الموالية للسلطة العثمانية الذين يوكلون أمر زراعتها إلى الفلاحين.

◊ ثالثاً: أراضي البايك: هي عادة الأراضي الخصبة المحيطة بالمدن حيث توجد حاميات الجند موزعة على الأراضي بالاعتماد على السخرة المفروضة على القبائل المجاورة أو مباشرة من قبل الخماسين الذين ينالون خمس الإنتاج كأجر لهم.

وكانت الأراضي موزعة على البيكيات الثلاث على النحو التالي:

بالنسبة لإقليم التيطري فإن الباي كان محروماً من إدارة جهته التي كانت تابعة للداي وبالتالي فإن ممتلكاته كانت محدودة وبقيت أغلب الأراضي في نطاق الملكية المشتركة والعرش.

أما منطقة وهران فكانت متسعة اتساعاً كبيراً وكانت لقبائل المخزن حيازة لأخصب الأراضي وأجودها مقابل ولائها حيث تقوم بخدمة السهول الساحلية والغربية وساحل وهران عند سفح الشلف والسهول الداخلية.

أما الكراغلة أصحاب الممتلكات الكبرى في المراكز الحضرية والمدن والأراضي السقوية كانوا يحكمون المناطق النائية التي تنقلص فيها سلطة قواد المخزن اعتماداً على الجيش في المدن والمعسكرات (تلمسان ومعسكر ومازونة ومستغانم) ، وهذا ما أدى إلى انتقال الأهالي إلى الأراضي الجبلية لقلّة الأراضي الخصبة التي يحوزونها.

يستنتج من هذه الأوضاع شيان:

◊ الأول خاص بتقسيم الملكية بين الفئات المختلفة للمجتمع الجزائري، فالنظام الحاكم سيطر على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة موزعة بين ملكية البايات وعائلاتهم وملكية العزل التي تمنح لمن يخدم الباي ويقدم ولاء الطاعة¹

◊ الثاني بالنسبة للملكية الجماعية التي كانت تتحول إلى ملكية فردية نظرا لأن الدولة هي التي خولت لنفسها حيازة الأراضي وهذه الملكية كانت تتسع نتيجة لمصادرة أملاك القبائل المتمردة، وكانت غالبية الأراضي المصادرة تباع في السوق العامة بواسطة البايات.

1. 2. 1. / النظام الضرائبي:

ركز النظام الحاكم على تحصيل الضرائب وحاول أن يقيم عددا من المؤسسات الواحدة تلو الأخرى والقادرة على زيادة الجباية (داي وباي وخليفة وقائد وشيخ)، واستعمل جباة ليسوا أكفاء فكانت التجاوزات في حق الأهالي²، وهو الأمر الذي حاول الأمير أن يتفاداه بإسناده مهمة جمع الضرائب إلى من هم في مستوى المسؤولية (سنعود إلى هذا في حينه).

وللتعرف على هذه الأنواع من الضرائب يمكن تلخيصها كالآتي:

الضرائب الشرعية: وتتمثل في الزكاة والعشر، تفرض الأولى على المواشي والثانية على المحاصيل وهي ضريبة جزافية بحيث يدفع كل منتج نسبة

1 - ابن أشنهو عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر (1830-1962)، ترجمة نخبة من الأساتذة، ش.و.ن.ت، الجزائر 1979، ص - ص. 27-28.

• التميمي عبد الملك خلف، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، دار الشباب، قيرص 1986، ص. 117.

2 - هلال عمار، المرجع السابق، ص. 24.

• أمين سمير، المغرب العربي الحديث، ترجمة كميل داغر، دار الحدائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت)، ص. 27.

الإنتاج ويتم تعيينها بالتفاوض مع أعضاء القبيلة وموظفي البايلك، وللبايل إمكانيّة التدخّل بما يخدم مصالحه، وقد استبدلت سنة 1830 بضريبة العشر، وكانت تفرض على جميع الأراضي الضريبية التابعة لمراقبة البايلك سواء أكانت أرضاً عرشاً أو ملكاً، وإضافة إلى قرار الضريبة الشرعية فإن هذا لا ينفي اجتهد العثمانيين في اختراع أنواع من الضرائب الإضافية غير الشرعية أرقعوا بها الفلاحين خاصة في نهاية حكمهم. ونذكر أهمها:

◊ **الضريبة على الأرض:** تشمل الحكر¹ يدفعها العزاليون كما تدفعها أيضاً القبائل عندما لا تكون الملكية القبلية مفككة كثيراً.

◊ **الضريبة على السوق:** وهي شكل من أشكال الضرائب على قسم من منتوجات القبائل الجبلية والصحراوية التي يصعب إجبارها على دفع الضرائب الأخرى.

أما عن طرق الإقتطاع فهناك الإقتطاع الضريبي من قبل الإدارة مباشرة وهذا خاص بالموظفين بحيث يدفعون قسطاً من الضريبة من مناصبهم ويتلقون مقابل ذلك بعض الأملاك العقارية المرتبطة بوظيفتهم، لهذا كانوا يحتفظون بجزء من الضرائب لسد حاجاتهم الخاصة ويعطون ما تبقى لمن هم في المرتبة الأعلى وصولاً إلى الداي.

وهناك الإقتطاع بواسطة شيوخ القبيلة حيث يخوّل الأمر إلى زعماء القبائل لجباية الضريبة بما تخدم دائماً مصالح السلطة الحاكمة².

كما كانت الضريبة تختلف من قبيلة إلى أخرى وبذلك يمكن تصنيف القبائل حسب ما كانت تدفعه من ضرائب إلى:

◊ **قبائل مستعصية:** وهي بعيدة عن مركز الحكم ولا تدفع الضريبة إلا بالقرّة، ولكنها تعطي كرهاً فهي تعتبر غرامة حربية.

◊ **الرعية:** وهي القبائل الخاضعة لمختلف أنواع الضرائب الشرعية والإضافية، ويدخل في هذا الإطار الفلاحون والتجار وغيرهم من العمال المشتغلين في الأعمال الفلاحية.

¹ الحكر: يمثل ثمن الأرض التي يتم التنازل عنها لصالح الفلاحين ليشغلوها وبالنسبة لأندري نوشي فهو المطابقة بين هذه الضريبة وبين حق من الحقوق الإقطاعية في الإيجار.

أنظر: حقي إحسان، المرجع السابق، ص. 68.

² - بن أشهبو عبد اللطيف، المرجع السابق، ص - ص. 33 - 34.

◊ القبائل المخزنية الموالية للسلطنة: وتكون عادة معفاة من الضرائب وإن كانت هذه القبائل نفسها تختلف من حيث الامتياز الممنوح لها، فإما أن تخفف عنها الضرائب وإما أن تعفى منها نهائياً¹.

وهنا نفضل القول بالنسبة لهذه القبائل باعتبارها الوسيلة الوحيدة الفعالة واليد القوية للحكام الأتراك في بسط نفوذهم على باقي سكان الإيالة الجزائرية، وما تمتعت به من امتيازات خاصة وحيازتها لمناطق نفوذ محددة.

ظهرت هذه العشائر في شكل مجموعات سكانية واستقرت على الأراضي التي كانت تعرف عادة بالمشاتي وهي لا تباع، لا تشتري، لا تهدي ولا تجزأ، لكونها تابعة للدولة وداخلة ضمن أملاك البايلك، ولهذا كان لها حق الانتفاع بها دون ملكيتها، فكانت تقوم باستغلالها مقابل خدمات معينة بتقليد هذا نصه:

"يقوم الباي بتسجيل اسم المنتفع في دفتر المشتى من طرف أحد كتاب خزناجي البايلك، وذلك بمرشح من قبل الدوار أو قائد الفرسان على سبيل تأكيد ارتباط الفارس بالأرض وحته على تقديم خدماته للبايلك".

ثم تقوم العشائر بتوزيع قطع زراعية على كل فرد من أفراد العشيرة للانتفاع بمرودها مع إبقاء مساحات للرعي.

وقد اقتصر دورها في خلال الفترة الممتدة ما بين القرن السادس عشر إلى الثامن عشر على مساعدة الإنكشارية في القيام بالمحلة. لكن الأحوال السياسية والظروف العسكرية التي عرفتها الجزائر في أواخر العهد العثماني، والتمتيز بانعدام الأمن، كثرة الثورات، انحراف الموظفين، سوء الحالة الاقتصادية وتردي الحالة المالية (كما أوضحنا من قبل) كل ذلك أدى إلى عدم احترام القانون المتعلق باستغلال الأراضي حيث أصبح البايات يسلمون - تحت الحاجة - الحق بملكية بعض عشائر المخزن التامة للأراضي وذلك بإصدار عقود تصبح بمقتضاها ملكاً شخصياً.

¹ - معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ - (16م) إلى القرن 13هـ (19م)، ماجيستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية - قسنطينة 1411-1412هـ / 1990-1991م، ص

وإصدار عقد التملك كانت له عناية خاصة، لأنه يسمح بالحصول على مبالغ مالية ضخمة تدعم خزينة البايلك.

تكمن أهمية وضعية أراضي المخزن الجديدة¹ في أنها أضفت على العشائر صفة شبه إقطاعية، كان لها تأثير ملموس على قيادة عدد كبير من سكان الأرياف، وترتبط هذه الصفة الإقطاعية، بكيفية استغلال الأرض، وبطريقة حيازتها، ونوع الخدمات والارتباطات المترتبة عليها².

ونظرا لما كان على الحكومة من إلزام في تدعيم هذه القبائل وتقوية نفوذها لتضمن استمرار ولائها فقد أغدقت عليها امتيازات عديدة جعلتها تتميز عن الأهالي من بينها:

- الإعفاء من الضرائب ما عدا الضريبة الشرعية.
- التمتع بالاستقرار والأمن والعيش الرغيد - لأنها تملك أراضي خصبة - والحماية حيث تعيش في أمن بعيد عن الغارات والتعديات.
- حصولها على منح من طرف الحكومة (الفرس والسلاح وأدوات العمل الفلاحية) دون مقابل مع إعطاء أجور مؤقتة تماما كما هو الحال بالنسبة لأفراد الجيش الإنكشاري³.

وقد لخص لنا عبد الرحمن الجيلالي ما يتعلق بدور هذه القبائل وامتيازاتها بقوله: «وأما الفريق الثاني فكان معفى من كل الضرائب باستثناء الرسوم القانونية ولكنه كان موقوفا على خدمة الحكومة متهيئا لها دائما وأبدا حاضرا للقتال عند أول إشارة، كما انه دوما في إغاثة الأتراك يمدهم بالمحاربين والييد العاملة، ويعينهم على جمع الضرائب اللازمة، ويدهم القبائل العاصية والثائرة بغاراته، ويعمل عمل

¹ - نشير هنا إلى أن الأراضي التي تعيش عليها عشائر المخزن تسمى أراضي العزل التي حصل عليها البايلك عن طريق الاستحواذ أو المصادرة لعدم وجود ورثة شرعيين.

² - سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص.136.

• Rinn (L.), « Le royaume d'Alger sous le dernier Dey », in R.A, 1897, p.128.

³ - ذكر سعد الله أبو القاسم أن قبائل المخزن لا تدفع سوى 10 %، بينما قبيلة الرعية تدفع عدة أنواع من الضرائب العشر والزكاة الحكر الذي هو نوع من الغرامة الثقيلة التي تصل أحيانا إلى ثمان وعشرين رأسا من الغنم. أنظر: سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال - ، ص.157.

الشرطة في البلاد، فأقاد الحكومة كثيرا في تدعيم سلطانها وكان أجدي من عون الانكشارية¹.

وقد ترتبت عن هذه السياسة آثار اجتماعية أدت إلى انقسام بين الحكومة القائمة والأهالي إضافة إلى ظاهرتي الفقر والتخلف التي ميّزت المجتمع الريفي آنذاك.

1. 2. / الوضع الاجتماعي:

يتشكل المحيط الاجتماعي من عدة فئات متباينة فيما بينها، وان كان التركيب الاجتماعي بالمدن يختلف عنه في الريف، فعدد السكان بالجزائر غير معروف في فترة العهد العثماني، فالإحصائيات التي عرفت حتى الآن وقت ذاك متضاربة ومن الصعب اعتماد إحداها².

1 - الجبلاي عبد الرحمن، المرجع السابق، ج.3، ص.475.

2 - ليس هناك اتفاق بين المؤرخين عن عدد سكان الجزائر قبل الاحتلال، فالقنصل الأمريكي "وليام شالر" الذي كتب قبل حوالي أربع سنوات من الاحتلال قدر عدد سكان مدينة الجزائر بـ 50 ألف نسمة، وزعم "بيليسي دي رينو" أن سكان الجزائر كلهم حوالي 250 ألف نسمة، أما حمدان خوجة فذهب إلى القول بأن عدد السكان الجزائريين بلغ عشرة ملايين في حين ذهب ياكونو (Yacono) إلى أن العدد لا يتجاوز ثلاثة ملايين.

• أما اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر بعد ثلاث سنوات من الاحتلال فقد قدرت عدد السكان بنحو 35 إلى 40 ألف نسمة في مدينة الجزائر وحدها.

أنظر: سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال -، ص.149.

- Yacono (X.), Peut on évoluer la population de l'Algérie vers 1830, in R.A., 1954, 3 ème et 4 ème trimestre, p-p. 277-307.
- Khoudja (H.), Op. cit , p.320.

هذا عن عدد السكان عامة أما عن نسبة سكان المدن مقارنة بسكان الأرياف فقد ذكر سعيدوني

حسب وثائق ومصادر متوفرة أن سكان الأرياف في الفترة العثمانية يقدر بـ 94 % من مجموع

السكان، في حين لم يكن سكان المدن والحواضر في أحسن الأحوال - 6% فقط -.

وقد ذكر عدي أن المدن تمثل من 5 إلى 10 % من مجموع السكان وبالتالي فالجزائر الريفية

تمثل الواقع الحقيقي قبل الاستعمار. أنظر:

• سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ص.97.

• عدي الهواري، المرجع السابق، ص.58.

ومهما يكن، فيمكن الحديث عن الهرم الاجتماعي الذي يتكون منه سكان الجزائر عامة والعاصمة بوجه الخصوص. وقد اعتمدنا في هذا التقسيم على المستوى المعيشي للسكان لا على العرق.

حيث تصدر رأس الهرم ما يمكن تسميتهم بالعثمانيين، وهم يشكلون طبقة أرستقراطية حاكمة والتي كان معظم أفرادها من العثمانيين، الكراغلة ورجال المخزن. وبالرغم من قلة عددهم بالنسبة لبقية السكان فإنهم كانوا يحكمون البلاد ويملكون أجزاء غير قليلة منها، فهم الفئة الميسورة الحال في الهرم الاجتماعي نتيجة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها.

أما الفئة الثانية فتتكون من البلدية أو الحضرية من أعيان البلاد، وهم في الغالب أصحاب الحرف والعلماء والتجار. ويذهب فريق من الأوروبيين وفي مقدمتهم "شمير" إلى القول: "إن الحضر أهم عنصر في مدينة الجزائر، إذ يتراوح عددهم من ثلاثين ألف إلى أربعين ألف نسمة"¹.

. والراجح أن فئة الأعيان والحضرية هي أكثر عددا وأقوى مركزا بحكم أن مدينة الجزائر العاصمة كانت محل تجمعهم واستقرارهم لفترة سابقة.

وعلى الرغم من أنهم كانوا يحتلون مكانة مرموقة في المجتمع، إلا أنهم حرموا من تولي المناصب الهامة في البلاد خلال فترات من الحكم العثماني باستثناء بعض المهام التي أسندت إليهم كشيخ البلد وأمين الحرفة؛ إذ كان لكل حرفة أمين أو مراقب، وهؤلاء الأمناء كانوا تحت إشراف شيخ البلد الذي هو بمثابة والي المدينة²

¹ - دودو أبو العبد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، م.و.ك، الجزائر 1989، ص.12.

² - عميرايوي حميده، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، ط.1، دار البعث، قسنطينة 1987، ص.68.

ثم تأتي الفئة الثالثة المعدومة والتي يمكن تسميتها بالبرانية وهي التي كانت تعيش في العاصمة أجيرة، حيث نزح معظم أفرادها من الجبال، وتمركزوا في المدينة، وكانوا يعيشون ظروفًا مادية واجتماعية سيئة للغاية، حتى أنهم كانوا ينامون خارج سور المدينة.

وأخيرا تأتي فئة الفلاحين في قاعدة الهرم الاجتماعي، فالنظام العثماني دعم الإقطاع في البلاد، فصار الفلاح مستغلا من طرف أصحاب النفوذ كالشيوخ والمرابطين والخلفاء، لأن العثمانيين أحدثوا سلطات متنوعة، سواء في المدينة أو الريف بوقوفهم بجانب المرابطين ومنحهم حظوة لكسب ولائهم.

وقد أدى هذا التباين في الهرم الاجتماعي إلى تذبذب الحياة الاجتماعية، وبالتالي إلى ضرورة الصراع بين فئات السكان والنظام الحاكم في جهات متعددة من البلاد. فعلى الرغم من ربط الريف رسميا بالسلطة المركزية، وإخضاعه لرقابة قادة تابعين لها، فإن هذه الأرياف بقيت تخضع بصفة عملية لسلطة شيوخ القبائل الذين توارثوا حكمها¹.

ومهما يكن من أمر فقد انقسم سكان الريف من حيث ولائهم للجهة الحاكمة إلى: قسم متحالف مع السلطة مقابل الحصول على فوائد مادية وأدبية، وهو ما سبق ذكره بالنسبة لقبائل المخزن. وقسم خاضع للسلطة مباشرة، ويعرف لقبائل الرعية، وفي الأخير تأتي الفئة المستقلة عن السلطة وهي الفئة المتحصنة بالمناطق الجبلية، أو في الجنوب الجزائري وتنتمي غالبية سكان هذا القسم إلى مجموعات قبلية على رأسها عائلات تعتمد في فرض نفوذها على السلطة الروحية أو الممارسة الحربية، فغياب سلطة مركزية قوية في هذه المناطق أدى إلى تعدد النفوذ الواسع من الأسر: الأسر المرابطية من جهة والأسر العسكرية أو ما يعرف محليا باسم

¹ - عميراي حميدة، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، ص - ص. 68 - 69.

الجواد. ويبقى المجتمع في الغرب الجزائري خاصة يتشكل من أسر دينية موسعة مشدودة إلى طرق صوفية أهمها القادرية¹.

وكانت العلاقة بين سكان الريف والمدينة محدودة، وكانت بعض الأسر الهجينة (الكراغلة) والحضرية قد انصهرت في الأقلية التركية. لكن الشعور المعادي للسلطة الحاكمة ظل قويا لدى القبائل التي انصرفت إلى إعطاء ولائها لشيوخها الذين ينتمون إلى أسر نبيلة إمام من أصل محارب كالأجواد وإمام من المرابطين وزعماء الطرق الصوفية².

وهكذا تعلق سكان الريف بالقبيلة التي أصبحت الإطار السياسي والاجتماعي الذي شمل أغلبية السكان وأخضعهم إلى ضرورة أخلاقية ودينية، ونظم حياتهم وأمن لهم العدالة والتضامن الاجتماعي³.

والقبيلة في حد ذاتها تنتمي إلى سلطة روحية تمثلت في زعماء الطرق الصوفية والأسر الشريفة التي تصارعت فيما بينها - وهو ما سنوضحه في فصل تصور الأمير عبد القادر لمجال سيادة الدولة الجزائرية - حيث لم تستجب التيجانية والدرقاوية لطاعة الأمير.

وإذا حللنا الأسباب التي جعلت طبيعة هذه العلاقة تتحدد على ذلك النحو، فإننا نجعلها في السياسة المطبقة من طرف النظام القائم خاصة فيما يتعلق بالتنظيم الاقتصادي الذي ترتبت عنه آثار سلبية أضرت بالأهالي الجزائريين جعلها فيما يلي:

¹ - كان بابلك الغرب يشتهر بأسره المرابطية عكس بابلك الشرق الذي سيطرت عليه الأسر الحربية.

لمزيد من التفصيل أنظر: معاشي جميلة، المرجع السابق، ص - ص. 120 - 156.

² - أجرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1976)، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت 1983، ص. 13.

³ - عدى الهواري، المرجع السابق، ص - ص. 18 - 19.

- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص. 123.

أ. تقسيم المجتمع إلى طبقات: جزائري ولد البلد، وهو في اصطلاح العثمانيين كل من هو تركي الأصل والأبوين، كرغلي وهو من كان والده تركيا وأمه جزائرية، وقد أظهر ولاءه للنظام الحاكم مقابل حصوله على امتيازات وارتقائه إلى الطبقة الأولى. براني وهو غير ساكن البلد من جميع أهل القرى والمدائر والأرياف¹.

ب. التأثير السلبي على توزيع الكثافة السكانية، لأن الضغط الذي مارسه قبائل المخزن على المناطق الساحلية، جعل السكان ينزلون إلى المناطق الجبلية الفقيرة والواحات النائية²، زيادة على ما أصابها من معاناة، كتقل الضرائب الأمر الذي دفعها إلى العصيان والثورات ضد النظام وهو ما نشاطر فيه رأي عدي الهواري حين يرجع استمرار تمرد القبيلة الرعية إلى حقيقة أن ضعف الفوائد لا يسمح بتسديد الضريبة فلا يوجد في السهول العليا أراض خصبة كافية تسمح أولا بالتملك الخاص وثانيا تكون قادرة على توفير فائض زراعي³.

ج. التأثير السلبي على مزاولة النشاط الفلاحي بالأرياف، لأن المهام العسكرية لفرسان المخزن شكلت عائقا أمام تطور الإنتاج وتحسين طرق استغلال الأرض وتطور معارف الفلاح وتفتح مواهبه، فمثلا كانت أغلب مساحات السهول الوهرانية ونواحي الشلف مستغلة في الرعي وتربية الماشية مع وجود زراعة بسيطة معاشية، وهذا أدى إلى زيادة فقر أهالي الريف وتخلفهم⁴، وبالتالي تدمرهم من النظام العثماني.

¹ - الجيالي عبد الرحمن ، المرجع السابق، ج.3، ص.477.

• سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص.123.

² - الأمر الذي أدى إلى أن تبقى مساحات سهلية شاعرة ساعدت على التوسع الاستيطاني من قبل الاحتلال الفرنسي فيما بعد بحجة أن تلك الأراضي التي كانت تقيم عليها العشائر كانت تابعة للبايلك وبالتالي لم يكن فيها أي تجمعات سكانية. أنظر: سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص.123.

³ - عدي الهواري، المرجع السابق، ص.19.

⁴ - سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال - ، ص.150.

• سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص.121.

د. استغلال الفلاح البسيط من طرف كبار ملاك العقار، وبعض عائلات المرابطين القوية وأصحاب الأراضي الواسعة الذين عملوا على تشغيل خماسين في أراضيهم، إضافة إلى أنهم اشترطوا مقابل زراعتها ربعا عقاريا (حكر) تضاف إليه رسوم أخرى¹. والسؤال الذي يطرح: هل انحصرت سلطة الأمير هي الأخرى في المدينة أم حاولت بسط نفوذها على الجزائر كلها؟.

والخلاصة: دعم هذا الوضع نزعة الولاء للقبيلة أكثر، الأمر الذي أدى إلى أن ينحصر نفوذ السلطة العثمانية في المدينة وأطرافها مما يصعب علينا القول بوجود سلطة حاكمة محسوسة في المدينة والريف معا. كما حال دون قيام طبقة اجتماعية مرتبطة بالأرض قادرة على الدفاع عن مصالحها، ووضع حاجز أمام حدوث تغيرات اجتماعية في الأرياف قد تؤدي بمساعدة الظروف إلى ظهور حكم يتمتع بالسيادة الحقيقية، ويعتمد على فكرة تكامل المجتمع ويهدف لخدمة مصالح مجموع السكان.

¹ - أمين سمير، المرجع السابق، ص 46.

1. 3 / الوضع الثقافي:

من الصعوبة تحديد الثقافة في مفهوم معين لاختلاف هذا الأخير بين الدارسين، ومهما يكن، يمكن تقديم الثقافة على أنها: معارف الأمة، عاداتها وتقاليدها، اتجاهاتها الروحية والفنية. وهي بهذا المعنى تعبر عن أسلوب الحياة ونشاطها في بيئة اجتماعية، ووسيلة هذا التعبير هي مظاهر الثقافة المختلفة من علوم وفنون ولغة وعقائد ودين وعادات وتقاليد، وأساليب في التربية والتعليم¹.

وفي ضوء هذا يكون السؤال: كيف كانت وضعيّة الثقافة في الجزائر إبان العصر العثماني؟ والقصد من هذا هو التركيز على وضع المجتمع الجزائري خلال هذا العهد لمعرفة المصادر الثقافية التي اغترف منها الأمير عبد القادر.

يكاد الاتفاق بين الدارسين يكون واحدا على أن اهتمام "الأتراك" بالشؤون السياسية والعسكرية كان أساسا أكثر مما كان بالشؤون الثقافية²، وهذا ما جعل محمد عمارة يرى بأن الأتراك لم يكونوا أصحاب حضارة، لذا وقفوا عاجزين أمام متطلباتها وشجعوا الأفكار القائمة على الخرافة، لأنهم كانوا ينفرون من الفلسفة والمعارف العقلية، ولم يقتصر الأمر على ركونهم إلى التقليد وانعدام الإبداع بل تعدى ذلك إلى إهمال التأليف عموما بحيث لم تتجاوز المطبوعات العثمانية ما بين عامي (1728-1830) أربعين كتابا³.

والسؤال المطروح: ما هي الأسباب التي أدت بالعثمانيين إلى إهمال الجانب الثقافي خاصة في الجزائر؟.

¹ - فودة عز الدين، المجتمع العربي - مقومات وحدته وقضاياها السياسية -، ط.2، دار الفكر العربي، القاهرة 1966، ص.169.

² - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، (16-20م)، ج.1، ش.و.ن.ت، الجزائر 1981، ص.188.

³ - عطا محمد صالح زهرة، العثمانيون وعملية التغيير الاجتماعي، الاستعمار والفراغ، مجموعة البحوث المقدمة في المؤتمر العالمي حول الاستعمار والفراغ، قسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد، ط.1، منشورات جامعة قاربانوس - بنغازي، ليبيا 1991، ص.300.

أثر العثمانيون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية للجزائر، وأول هذا التأثير هو ربط المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي، فقد جاء العثمانيون بوسائل حضارية شرقية إلى الجزائر من مأكّل وملبس وألقاب وصناعات وتقاليده. ومن جهة أخرى أثروا في العمارة كالمساجد والأضرحة وفي الموسيقى والخط والمنشآت العسكرية والبحرية. بينما كان الاهتمام بمجال العلوم العقلية والثقافية والتقدم الفكري محدوداً¹، فالجانب الثقافي عامة والتعليم خاصة لم يلق الاهتمام الكافي، ومرد ذلك في نظرنا إلى طبيعة العصر الذي كان يعتمد فيه على تقوية الجانب العسكري البحري لأن الظرف استثنائي وقائم على الحروب الواسعة والمستمرة. وهو ما ركز عليه أبو القاسم سعد الله في قوله: *إن المظهر العسكري للوجود العثماني بالجزائر ثم استمرار التهديد الأجنبي أثر على الحياة الثقافية وحال دون تشجيع العلوم والفن والأدب لأن ذلك خارج نطاق العصر بالنسبة للعثمانيين ونحن إذا طالبناهم به كنا نطالبهم بما لم يخلقوا له*².

لذلك ليس من الغرابة في شيء أن يكون الاهتمام العثماني بالجانب العسكري والسياسي كبيراً وعلى حساب الاهتمامات الأخرى. إضافة إلى أن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى أشياء أساسية لكي يشجعوا الأدب والعلم والفن في الجزائر وأهمها اللغة، فكانت لغة الوجود العامة هي التركية ولم تكن هناك أعمال أدبية أنتجت لهذه اللغة إلى ذلك الحين³. وكان الحكام الأتراك لا يتقنون العربية العامة حتى يتقنوا العربية الأدبية؛ لهذا لا يمكن أن يشجعوا إنتاجاً بلغته لا يعرفونها ولا يتذوقونها.

¹ - بالنسبة للعلوم العقلية وكمثال عنها الطب فقد عبر علي حسون أن الدولة عندما دخلت مرحلة الضعف والانحطاط ومن النظام التعليمي الطبي وأصبح عاجزاً عن تطوير برامجه حسب واقع العالم الحديث ولم تعد المدارس العثمانية قادرة على اللحاق بحركة النهضة الأوروبية.

أنظر: عطا محمد صالح زهرة، المرجع السابق، ص. 301.

² - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، ص. 288.

³ - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج. 1، ص. 209.

إضافة إلى أنهم كانوا يشعرون بالغربة في الجزائر رغم كونهم مسلمين ومدافعين عن الإسلام وهذا العامل لم يشجع على إيجاد إحساس أدبي مشترك رغم وجود إحساس روحي ومصيري مشترك. ثم إن طبقة العلماء التي ارتبطت كثيرا بالنظام الحاكم من حيث توظيفها وأداء مهماتها خاصة في المدن جعل دورها محدودا وغير مؤثر في المجتمع¹.

من خلال ما سبق ذكره فالتعليم وسير نظامه كانا مستقلين عن الدولة وعن سيطرة الحكام الأتراك خاصة في الأرياف التي أصبحت من الناحية الثقافية متأثرة بما يمكن أن يسمى بثقافة الطرق الصوفية، حيث اعتمدت أي الثقافة على ذاتيتها وعلى اهتمام المجتمع بها انطلاقا من الزوايا فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية الإسلامية.

من هنا أدت الزاوية دورا كبيرا في النشاط التعليمي بجانب وظيفتها الدينية إذ كانت معاهد لتعليم الأبناء وتكوين العامة، ويبدو أن عدد الزوايا في غرب الجزائر كان يفوق ما في شرقها ولعل مرد ذلك إلى كثرة الزوايا بالمغرب الأقصى واستمرار حركة الجهاد بالغرب الجزائري² وتردد حجاج ورحالة المغرب على الجزائر يغنون فكرة المرابطة وينشرون مبادئ شيوخهم.

وكانت للزوايا أوقاف بمثل ما كان للمساجد مما أدى إلى غناها خاصة زاوية القيطننة³ التي كانت تطعم أعدادا كبيرة من الزائرين وتأويهم وتعلمهم.

¹ - سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال - ، ص - ص. 159-

160.

² - سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص. 268

³ - عبارة عن زاوية ابتناها جد الأمير ببرقة، وكانت محطا للزائرين ولها مسجد يحتوي على سطح سبع مجالس للتدريس بناء قائد من ولاية وهران متقربا به إلى الله، وكان لها تأثير كبير على أهل الوطن. أنظر:

الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، مراجعة محمد الهادي الحساني، ط.2، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر 1995، ص.47.

وقد كان القرآن الكريم أساس التعليم "الابتدائي" أو "الثانوي"، وكانت المدارس على مختلف مستوياتها تتمول وتتغذى عن طريق الأوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير حيث أن أملاكاً خاصة وعقارات وأراض يذهب ريعها لبناء المدارس وتوظيف المعلمين وتوفير المساكن للطلبة فكانت وسيلة لتدعيم التعليم وحماية الطلبة والمعلمين وكانت الدروس العالية تعطى في أهم الجوامع والزوايا، ففي إقليم وهران مثلاً كان الجامع الكبير في تلمسان، وجامع سيدي العربي والزاوية القادرية.

يتقاضى أساتذتها والقائمون على خدمتها أجورهم من موارد المسجد، وكانت هذه المدارس مجهزة بشكل جيد وزاخرة بالمخطوطات¹.

وكانت أهم مواد التعليم العالي هي النحو والفقه الذي يشمل العبادات والمعاملات والتفسير والحديث والحساب والفلك إضافة إلى التاريخ العام والتاريخ الطبيعي للطب والفنون والآداب العربية والمغربية ما بين النوع الدارج والفصيح.

وكانت اللغة العربية هي السائدة بوصفها لغة دين وعلم وثقافة، رغم أن اللغة التركية هي التي كانت رسمية للنظام الحاكم فلم يكن لها أي تأثير على الواقع الاجتماعي الجزائري، لهذا كان للغة العربية الاستمرار والتواصل في دولة الجزائر عهد الأمير عبد القادر إذ كانت اللغة الرسمية في العلاقات الخارجية والداخلية.

وفي هذه الفترة كانت تعيش طائفة من العلماء ذات ثقافة تقليدية كالعالم الجليل محمد بن المسبح القسنطيني المفتي على المذهب الحنفي في قسنطينة، وسيدي محمد بن عبد الملك الراشدي مفتي المالكية بالعاصمة، وسيدي محمد بن رجب الجزائري الذي ألف كتاباً في معالجة أمراض الوباء وطرق الوقاية منها²، والأمير عبد القادر الذي نبغ في العلوم والفنون والآداب، أيضاً العلامة الأجل ابن

¹ - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص.268.

² - المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ط.2، دار الكتاب، البلدة 1372هـ/1963م، ص.89-90.

الكبابطي مفتي المالكية بالعاصمة وسيدي محمد العنّابي¹. كما اشتهر بالأغواط ثلثة من العلماء كان أشهرهم محمد بن المشري السّائحي، وسحنون بن الحاج أحمد، وإسماعيل بن الحاج عبد الرحمن والحاج محمد بن التّومي².

وكانت هذه الطّبقة من العلماء تتال قدرا من احترام العامة ورجال الحكم معا إذ كان الحكام يستميلونهم ويخشونهم ويسمعون نصائحهم³.

وما يدلّ على كفاءة هذه الطّبقة نفوذها في مجال القضاء، فقد كانت الأحكام التي يصدرونها لا رجعة فيها ذلك أنّ القضاة الجزائريين آنذاك كانوا يتمتّعون بدرجة عالية من العلم والدراية تتوفّر فيهم شروط النزاهة، فهذا مفتي الجزائر ابن العنّابي كان قد حذّر الحكّام الأتراك حين سيطرت الأهواء والأخطاء على نفوسهم مقدّما لهم النصح بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله - صلّى الله عليه وسلم - بالابتعاد عن تقليد الغرب إلا فيما يتعلّق بالأمور العلمية والحربية فهو يقول: "إنّ ما عليه الكفرة من سياستهم العقلية فنحن في غنى عنه لأنّ المسلمين الكتاب والسنة وفيها من التّشريعات ما يغني عن قوانين أوروبا الوضعية"⁴.

ومما يشار إليه في الخاتمة أنّ الجزائر أو آخر العهد العثماني كانت تتوفّر على عدد كبير من مؤسسات التّربية والتّعليم في مختلف المراحل، وكانت معرفة القراءة والكتابة منتشرة في أوساط الجزائريين⁵، وكان الإقبال على

¹ - صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود وقد دعا إلى التّفتح على الحضارة الأوروبية وأشار بذلك على محمد علي حيث لقي حظوة كبيرة لديه وولاه كرسي الإفتاء في الإسكندرية إلى أن توفي سنة 1856.

² - المدني أحمد توفيق، المرجع السابق، ص.38.

³ - لمزيد من المعلومات أنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، الفصل الخامس.

⁴ - سعد الله أبو القاسم، رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنّابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام

الجنود، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ص.78.

⁵ - تؤكد شهادات بعض المؤرخين والعسكريين والرّحالة انتشار التعليم والمؤسسات في الجزائر، منها شهادة "شمير" الذي ذكر أنّه بحث قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنّه لم يعثر عليه، في حين وجد ذلك في بلدان جنوب أوروبا. وهي الملاحظة نفسها التي أبداهها الجنرال فالاري في جلسة يناير 1834 حيث ذكر أنّ جميع العرب تقريبا يعرفون القراءة والكتابة وفي كل قرية توجد مدرستان إضافه إلى الزاوية. أنظر: دودو أبو العيد، المرجع السابق، ص.13.

حفظ القرآن الكريم من صفات غالبية الجزائريين. وأن الحياة الثقافية التي تميزت بالطابع العربي الإسلامي التراثي والنهضوي هي التي ربطت فئات المجتمع المختلفة وهو ما عززت عنه السياسة العثمانية في الجزائر.

وعلى هذا الأساس كان لرجال الزوايا الدور الكبير في "المقاومة" الروحية بداية الاحتلال لأن دورها كان يستمد قوته من الدين الإسلامي وسيلته التعليم والقيام بالجهاد¹.

والتساؤل الذي يطرح: هل للمقومات العربية الإسلامية دور في أن يبقى الوضع الثقافي الجزائري على ما هو عليه دون أن يتأثر أو يذوب في مقومات مجتمع آخر رغم تواصل العلاقة بينه وبين أوروبا عن طريق العثمانيين بواسطة الحروب، التجارة والأسرى؟. وبماذا نفسر التجذر الثقافي العربي الإسلامي في نظام الحكم للأمير عبد القادر برغم تأثره واحتكاكه بالنظام الأوروبي؟. سنحاول بطريق أو بآخر أن نوضح جوانب من هذه التفسيرات لاحقاً.

مما سبق عرضه يمكن استخلاص مميزات النظام العثماني في الجزائر قبيل الغزو الفرنسي فيما يلي للربط بنظام الحكم في عهد الأمير عبد القادر:

1. عدم وجود سلطة فعالة بالنسبة للنظام الحاكم، تشكل حكومة بالمعنى الذي يفهم جيداً من هذا اللفظ، وإنما الذي كان حاكم يستعين في تصريف الأمور بطائفة من الأعوان والوزراء دون أن تكون له سلطة نافذة على مستوى الحكم، وسيادة على مختلف الوحدات الإدارية للإيالة الجزائرية.

2. التنظيم الإداري الذي جسد انحصار المجتمع الجزائري في إطار

القبيلة حال دون قيام وحدة اجتماعية، بل إن ما تأكد لدى الفرد الجزائري عنصر الانتماء إلى القبيلة، وأن معنى وجوده ينحصر في حدودها.

¹ - سعد الله أبو القاسم، أفكار جامعة، م. و. ن، ك، الجزائر 1988، ص. 56.

3. غياب الأمن والاستقرار وانتشار الفقر في أوساط المجتمع الجزائري بسبب السياسة الاقتصادية الحقيقية التي طبقها النظام الحاكم التي أدت إلى تجاوزات عسكرية وإدارية خطيرة، إضافة إلى هيمنة الفاسيين والتونسيين على التجارة في غرب البلاد وشرقها بسبب احتكار الدولة للتجارة الخارجية وفرض مكوس عالية على البضائع، مما أدى بمعظم القوافل التي كانت تأتي من إفريقيا جنوب الصحراء إلى تحويل طريقها باتجاه المغرب الأقصى حيث المرونة الجمركية والتبادل الواسع لحمولتها، بدلا من أن تدخل إلى أسواق وهران وتلمسان.

4. عدم احتكاك المجتمع الجزائري بالتطور الحضاري بسبب انزاله عما يجري في العالم من حوله من تغيرات وتطورات في المجالات المختلفة.

إن فالسلطة العثمانية، وفي ظل التغيرات التي جرت على الساحة الدولية آنذاك، كانت عاجزة عن القيام بإنشاء دولة شديدة القوى، حديثة النظام تجعلها قادرة على النهوض بأعباء التنظيم والدفاع العصري وبالتالي كان لا بد وأن تفسح المجال لظهور قوة جديدة تضطلع بهذه المسؤوليات وتكون جديرة بممارستها وتحقيق أهدافها.

الفصل الثاني: جوانب من شخصية الأمير عبد القادر

إن الهدف من تقديم ترجمة لحياة الأمير عبد القادر هو التعرف على شخصيته والإحاطة بالظروف التي ساهمت في تكوينه، فمن الضرورة عند دراسة شخصية من الشخصيات التي لها أثر بارز في منحي من مناحي الحياة أن تدرس الظروف والملابسات التي أحاطت بها بغية الوقوف على العوامل التي أدت إلى نبوغها.

ويعتبر الأمير عبد القادر أحد هؤلاء النابغين الذين ساهموا بجهد وافر من خلال مواقف مشرقة كان لها تأثير بالغ في التاريخ عامة والتاريخ الجزائري خاصة. فهو أحد العلامات البارزة في التاريخ الجزائري وأحد المعالم المميّزة للحضارة العربية الإسلامية وأبرز وجوه المقاومة الجزائرية وأعقها وعيا وأصفاها أصالة.

إن شخصية الأمير كثيرا ما توصف بالعبقريّة، فهي لا تستمد قوتها من ذاتها وحدها بل من شخصيات عاصرتها وانتلفت معها .

إنها شخصية تملك قوة التحكم في النفوس والأهواء، ولا تعتمد على القوة والإرهاب، وإنما هي سيطرة روحية سلاحها محبة الشعب والتفاني في خدمته وإقامة العدل وإقرار الحق.

يوصف الأمير بالعظمة في وطنيته، وقد شهد له أعداؤه بالمكانة الرفيعة، فالمارشال سولت (Soult) قال عنه سنة 1840: "لا يوجد الآن أحد في العالم يستحق أن يُلقب بالأكبر إلا ثلاث رجال وكلهم مسلمون وهم الأمير عبد القادر، ومحمد علي باشا، والشيخ شامل الداغستاني".¹

¹ - خرفي صالح، في ذكرى الأمير، م.و.ك، الجزائر 1984، ص - ص 80-81.

ولهذا صدق فيه قول حفيده: "أبى من تجلت بشانته العاطر السنة أعظم الأكاير، أبى أشبه من السلف بعمر بن عبد العزيز في زهده ورشاده، ومن الخلف بيوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده، ويكفيه أن الخصم الألد تكلم فيه بلسان الخل الأود"¹.

وهو ما دفع الأمير إلى القول²:

- | | |
|--|---|
| وَأبْذَلَ يَوْمَ الرَّوْعِ نَفْسًا كَرِيمَةً & | عَلَى أَنَّهَا فِي السَّلْمِ أَعْلَى مِنَ الْغَالِي |
| وَعَنَى سَلِيَّ جَيْشِ الْفَرَنْسِيِّينَ تَعْلَمِي & | بِأَنَّ مَنَايَاهُمْ بِسَيْفِي وَعَسَائِلِي |
| فَلَا تَهْزِنِي بِي وَأَعْلَمِي أَنَّي الَّذِي & | أَهَابَ وَلَوْ أَصْبَحَتْ تَحْتَ الثَّرَى بِأَلِي |

¹ ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج.1، شرح وتعليق حقي ممدوح، ط.2، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، دمشق 1384هـ / 1966م، ص - ص. 7- 8.

² صيَّام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، (د. ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986م، ص.77.

2. 1 / مولده ونشأته:

ولد عبد القادر بن محي الدين في الثالث والعشرين من رجب في أحد أو اثنين وعشرين ومائتين وألف الموافق لشهر ماي ألف وثمانمائة وسبعة ميلادي¹ بقرية القبطنة الواقعة على وادي الحمام غرب مدينة معسكر من إيالة وهران.

وهو من أسرة ميسورة الحال مصدر رزقها من أرض تملك مردودها من العوائد والهبات التي يقدمها الأتباع والأنصار، وقد جرت الأسرة على تقديم الضيافة لعابري السبيل، والمساعدة للمعوزين².

¹ - الأمير عبد القادر ، المذكرات، ص.48.

- Bellemare (A.), Abd El Kader sa vie politique et militaire, Hachette, parie 1863, p.11.
- بو عزيز يحيى، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط.2، دار الكتاب العربي، الجزائر 1964، ص.18.
- السيد فؤاد صالح، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، (د.ط)، م.و.ن.ك، الجزائر 1985، ص.27.
- صيام زكريا، المرجع السابق، ص.13.
- خرفي صالح، المرجع السابق، ص.25.
- دائرة المعارف الإسلامية، بإشراف محمد ثابت الفندي وآخرون، مراجعة محمد مهدي علامة، مج.10، ص.616.
- البستاني بطرس، دائرة المعارف، مج.9، دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ص.932.
- موسوعة السياسة، بإشراف عبد الوهاب الكيالي، ج.3، ط.2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993، ص.540.

• Xavier (B.), Histoire Nationale de L'Algérie, 2ème Edition, Paris 1986, p.22.

² - العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط.2، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982، ص.37.

وتتفق معظم المصادر على أن الأمير عبد القادر شريف من آل هاشم فهو: " ابن محي الدين بن المصطفى بن أحمد بن المختار عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خدة بن أحمد القديم عبد القادر بن محمد بن محمد بن عبد القوي بن عبد الرازق بن الغوث الرباني سيدنا عبد القادر الجيلاني بن صالح بن موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن الإمام داود بن الإمام موسى بن الإمام عبد الله بن الإمام موسى الجويني بن الإمام عبد الله المحض بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم ¹.

¹ - من المصادر نذكر:

• الأمير عبد القادر ، المذكرات، ص. 544.

• الحسن بن بديعه ، أصحاب الميمنة، ص. 37.

وقد ذكرت آراء في أجداده: فقد ذكر الفقيه الباحث سيدي عبد الرحمن الفاسي صاحب (جوهرة العقول) أن عبد القوي حاكم " تفرست" وهي ولاية في ريف المغرب العربي، كان عالما قديرا من أختيار الأشراف من آل النبي المختار وكان من الأقطاب في ذلك الزمان.

وذكر المقري التلمساني في كتابه (أزهار الرياض)، والتيجاني صاحب (الجمان النفيس) أن عبد القادر المختار ولد في القرن الحادي عشر الهجري وكان عالما جليلا زاهدا، توفي في بلاد بني عامر ودفن فيها. أنظر: الحسن بن بديعه، المصدر السابق، ص. 37.

وقد ذكر صاحب (فتح الرحمن) محمد بن محمد الجوزي في فضل عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خدة: أنه إمام جليل القدر واسع الصدر مهاب عند الخاص والعام له تبحر في العلوم كالنحو والتوحيد والحساب والفرائض والفقه... حاز رئاسة عامة في " غريس " بعد موت أصحابه، وشدت له الرحال من المشرق والمغرب، وله عدة تأليف مفيدة في جملة فنون، أخذ العلم عن أشياخ أجلاء منهم سيدي محمد السنوسي صاحب الصغرى والكبرى في التوحيد، والمدفون بتلمسان، وقد توفي رحمه الله في القرن العاشر للهجرة.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 927، و الحسن بن بديعه، المصدر السابق، ص. 37.

وعبد القادر هذا أول من أعطى العلم والطريق معا على مذهب الجيلاني وقد عاش في القرن العاشر الهجري، وتنقل كثيرا وسكن "كاشرو" و" معسكر " وتردد بين تلمسان في الغرب وقسنطينة بالشرق.

وبالغ ابنه أحمد المختار في توثيق أدب الطريق بالشعر فنظم عقد جواهر المعاني في مناقب الغوث

عبد القادر الجيلاني.

أنظر: السيد محمد علي الزير، الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها في أديه، (د. ط)، م. و. ك الجزائر 1986،

ص - ص. 17-18.

وكان لهذا النسب مفعوله حيث بوأ عائلته منزلة اجتماعية خاصة كما حفزهم للاقبال على العلم وإتيانه والدعوة للجهاد حتى الاستشهاد. وهذا النسب إلهام فخر عند الأمير فهو يعتمد في شعره وبعض أموره، لاسيما يوم اختياره للإمارة.

نشأ عبد القادر بناحية غريس وأظهر منذ طفولته استعدادا فكريا وبدنيا حقق له مكانة خاصة عند والده فاعتنى بتربيته تربية إسلامية¹ غدت فيه النواحي الروحية والمعنوية وجعلته يتسامى عن المكاسب المادية².

في الرابعة من عمره بدأ تعليمه في زاوية أبيه في "القيطنة" حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة على يديه فكان أبوه من ألمع شيوخه لطول صحبته له وتأثير سلوكه فيه . وقد أشار إلى أثره وروايته عنه .

تابع --- أما مصطفى الذي بنى القيطنة فقد تركه أبوه محمد المجاهد " شهيد الإسبان " صغيرا ليتولاه أعمامه حتى يشتد عوده على الطريق فيرحل رحلتين ويحج في كل مرة حجتين كعادة القوم آنذاك. وقد زار المسجد الأقصى ودمشق ولقي ببغداد سليل الجيلاني ووراثه، وفي مصر أجازته إمام اللغة والحديث " الحسين الزبيدي". ولم يستقر بالقيطنة سوى ثلاث سنوات ليرحل عنها وقد توفي سنة 1212هـ / 1797، وهو عائد من الحج ببرقة عند عين بساحل البحر من قرى طرابلس تسمى عين غزالة .

وظل التمسك بالتراث والتراب لازمة عامة فوجد مصطفى يوصي لابنه "محي الدين" المولود سنة 1190هـ / 1776، بزواية القيطنة وأن يرحل لطلب العلم ونشر تعاليم الطريقة القادرية. فجاء إلى الطريق من أوسع الأبواب فاعتنى بعلوم القرآن وأقام زوايته على التطبيق العملي للمنهج الصوفي وسنن الزوايا فسي الإعداد والأداء الجامعين وإيواء الطلاب والقيام بنفقاتهم وبما أن طلبة القرآن والعلم بقريته لا يحصون كثرة فقد كان بمسجده نحو سبعة مجالس للتدريس.

ولم يقف عند حد الإسهام بالمال والتدريس والخدمة في هذا المشروع العام بل اهتم بوضع منهج موروث لقضاء الحوائج وتحقيق الشكاوى وكف الظالمين والانتصاف للمظلومين ونحو ذلك مما يشغل أبوابا أو يستقل ببعض كتب القوم، وكان يسعى في المصالح عند الحكام تارة بنفسه وتارة يبعث أحد أولاده، وتارة بكتابه. أنظر: السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص.18.

¹ - يلاحظ أن التربية الإسلامية تهدف إلى تكوين إنسان متوازن في شخصيته بحيث يتعلم أمور دينه إلى جانب ذلك، عليه أن يتعلم ما ينفعه في دنياه.

² - الأمير عبد القادر ، ذكرى العاقل وتنبه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، (د.ط)، مكتبة الخانجي،

القاهرة 1976، ص.15.

- Bellemare (A.), Op.cit, p.11.
- Xavier (B.), Op.cit, p.22.

وقد برع في تلقي العلوم التاريخية والفلسفية والفقهية¹ لأن معهد القيطنة لم يقتصر على تعليم القرآن ومختصر خليل بل كانت تدرس فيه علوم متعددة كالتفسير والحديث وعلم اللغة والتاريخ والفلسفة.

وكان لهذا التحصيل الروحي والمعرفي والعلمي دوره في تكوين شخص الأمير وفي بناء الدولة الجزائرية.

عندما بلغ سن العاشرة تمكن من حفظ القرآن الكريم والحديث وأصول الشريعة على يد أحمد بن الطاهر " قاضي أرزيو " الذي علمه أيضا " الرياضيات والجغرافيا والتاريخ"، كل ذلك تم له على الطريقة التقليدية الأصيلة المتبعة في بلاد المغرب العربي².

وعندما أتم الثانية عشرة من عمره سنة 1830 أرسله والده إلى مدرسة وهران التي يشرف عليها أحمد بن الخوجة ليتعلم مبادئ اللغة، ويدرس آراء أبو الفداء والمسعودي وابن خلدون ويطلع على العلوم المستحدثة ويتعمق في الدين .

ومكث في مقاطعة العاصمة الغربية سنتين نال في نهايتها شهادة حافظ خولت له ترتيل الآيات القرآنية في الجوامع والاحتفالات وأثناء إقامته فيها لاحظ الفارق المعيشي بين سكان المدينة (الحاضرة) وأهالي الريف³.

في أوائل سنة 1823 عاد إلى زاوية أبيه بناء على طلبه ليتابع تعليمه فيها تحت إشرافه منصرفا إلى التأمل الديني الهادئ مبتعدا عن مباهج الدنيا.

¹ - ذكر هذا الشيخ محمد بن معروف الونشريسي المتوفى في تونس 1265هـ، وهو من تلامذة محي الدين في مرثية رثى بها شيخه، بين فيها ثقافة محي الدين ووصف الدروس التي كانت تعطى في زاويته، مطلعها:

ترى كتب ابن حاجب وخليتنا & وألفية بن مالك مع غنية
وسعد وسلم وجمع جوامع & وحل غريب اللفظ عند القراءة
أنظر: البوعبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، التقافة، ع (خاص)، 75، 1403هـ/1983، ص.142.

² - تشرشل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه أبو القاسم سعد الله، ش.و.ن.ت الجزائر، 1982، ص.32.

³ - العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.38.

2. /2 مقومات شخصيته:

يوصف الأمير الشاب النبي الطلعة ذي الوجه المعبر يغشوه النبل، معتدل القامة أبيض اللون، أسود الشعر كثيف اللحية منبسطة الوجه أفنى الأنف، عيناه سوداوان تمتازان ببعد النظر ووضوحه.

يتميز ببنية جسمية نحيفة وقوية ملامحه تدل على ذكاء وقاد وهدوء نادر، إضافة إلى سمة الأناقة والحسن اللذان كانا يميزانه.¹

وقد وصفه "لندديري" بعد ما حصل سنة 1815 على إذن من وزير الحربية الفرنسي بزيارته فقال: "انفتح الباب على مصراعيه فوقف أمامنا المحارب الهمام ببيرنوس أبيض كالثلج ولحية سوداء وحوارب عريضة مقوسة في نفس اللون مع أسنان في بياض العاج وعينين سوداوين مهيبتين يظهر منهما البياض السائل محيطا بالمقلة في شكل خاص، ويبو طويل القامة مهيبا وتؤدي إشارته وبشاشته ووداعته تعبيراً لا يكاد يفسر"²

أما عن شخصيته فقد تميز منذ صغره عن باقي شباب القبيلة، إذ كان ميالاً للعزلة محباً للقراءة مولعاً بالفلسفة ومتفوقاً في علم أحوال الضمير منتزهاً عن اللؤم حلماً كريماً عادلاً في الأمور ذا صبر وإرادة وشجاعة، متديناً، ورعاً مما جعله مهاباً بين أفراد قبيلته.³

¹ - الأمير عبد القادر ، ذكرى الماقل وتنبه الغاقل، ص.21.

• بوعزيز يحيى، الأمير بطل الكفاح الجزائري، ط.1 ، نشر وتوزيع المكتبة الشرقية تونس 1375 هـ/1957م، ص.40.

• كاتب ياسين، الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر، ترجمة محمد هناد، م.و.ك، الجزائر (د.ت)، ص - ص.14- 15.

• البستاني بطرس، المرجع السابق، مج.9، ص.938.

• Wahl (M.), *l'Algérie*, p.22.

• Xavier (B.), *Op. cit.*, p.223.

² - مجلة التايمز - لندن 15 أبريل 1851، نقلاً عن: سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج.2، ط.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، ص.47.

³ - السيد فؤاد الصالح، المرجع السابق، ص.195.

ونتبين هذه الصفات من خلال شعره حيث يقول¹:

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم & وأقوالى تصدقها الفـصال
ولو ندري بماء المزن يزري & لكان لنا على الظمان احتمال
ونحلم إن جنى السفهاء يوما & ومن قبل السؤال لنا نوال

ويقول في موضع آخر²:

وقد سرت فيهم سيرة عمرية & وأسقيت ضاميتها الهداية فارتوى³

وأما حديثه ونجابته وحذاقته ورزاقته وحسن رأيه وتدييره وميزان أقواله⁴ وأفعاله وترتيبها فيما يناسب الناس خاصة وعامة ويليق بمنزلهم كبارا وصغارا ومواساة ومعاملة وإحسان بطيب القول ولين الكلام وخفض الجناح وحسن الأدب وسائر الخصال التي يتمتع بها من نشأ من مثل زاويته بحيث يتعجب المريدون الوافدون أفواجا لزيارة والده من ذكائه وجودة قريحته وسعة أخلاقه.⁵

كان للتربية المنزلية الرفيعة التي تلقاها الأمير أثر على سلوكياته إذ جعلته يلتزم بأخلاق ارتبطت أساسا بالقرآن الكريم وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته رضوان الله عليهم.

وكان الأمير غير ميال إلى ملذات الدنيا ولا يأخذ منها شيئا سوى ما يسمح به دينه فكان يبتعد عن الثروة والغنى ويعيش ببساطة متناهية في غاية التواضع، إنه ينهض في منتصف الليل لكي يشفع لروحه وأرواح أتباعه عند الله عز وجل وكانت غبطته الوحيدة

¹ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص.35.

² - صيام زكريا، المرجع السابق، ص.60.

³ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص.60.

⁴ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص.194.

⁵ - كاتب ياسين، المرجع السابق، ص.52.

تكمن في الصلاة والصيام فكان على درجة كبيرة من العفة والنزاهة لهذا حظي بتقدير المعاصرين والدارسين له.¹

إذ قدم لنا الأمير المثال والقُدوة في التعامل الإنساني خاصة مع القواد والأسرى والفرنسيين والشخصيات التي زارته في سجنه، فكان يعامل الأسرى كضيوف يرسل لهم النقود من جيبه الخاص ويوصي بطعامهم وكسوتهم بل مكنهم حتى من تلبية حاجاتهم الروحية.²

ولم يقف الأمير عند هذا، بل طلب من الأسقف الفرنسي المجيء إلى معسكراته ليصلي بالأسرى ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم ويكون واسطة لهم للحصول على النقود والثياب والكتب، بحيث يخفف عنهم شدة الأسر وسيكون هو محل احترام وتبجيل على شرط وعد شرف أن لا يتعرض في رسائله إلى الحديث عن حركات الأمير العسكرية.³

وهناك مثال آخر على عدم تعصب الأمير وسمو شخصه يتعلق بمسألة تبادل الأسرى في 21 ماي 1841⁴، وبفضل حنكته أقنع الأسقف المسيحي بإطلاق سراح المسلمين محتجا عليه بالعنوان المزدوج الذي يحمله خدمة الله وخدمة الإنسانية.

وعن موقفه من بقاء اليتامى الجزائريين عند الأسقف، فقد أرسل إليه قطيعا من الماعز ليكون قادرا لمدة طويلة على إطعامهم.⁵

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.200.

• أركون محمد، الإسلام والأخلاق والسياسة، ترجمة صالح هاشم، منشورات اليونسكو - باريس - بالتعاون

مع مركز الإنماء القومي، بيروت 1990م، ص - ص. 60 - 61.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.1، ص.202.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.1، ص.202.

⁴ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.201.

⁵ - المقصود هنا الأسقف " Dupush "

• Tournier (J.Le.), La conquête religieuse de L'Algérie, 8^{ème} édition, Paris 1930, p.168.

وعندما يعرض الأسرى إسلامهم ينصحهم بالتريث وتقدير الأمور، وإذا كان في ضيق وشدة ويصعب عليه الحصول على الغذاء يطلق سراح المسجونين دون فدية أو مقابل حتى لا يتضرروا.¹

وبالنسبة لغير الأسرى ما فعله مع القواد الذين وقعوا عقودا مع الأمير بإذن من الحاكم العام للقيام ببعض الأعمال في المدن التي هو بصدد بنائها، وكان الاتفاق أن يحصل كل واحد منهم على ثلاثة آلاف فرنك، وعندما استأنفت الحرب طالبوا بالعودة ونصف العمل لم ينته، فرافقتهم حامية وأعطى لهم عهد الأمان ورخصة العودة، وفي الحدود تسلم الفرنسيون كل الحساب المتفق عليه، وتسلموا بذلك حساب عمل هم في الواقع لم ينتهوا منه.² ولهذا قال أحد الجنرالات الفرنسيين كرد فعل على مواقف الأمير هاته: "لقد كان علينا أن نخفي هذه الأشياء بقدر ما نستطيع على جنودنا لأنهم لو اطلعوا عليها لما كان في استطاعتنا أبدا أن نجعلهم يحاربون الأمير عبد القادر بنفس الاندفاع والحماسة".³

وكانت الفروسية تعني التعفف والكرامة والشرف، وممارستها تتصدى للظلم والجبروت، والأمير منذ طفولته تعلم بنفسه كيف يمتطي صهوات الخيول، فينتظر العدو وهو ثابت الجأش والقدم، وفي الانسحاب يحارب كأبي مقاتل بسيط جامعا رجاله بصوته وحضوره مشاركا إياهم كل الأخطار.⁴

والفروسية عنده خلق جهادي عالي المستوى، فهو شديد الحرص على أن يطبع حركته الجهادية بأخلاق الإسلام السامية، فلا يقتل أسيرا ولا يمثل بقتيل، وكان يأمر بالإحسان إلى الأسرى ويدعو لهم بالفرج والعودة إلى أهلهم - كما تقدم.⁵

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 201.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 203.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 204.

⁴ - أركون محمد، المرجع السابق، ص - ص. 60-61.

⁵ - عوض صالح، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة (1830-1962) دراسة تحليلية، ج. 1،

(د.ط)، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر (د.ت)، ص. 110.

امتاز الأمير بحسن الإدارة وعلو الهمة وقوة الفروسية والحزم والعزم فسي إدراك الأمور لا سيما في المواقف الصعبة.¹

ونلمس هذا في تعليق الإسكندر "بالمار" (Bellemare) عندما استولى الفرنسيون على معسكر، فكل حادثة كانت صالحة لأن تكون سببا قويا لسقوط أعظم قوة لسلطان راسخ القدم لكن الأمير كان يعلم أنه بسيفه يستطيع مجابهة العدو وإخضاع الذين ثاروا عليه.²

ومن دليل احترامه للذليل والشجاعة والإخلاص ما فعله مع " ماصون " - المدير العام في الولاية العامة - الذي رفض إفشاء أي سر من الأسرار العسكرية الفرنسية رغم أنه واقع تحت قبضة الأمير فأعجب به كثيرا ولم يكتف بالتسامح معه بل أمر بمذه بجميع وسائل الراحة.³

وكانت العادة في الحروب أنه من يأتي برأس أسير يجازى ولكن عند الأمير يجلد أمام العموم.

وقد تركت أخلاقه أثرا في خلفائه الذين اقتدوا به في معاملة الأسرى ومن بينهم ابن سالم وسيدي مبارك والبوحميدي هذا الأخير الذي كان صورة صادقة لروح الأمير حيث كان أسراه يتبرعون بسلاحهم (عند إطلاق سراحهم) تكريما له على حسن المعاملة.⁴

ومن باب الربط نقول إن حالة المشرق العربي العقلية والاجتماعية والسياسية بداية القرن التاسع عشر قد بلغت حدا من التأخر والانحطاط والسبب يرجع في أغلب الحالات إلى داء الجهل، فكان العقل وسيلة من وسائل توطيد الواقع الفكري وتجديره لا نقده وتحليله وتجاوز ما ورائه.

¹ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.1، ص.451.

² ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.1، ص.261.

³ الكولونيل اسكوت، مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر (1841)، ترجمة وتعليق العربي إسماعيل (د.ط)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1981، ص.99.

⁴ تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.204.

يذكر تشرشل (ص.211) أن صبر رجال الأمير وتجلدهم جعلهم يأكلون البلوط وخبولهم تآكل ورق الشجر لمدة عشرين يوما حتى لا ينكشف أمر الزمالة.

إن الحفاظ والفقهاء، اللغويين والشعراء، النحويين و الكيميائيين. علماء الفلك والرياضيات، أصحاب الفلسفة والأطباء، كلهم كانوا يعيشون على التراث السابق يرددونه ويكررونه همهم حفظ وتسجيل سير رجال "علم لا تطوير العلم نفسه، فاقترت الجهود الفكرية على الجمع والتلخيص والشرح والتذييل.

ومن جهة أخرى هيمنت قيم التسليم على القيم الدينية الأخرى، مما أدى إلى تعطيل الفكر وعدم أداء مهمته مادام بالإمكان تعليل كل شيء بعلّة العلل "قادر على كل شيء سبحانه.

وقد انحط هذا التفكير الماورائي بالتدرّج حتى أضحي باسم التقى وعمق الإيمان يقبل أموراً شتى:

- تعطيل قوانين الطبيعة.
- تقبل الأسطورة فيكون لمكان معين أو يوم محدد أو شجر أو حيوان أو إنسان قدسيات خاصة.¹
- اقتصار العقل على التلقين والترديد.
- اعتماد مبدأ السكونية، فالفكر الإسلامي بعد مرور العصور الأولى اعتبر أن مرور التاريخ والزمن ليس بذي قيمة.²

وإلى جانب هذه المساوئ لا ننكر بعض الإيجابيات فالغيبية المضخمة مكنت من وجود القادة الصالحين للقيام بأمر المقاومة ووجود محفزاتها. والتلقينية أدت إلى الحفاظ على التراث الفكري وعدم فقدان الهوية والانتماء.

هذا عن العالم العربي الإسلامي والذي تعتبر الجزائر جزءاً منه، أما بالنسبة لأوروبا فقد كانت تعيش مرحلة تغيير جذري على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي خاصة ببداية ظهور الثورة الصناعية وبداية قيام الثورات بقيادة زعماء ومفكرين

¹ ابن هذوقة عبد الحميد، "الأمير عبد القادر والمجاهدة اللامتكافئة"، الثقافة، ع (خاص)، 75، 1463/م 1983، ص. 199.

² مصطفى شاكر، أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، نشرت ضمن دراسات أخرى ألفت في ندوة فكرية بالكويت في أبريل 1974.

نقلا عن: بن هذوقة عبد الحميد، "الأمير عبد القادر والمجاهدة اللامتكافئة"، ص. 200.

من أجل المطالبة بسقوط نظام الحكم المطلق وتدخل الكنيسة في شؤون الحكم، وفسح المجال أمام الأفراد والجماعات ليمارسوا حقهم في انتخاب ممثليهم والنظام الذي يحقق مصالحهم ويضمن حقوقهم.

وأهم حدث مثل هذه الأفكار الجديدة قيام الثورة الفرنسية التي أثارت حفيظة ملوك أوروبا، الذين يحكمون باسم الحق الإلهي مؤيدين من طرف الإقطاع والكنيسة.¹ فالشعوب الأوروبية التي أيقظتها نداءات الحرية وحروب نابليون قامت لتحارب الأنظمة المستبدة المطلقة.

خلال هذه الفترة وتلك التحولات نشأ الأمير عبد القادر من دون أن يصطدم بها مباشرة.²

¹ سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط.2، ش.و.ن.ت، الجزائر (د.ت)، ص.217.

² سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص - ص. 272 - 273.

2. 3/ أثر رحلة الحج في شخص الأمير عبد القادر:

أراد محي الدين - وقد ناهز الخمسين من عمره - أن يترك الجزائر ويرحل إلى الديار المقدسة ليؤدي فريضة الحج وبيتعد عن الجو المتوتر بوهران ويعطي لولده عبد القادر وهو لم يتجاوز بعد الثماني عشرة سنة الفرصة للحصول على المزيد من الثقافة الإسلامية بزيارة موطن الوحي وأقطار المشرق العربي.

غادر الاثنان القيطنة مع عدد كبير من زعماء غريس لكنهم فوجئوا بجنود الباي "حسن" حيث قبضوا عليهما ووضعوا تحت المراقبة العسكرية المشددة.¹ استمر الوضع على ما هو عليه إلى منتصف سنة 1826 حيث أفرج عنهما وأراد محي الدين العودة إلى قريته لكنه استدرك الوضع وخشي عواقبه فقرر استئناف حجه مع أتباعه.

غادر محي الدين وولده وهران في شهر أكتوبر 1826²، وعندما وصلا إلى مصر توجهوا إلى العاصمة وقد استقبلهما واليها محمد علي بكثير من الحفاوة والتكريم وأنزلهما قصره.³

وفي القاهرة شاهد عبد القادر الإنجازات الضخمة التي أدخلها هذا الوالي في محاولات إدارته واطلع على القوانين التي سنّها لتنظيم جيشه ووحداته المسلحة⁴ فأعجب به وشعر بأنه مثال يحتدى ويقتدى به.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.42.

• بوعزيز يحيى، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ص - ص. 18 - 19.

هناك اختلاف حول تاريخ ابتداء الرحلة حيث يذكر تشرشل (ص. 42) أن عبد القادر ووالده غادرا القيطنة في أكتوبر سنة 1823، أما بوعزيز يحيى (ص - ص. 18 - 19) فيقول إن بدء الرحلة كان سنة 1241هـ / 1825م.

• Dieuzaïde (V.A.), *Histoire de L'Algérie (1830-1870)*, T.1, Oran 1880, P. 24.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.45.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.931.

³ - بوعزيز يحيى، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ص.20.

⁴ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.45.

ثم تركا القاهرة متوجهين إلى مكة التي وصلوها في أوائل 1827¹ وبعد إتمامهما الواجبات الدينية توجهوا من المدينة المنورة نحو دمشق حيث أتيح لعبد القادر قرابة الشهرين فرصة الاستماع إلى أقوال الفقهاء ودروس العلماء حيث سمع هو ووالده عن الشيخ عبد الرحمن الكزبري لبعض البخاري بمسجد بني أمية، كما أضيف اسم الشيخ خالد النقشبندي البغدادي الشهرزوري الصوفي الأديب المتأثر والمؤثر بأسلوب مقامات الحريري.

من دمشق قصدا بغداد حيث استقبلها حفيد الجيلاني وقد سكتا إحدى دور قاضيها محمد زكريا مدة ثلاثة أشهر تقريبا وخلال إقامتهما فيها زارا قبر الولي عبد القادر الجيلاني²، ثم عادا إلى مكة مرة ثانية ومنها اتخذوا طريق العودة وقد شاهدوا قاهرة مصر أيام المولد النبوي والاحتفال بفيضان النيل.

وغادرا القاهرة إلى كرداسة قرب الأهرام الثلاثة حيث شاهدها ومن ثم إلى برقة لزيارة الجد مصطفى بن المختار في عين غزالة.

ومن طرابلس سارا إلى " قابس " تلك التي سيوجه الأمير نداء لأهلها بعد هجرته إلى المشرق عسى أن يحفروا لها قناة كالسويس.

ثم بلغا القيروان ومنها إلى وهران فوادي الحمام الذي وصلاه في أوائل سنة 1829³، حيث تكاثرت الوفود وتجمع المستقبلون لتقديم التهاني لسلامة العودة⁴.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.45.

² - السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص - ص.23- 24.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.931.

⁴ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.45.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.931.

• السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص.45.

• سلسلة أبطال العرب، الأمير عبد القادر الجزائري، (د.ط)، دار العودة، بيروت 1975، ص.39.

ويبدو أن علم الرحلات كان أحد أهداف محي الدين حيث لم يبق من تقاليد التعليم الشائعة في بيئته وعصره إلا أن يرحل به إلى الضواحي الحقيقية والمجازية ليتمرّن من كل بلد يمرّ به بمناقب أهله.

زار عبد القادر معظم الأقطار العربية وطوّف بأشهر مدنها في المغرب والمشرق مثل قسنطينة، تونس القيروان والإسكندرية وطنطا والقاهرة ومكة والمدينة والقدس ودمشق وبغداد، وسيبقى أثر مشاهدتها بيّنا في سلوكه وفكره.

كما حضر دروس علمائها وفقهائها حيث عاش يألف علماء المشرق في بغداد ودمشق والقاهرة وبخاصة أذاد الأزهر وثواره وأحرار الرأي منهم في عصره وظل يرأسهم ويستفتيهم وهو أمير وحن إليهم وهو أسير ويسابقهم العلم والشعر وهو حرّ طليق.¹

فأضاف إلى رصيده العلمي معارف جديدة واسعة وأطلع على أنظمة الحياة وأساليب الحكم المختلفة، وطرّاز المعيشة في المدن فعاد إلى وطنه بما يناسب تكوين بيئته وحاجته.²

كما أتاحت له هذه الرحلة فرصة التعرف على تطوّر الوضع السياسي للعالم الإسلامي آنذاك، حيث شاهد الفتنة التي قامت في مصر بسبب ثورة المماليك على أميرها وكذا الحرب بين أمير مكة وأمراء نجد الوهابيين.³

¹ - السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص. 21.

² - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص. 184.

• مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، (د. ط.)، (د. ط.)، 1971، ص. 143.

³ - ذكر هذا الشيخ محي الدين من خلال وثيقة كتبها في طريق رجوعه من الحج إلى أخيه علي أبو طالب الذي خلفه كعميد للأسرة بالقيطنة.

أنظر: البوعبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، ص - من 134 - 135.

هذا في المشرق أمّا في المغرب العربي وخاصة الجزائر فقد تعرّف على أسر علمية عن طريق والده، هذه الأسر التي سيكون لها الأثر البعيد في إرساء دعائم دولته فيما بعد كأسرة البركاني بشرشال، وابن علّال بالقليلة اللّتين وجدا فيهما دعما له ولدولته بعد توليته الإمارة.¹

وختاماً فإنّ هذه الرحلة قد رسخت البعد العربي الإسلامي في شخصية الأمير وإنّ الوعي الذي استخلصه من المشرق خاصة هو الذي سينشئ لديه الرّغبة فيما بعد لتأسيس دولة إسلامية قويّة بشمال إفريقيا عندما تهيّئه الظروف ليدافع عن شعبه وأرضه.²

¹ - المهدي البوعبدلي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، ص.134.

² - كاتب ياسين، "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر"، الثقافة، ع.(خاص).75، 1403هـ/1983م، ص 177-178.

يقول (Xavier.B.) : أنّ الحجّ أعطاه لقب الحاج وزاده أهميّة وانتباه الشعب له ولو ظهر في أيام السياسة العربية الأولى لكان من أكبر رجالها. أنظر:

• Xavier (B.), Op. cit, p. 224.

2. /4 مستوياته الفكرية:

تكوّن عبد القادر تكويناً ثقافياً متنوعاً بروح الدين الحقيقي الذي لا يفهم على أنه عبادة وعبادة فحسب، بل معركة وجهاد ومثل وأخلاق، وهذا ما أكدّه في قوله¹:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا & لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه & فصدورنا بدمائنا تتخضب
ريح العبير لكم ونحن لنا عبيرنا & وهج الستابك والغبار الأطيب

فتكوّنه الاجتماعي والفكري لم يقده إلى الجمود والتعصب، بل فسح له المجال واسعاً للتطلع على مختلف ثقافات العالم من خلال أسفاره ورحلاته والدراسات والثقافات العديدة التي اطلع عليها من فلسفية ودينية وصوفية ولغوية ونحوية خاصة أثناء رحلته إلى المشرق، فعرف من أنماط الحضارة الفكرية والاجتماعية ما يوسع أفق الذهن ويفتح مجال الرأي، فكانت أهم الدروس السياسية والاجتماعية.

هذا إضافة إلى انكبابه على دراسة الكتب والمؤلفات بعد عودته؛ منها دراسة أعمال أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو، ودراسة كتب مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة الإسلامية عن التاريخ القديم والحديث، وعن الفلسفة واللغة والفلك والجغرافيا بل حتى الطب وبذلك تكوّن لديه رصيد معرفي علمي هام، وثقافة موسوعية ثرية.²

وقد أثرت تلك الثقافة في سلوك الأمير، فهو إذا منّ بمقومات العروبة والإسلام، وخصائص الشّرق فإنما هو إيمان عن وعي وبصيرة وتقدير، وإذا أثر روح الحفاظ على التقاليد والتّودة في اصطناع الجديد من الأنماط فإنما هو الإيثار القائم على العقيدة المستنيرة والرأي السديد.

وربّما كان الأمير في تحمسه للتقديم لا يخلو من بعض الغلو، لكن مردّ ذلك إلى ما امتلأت به نفسه من حبّ للعروبة والإسلام.

¹ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص. 116.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 47-48.

وليس روح المحافظة مما يستهان به في تقويم النهضة، وفي توفير العدالة الاجتماعية، فالمحافظة إنما تمثل فلسفة لها دعائمها في الحياة، ولها نصيبها من الحق، فهي عنصر من عناصر السداد في التقدم لا غنى عنها في مراحل التطور، الذي تفتقر إليه الأمم عند الصنحة من سباتها العميق.¹

وقد بقي الاطلاع وحب الثقافة ملازماً للأمير أثناء جهاده، فكان على علم بكل ما يدور من خلال الصحف الفرنسية بواسطة مترجمين يحسنون فهمها ليكون على بيّنة من مقاصد عدوه.²

أما عندما ألقى السلاح - توقف عن الجهاد - ، فقد عاد إلى القلم يتعزى به عن السيف وازداد شغفه بالمطالعة، التي زودته بالكثير من العلوم ومعرفة الآداب، فدرس كتب العلم و الفلسفة اليونانية، وتعمق في دراسة الفقه والحديث والعلوم الاجتماعية، فكانت له مكتبة يعتز بها جمعت أنفس الكتب والمجلدات والمخطوطات.

درس الأمير كتاب الإحياء، وتأثر به ونقل عنه، وهو ينتقد المتكلمين والفلاسفة وينصح لنا أن نسلك طريق الأنبياء في التعرف على الله - عز وجل - ولا سبيل لمعرفة الله إلا بها.

وقرأ كتاب " الإتيان في علوم القرآن " وكتاب " الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز " وكذا كتاب " الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى " للقاضي عياض، كما حقق الفتوحات المكية لابن عربي.³

¹ - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص.145.

• Wahl (M.), Op. cit, p.122.

² - بنت الشاطن، " عبد القادر الجزائري قصة بطولة وكفاح في سبيل الوطن العربي"، السهل، مج.55، ج.1، دار الهلال 1958، ص.48.

³ - عوض صالح، المرجع السابق، ص.113.

وله قدرة عالية على الاستنباط والفهم من كتاب "الله عز وجل. وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - مما جعل علماء المشرق وفقهاءها يطلبون منه أن يكون أستاذهم، وتآلف صف من ستين عالما وطالبا كانوا يجتمعون إليه يوميا.

وكانت له مناظرات كثيرة مع العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء، ومبادلات بالرسائل العلمية، والأسئلة والأجوبة، تدل على عمق مطالعة وغزارة معرفة، حتى ليعجب الإنسان كيف اجتمع لهذا المحارب مثل هذه الحصيلة من العلم.¹

وتتحلى نتائج المستوى الثقافي الذي بلغه الأمير فيما ألفه خاصة "كتاب المواقف" الذي يدل على أنه كان مطلعاً على الثقافة الإسلامية بوجهيها الديني والديني اطلاقاً جيداً، فهو يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويشرحها ويناقش مضمونها، كما أنه يورد كثيراً من ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين وآراءهم ومناقشتها متحدياً للفلسفة الطبيعية مصراً على التوحيد.²

ولا أدل على المستوى وتلك الثقافة الواسعة من قول الأمير³:

فإن شئت علما تلقني خير عالم & وفي الروع أخباري توهن القوي
لنا سفن بحر الحديث لها جرى & وخاضت قطاب الورد ممن بها ارتوي
وإن رمت فقهه الأصبحي فعج على & مجالسنا تشهد لسواء العنادوا
وإن شئت نحوا فأنحني تلق ماله & غدا يذعن البصري زهدا لما روى

¹ - سلسلة أبطال العرب، الأمير عبد القادر، ص. 153.

² - بلغراد محمد، "الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر"، التاريخ، ع(خاص)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1993، ص. 57.

³ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص. 102.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 149.

ومن خلال ما ذكرناه بالنسبة لمرحلة تعلم الأمير وأسسها وخصائصها، إضافة إلى الثقافة الإسلامية التي أحاط بها من خلال رحلته إلى المشرق، يمكننا القول بأن الأمير كان لا يتوقف على مجرد النقل عن قبله، وإنما يضيف شروحا من عنده تختلف من حيث المعنى، عن الشروح الواردة في الكتب، فقد امتاز بخصوبة الفكر وسعة الخيال وحسن التأمل في القضايا والموضوعات المختلفة.¹

وقد أصبح بفعل هذا الاجتهاد فقيها في حداثة سنه يفسر الآيات والأحاديث النبوية بطريقة تجعل كل من يستمع إليه يقتنع بتفاسيره، بالدقة والمنهجية في عرض المسائل، زيادة على "الموضوعية" التي يبديها أثناء المناقشة، هي أهم مميزات شخصيته، فليس الاجتهاد عنده مجرد رغبة يملئها الطموح وإنما هي طبيعة مستوحاة من قدراته الفطرية، لأن الإنسان في نظر الأمير لا يوفق في طلبه للشيء إلا إذا كان ما يطلبه موجودا بالاستعداد.²

فهو يفسر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية البالغة الصعوبة دون أن يستشير كتب العلماء.³

وإذا أتينا إلى تصنيف الأمير الفقيه في أي درجة هو من الاجتهاد، فإننا ننتبين أولا درجات هذا الأخير لنحكم عليه فيما بعد ونصنفه التصنيف الصحيح، فالفقيه المجتهد صفتان مطلق، ومقيد.

• **المطلق:** وهو الذي يكون على دراية بنصوص الكتاب والسنة، آراء الصحابة، اللغة العربية، مواطن الإجماع، أسباب نزول القرآن الكريم، ويضع لنفسه أصولا يجتهد وفقها.

¹ - ملاح أحمد، التصوف والإصلاح عند الأمير عبد القادر، دراسة تحليلية نقدية، ماجستير، قسم الفلسفة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر، ص.23.

² - الأمير عبد القادر، كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج.1، ط.2، منشورات دار اليقظة العربية، دمشق 1387 هـ/1867م، موقف (32)، ص.78.

³ - أركون محمد، المرجع السابق، ص - ص. 60-61.

• **المقيد:** وهو الذي يلمّ بالأمر التي ذكرناها، ثم يلتزم باتباع منهج اجتهاد إمام من الأئمة (مالك أو الشافعي - رضي الله عنهم-).

وكلا الصنفين تكون له القدرة على بثّ الحكم في الأمور الحادثة، أما **الفقيه المرحح** فهو:

الذي ينظر في الآراء المتعارضة المتدوّنة من طرف الإمام ومتبعيه ويرجع منها الأوفق، ومن الأمثلة على هذا الصنف، الشيخ الدرديري، الشيخ عيّش، والشيخ محمد التسولي.

على خلاف **الفقيه المقيد** الذي يحفظ آراء المذهب ويفتي بها ولا يخرج عنها لأنه لا يحسن استنباط الأدلة فيما يتعلّق بالأمر الحادثة.

واستنتاجاً، يمكن تصنيف الأمير ضمن الفقيه المقيد على أساس رصيده العلمي، ثم ما بعث به من رسائل إلى علماء مصر والمغرب يستفتي في الأمور التي طرأت له زيادة في الحجة وتدعيماً للحكم الشرعي الذي استنتجه، وترجيح الأصح والأقرب إلى النصّ الشرعي.

2. 5/ محنته ووفاته:

عندما توقف الأمير عن الجهاد، كان من بين الشروط التي وقّعها مع الجنرال "لامورسيير" أن ينتقل إلى إحدى البلدان العربية، لكن فرنسا خانت العهد، ووجد نفسه في قصر "أمبواز" تحت الإقامة الجبرية، فأقام فيه متمسكا بعري الصبر، متجلدا بنواب الذهر، قائما بواجب العبادة، وقد داوم على تدريس العلم وإفادة الطلبة من جماعته فقرأ الصغرى للسنوسي في علم الكلام ورسالة الإمام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذهب الإمام مالك وغيرها من المصنّفات.¹

واختارت الحكومة الفرنسية لمؤانسة الأمير ومجالسته "محمد الشاذلي القسنطيني"، حيث توطدت العلاقة بينهما.²

وما يلاحظ على الأمير في سجنه تمسكه بمبادئ دينه ووفائه لها، ولتقاليد أسرته ووطنه، فكان يقوم الليل ويعلم أبناءه على طريقة أبناء وطنه، ويكثر من المطالعة.

كان مثالا لكل من رآه في سجنه من رجال السياسة والعسكرية والدين والفكرة، فجميعا كانوا يخرجون من عنده مبهورين بشخصيته معجبين بعلمه، مقدرين لسماحته .

واستمرّ الحال على ما هو عليه إلى غاية 29 صفر 1256 هـ الموافق لـ 20 ديسمبر 1848 حيث انعقد مجلس خصوصي على رأسه نابليون الثالث، الذي خرج بقرار إطلاق سراح الأمير.³

¹ ابن عبد القادر محمد ، المصدر السابق، ج.2، ص. 529.

• Cokenpot (Ch.), Le traité Desmichels, Paris 1924, p-p. 364-387.

- مما يذكر أن الأسير عندما استسلم لم تبق له إلا الصلاة. وقد تعاملت معه أوروبا بكرم لتبرهن على تحضرها ، أنظر:

• Ideville (C.H), Le marechal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits (1784-1849), 3 ème édition, Paris, 1885, p-p 80-81.

² سعد الله أبو القاسم، محمد الشاذلي القسنطيني (1807-1877) دراسة من خلال رسائله وشعره، (ده ط)، ش.و.ن.ت "جزائر 1974، ص.51.

³ سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، ص.133.

فغادر فرنسا باتجاه الأستانة التي وصلها في 28 ربيع الأول 1269هـ - 8 يناير 1853¹، وبعد أن أقام بها عشرة أيام انتقل إلى بروسة، وفيها كان يقرئ الدروس في "جامع العرب" حيث أقرأ ألفية ابن مالك بشرح المكودي، والسنوسية بشرح المصنف والإيساغوجي للفتاوى².

ومنها توجه إلى دمشق حيث استقر بها معززا مكرما إلى أن وافته المنية. وفي الشام كان الأمير الذي سبقته سمعته إلى المشرق، محل احترام وتقدير من معاصريه فالتف حوله أهل البلاد وأخذوا عنه كل في ميدانه، فهذا يأخذ علما وآخر يأخذ حكمة ونصيحة سياسية، وبذلك أصبح مركز إشعاع ونقطة لقاء للسياسيين والمفكرين والعلماء بالإضافة إلى الفقراء والمعوزين.

وتعتبر هذه المرحلة مرحلة تبدل أساسي وتغيير جوهري في حياة الأمير عبد القادر فقد أغمد سيفه وجرّد قلمه، وفي ذلك تغليب للنواحي الفكرية والثقافية والعلمية على النواحي البطولية والقتالية والعسكرية حيث اعتبرت أغنى مراحل حياة الأمير قراءة ومطالعة وتأملا صوفيا³.

وإن موقف الأمير من مذبحه المسيحيين سنة 1860 يضيف مآثرة جديدة إلى مآثره، عبرت أطراف عنها بالهدايا والأوسمة الرفيعة التي تلقاها بهذه المناسبة⁴. وهذا التدخل جليله محل أنظار العالم وجلب له المدح والثناء من ملوك ورؤساء الدول آنذاك، فالعالم كله أصبح ينظر إليه على أنه لم يعد بطل الجزائر فقط، ولا رافع لسواء الجهاد في سبيل الله وحده، بل رمز التسامح الإسلامي العربي⁵، إلى درجة أنه حظي بتقبة نابليون الثالث وأراد تعيينه على رأس إمارة عربية نظرا لكفائته في الحكم كرجل دولة.

¹ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.571.

² ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص - ص.580-581.

³ السيد فؤاد صالح، المرجع السابق، ص.227.

⁴ للمزيد من التفاصيل حول هذه المذبحة، أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص - ص.632-635.

⁵ أو هانيسيان يوري ستينا نوفتش، "الأمير عبد القادر"، صادر عن دار مولودايا غفارييا، في موسكو

1968، من تأسيس مكسيم غوركي سنة 1922، عرض: عماد حاتم، الثقافة، ع.1، 1973، ص.127.

توفي الأمير عبد القادر وأسلم وجهه لله عز وجل بدمشق في منتصف ليلة السبت، 19 رجب عام 1301هـ/ 26 أو 25 ماي 1883 في قصره الكائن قرب قرية دمر وقد تولى غسله وتكفينه عبد الرحمن عيش أحد علماء الأزهر، حيث صلوا عليه بالجامع الأموي ثم شيّعه أهل دمشق¹ وقد دفن بجوار صفيته الشيخ محي الدين بن عربي².
ومن غريب الاتفاق أنه ولد في رجب وبويع في رجب وتوفي في رجب.

وقد أثرت وفاته على أهل الأستانة لا سيما العلماء الأعلام والأمراء العظام تأثيرا عظيما فأبنته جرائدهم أحسن تأبين ورثاه أدباؤهم خير رثاء.
ومن بين الذين رثوه رسول أفندي النجاري في كتابه المخطوط "الجواهر الغالية الأثمان في الرحلة إلى دار خلافة آل عثمان" منها مقتطفات³:

وباطن الأرض يطوي كل منتشر	&	حوادث الدهر لا تبقى على بشر
سليل خير الأنام المصطفى المضري	&	هذا الأمير الخطير المعتلى شرفا
صافي السهررة طبعا طيب السير	&	من كان للقادر الغفار عابده
ويلتجون به في البدو والحضر	&	أمير مجد يلوذ اللاندون به
أما خلفا كعد الرمل والمدر	&	قد عم إحسانه الأقطار أجمعها

¹ - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتبنيه الغافل، ص. 20.

² - النجاري علي حيدر، "الأمير عبد القادر قصيدة مخطوطة في رثائه"، الثقافة، ع. 37، 1397هـ/ 1977م، ص. 54.

³ - النجاري علي حيدر، "الأمير عبد القادر قصيدة مخطوطة في رثائه"، ص. 56.

كما تأثر الرأي العام التونسي لوفاته، حيث نشرت جريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر تحت رقابة سلطات الاحتلال خبر نعي المجاهد الكبير بعد خمسة أيام من وفاته أي في 24 رجب الموافق لـ 30 أو 31 ماي 1883، وقد صدر المقال تحت عنوان: "نزىل دمشق وفقيدها"¹، ومما يذكر أن وفاته تزامنت مع وفاة العلامة بطرس البستاني. ونقل وفاته إلى الجزائر في عام 1966.

وقد كتب على شهادة الضريح تاريخ وفاته الأديب الشيخ عبد المجيد الخاني ما نصه²:

لله أفق صار مشرق دارتـــــــي & قمرين هلاً من ديار المغرب
الشيخ محي الدين شيخ الأولياء & قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسني الأمير & قمر المواقف ذا الولي ابن النبي
من نال مع أعلى رفيق أرخسوا & أذكي مقامات الشهود الأقرب

¹ - الجابري محمد صالح، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، فصل "أصدقاء جهاد الأمير عبد القادر -

(د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص.84.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص - ص.857 - 858.

2. 6/ آثاره العلمية:

إن الجانب العقلي مهم جدًا في حياة الأمير عبد القادر، فقد ألف بعد خروجه من الجزائر عدة أعمال فإغنية وتاريخية ودينية وأدبية شعرية.

2. 6. 1/ الآثار الشعرية:

• **الديوان:** وهو أكبر آثاره الشعرية، وهذا الديوان لم ينظم في فترة زمنية معينة، ولا في بقعة جغرافية معينة، بل نظم على فترات متقطعة، فقد رافق حياة الأمير منذ شبابه في أرض الجزائر إلى وفاته في دمشق.

وكانت فرنسا السبابة في محاولتها الأولى لجمع شعر الأمير عندما ظهر فيها كتاب بعنوان: "أشعار الأمير"¹ يضم بعض أشعاره، والقوانين العسكرية التي كانت سارية المفعول في جيشه، عندما كان قائما بأمر الجهاد.

أما المحاولة الثانية فقد قام بها الأمير محمد الذي جمع شعر والده في ديوان صغير عنوانه: "ترجمة خاطر في قريظ الأمير عبد القادر"، وهي مجموعة حوت من شعر الأمير ما لم يثبت في كتابه المسمى المواقف.

وقد تم طبع هذا الديوان في مصر عام 1317هـ/1899، بدليل أن مجلة "الهلال" ذكرت الديوان تحت عنوان "باب التقريظ والانتقاد"².

¹-Rosetty ; Poésies D'Abd el Kader, les reglements militaires, Paris 1848.

يتألف هذا الكتاب من ستين صفحة، وله مقدمة باللغة الفرنسية تتألف من ثماني صفحات، ولا يضم هذا الكتاب إلا القصائد التي نظمها الأمير خلال فترة وجوده في أرض الجزائر، قبل نفيه إلى فرنسا وأسرته في أمبواز. وهذه القصائد هي من نوع الفخر والحماسة، ذلك الشعر الذي نظمته خلال فترة جهاده الشعبي والرسمي التي امتدت من عام 1246هـ/1830 إلى 1264هـ/1847 حين استسلامه للفرنسيين. وبذلك ضمت هذه الطبعة جزء قليلًا من شعر الأمير لأن القسم الأكبر من الديوان قد نظمته خلال فترة نفيه عن أرض الجزائر والتي امتدت ما بين عام 1264هـ/1848 إلى وفاته سنة 1300هـ/1883 وقد اعتبرت هذه المرحلة من أغنى المراحل في حياة الأمير الإنسانية والأدبية والفكرية.

²- مجلة الهلال، القاهرة 1317هـ/1899م، مج.7، ج.20، ص.629، نقلًا عن: السيد فؤاد صالح، المرجع السابق، ص.89.

وفي مطلع الستينيات من هذا القرن بدأت أولى المحاولات العلمية الصحيحة لتحقيق الديوان وضبطه وشرحه مع الدكتور ممدوح حقي، فظهرت الطبعة الأولى عن دار اليقظة العربية في دمشق، دون تحديد تاريخ الطبع، ويتألف هذا الديوان من ثمان وستين ومائة صفحة من القطع الوسط، وقد نشر هذا الديوان كما يقول محققه بمناسبة مرور مائة عام، على حماية الأمير نصارى الشام في فتنة 1276هـ/1860¹

وكان من نتيجة ذلك أن تلمس الديوان طريقه إلى قلوب القراء بغير معونة. وعرف كثير - من لم يكن يعرف - قيمة الأمير عبد القادر شاعرا، كما عرفوه: مجاهدا كريما، وبطلا هماما، وسياسيا لبقا، ورجلا عبقريا.

ثم ظهر الديوان في طبعته الثانية للمحقق نفسه عن دار اليقظة العربية في بيروت عام 1384هـ/1964 في أربع وعشرين ومائتي صفحة من القطع الوسط ونشره المحقق بمناسبة استقلال الجزائر العربية.²

وكانت الطبعة الثالثة والأخيرة للمحقق نفسه، الصادرة عن دار اليقظة العربية في بيروت عام 1385هـ/1965 في ثمان وثلاثين ومائتي صفحة من القطع الكبير. ولقد رتب المحقق الديوان - تبعا لأغراضه - ، فإذ هي خمسة أنواع: الفخر، الغزل، والمساجلات، والمناسبات، والتصوف.³

إذن، فالديوان رتب ترتيبا موضوعاتيا، تبعا لموضوعاته وفنونه، لا ترتيبا تاريخيا، حسب تاريخ نظم القصائد، أو ترتيبا ألفبائيا حسب حرف الروي.

ولا تختلف هذه الطبعات الثلاث فيما بينها من حيث النص والموضوعات، فلم يعثرها تبديل أو حذف، بل كانت واحدة في مضمونها ومحتواها.

¹ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص - ص.632-635.

² صيام زكريا ، المرجع السابق ، ص.19.

³ صيام زكريا ، المرجع السابق ، ص.18.

ولكن ما يلاحظ على هذا الديوان، إهماله لقصائد الأمير الواردة في مقممة كتاب "المواقف" وكان من الأفضل أن يدخل هذه القصائد، وعددها ست عشر قصيدة - ضمن الديوان - وهي قصائد لا يستهان بها.

• القصائد الواردة في مقممة كتاب المواقف:

وردت هذه القصائد والمقطوعات في نهاية مقممة كتاب "المواقف" وقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة. ثلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقممة كتاب المواقف فقط.

تتميز هذه المواقف والمقطوعات بأنها تنتمي إلى فن أدبي معين، وهو فن التصوف.

2. 6. الآثار النثرية:

ترك الأمير عبد القادر آثارا نثرية ذات قيمة علمية هامة وهي:

• وشاح الكتاب¹ وزينة الجيش المحمدي الغالب:

رسالة في فنون الحرب، تتضمن ملخص الأنظمة والقوانين العسكرية، وأنواع المكافآت والعقوبات التي سنّها الأمير لجيشه الفتى، وتدل الرسالة على ما كان للأمير من بعد النظر، وثاقب الرأي في أمور الحرب، ونظام الجيوش، مع حداثة عهده بالحرب.

ولكن لا يمكن أن نعتبر الرسالة تأليفا بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد ثبت أن الذي صاغها هو كاتب الأمير قنور بن رويلة، أما دوره فيه فهو الأفكار والتوجيهات العامة.

¹ - **الوشاح**: بكسر الواو هو السيف والقوس.

أنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج. 2، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص - ص. 632-633.

• **الكتاب**: جمع كتيبة وهي القطعة العظيمة من جماعة الجيش أو جماعة الخيل إذا أغارت من المائة إلى الألف.

أنظر: ابن منظور، **المصدر السابق**، مج. 1، ص. 701.

وقد اعترف بذلك صراحة صاحب "تحفة الزائر" حين قال: وضع للجنود النظامي قوانين وضوابط، جمعها بعض كتّاب الجند في رسالة سماها: "وشاح الكتّاب وزينة العسكر المحمّدي الغالب"¹ بيد أنه لم يحدّد اسم الكتّاب الذي جمع هذه القوانين العسكرية، ورتبها، ونسّقها ودونها.

وقد اعترف جامع الرسالة في خطبته بأنّ الرسالة من إحياء الأمير عبد القادر وتصميمه². فأمر الأمير بكتابة هذه الرسالة، وسنّ القوانين التي ذكرت فيها من أهمّ الدوافع التي دفعت بكاتبنا لأن يحرّر هذه الرسالة على ما هي عليه.

وقد استدلّ محقق الكتاب أنّ الرسالة من تأليف قنور بن رويلة فقدّم عدّة أسباب وأدلة ثبوتية لا تدع مجالاً للشك.

وبعد دراسة الرسالة دراسة علمية من جميع جوانبها وإيراد الأدلّة والحقائق التي لا تدع مجالاً للشك، أثبت المحقق أنّ زمان تدوين الرسالة هو 15 جمادى الأولى سنة 1255هـ/1839. وأنّ الادّعاء بأنّ زمان التحرير هو 1249هـ/1833 مردود بوثائق نقلية.³

¹ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 191-192.

² أنظر النص: ابن رويلة قنور، وشاح الكتّاب وزينة الجيش المحمّدي الغالب، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1963، ص. 18.

³ من هذه الأدلّة: - أن كاتب الرسالة نسب إلى نفسه القصيدة العينية الموجودة في الرسالة والتي مطلعها: أغيوث السّماء سحت بروض & أم نسيم الصّبّا زكت بربوع.

وقد صرّح صاحب تحفة الزائر في (ص. 293) باسم ناظم القصيدة وهو قنور بن رويلة.

- أنّ معظم من تصدّى للكتابة عن الأمير عبد القادر من مؤرخين أوروبيين - ولا

سيما الفرنسيين منهم - متفقون على أنّ الرسالة من تأليف قنور بن رويلة.

راجع هذه الإثباتات: ابن رويلة قنور، المصدر السابق، ص - ص. 13-16.

وقد ظهرت ترجمة "وشاح الكتائب" باللغة الفرنسية - لأول مرة - على يد الترجمان روسيتي (Rosetty) في شوال 1259هـ/1843، وطبعت باعتناء الجنرال ماري (Marrey) بعنوان "قوانين من الأمير عبد القادر إلى جيشه النظامي"¹.

وظهرت أول طبعة عربية للكتاب في ربيع الثاني 1264هـ/1848 مع مقدمة باللغة الفرنسية، وتحمل عنوانا باللغة الفرنسية:

"Poésies d'ABd El Kader, les réglements militaires"

ثم توالى بعد ذلك طبعات الرسالة وكان آخرها طبعة الأستاذ المحقق محمد بن عبد الكريم.

• المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد:²

رسالة مطولة، دلت على طول باعه في التأليف، رد بها على الطاعنين في دين الإسلام ممن عموا عن فضائله وتشبثوا بما ليس منه في شيء من بدع المارقين وأهل النفاق. وهذا الكتاب بما فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة، يثبت وجود الخالق العظيم لهذا

¹ - وشاح الكتائب حسب مجلة:

• Bulletin de corespondance Africaine 1886.

فقد أعلن عنه: (A.) Berbregger في نوفمبر 1846.

كما ورد النص في:

• Revue de l'orient spectateur militaire, 15 février 1844, T.36, p.588.

ثم قام بترجمته إلى اللغة العربية بن عبد الكريم محمد، أما الذي ترجم الوشاح إلى الفرنسية فهو Rosetty (M.) ابن قنصل توسكانا في الإسكندرية من مواليد القاهرة سنة 1755، تولى عدة وظائف في الجيش الفرنسي في مصر سنة 1800، مات سنة 1863..

أنظر: تابلت علي، "الأمير عبد القادر بين الدهاء السياسي والعسكري"، جريدة السلام، الأحد 16 جمادى الأولى 1417 هـ الموافق لـ 29 سبتمبر 1996، ح.2، ص.15.

² - نشر الكتاب بضمه/ن: المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل والإلحاد "للأمير عبد القادر الجزائري" حرره محمد بن عبد الله الخالدي والمغربي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

وهذه الطبعة الوحيدة غير محققة تحقيقا علميا دقيقا فهناك العديد من الأشياء القويمة والمهمة التي يفتقدها الكتاب مثل الفهارس على الأقل.

الكون الهائل، ويبرهن مدى صحة وصدق الكتب السماوية. وقد ألفه الأمير خلال إقامته أسيرا في قصر "أمبواز"¹ بفرنسا يردّ بها على الطّاعنين في الإسلام وقوانينه الحكيمة.

إنّ تعتبر هذه الرسالة أولى المؤلفات النظرية التي ألفها الأمير خارج أرض الجزائر بعد نفيه عام 1264هـ/1847.

وقد رتّب الأمير رسالته على مقدمة وثلاثة أبواب.

◊ أما المقدمة: ففي الكلام عن العقل وما يتعلق به.

◊ الباب الأول: في إثبات الألوهية.

◊ الباب الثاني: في إثبات النبوة مع الرسالة.

◊ الباب الثالث: وهو موضوع الرسالة. ففيه بيان ما ورد في الشرع، من "وجوب

الوفاء" والأمر به، وترك الغدر، والنهي عنه، وما يتعلق بذلك، كالصدق

والكذب"².

ويعلّل الأمير ترتيب الأبواب على الشكل السابق بطريقة عقلية منطقية إذ إنّه يعتبر أن ترتيب هذه الرسالة، هو بحسب الترتيب عقلا لأنّ إثبات الألوهية، مرتب على وجود العقل، وإثبات النبوة والرسالة مرتب على إثبات الألوهية، وبيان ما يحمد وما ينمّ من الأقوال والأفعال، والصّفات مرتب على إثبات النبوة والرسالة.³

وهذا العمل الفكري بعث به الأمير إلى باريس، كمخطوط سنة 1855، وترجم إلى

الفرنسية سنة 1858.⁴

¹ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.542.

² ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص - ص. 543 - 544.

³ ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.544.

⁴ سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.2، ص.49.

• ذكرى العاقل وتنبية الغافل:¹

وهي رسالة مطوّلة أيضاً، تتضمن مسائل جمّة في مختلف العلوم، كالتاريخ، والفلسفة والدين والإصلاح الاجتماعي، والأخلاق، وهي رسالة في الحكمة والشريعة وتوافقهما، ومحاولة إيجاد صلة بينهما، واقتران إحداهما بالأخرى وائتلافهما نصاً وروحاً.

أما السبب الذي حمل الأمير على كتابة هذه الرسالة، فقد ذكره في مقدمة رسالته حين قال: "بلغني أنّ علماء باريز كتبوا اسمي في دفتر العلماء (انتخاب المجلس العلمي الفرنسي الأمير عضواً مراسلاً) وعظّموني في سلك العظماء... ثم أشار عليّ بعض المحبين منهم، بإرسال بعض الرسائل إليهم. فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء الأعلام، ورميت سهمي بين السهام."²

وإنّ ميل الأمير إلى مثل هذه الموضوعات ناتجاً عن قراءته لكتب فلاسفة اليونان والمسلمين، واحتكاكه ببعض العلماء الفرنسيين في أثناء اعتقاله بأمبواز، وتعرّفه على المظاهر الحضارية والعلمية، وإطلاعه على تقدمهم الفكري والفلسفي،³ فزاده ذلك اتّساع فكر، وتفتح ذهن.

وقدم الأمير هذه الرسالة إلى المجمع العلمي الفرنسي في باريس، بعد أن انتهى من تأليفها يوم الاثنين 14 رمضان 1271هـ/31 أيار 1854.⁴ حيث ألف الأمير هذه الرسالة خلال إقامته في بروسه، هذه الإقامة التي امتدت ما يقرب من السنتين والنصف (1269-1272 هـ / 1853-1855).

وعرض الأمير في المقدمة مضمون رسالته، ليضع القارئ أمام الموضوع بجملته، وهذه الطريقة في التّأليف سادت أواخر القرون الوسطى وانتشرت فيما بعد.

¹ - ألفه الأمير عبد القادر، وقام بتحقيقه وتقديمه الدكتور ممدوح حقّي، (د.ط.)، مكتبة الخانجي، القاهرة 1976، يحتوي على 158 ص.

² - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ص.30.

³ - بونار رابح، "الأمير عبد القادر حياته وأدبه"، أمال، ع (خاص)، 8، الجزائر 1983، ص.23.

⁴ - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ص.164.

وقد رتب أبواب الرسالة على مقدمة وثلاثة أبواب، وخاتمة وجعل لكل باب فصلا تمهيديا وخاتمة.

أما المقدمة فحث فيها على النظر، وذم التقليد.

وفي الباب الثاني: عن العلم الشرعي.

وفي الباب الثالث: عن فضل الكتابة

وذكر في خاتمة الرسالة انقسام الناس بحسب العلوم والمعارف واختلاف المذاهب.

ومع أن أكثر مباحث هذه الرسالة مطروق فإن أكبر فضل يستحقه الأمير هو جمال

التنسيق، وحسن ترتيب هذه المباحث المتشعبة، والنظرات الواعية المتحررة التي تنتظمها الرسالة من أولها إلى آخرها.¹

وأسلوب الأمير في هذه الرسالة واضح بين، يختلف عن أسلوب القرون الوسطى

ولذا يعدّ عبد القادر واحدا من تلك الفئة المجددة التي نفت الطرق المتكافئة وأنست إلى الأسلوب المرسل المطبوع.²

إلى جانب التجديد الأسلوبي هناك تجديد موضوعي، فالرسالة إسهام لا بأس به من

الأمير عبد القادر في الأبحاث الفلسفية على عهده، وقد أصدرها الأمير في عهد كانت فيه مباحث معاصريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية وغيرها.³

¹ - بونار رابح، " الأمير عبد القادر حياته وأدبه"، ص. 27.

² - الطمار محمد بن عمرو، تاريخ الأدب الجزائري، ش. و. ن. ت، الجزائر (د. ت)، ص. 265.

³ - بونار رابح، " الأمير عبد القادر حياته وأدبه"، ص. 22.

•المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد:

عندما كان الأمير بالمشرق كان العلماء يفدون إلى بيته، أبرزهم ثلاثة وهم: الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ محمد الخاني، والشيخ الطنطاوي، ما انقطعوا عنه يوماً وقد رجوه أن يدون ما يكتبه في مجالسه. فكان ذلك نواة الكتاب الصوفي الذي عرف فيما بعد باسم "المواقف"، ويرى جواد المرابط أن الشيخ عبد الرزاق البيطار كان أول من اقترح على الأمير أن يدون ما يذكره في مجالسه.¹

والمواقف كتاب في ثلاثة أجزاء أو مجلدات في نحو خمسمائة وألف صفحة من القطع الكبير. يشتمل على اثنين وسبعين وثلاثمائة موقفاً. موضوعه التصوف والفكرة التصوفية، على غرار "الفتوحات المكية" للشيخ محي الدين بن عربي. وفيه مباحث صوفية، وتفسير آيات قرآنية، وشرح أحاديث نبوية وبسط للعقيدة الإسلامية.

ألف الأمير كتابه في المرحلة الثالثة من حياته عند استقراره النهائي " في مدينة دمشق"، وتبين أن الكتاب عبارة عن أحاديث الأمير ودروسه ومواعظه التي كان يلقيها على الطلاب والعلماء. ولهذا فالكتاب لم يؤلف في فترة زمنية قصيرة معينة، ولكنه ألف في فترة طويلة متباعدة. لذا يمكننا ترجيح تاريخ تأليف الكتاب بين سنتي (1272هـ - 1300هـ/1856-1883)، وهي الفترة الأخيرة من حياة الأمير.

كانت دمشق السباقة في إخراج الكتاب إلى حيز النور. فقد طبعته دار اليقظة العربية في دمشق الطبعة الأولى سنة 1329هـ/1911، بأجزاء ثلاثة.

ثم كانت الطبعة الثانية والأخيرة الصادرة عن دار اليقظة العربية بمجلداته الثلاثة، وهي طبعة محققة تحقياً علمياً دقيقاً. وتمتاز عن غيرها بأنها بوبت ورتبت بالاستناد إلى النسخة الأم الأصلية المكتوبة بخط الأمير عبد القادر الجزائري.

¹ جواد المرابط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، ص.19.

وقوبلت على نسخة عالم الشام الكبير الشيخ جمال الدين القاسمي المحفوظة بدار الكتب الظاهرية بدمشق. ونسخة العلامة الشيخ عبد الرزاق البيطار، المحلاة هوامشها بتقييدات وملاحظات هامة بخط الأمير المؤلف، كما قام بمراجعتها والوقوف على أصلها وتصحيحها لجنة من أكابر علماء دمشق كلفتهم دار اليقظة العربية خصيصا لهذه الغاية.¹

وتناول العديد من الكتاب هذا الكتاب بالمدح والتقريظ، فقد اعتبره ابنه الأمير محمد لعقد تأليفه واسطة النظام ولمطلع مجده، بيت القصيدة وحسن الختام.²

وعده النبھاني من أجل مناقبه وأعظم كراماته... وهي مواقفه التي جمع فيها واردة الإلهية وعبر عنها بالمواقف. وفي رأي شكيب أرسلان أنه: "لا يوجد نظيره في المتأخرين".³

• تعليقات على حاشية جده عبد القادر⁴ في علم الكلام:

هناك من نسب إلى الأمير هذه التعليقات وذكرها دون تعليق أو شرح بينما أهملها بعض المؤرخين إهمالا كلياً.

وأغلب الظن أن الأمير قد دون التعليقات على حاشية جده، في المرحلة الأولى من حياته، بعد عودته من المشرق وتأديته فريضة الحج، أي عام 1243هـ/1828. لأن الفترة التي امتدت حوالي السنتين (1243هـ-1245هـ / 1828 - 1830) كانت فترة تثقيف ومطالعة، فلا يستبعد أن يكون خلال مطالعته - العديدة والمتنوعة - قد وقع نظره على حاشية جده هذه، فعلق عليها بما يسعفه الحال والمقال.

¹ الأمير عبد القادر، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج.1، ص.2.

² ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.2، ص.932.

³ أرسلان شكيب، حاضر العالم الإسلامي، مج.2، (د.ط)، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1352هـ، ص.173.

⁴ المقصود به أبو محمد عبد القادر بن أحمد - المعروف بابن خدة - ، أنظر ترجمته: الفصل الثاني من الباب الأول جوانب من شخصية الأمير عبد القادر، ص.2.

وهذا دليل على أن الأمير كان متمكناً من علم الكلام، وإلا لما استطاع أن يبدي بعض الملاحظات، والآراء والتعليقات على حاشية موضوعها في علم الكلام والتوحيد.

• الصّافنات الجياد:¹

لم يتطرق أحد من المؤرخين القدامى والمحدثين لهذا الكتاب، لا من قريب ولا من بعيد، واكتفوا بالتعريف الموجز البسيط فقالوا: "كتاب في محاسن الخيل وصفاتها" والذي يبدو أن أول من نسب الكتاب إلى الأمير عبد القادر السندوبي²، ثم تبعه زيدان³، والزركلي⁴، وكحالة⁵.

ثم إن الزركلي في ترجمته لمحمد بن عبد القادر الجزائري ذكر أن من كتبه "عقد الأجياد في الصافنات الجياد ومختصره نخبة عقد الأجياد" وقد نبه إلى خطأ نسبة الكتاب إلى الأمير، قائلاً: "تقدم في ترجمة الأمير عبد القادر الجزائري: من كتبه الصافنات الجياد، والصواب أنه لابنه محمد بن عبد القادر".

ويبدو فعلاً أن نسبة الكتاب إلى الأمير غير صحيحة، والدليل أن كل من أرخوا لمحمد بن عبد القادر أجمعوا على أن الكتاب من تأليفه ومن مؤلفاته.⁶

¹ وردت هذه التسمية حرفياً في القرآن الكريم في سورة "ص": الآية 31-32 في قوله تعالى "ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد".

ومن حيث اللغة صنف الفهرس: يصفن صفونا قام على ثلاث قوائم وثني سنبك قائمته الرابعة. أنظر ابن منظور، لسان العرب، مج.4، مادة صفن، ص - ص. 2466-2468.

² السندوبي، أعيان البيان، ص. 175. نقلاً عن: السيد فؤاد صالح، المرجع السابق، ص. 98.

³ جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج.4، تقديم إبراهيم صحراوي، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983، ص. 559.

⁴ الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين، ج.4، دار العلم للملايين، بيروت 1986، ص. 170.

⁵ كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، ج.5، دار إحياء التراث، بيروت (د.ت)، ص. 304.

⁶ من هؤلاء: الزركلي، الأعلام، ج.7، ص. 82.

• كحالة، معجم المؤلفين، ج.10، ص. 184.

• نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط.3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت 1983، ص. 156.

• رسائل متنوعة:

لقد تعددت رسائل الأمير وكتاباته إلى محبيه ومعارفه. وهي رسائل لو جمعت لبلغت عدة مجلدات، فكثيرا ما كان يوجه الأسئلة إلى مجالس العلماء، وكبار الفقهاء طيلة حياته، سواء بالمغرب الأوسط أو الأقصى، أو بالمشرق وفرنسا.

وكان يجيب بنفسه عن القضايا التي ترد عليه من كبار علماء الإسلام ومفكري الغرب، مسهما في الإجابة عن تلك الاستفسارات إلى درجة تسكت المعاند، وأهمها:

◊ الرسائل السياسية التي تبادلها مع رؤساء حكومات فرنسا وقوادها الحربيين:¹

وهي رسائل كان يتبادلها الأمير عندما كان مجاهدا في الجزائر، وأثناء وقوعه أسيرا في أمبواز بفرنسا، وتمتاز هذه الرسائل بالخبرة السياسية، وبعد النظر في الشؤون الحربية. خاصة رسائله التي تبادلها مع الجنرال "بيجو" وهي تتسم بالشدة والصرامة والواقعية.²

◊ الرسائل إلى الأسقف الفرنسي دوبوش "Dupuch":

أسقف مدينة الجزائر، فقد اختار عبد القادر شريكه الأسقف في ملتقى سيدي خليفة لأفكاره وتأملاته وكانت مراسلات الأمير لهذا الأسقف لا تنقطع، وهذه المراسلات قلما أشار إليها الكتاب، ولعلها لو وجدت تكون مصدرا هاما لفهم روح الأمير الدينية والاجتماعية.³

¹ وردت هذه الرسائل السياسية في مواضع متفرقة من كتاب تحفة الزائر .

² أنظر نص الرسالتين اللتان أرسلهما الأمير إلى الجنرال بيجو (Bugeaud) في كتاب: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، الأولى في الصفحات: 381. 383، والثانية في الصفحات: 396. 397.

³ أنظر تعليق: سعد الله أبو القاسم في: تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 258.

◊ أجوبة الأمير عن العشرين سؤالاً التي وجهها إليه الجنرال دوماس:¹

وهي أسئلة تتعلق بعادات العرب والمسلمين، وتقاليدهم في الزواج، ومقارنة حال المرأة العربية بالمرأة الأجنبية، وقد أجاب الأمير عن كل هذه الأسئلة موضحاً، ومصححاً جملة من المفاهيم الخاطئة، التي كانت ترسخ في أذهان الغربيين، مستعيناً في كل ذلك بالتجارة، والإنجيل، والمشاهد الواقعية الحية.

◊ الرسائل إلى الزعيم اللبناني يوسف بك الكرم:

وهي رسائل سياسية، على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة، لأنه تم تبادلها في أثناء حركة 1294هـ/1897 الاستقلالية، ومحاولة الولايات السورية الاستقلال عن الدولة العثمانية.

وقد شجع يوسف بك صديقه الأمير إلى القيام بهذه الحركة، ودعاه بالحاح شديد، ورغبة صادقة إلى قيام وحدة عربية برئاسة الأمير نفسه.

1 - أنظر أسئلة الجنرال، وأجوبة الأمير في: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. (730-)

الفصل الثالث: البيعة وتأسيس الدولة

عندما احتلت فرنسا الجزائر لم يكن في نيّتها الاحتفاظ بالجزائر العاصمة فحسب، كما صرّح بذلك الجنرال دي بورمون (DE Bourmont)¹ وإنما كانت تريد الاستيلاء على البلاد كلّها وذلك عن طريق توسيع نفوذها إلى جميع المدن الساحلية ومدّ مراقبتها العسكرية إلى جبال الأطلس.

وإثر سقوط الحكم المركزي بالعاصمة واستسلام الداوي حسين في 5 جويلية 1830، حدث اضطراب في جميع الولايات التابعة له، فقد أبدى باي إقليم التيطري استسلامه فنصبته فرنسا رسمياً قائداً عليه، ورغب باي وهران في نفس الامتياز بينما تزعم الحاج أحمد باي "المقاومة في الإقليم الشرقي".

إن فكل من الإقليمين الوسط والشرقي قد اتضحت وضعيته ماعدا الإقليم الغربي، فالباي حسين لم يكن مسيطراً على الوضع، حيث لم تكن له علاقات مع الحضرة وشيوخ الطرق الصوفية وأعيان القبائل، ولم تكن شخصيته وإدارته بالقوة التي تسمح له بإبقاء منصبه كباي رغم زوال السلطة المركزية.

ومنه فإن تأثير سقوط النظام المركزي سيكون واضحاً أكثر في هذا الإقليم² وليبيان خطر هذا التأثير نعرض لتحليل علاقة أهالي الإقليم بالسلطة الحاكمة ممثلة في شخص الباي.

كان الوجود العثماني بالمنطقة ممثلاً في الحاميات العسكرية والكراغلة وقبائل المخزن غير محبوب لدى عامة الناس بسبب سياسة القمع والنهب والامتيازات.

فتحول ولاء الأهالي إلى الطرق الصوفية وزعمائها أكثر منه إلى السلطة الحاكمة، وهذا سيكون له تأثير كبير على رد فعلهم إزاء تدخل القوات الفرنسية في المنطقة.

1 - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.167.

2 - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص.167.

عندما سقط الحكم المركزي بالعاصمة علم سكان إيالة وهران بذلك عن طريق مراسلة بعث بها القاضي الفقيه العنابي من أجل أن يهيئوا أنفسهم للدفاع عن إيالتهم¹ وهنا اضطرب الحال فثار الأهالي ضد الباي وحاصروه وانقضوا على الحاميات التركية يريدون الانتقام.

وقد حاول الباي حسن تدعيم سلطته فاستشار أعيان الإقليم الذين رفضوا أن يكون حاكما عليهم. وبدل أن يعيد تنظيم إقليمه ويجند الناس باسم الجهاد ضد العدو المشترك فضلى الانسحاب نهائيا تاركا الأمور في فوضى متناهية.

ولم يكن التقدم في السن هو سبب انسحابه بقدر ما كان إحساسه بعدم وجود أية رابطة مع الأهالي حيث لم يكن تعامله معهم إلا في إطار التسلط والفائدة المالية².

فأثناء فترة حكمه لم يحاول إصلاح الأوضاع الاجتماعية ويجعل من نفسه حاكما محبوبا وقريبا من الأهالي بل كان سحينا وراء أسوار المدينة يخاف الثورات والاعتيالات. ومما يؤكد هذه الحقيقة موقفه من التدخل الفرنسي حين تقدم للأهالي لا ليخبرهم بين الجهاد والاستسلام أو ليشعرهم بعجزه بسبب كبر سنه وبالتالي تنازله عن الحكم، بل خيرهم بين الوقوف معه أو تسليم نفسه للفرنسيين³.

وقد حاول الاتصال بمحي الدين طالبا الحماية، ولكن طلبه قوبل بالرفض، بناء على رأي عبد القادر الذي أدلى به عندما استشار والده أفراد الأسرة، فحالة الفوضى التي تعيشها وهران وغضب الشعور العام كان يجعل من إعطاء عهد الأمان والالتزام به أمرا مستحيلا زيادة على تأليب قبائل الإقليم كلها ضد الأسرة بسبب مقتها للباي، وحينئذ سيكون الموقف حرجا للغاية⁴ هكذا كان رد عبد القادر.

1 - الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج. 8،

تحقيق وتعليق جعفر الناظري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1996، ص. 25.

2 - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ص. 167.

3 - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص. 168.

4 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 51.

• العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع (خاص)، 75، 1403هـ / 1983م،

ولما يئس الباي من الوضع بسبب عزلته لم يجد بدا من إعلان استسلامه ويقبل بالتبعية الفرنسية ويسلم مفاتيح المدينة إلى العدو، بعد أن ضمن له الخروج سالما من وهران ثم من الجزائر إلى حيث يريد مقتنيا سيرة حسين داي وذلك على إثر دخول القوات الفرنسية بقيادة الجنرال دامريمون (Damremont) إلى ميناء وهران في 4 جانفي 1830¹.

وقد تبع الباي في موقفه أتراك وهران وكراغلة تلمسان ومستغانم وقبائل المخزن² وإزاء تطور الغزو الفرنسي ظهر موقف الأهالي منه، فأما المرابطون ورجال الطرق الصوفية فقد أحسوا بالمسؤولية الدينية في القيادة الروحية وجمع الشمل والوقوف ضد العدو تحت لواء الجهاد فانضمت بذلك المقاومة الشعبية.

وبالنسبة للمدن فقد شعرت بخطر التعدي على الحرمات والنهب للأسواق والمنازل والخوف في الطرقات إضافة إلى خطر التدخل الفرنسي، ففكر أهالي تلمسان في حل ديني وسياسي يضمن للمنطقة الأمن والاستقرار وذلك بالدخول في طاعة حاكم مسلم له القدرة على حمايتهم بحيث يمنحونه البيعة التي كانت في أعناقهم للباي حسن.

ولكن من يكون هذا الحاكم المسلم ؟ لقد فكروا في السلطان العثماني فإذا هو بعيد كل البعد عاجز كل العجز عن تحقيق ما يرغبون فيه ما دام عاجزا عن انقاذ مدينة الجزائر وإغاثة أهلها³.

فقرروا الاتجاه إلى سلطان فاس بعاطفة عربية إسلامية لقربه من المنطقة ولأن تلمسان كانت منذ زمن طويل محط أنظار حكومات المغرب المتعاقبة، فقد كانت طبقة البرجوازية التجارية في المدينة لها صلات تجارية وثيقة بفاس ومن هنا تطلعت على الدوام إلى المغرب.

¹ - الأمير عبد القادر، المذكرات ، ص.137.

• Kokenpot (Ch.), Op. cit, p.4.

² - طلاس مصطفى، الأمير عبد القادر فارس الجزائر، ط.2، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1984، ص.214.

³ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.168.

• Bellemare (A.), Op. cit, p.31.

وإزاء تطوّر عمليات الغزو "فرنسي، قرّر التلمسانيون الاتصال بحاكم وجدة " أبي العلاء إدريس بن حمار الجرّاري " وعرضوا عليه أن يتوسّط لهم لدى السلطان في قبول بيعتهم للنظر بما يصلح شأنهم ويحميهم من العدو الأجنبي.

وصل وفد تلمسان إلى مكناس في أوائل ربيع الأول 1246هـ، أواخر أوت 1830، وقد عرض البيعة على السلطان المغربي " عبد الرّحمن بن هشام " الذي رضي بها ابتداء على أساس أنّ الضرورة تفرض عليه التّدخل بناء على:

1. طلب بيعة أهل المغرب الأوسط للسلطان على إثر سقوط السيادة العثمانية، وهي البيعة التي أعطته كلّ حقّ دستوري في التّدخل بحكم التّعاقّد بينه وبين أهل البلاد على اختيار تام منهم.

2. حقوق الجهاد والتي لم يكن المغرب يملك حق الاختيار في رفضها بحكم نوعية الغزو الذي تعرّضت له المنطقة، لأنّه يرى نفسه جديرا بحق السلطنة في المغرب العربي، فقد أراد تأسيس قبوله على سند شرعي مؤيّدا بنصوص يعمل الفقهاء على إبرازها.

ولكنّ الفقهاء اختلفوا حول قبول بيعة أهل تلمسان ووقع الاختلاف حول مفهومها ومدلولها. فبينما رأى الفريق الأول والذي يمثّله القاضي عبد الهادي العلوي الذي أفتى ضدّ صحّة البيعة، حيث تصوّرها كحقّ تملكي لا يفقده صاحبه في جميع الأحوال.

اتّجه الفريق الثاني وعلى رأسه أبو الحسن بن علي التّسولي ، وطائفة من أكابر علماء تلمسان حضروا ضمن الوفد إلى الإفتاء بصحّة البيعة.

ولمّا لم يحدث إجماع رفض السلطان المغربي البيعة¹، ولكن علماء تلمسان وفقهاءها قاموا بمرافعة أبدوا فيها الحجج حول بطلان فتوى علماء فاس تضمّنت مايلي²:

¹ - الغماري أحمد، " المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الأجانب من التّدخل المغربي في تلمسان إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 "، مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ع 2-3، سنتي 1980، 1979، ص - ص. 99 - 100.

² -Brissac (Ph. De.), Rapport de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algerie (1830-1847), Paris, 1931, p-p. 11-12.

1. ليس في عنق أهالي المغرب الأوسط بيعة حقيقية بالنسبة للسلطان العثماني وإنما له مجرد الاسم، لأن البيعة يجب أن تكون بالاختيار كما هو مقرر شرعاً، وأن تتم عن طريق الحضور الفعلي لعناصر السكان، وأن تكون للإمام قدرة على حماية البلاد ومراقبتها مراقبة حقيقية. ولم تكن محاولة أهل تلمسان هي الوحيدة لمبايعة السلطان المغربي، بل تزامنت معها محاولة أخرى من طرف وفد بني عامر الذي تعين باقتراح محي الدين.

ذلك أنه لما ازداد هيجان العامة، وسرى داعي الانتقام في نفوسهم، وأصبحت القبائل على خلاف فيما بينها وليس من شأن زعمائها سوى التآمر والصراع من أجل الثروة واشتدت الغارات على الضواحي وانعدم الأمن، عقد الأعيان والأشراف والعلماء مشاورات طويلة لدراسة هذه الأمور المخيفة فاتجهوا إلى محي الدين لينصحهم¹، فردّ عليهم بأنه حاول منذ عدة شهور أن يحافظ على درجة من النظام ولكن الجهود القصوى لم تقدر سوى على إنقاذ قليل من الضعفاء والمشردين².

. وبما أن الأمر أصبح خطيراً ولا مجال للانتظار أكثر وإلا انحلت أواصره وحطمت طاقاته، وبما أن الاستجداد بالفرنسيين غير ممكن والاستسلام لهم مستحيل، وبما أن ملكهم قوّي ولا يمكن مواجهته إلا بملك مثله، لكل هذا اتجهت الأنظار إلى سلطان المغرب نزولاً عند نصيحة محي الدين لأنّ الخطر الذي يتهدّد الجزائر اليوم سيهدّده غداً، وحضوره سيشجّع ويقوّي النظام، والجهاد تحت لوائه سيقود إلى النصر المؤكّد، لأنّ لواءه هو لواء الله ورسوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

لا يصلح الناس لا سراة لهمم & ولا سراة إذا جهّالهم سادوا
لولا الخلافة، لم تأمن لنا سبيل & وصار أضعفنا نهبا لأقوانا³

¹ - ما يلاحظ أن: ابن عبد القادر محمد يختلف مع تشرشل في أن لجوء هؤلاء الأعيان ليس لطلب النصح فقط وإنما لعرض الإمارة عليه ولهذا نصّحهم بسلطان المغرب.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 147 و تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 52.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 52.

³ - الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 138.

وفعلا استجاب الأعيان لرأي محي الدين وتوجهت بعثة نحو فاس، وكانت مكونة من عشرة أعضاء هم من أهم المرابطين والشيوخ تأثرا، مع حامية تتكوّن من خمسين فارسا وقافلة من البغال محملة بالهدايا. وقد استقبلها السلطان بودّ مع وفد تلمسان ووعد بدراسة مطالبها.

ولمّا اقتنع السلطان عبد الرّحمان بن هشام بمطالب الوفد الجزائري، عقد لابن عمّه علي بن سليمان وقائده إدريس بن حمار الجزائري الذي استوصاه بالجميع خيرا على أن يكون واسطة بينه وبينهم وأنه اختار له المولى "علي" لما يعلم من عقله ودرأيته وسياسته وأنه ذو نفس أبيّة لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا من اتّصف بهذه الأوصاف ليمسك بزمام أمرها¹.

واعتمد السلطان على سيدي الحاج العربي الشّريف وزان الذي كان له نفوذ كبير في منطقة الغرب لكي يدعو القبائل للدّخول في طاعته.

ولمّا وصل المولى بن سليمان وجّه السلطان في إثره خمسمائة فارس وألف رام وجماعة وافرة من حدّاق الطّوبجية، ولمّا دخلها واستقر بها فرح به الحضر وقدمت عليه الوفود من كلّ ناحية، وأخذ عليهم البيعة للسلطان، هو والقائد إدريس.

لكنّ الكراغلة انحرفوا عنه وحاصروهم المولى علي وقاتلهم مدّة إلى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم، كما انحرفت عنه أيضا قبيلتنا الدّوائر والزّمالة فنهب الجيش متاعهم ونشأ عن ذلك فساد كبير².

¹ -الناصرى أبو العباس، المصدر السابق، ص.29.

• Brissac (Ph. De), Op.cit, p-p. 8-21.

² - الناصرى أبو العباس، المصدر السابق، ص.30.

3. 1/ بيعة أهل الغرب الجزائري لمولى السلطان المغربي:

في أوائل رمضان خرج القائد إدريس من تلمسان في جماعة من الجيش قصد إرهاب القبائل لأخذ البيعة منها. وكان من الذين بايعوا أهل معسكر والحشم وبنو شقران ومرابطوا غريس.

حيث تقدم وفد يتكون من رؤساء بني هاشم وبني مجاهر وعلى رأسه محي الدين وابنه عبد القادر لكي يعلن ولاءه لابن عم وممثل سلطانهم الجديد¹.

وعندما وصل الوفد إلى تلمسان، أذن لمحي الدين ومن معه أن يدخلوا على المولى علي، فقدموا له التحية، ودعوا له بالتهنئة ثم ذكر الشيخ محي الدين ما نصه:

" جاعني مكتوبك² في زاويتي، استبشرت به وبشرت، وتبركت به وباركت. وما أنا أتيتك بجميع أشرف بلادنا وعلمائها وصلحاتها ورؤسائها، وإذ تحققنا نسبك وعرفنا حسبك وأنتك ابن السلطان الأعدل العالم الأمثل، مولاي سليمان رحمه الله، أكد ذلك محبتك وأوجب علينا مودتك"³.

وهكذا عقد لعلي بن سليمان على إمارة المغرب الأوسط فلقبته الناس بالطاعة وأذعنوا له و سارت خيله في البلاد إلى مليانه شرقا وبث العمال وجبي الأموال. ولكن هذا الوضع لن يستمر طويلا، فستحدث أمور تضطر ممثل السلطان إلى الانسحاب والرجوع إلى المغرب.

حيث ذكرنا انحراف الكراغلة عنه عند مجيئه وعدم إذعانهم له والترحيب به وهذا سيكون له رد فعل سيئ ضدهم، حيث أنه قبض عليهم وكبلهم ووجههم إلى فاس. وكذلك فعل

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 54.

• Brissac (Ph. De), Op. cit., p. 13.

² - المقصود هنا مكتوب السلطان المغربي إلى الحشم وهذا نصه:

" إخواننا كافة الحشم، الغرابية والشراقة أصلحكم الله وسدد لكم وبعد قد بلغنا ميل باي وهران للكفر ورضاه بالدنية في دينه وأنكم أردتم الانحياش إلينا والإنخراط في سلوكنا وقد قبلناكم وعينا من يصلح أموركم ويقوم بها فقدموا له مسائركم وهداياكم وكونوا معه".

أنظر: الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 138.

³ - ابن التهامي مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم وتعليق بو عزيز يحيى، ط. 1، بيروت 1995، ص. 127.

مع أولاد إسماعيل فوقع البارود بالمدينة، وثارَت الفتنة أكثر مما كانت قبل مجيئه وتراجعت الوفود التي سارت إليه عن محبته.

فاستغل الجنرال كلوزيل (Clauzel) الموقف بالنسبة للدوائر و الزمالة وطلب إلى سلطان مراكش إخلاء تلمسان ولكن السلطان لم يخف على ممثل فرنسا بطنجة رغبته في الاحتفاظ بها وأكد له حقوقه وواجباته إزاء المسلمين وأنه تخلف عن مشروعه بسبب فساد جيشه وفسله في معالجة موضوع الكراغلة و الدوائر¹.

فرجع المولى "علي" في آخر رمضان بعد أن أقام بتلمسان مدة ستة أشهر. وقد كانت هناك محاولة أخرى للسلطان تمت في تعيين حاكم جديد هو "الشريف بلحمري" الذي دخل تلمسان مستصحباً أغوات الدوائر و الزمالة، وقوي موقف السلطة المغربية بتأييد القبائل المجاورة لوهران الناقمة على سياسة الجنرال (Boyer) حيث امتنعت عن تموين المدينة وفرضت عليها حصاراً شديداً.

تشجع بلحمري وحاول الاستلاء على وهران لكنه أخفق بعد حصار دام أسبوعين، وظل هو و ابن نونه² يتعاونان على إدارة مدينة تلمسان وإعطاء نوع من الهيبة والسلطة، إلا أن يده لم تطل أكثر من المدينة المذكورة.

وقد سعت فرنسا عن طريق مبعوثها الكونت شارل دومورناري (Domornari Charle) لإقناع السلطان باستدعاء عامله على تلمسان والامتناع عن التدخل في الجزائر، وتحت الضغط الفرنسي انسحب ابن الحمري لينتهي بذلك التدخل المغربي في منطقة الغرب الجزائري³.

¹ -الناصرى أبو العباس، المصدر السابق، ص.32.

² - ممثل السلطان علي بن سليمان قبل رجوعه احتاط وتركه خليفة عنه في تلمسان.

³ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.218.

• سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.168.

ولكن المنطقة عرفت أصمعاا تونسية إذ في الوقت الذي كانت عليه فرنسا من الارتباك واختلاف الكلمة بين الأحزاب الملكية والجمهورية كان جنرالاتها يرتجلون سياستهم وفق أمزجتهم إزاء وضع ملاتم لم يحسنوا استغلاله، وظن الجنرال كلوزيل أنه بإمكانه توطيد السيطرة الفرنسية بزعماء مسلمين فقرر التصرف في إقليم قسنطينة ووهران، فأرسل أحد مفاوضيه إلى سلطان فاس ليفاوضه على تخليه له عن الإقليم الذي ما يزال تحت حكم الباي حسن. في مقابل ضريبة سنوية تقدر بمليون فرنك.

وعرض كلوزيل نفس العرض على باي تونس-حسن باشا - يطلب منه بعض المترشحين للولاية من عائلته فبعث إليه من اختاره من أقاربه وأرسل من يأخذ في التمهيد لوصول حاكم الإقليم.

فولاه "كلوزيل" على مدينة وهران في أوائل فيفري 1831 بعد أن أقر موالاته لفرنسا وأدى يمين الأمانة على ذلك.

وقد أخذ الباي الجديد يشيع بين الأتراك القاطنين في المدن الداخلية كتلمسان ومعسكر أن الفرنسيين أجمعوا على أن يجعلوا من الجزائر حكومة تركية تكون تحت حمايتهم وبعد تأسيس أمورهما يتخلون عنها ويسلمون أمورهما إليهم وجعل توليته على وهران دليلا على صدق خبره.

فقبلوا وبعثوا إليه بطاعتهم سرا ثم فشا خبرهم وانتشر ذكرهم فقامت عليهم الأهالي في كل جهة واستأصلوا الكثير منهم واعتصم أتراك تلمسان بقلعة " المشور".

فعزل الحاكم العام "كلوزيل" عن سخط من دولته ولحق بفرنسا، وتعيين الجنرال بوايه (Boyer)، وبوصوله رجعت فرقة الباي التونسي عنها غير مأسوف عليها لأنها وان جاءت بالإسلام إلا أنها لم تأت مجاهدة وإنما في رعاية وحماية العدو، فلو كانت نيتها خالصة وصادقة لجلبت إليها قلوب الناس ولجعلت أهل المدن وغيرهم يدخلون في طاعة الباي¹.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.142.

• سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص - ص. 169-170.

إذن لا تدخل فاس، ولا تدخل تونس جلب الاستقرار والامن للإقليم الغربي. بل زدادت الفوضى انتشارا في غياب سلطة قائمة حتى ان الحاميات الفرنسية لم تجرأ على الخروج عن أسوار وهران.

ولولا وجود المرابطين والقيادات التقليدية لآتسع الخرق ولاعتدى الناس على بعضهم البعض وإذا كانت السلطة تتبع من الحاجة فإن الإقليم الغربي كان في أشد الحاجة إليها سنة 1832.

عادت الفوضى إلى الإقليم من جديد وتجددت الحرب بين الحضر والكراعة في تلمسان، وهاجت الفتن وشعرت القبائل بضرورة وجود قائد من أجل ملأ الفراغ السياسي وتنظيم الجهاد ضد التوسع الفرنسي.

ورغم الهجومات المتكررة على وهران فإن عاصمة الغرب الجزائري بقيت بين أيدي الفرنسيين وكان رؤساء قبائل المخزن والدوائر والزماله يتعاملون مع العدو كما أن الوحدات التركبية المستقرة بقلعة "المشور" بتلمسان رفضت القتال حيث شعرت بتحللها من الالتزام نحو السلطة.

ومرة أخرى تتجه الأنظار إلى محي الدين الذي يحيب بأنه لا يصلح للقيام بواجبات هذا المنصب ولكنه يتولى مهمة الدفاع عن المنطقة وحمايتها. فتمت البيعة على الجهاد ورضي القوم بذلك لما فيه من تشاغل الغوغاء والسفلة عن الفساد وأخذت الحشود ترد على حضرته في القيطنة فكان ينهض بها إلى الجهاد وكانت له وقائع كثيرة أعظمها خلق النواح الأولى والثانية وبرج العين.

شاع أمر الجهاد في الأقطار بجميع جهاتها وتضافرت عليه الأجناد وأقام الناس للمرابطة وملازمة الثغور والغزوات والسرايات ولزمهم في ذلك نفقات كثيرة، واستمر الوضع على هذه الحال لمدة سنتين.

رغم القيام بأمور الجهاد إلا أن الحاجة إلى قائد يسد الثغور ويدافع عنها، ويكون مسؤولا عن التنظيم وجباية الضرائب، قادرا على استخدام وتنمية الموارد ليضمن العيش الكريم لأهالي الوطن، باتت ضرورة لا تراجع عنها.

وفي اجتماع كبير عقد في مدينة معسكر نوقش هذا الموضوع بكل جدية. ووقع الاتفاق دائما على تقديم محي الدين لما رأوا فيه من إزعاج المنطقة له وكلمته المسموعة عندهم ورضاهم بأقواله وأفعاله¹.

وكان قد دعي لحضور هذا الاجتماع ولم يكذب حتى تجمهر الناس من حوله وارتفعت الأصوات تنشد القيادة فيه مبرزة الضرر والحيرة التي لحقت بهم وهو الذي اسمه فقط يذهب الغم ويجمع كل القلوب.

لكنه اعتذر بكبر سنه وعدم قدرته على هذا الحمل الكبير فالحكم يقتضي استعمال القوة بغلطة وسفك الدماء إلا أنه يقدم ابنه عبد القادر الذي هو شاب تقي فطن صالح لفصل الخصوم يحترم القيود التي فرضها عليه دينه بدقة كبيرة، يجمع بين نشاط الشباب والشجاعة والذكاء.

وقد برر محي الدين تنازله عن الإمارة لابنه بما يلي:

"... ابن تقديمي له لا أنني فديت به نفسي، فما أكرهه لنفسي أكرهه له... غير أنني ارتكبت أخف الضررين حيث تيقنت الحق فيما قلتموه، مع تحقيقي أن قيامه به أسد من قيامي به وأصلح... وإني عالم بأنه لمصالح كبيركم وصغيركم وشريفكم ومشروفكم أثبتت عنى وأقدر على مكابدة المشاق والتعب"².

¹ - الحسن بن بدية، المصدر السابق، ص. 41.

• Benhachenhou (A.), L'état algérien en 1830, ses institutions sous l'emir abd el kader, Alger 19669, p.58.

² - الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 141.

• الناصري أبو العباس، المصدر السابق، ص. 42.

• Azan (P.), L'emir abd el Kader (1808-1883) du fanatisme musulman au patriotisme français, Algerie 1995, p.13.

وقد استقبل الحاضرون هذا الحل الفجائي وغير المنتظر بأصوات عالية فاسم عبد القادر قد ردد بحماس، وكانت شخصيته وملامحه ورجولته موضوع الحديث الرئيسي ولهذا جاءت الموافقة عليه ورضي به الأهالي¹.

و السؤال الذي يطرح، ما هي العوامل التي رشحت عبد القادر للإمارة؟ ليس اقتراح محي الدين لابنه هو الذي أدى إلى ترشيحه للإمارة، فثمة شروط مقررة فيمن ينتدب لمعالي الأمور ينشدها الخاصة والعامة. فالمنشود أمير ذو علم وبصيرة بأمر القتال ومحاربة الفتن، وإقرار النظام والوحدة العامة والتزام الأحكام الشرعية.

وإذا حللنا العوامل التي على أساسها اختير عبد القادر أميراً فإننا نجد كما يلي:

1. النسب: لم يكن عبد القادر ينتمي لطبقة المخزن، ولم يكن من أفراد الطبقة العسكرية أو طبقة ملاك الأراضي، بل ينحدر من وسط اجتماعي متوسط الحال ومن أسرة متمسكة بالأخلاق وتحترم العادات والتقاليد، وكان أفراد أسرته قبل الاحتلال يرون أن رسالتهم في هذه الدنيا تتلخص في خدمة الشعب من تعليم الأطفال في البوادي والأرياف وتثقيفهم في الزوايا، ومساعدة الفقراء والمحتاجين².

2. قوة شخصيته: أخبر محي الدين علماء الوطن بأنه يقدم ابنه للإمارة وأنه ما خصه إلا لما رأى فيه من النجابة والهدى وعلو الهمة والعلم والحلم والحماسة والعز والشجاعة وكمال الخلق وجمال الصورة والقوة والسماحة والعزم والتحفظ والتيقظ والاتقاء والارتقاء³.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 56.

² - الأشرف مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، م. و. ك، الجزائر 1983، ص. 55.

• Cokenpot (Ch.), Op. cit, p.13.

ولمزيد من التفصيل حول هذا النسب راجع الفصل الثاني من الباب الأول جوانب من شخصية الأمير عبد القادر.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 154-155.

أضف إلى أنه تميّز بمواهب متعدّدة وقدرة على الجمع بين وظائف عدّة رجال، حيث كان رجل فكر وعلم وسلاح، وهي جوانب قلّما اجتمعت في أحد من قومه آنذاك. ولو كان محي الدين يعلم أنّ في الوطن الجزائري طولا وعرضا من تتوافر فيه شروط الإمارة دون إسنادها لابنه لما ترددّ في ذلك.

3. قدرته العسكرية: إنّ الحروب التي جرت بين محي الدين والجنرال بوايي في مقاطعة وهران ظهر فيها من إقدام عبد القادر وشجاعته وحسن سياسته ما قيّد الأبصار إليه ورشّحه للإمارة وجعله حريّا بها خاصّة واقعة خنق النّطاح الأولى والثّانية، وكذا واقعة برج رأس العين.

وهكذا اختير اختيارا مناسباً بسبب الإسهام المعلن في القتال بين صفوف الذين تطوّعوا مثله مختارين للدّود عن الأرض والعرض والدين. وصار هذا القتال الحرّ مقيدّ بقيد واحد هو ضرورة أن يكون له قائد صالح للإمامة الجامعة، وهكذا حقّ لعبد القادر أن يخلف أباه في أمر الجهاد حيناً، ثمّ ليحتّم -لاستيفاء الشروط المقرّرة - ولاية القتال والرّعية معا حيناً آخر¹.

4. علاقته بالطريقة القادرية²: التي كان لها نفوذ واسع في شمال إفريقيا، فأبوه كان من كبار المرابطين في وهران ذا مكانة سامية لعلمه وصلاحه، يلقّن الأوراد القادرية، ويلتف حوله طبقاً لتقاليد عريقة مجموعة من العلماء وطلّاب المعرفة

¹ - السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص. 32.

• Azan (P.), *Op. cit.*, p.59.

² - ظهرت في الجزائر قبل مجيئ العثمانيين وقد اختلطت تعاليمها بطرق أخرى خاصّة الشاذلية، وأول مرابط أسس زاوية خاصّة بالطريقة التي أصبحت تعرف بزواوية القيطنة الواقعة على وادي الحّمّام قرب مدينة معسكر هو جدّ الأمير المصطفى بن أحمد الذي عزم أن تكون زاويته مركزاً للتعليم ومجتمعاً لتعاليم الطريقة غير أنّه توفي في عين غزالة قرب درنة بليبيا وقد تولى من بعده أمور الزاوية ولده محي الدين فأصبح يلقّن الأوراد للمريدين وينشر العلم من الزاوية التي كانت عبارة عن معهد ومحطة للزائريين والغرباء والفقراء. وغداة الاحتلال استغلّت نفوذها الرّوحي للدّعوة إلى الجهاد ضدّ الفرنسيين.

أنظر: سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.1، ص - ص. 520 - 521.

لدراسة العلوم المختلفة بزوايته التي كانت موطن سلام وملجأ للطلبة والفقراء والحجيج، فهياً له انتماءه الديني طريق الرئاسة.

5. الفراغ السياسي: الذي أفرزه زوال السلطة العثمانية في الجزائر باستسلام الداي - كما تقدم - فلم يجد الجزائريون أي مبرر لتقبل حكمها لتتحكم في مصيرهم وتسيير شؤونهم. هذا الفراغ هو الذي أعان على جمع الشمل والتفاف الشعب بصورة عفوية حول أبنائه الأبطال ومن بينهم الأمير¹.

¹ - كاتب ياسين، " الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر"، ص. 175.

- Neveux (E.De), Les khouans ordres religieuses chez Algiers, 3ème édition, 1913, p 24.
- Ministère de la guerre (France), Rapport adressé à M.le président de la republique par le ministère de la guerre sur le gouvernement et l'administration des tribus arabes de l'Algérie, Paris, p. 10.

3. 2 / بيعة الأمير عبد القادر:

اجتمع أشرف غريس و علمائها وأعيانها وخيموا بوادي فروحة من "غريس" عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون إليها للشورى بينهم وجاء محي الدين في أبنائه وذويه ولما تلاحق الناس الذين يعتد بهم أو بحضورهم للبيعة، جلس عبد القادر تحت الشجرة ثم قام محي الدين فبايعه على السمع والطاعة ثم دعا له، ثم لقبه "ناصر الدين" ثم قام عم الأمير السيد "علي بن أبي طالب" وبايعه وكذا الإخوة وسائر القرابة.

ثم بايع الأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء على حسب مراتبهم وطبقاتهم، بايعوه على ما بايعه عليه والده.

إن المبايعة تحت الشجرة هي اقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بيعة الرضوان التي تمت سنة ستة هجرية¹.

لقد جاءت هذه البيعة بالاجماع من أجل أن يحمل عبد القادر راية الإسلام وعلم استقلال الجزائريين² وقد حضر البيعة من العلماء السيد الأعرج، والسيد أحمد بن حوا بن يخلف وإخوته، والسيد محمد بن الثعالبي، والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته، والسيد محمد بن عبد الله بن الشيخ المشرفي وقرابته، وكافة أولاد السيد أحمد بن علي أي جميع علماء غريس وأشرافهم.

ومن خلال شهاداتهم³ فإن مبايعة الأمير تمت على سمعه وطاعته وامتنال أو امره⁴ وتقديمه على أنفسهم وحقوقهم، شرط أن تتحقق فيه تقوى الله عز وجل وطاعته سرا و علنا والوقوف عند حدوده ورد مسائل الشرع إليه وعدم اتباع الهوى.

¹ - ابن عبد القادر محمد ، المصدر السابق، ص.156.

² - الكولونيل اسكوت، المصدر السابق، ص.110.

• Bellemare (A.), Op. cit , p-p. 37-38.

• Ghlamallah (F.), « Un projet romantique », le cheval de Troie, revue semestrielle des littératures et cultures méditerranéennes, p.14.

³ - راجع نص شهادة هؤلاء الأعيان: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 161-160.

⁴ - الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ص.16.

فإذا قام بهذا الأمر والتزم ظهر أمره ووجبت طاعته ونصره، وأذعن المؤمنون لتكاليفه وأوامره ووجب أن يدعوا له بأن يؤيده الله بنصره لنصرة الدين، وأن يلقي التقوى في قلبه وقوة اليقين وأن يعينه على إحياء ما دثر من أحكام الخلفاء الراشدين. هكذا تمت البيعة بشكل محدود يوم الأربعاء آخر شعبان سنة ثمان وأربعين ومائتين و ألف هجرية¹.

وقد أمر عبد القادر لإنصافه وحسن سيرته وأدبه وتواضعه الخطباء أن يخطبوا باسم السلطان الغربي "مولاي عبد الرحمن" ثم يأتوا من بعده استطرادا.

وقد كاتب سلطان المغرب يخبره بما اتفق عليه أهل الناحية من تقديمه للإمارة ويستشيريه ويطلب موافقته للأمر أو رده².

فكان رد سلطان المغرب إظهار السرور وكان جوابه بأن أهل الوطن أصابوا وما غلطوا وعلى الخبير سقطوا والله يعينكم ويحفظكم والسلام³.

وفي اليوم التالي للبيعة الخاصة أقبل الأمير المنتخب إلى وادي خصيبة وهو يبعد مسافة عشرة دقائق عن معسكر، وكان هناك في الانتظار عشرة آلاف فارس للاستقبال والترحيب برئيسهم الجديد.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.312.

² - أنظر نص المراسلة، الأمير عبد القادر، المذكرات، ص.142.

³ - الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص.142.

وقد تقدّم الموكب الرّسمي، تقدّمته أو لا كوكبة الفرسان حاملة راية الجهاد ثمّ تلا ذلك رؤساء بني عامر وبني مجاهر وبني يعقوب وبني عباس على صهوات خيولهم المندفعة¹. ثمّ ظهر الأمير الذي كان بسيطاً بلا زينة، وكان رؤساء "بني هاشم" في مؤخرة الموكب، ومرّ عبد القادر وسط الزّحام الشديد ثمّ تقدّم "محيّ الدين" أخذاً إياه من يده لتقدّمه إلى الشعب قائلاً: « هذا هو السلطان ، هذا هو ابن الزّهراء أطيعوه كما لو كنتم تطيعونني، الله يحفظ السلطان »².

فردّ النّاس: « حياتنا وأملاكنا وكل ما عندنا له، لن نطيع قانوناً غير قانون سلطاننا عبد القادر »³.

وقد أجاب عبد القادر على ذلك، وفي إجابته حدّد دستور البيعة الذي يعني بداية لتأسيس دولة: « وأنا بدوري لن آخذ بقانون غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق أحلّ دمه بمخالفة القرآن لمات »⁴.

من خلال نصّ البيعة⁵ تحدّدت المبادئ الأساسية التي في ضوئها تمّ تعيين عبد القادر أميراً. ويمكن أن نستشفّ منه الأمور التالية:

1. ضرورة وجوب نصب الإمام وقيام سلطة شرعية خاصة لما عليه الأمور من انتشار الباطل وانعدام العدل وتسلّط أعداء الله عز وجلّ على بلاد الإسلام وتشتّت الكلمة واختلال النّظام فإنّ الله يحمي بالسلطان ما لا يحمي بالقرآن.

¹ - هناك اختلاف بين رواية تشرشل، ص.58، وصاحب التّحفة ص.47، حيث يذكر هذا الأخير أنّ الأمير عبد القادر عندما وصل إلى وادي خصيبة كان معه عشرة آلاف فارس وليس بانتظاره.

وقد رجّحت رواية تشرشل لأنّ سهل غريس لا يمكن أن يتجمّع منه هذا العدد وإنّما الأقرب إلى الصّواب أن يكون قد تجمّع بمشاركة القبائل التي حضرت لاستقبال الأمير.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.58.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.58.

⁴ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.58.

⁵ - بالنسبة لنصّ البيعة كاملاً أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.312.

2. قبول البيعة لم يكن بطلب من الأمير بل قبلها مرغما بعد توّسل العلماء والأعيان مدّة تزيد عن سنتين وقد تمّت هذه البيعة عن رضى دون قهر أو تسلّط حيث رضى بها أهل غريس الحشم بمختلف بطونهم على السّمع والطاعة ونصرة الأمير وحمائمه بما يحمون به أنفسهم وأموالهم.

3. تحقّق الإجماع في اختيار عبد القادر للإمارة حيث اتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد وهذا ما يؤكّد أنّ البيعة أخذت الصّفة الشرّعية.

3. 2. 1 / البيعة العامّة:

لمّا شاع أمر البيعة الخاصّة أقبلت الوفود إلى الحضرة رغبة في الطاعة فكان اجتماع عام حضره الجمهور من الأشراف والرؤساء من كل قبيلة وفريق، وتمّ فيه عقد البيعة العامّة الثانية بمحلّ العموم من قصر الإمارة في 13 رمضان 1248هـ / 4 فبراير 1833¹.

إنّ المبايعة العامّة، التي يمكن أن نسمّيها بالشرّعية والنّهائية جاءت تلبية لمنشور من مجلس العلماء كتب يوم البيعة الأولى دلالة على التمكن السياسي والنّفوذ العلمي وقيمة شهادة العلماء بين الرّعية.

فمن خلال المنشور يتّضح ما يدلّ على وعيهم الجامع بين مقتضيات العلم والسياسة وإدراكهم لما يصلح حال الناس، ويعمّر اندفاعهم العاطفي بالافتتاح فنّمّة عبارة تدلّ على أنّ هذا الذي صار أميراً مكلفاً بإقامة الحدود الشرّعية لا يقنفي آثار غيره ولا يحذو حذوهم فإنّ المخالفة البصيرة والتّجديد الضّروري لم يرغب عن فقه هؤلاء السّاسة العلماء.

ومن ثمّ يجيء عبد القادر أميراً عامّاً متكامل العناصر، فهو إمام الصّلاة والفتيا وخطيب القوم وواعظ المجالس ومناظر الخارجين وباعث البعوث العلميّة والسياسية

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 157 - 158

• Brissac (Ph. De), Op cit, p.34.

والحربية مستوفيا الشروط للتعيين والترقية في الوظائف الأساسية متوقفا عند رأي أهل المشورة¹.

إن الناحية الغربية بايعت الرجل المناسب، فبروز عبد القادر على رأس الجموع الجزائرية ومبايعته تلك المبايعة الجماعية وتمنعه عن الإمارة وتصميم الشعب على ترشيحه كل ذلك يعد إيذانا بعودة الأمة الجزائرية إلى منابعها الأصيلة وإطاحة بالزعامات المتوارثة وبعثا للكفاءة وتقويضا للحكم الذي يفنى في خدمة نفسه وإعلاء للقيادة التي تفنى في الجميع².

وقد ختم الشيخ محمد بن معروف "منظومته" استبشارا بمبايعة الأمير بقوله³:

وزادنا ربنا العظيم سعادة & بنشأة شمس النصر شمس الخلافة
بدت بعد أن عم السحاب سماءها & فضاعت على الأفطار غربا وقبله
وقصدي به المنصور عبد القادر & به افتخرت أم المعسكر جهرة

وأهم ما نستشفه من نص البيعة⁴ ما يلي:

1. التأكيد على أن إجماع المسلمين الأوائل حجة وسبيلهم أقوم محجة وفي هذا إشارة إلى تأكيد الإجماع كتأصيل شرعي والافتداء بهم.
2. وجوب نصب الإمام العادل أمر شرعي أوجب طاعته واتباعه في القول والفعل، والتذكير بما فعله الصحابة -رضوان الله عليهم- من أجل النبي -صلى الله عليه وسلم- ودعوته وضرورة الافتداء بهم.
3. التذكير بما وقع لأهل القطر الجزائري عندما احتلته القوات الفرنسية من انعدام الأمن وعدم وجود من ينهى ويأمر بالمعروف وبالتالي ضرورة وجود إمام يبائع على الكتاب والسنة والسمع والطاعة.

¹ - السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص.31.

² -المدني أحمد توفيق، " الأخوة الجزائرية التونسية أو اخر أيام الأمير عبد القادر" الثقافة، ع (خاص).75، 1403هـ/ 1984، ص.154.

³ - البوعبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، ص.143.

⁴ - بالنسبة لنص البيعة، أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.164.

4. اتفاق العلماء على عبد القادر لصفات رأوها تستحق المبايعة كالنسب والكمال وتمسكه بالشرع وشجاعته التي برزت في مقاومته للعدو الفرنسي.

5. البيعة كانت تامة وكاملة ونصت على السمع والطاعة للمبايع والتضحية من أجله ببذل الروح والمال ونصرته في السراء والضراء، والطاعة له ما ساسهم بالشرعية الغراء والإفلاطاعة.

وبعد انعقاد البيعتين توجه الأمير إلى القبائل يدعوهم في إطار تحقيق الوحدة العامة للجزائريين وإرساء دعائم نظام حكم جديد.

فبعد انتهاء أمر البيعة العامة جمع إليه كتابه، وأمر العلماء بتحرير منشير وبلاغات إلى رؤساء القبائل¹ يعلنون فيها خبر وقوع البيعة وما وقع عليه الاتفاق من أن عبد القادر صار أميراً في أطراف البلاد متكفلاً بإقامة الحدود الشرعية وكون هذه البيعة ملزمة للجميع وأن يلحوا عليهم في الحضور لأداء بيعتهم كما أداها غيرهم².

وأن هدف البيعة هو جمع كلمة الجزائريين ورفع النزاع والخصام وتحقيق الأمن وإجراء الحق والعدل وتحقيق المساواة³.

ودعاهم إلى تلبية النداء والتقدم لأداء البيعة وإعلان الخضوع له، وفي هذا دليل على الذكاء والحنكة السياسية للأمير فهو لم يبدأهم بطلب الخضوع ابتداءً وإنما هياً له بما ينزع كل ما من شأنه أن يريهم في شخصه ثم بذل ما يرغبهم بتبيان أن الغاية هي البذل من أجل مصلحة الجميع.

ومع ذلك نجد أن هناك من طعن في بيعة الأمير وادعى عدم صحتها وبالتالي ارتأينا إلى تبين شروط البيعة الشرعية المتمثلة في:

¹ - بالنسبة لنص البيان الموجه إلى القبائل، أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 59.

² - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص. 220.

- Dieuzaide (V. A). Op. cit. p-p 305-311

◊ البيعة الشرعية تتم بالرضا والاختيار لا بالجبر والإكراه.
◊ المبايع لا بد وأن تتوفر فيه شروط من مسلم عاقل، بالغ، عالم حر إضافة إلى الحنكة السياسية.

◊ البيعة تنعقد بالأغلبية وهو ما اصطلح عليه بالاجماع، والمقصود هنا ليس اتفاق أهل القطر كافة، وإنما الغالبية العظمى على أساس أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - لم يحظ برضى الجميع مع ذلك اعتبرت بيعته بيعة صحيحة وانعقادها إجماعاً.

◊ يكون حكم المبايع - بعد إتمام المبايعة - نافذاً على جميع أفراد الرعية حتى الفئة التي كانت معارضة قبل انعقاد البيعة حيث كان لها حق الرفض عندما تطرح فكرة اختيار الحاكم أما بعد انعقادها له بالاجماع فلا بد وأن تبدي الطاعة وإن كانت غير موافقة، فإن خالفت فهي تسمى "باغية" وشاقّة لعصا الطاعة وعلى الأمة أن تكون في صف الحاكم إذا خرج لقتالها بعد دعوتها وعدم إجابتها.

ومنه يمكننا القول بأن مبايعة الأمير تعتبر صحيحة وموقفه من مخالفته يتمشى وما نص عليه الحكم الشرعي.

3.3 / تأسيس الدولة:

أدرك الأمير أن سر انهيار الجزائر العثمانية، يعود إلى فساد النظم السياسية والإدارية، وإلى فساد العلاقات الاجتماعية خاصة بين الحاكم والمحكومين، وأدرك أن النجاح في الانتصار على العدو لا يكون إلا بإزالة هذا الفساد وبالعامل على تغيير العلاقات القديمة¹.

وفي هذا الإطار يقول (Alfred Nettement): "لقد كان للأمير طموح كبير وآمال سامية ومشاعر عميقة ومبادئ شريفة لبعث قومية عربية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية" وذهب بعض الدارسين إلى اعتبار الهدف من تعيين عبد القادر أميراً ليس إقامة دولة جزائرية وإنما من أجل محاربة الكفار².

أنشأ الأمير دولته في ظروف الحرب بل من أجل الحرب ومن عبقرية أنه أدرك سلفاً بأن المعركة بينه وبين الفرنسيين لن تكون سهلة أو عابرة، لقد كان يعي مقاصد دول أوروبا القوية المناهضة بمطامعها في دول إفريقيا والشرق المستضعفة المتخلفة³.

وكان يعرف من ناحية أخرى أن الشعب الجزائري ليس من الشعوب التي تستسلم بسهولة، فصمم على المقاومة، وعرف أن مقاومة دولة كبيرة مثل فرنسا غير ممكنة إذا بقيت موكولة إلى عشائر متفرقة، وقبائل متنافرة، وإذا لم يجمع شتاتها في قبضة دولة وطنية موحدة⁴.

وهو ما جسده رد والده محي الدين على أشرف غريس عندما طلبوه للإمارة "إن دولة غنية محكمة النظام مثل فرنسا عليها ملك قوي، لا يمكن أن تواجهها إلا دولة أخرى محكمة النظام مثلها".

¹ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 211.

• Nettement (A), Histoire de la conquête de l'Algérie, écrite sur des documents inédits et authentique, 2^{ème} édition Paris, p 148.

² - Warnier (A), L'Algérie devant l'empireur, Challamel, Paris 1965, p 63.

³ - Roches (L.), Dix ans à travers l'Islam (1834-1844), 3^{ème} édition, Paris, 1904, p.69

• Roches (L.), Trente ans de l'Algérie (1834-1864), Paris (1874-1885), p 13.

• Lamunere (M.), Histoire de l'Algérie, Paris, 1902, p. 84

من هنا يتضح أن مهمة الأمير الأساسية كانت إقامة دولة يستطيع بها مواجهة فرنسا، ولذلك وعلى الرغم من اعترافه بالسيادة العليا لسلطان مراكش، فقد اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين واتخذ مدينة معسكر مركزا لحكمه، ودعا القبائل لإعلان الطاعة¹.

وكان يعي تماما أن النجاح في ميدان المعارك لا يكفي لتدعيم سلطته، لذلك قرّر أن يقيم سيادته على أرضية أكثر صلابة².

وقد حدّد الأهداف من المقاومة وإقامة الدولة وحصرها فيما يلي:

◊ السعي لتحقيق وحدة الجزائريين في صفّ قوي.

◊ إنكاء الشعور الوطني لدى قبائل القطر الجزائري.

وقد جاء تحقيق هذين الهدفين في إطار تصوّره لإقليم الدولة وتحقيق الولاء والسيادة لها. وكان عمله جهادا في إطار:

◊ الدفاع عن الجزائريين والوطن الجزائري بالوقوف في وجه المشروع

الاستيطاني الفرنسي.

◊ إعطاء البعد الوطني لدولته في إطار تجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الوحدة

الوطنية، وإعطاء مفهوم عصري لها على أساس الجمع بين الدين والوطنية³.

¹ - في هذا الصدد يقول (Baudicour) قد أدرك الأمير بنظرة ذات بعد إسلامي هدف الغزو الفرنسي، فحمل عبئ الحرب المقدسة، وكان يبحث عن تكوين قومية عربية ضدّ القومية الفرنسية، بتصرف. أنظر:

• Baudicour(L), la guerre et le gouvernement de l'Algérie Paris, 1853, p.308

² - تشرشل هنري، المصدر السابق ص.66.

³ - Le duc d'orléans, Compagnes de l'armée d'Afrique (1835-1839), Paris, p.412.

• Julien (Ch.), Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les debuts de la colonisation (1827-1871), Paris, 1964, p.179.

• Azan (P.), Les grands soldats de l'Algerie, Algerie, 1931, p35.

• Nettement (A.), OP.cit, p86.

• Augustin (B.), OP.cit, p'99.

وهو ما عبر عنه شارل جوليان بما يمكن ترجمته في قوله: "لقد كان الأمير يعمل من أجل قومية عربية مستقلة إسلامية في إطار الحضارة الأوروبية"¹

◊ توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.

◊ دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة، وبعبد القادر أميراً عليها.

◊ الدفاع عن الحريات الإنسانية.

◊ تدعيم الروح الوطنية الشعبية عن طريق الأخوة والحفاظ على النفس.

◊ نشر الأمن وتأديب الخونة وبالتالي تجميع القوى الوطنية.

وقد رسم لتحقيق هذه الأهداف تنظيماً شاملاً نابعا عن روحه التقدمية وحبه للنظام حيث آمن إيماناً عميقاً بتطوير وطنه وكان يعرف مدى الهوة التي كانت تفصله عن التقدم الحضاري الذي كان العدو يتمتع به.

فرغم تمسكه الشديد بمبادئ دينه الحنيف، إلا أنه كان متفهما لروح العصر الحديث²، فقد شاهد محمد علي في بناء دولة مصر الحديثة، وأعجب به وأدرك سر تفوق الغرب الأوروبي، وإذا كان محمد علي يمثل الاستبداد المستتير، وكان مفهومه يقوم على أن وجود الدولة يعني وجود الأمة، فإن عبد القادر قد عمل في أن واحد على تكوين الأمة والدولة معا.

ثم إن محمد علي كان يعمل في بلد اعتاد أفرادها على وجود الدولة واعتادوا على تدخلها في حياتهم، بحيث كان عدم وجود الدولة ظاهرة شاذة وخطرة، بينما كانت الجزائر قد اعتادت منذ القديم حياة المجتمعات المستقلة وغياب الدولة (منضوية تحت دولة أخرى) وبالتالي فوجود الدولة وتدخلها في حياة الأفراد ظاهرة شاذة ومؤذية، ثم إن الظروف الداخلية

¹ - صاري جيلالي، " دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، ص. 104.

² - Smati (M), *La formation de la nation algérienne*, Alger, p.21

• Le duc d'Orléans Op.cit p 400

والخارجية سهلت مهمة محمد علي بينما عاكست الأمير عبد القادر.

ومع ذلك فإن ما أنجزه الأمير يثير الإعجاب فقد كون جيشا حديثا وأقام نظاما إداريا متطورا عماده سلم تصاعدي مسؤول، قاعدته الشيخ وقمته الخليفة² وساند النظام الإداري بنظام محكم يوفر التموين والتعليم والقضاء والمواصلات والمخابرات.

لقد كان الهدف الأسمى والأشمل هو جمع شمل الجزائريين وتوحيدهم ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم وبعث روح الوطنية فيهم وإيقاظ كل قدراتهم اللهامة سواء للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للأخلاق أو للتعليم ثم تتويج ذلك كله بطابع الحضارة الحديثة³.

3. 3. /1 أسس الحكم:

عندما تعين عبد القادر أميرا بادر إلى تنظيم أمور الدولة فأسس مجلسا للوزراء ومجلسا للشورى وشرع في تكوين جيش وطني وإنشاء المؤسسات ووضع قوانين وسك عمله باسمه وتقسيم البلاد إلى ولايات⁴.

¹ - يقول كوكنبوت : إن الأمير رغم تعلقه بثرائه، إلا أنه إنسان مجدد لشعبه، إنه محمد علي آخر لا يفكر إلا في الحرية ومقاومة الغزو الفرنسي واستخدام هذين المبدئين لتحقيق سيادته على كامل الإقليم - يتصرف - أنظر:

• Cokenpot (Ch.), Op. cit, p-p. 168-169 ..

أما الضابط الفرنسي ماسو الذي تحرر من أسر الأمير سنتي 1840-1841 وفي تقرير له إلى وزير الحربية ذكر: "أن عبد القادر كان يحلم أن يكون محمد علي وقد يدفعه طموحه إلى الإبداع مثله". أنظر:

• Revue de l'histoire modrene et contemporaine 1967, p. 151

² - سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص. 132.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 148.

⁴ - Azan (P.), Les grands soldats de l'Algérie, p. 54

• Nettement (A), Op. cit, p-p. 143-144

• Lamunier (M), Op. cit, p. 86.

• Augustin (B), l'Algérie, Paris 1929, p. 199.

• Le duc d'orléans, Op. cit, p-p. 410-411.

• خير الدين محمد، مذكرات الشيخ خير الدين، ج. 1، الجزائر 1985، ص. 55.

فما هي الأسس التي اعتمدها الأمير في هذا البناء، ووضعها لتكون له المرجعية في حكمه؟.

ليس هناك شعب يستطيع أن يبدأ تقدمه من فراغ، وإلا كان يتقدم إلى الفراغ ذاته، وهذا ما يفسر توجه الشعوب إلى تاريخها وتراثها لكي تصوغ في ضوئه نظمها ودياناتها. في ضوء هذا المنطلق صاغ الأمير قوانينه ونظمه في إطار أسس وقواعد مستمدة من الشريعة الإسلامية، حيث اعتمد الفقه الإسلامي، أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية، بالإضافة إلى اعتماد سيرة الخلفاء الراشدين.

بهذه النظرية الإلهية المتكاملة التي أثبتت قدرتها على حل جميع المشكلات في جميع الأزمنة والأمكنة التي دخلها الإسلام وغمرها بسلطانه، ويهدي النظام الإلهي أراد الأمير عبد القادر السير في حكمه لأنه كان يؤمن بكفائته في مواجهة المشكلات المعقدة والوقوف بقوة أمام تحديات الأعداء¹.

إن أساس الحكم عند الأمير إضافة إلى المرجعية التراثية يعود إلى نشأته والمحيط الذي تربى فيه فقد نشأ نشأة دينية أثرت في سلوكه الشخصي قبل توليته وبعدها، ولهذا لما بويع اتخذ مثله الأعلى الخلفاء الراشدين - على أساس أن نموذج الدولة في مجال التطبيق تجسد بصورة نهائية في عهدهم - فاتخذ دستوره القرآن واتخذ إدارته من رجال الدين وزعمائه² وبالتالي فمنهجه في حياته السياسية لا يختلف عن منهجه في حياته العامة وقد عمل على استمالة الجزائريين إلى المبادئ الإسلامية واستدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى وإيقاظهم من الغفلة.

فالمعهود عند ملوك المسلمين منذ نهاية عهد الخلفاء أنهم كانوا يحكمون بمقتضى الشريعة ظاهرا لكنهم لم يكونوا يترددون في تأويل بعض أحكامها لصالحهم ويجدون دائما

¹ - الحسن بن بدوية، المصدر السابق، ص. 44.

² - أبو عبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، ص. 133.

بابا شرعيا أو فتوى يبررون بها سلوكهم في العقاب أو استخلاص الأموال. أو انتسح بمنذات الحياة.

ولكن الذي يتبع أسلوب الأمير في سياسة حكمه لا يجد عنده هذه الخاصية فقد كان حريصا أن لا يصدر منه أي تصرف سياسي أو اجتماعي إلا ويكون مطابقا للقوانين التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية وما استقر عليه اجتهاد الفقهاء¹ والدليل على تزعم الأمير للاتجاه العربي الإسلامي في مسلكه في الحكم، عدة شواهد:

◊ أنه تسمى أميراً لا ملكاً.

◊ المكاتبات التي دارت بينه وبين الفرنسيين التي اعتبر فيها أمير المؤمنين وحمي المسلمين.

◊ لم يجمع من شعبه سوى ضربيتين شرعيتين هما العشور والزكاة.

◊ أطلق اسم خلفاء على نوابه حكام الأقاليم.

◊ وصفه للإدارة الفرنسية للأراضي الجزائرية بأنها مسيحية.

وفي هذا يقول الأمير عبد القادر: إن الإرادة الإلهية اختارتني لتوحيد شعب محكوم من طرف حكام ليس لهم من الإسلام سوى الاسم، إننا نحارب من أجل أرضنا وأطفالنا ونسائنا، وكل ما يتعلق بديننا، إنها حرب مقدسة الهدف منها إحياء مجد الإسلام الأول².

أما (Jaque Berque) فيقول: "إن الأمير كان يعمل من أجل تكوين مجتمع وحضارة وثقافة كان يريد تأسيس دولة مبنية على الإسلام وخاصة على تعبئة الثقافة الإسلامية التي تمثل علم الجهاد والحرب المقدسة"³.

¹ - Le duc d'orleans, Op. cit, p.409.

◊ Nettement (A.), Op. cit, p.88

² - Roche (L.), Trente deux ans à travers l'Islam (1832-1864), T1, p-p 160-161.

³ - Berque (J), Maghreb Histoire et société, sociologie nouvelle, SNEID, Algérie, n.66.

3. في مبادئ الحكم:

عندما استقرت الأحوال للحكومة الجديدة، بدأت تعمل جاهدة على إرساء قواعد حكم نزيه على أسس متينة قوامها الدين الإسلامي، وأساسها مكارم الأخلاق. فقد سعى الأمير إلى تجنب أخطاء الحكم السابق التي جعلت النظام الحاكم مكروها معزولا عن الأهالي، وعمل في بناء دولته أن تكون قائمة على إخلاص الحاكم وثقة المحكومين. لقد بنى الأمير إمارته على قوتين: قوة رغبة وقوة رهبة، إلا أن القوة الأولى كانت هي المعول عليها، ولذا كان معظم سكان البلاد يبايعونه بخلوص ووداد¹.

إن حكومة الأمير تختلف اختلافا بينا عن الحكومة العثمانية الجزائرية، فالأمير لم ينصب حاكما بفرمان من سلطان خارج الجزائر، بل تلقى السلطة بموجب بيعة شرعية، ببيعة رضاء من سكان ملوا الفوضى، وخافوا من خطر الاحتلال الأجنبي.

وقد عبرت هذه البيعة على الثقة التامة بشخص الأمير وتفويضه تفويضا عاما بالتصرف لإنقاذ البلاد من الفوضى والاحتلال مع أنه قد قيد بحدود الشريعة بتأثير العلماء².

وهكذا انبثقت دولته عن شورى وبيعة شرعية، في عهد كانت فيه الدولة في العالم الإسلامي تعيش على السلطانية والحكم الموروث، وكانت دعائم دولته قائمة على:

أولاً: اعتماد مبدأ الشورى: إن الدولة المتكونة من وزراء وقادة محليين لم تكن لها سلطة مطلقة، بل كانت معززة بمجالس للفتوى والشورى وضبط الخطط والقوانين.

¹ - يقول ماسو: " أن عبد القادر قائد شعبي والقبائل تحترم هذا القائد أكثر مما تخافه لا شك في أنه استطاع أن يفرض سلطته بالقوة ولكنه نجح في تجسيد آمال الشعب". أنظر:

• Revue d'histoire moderne et contemporaine 1967, p.136.

• مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص.155.

• طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.231.

² - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.232.

فكان للأمير مجلس علماء يستشيرده ويشركه في الحكم وفي اتخاذ القرارات، حتى يرضى على حكمه ما أسماه بحكم الجماعة.

فرغم اعتماد حكومة الأمير إلى حد بعيد على شخصه وصدور القرارات التي يتطلبها الموقف الداخلي والخارجي فإنه كان دائم الحرص على إبعاد الطابع الفردي عن سلطته بإشراك ممثلين من العلماء والأشراف ورؤساء القبائل، يقل عددهم أو يكثر، حسب أهمية المسائل والقرارات¹.

كان الأمير يجعل شرفه في عدم انفرادة في تسيير أمور الدولة، فلا يصح عنده شيء إلا ما قرره المجلس الذي يمثل في نظره إرادة شعبه وابتغاهه اللازم. وهو ما أقره اللويس فيليب بقوله: "إنك تعرف خيرا مني، أنه لا يصح تدبير مني إن لم يكن مقرونا برضى الشعب"².

إن الأمير اعتمد الشورى المعروفة عند السلف الصالح فقد كان يستفتي مجلسا اختير بطريقة الانتخاب³، مراعيًا في اختيار ممثليه الشروط الشرعية من صلاح وتقوى ونزاهة وعدالة.

ثم إن القرارات التي يتخذها هذا المجلس كانت مقيدة بالأحكام القرآنية فهي التي تفسر وتؤول عند تطبيقها على حالات جوهرية وعند حدودها وفي إطارها تَمْضَى القرارات الاقتصادية والسياسية⁴.

وزيادة في الحرص من جانب الأمير على إبعاد طابع الفردية والاستبداد عن حكمه اعتمد على المشاورة خارج الوطن، إذ كان يستعين برجال العلم من الأزهر والزيتونة وجامع

1 - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.233.

2 - بالنسبة لرسالة الأمير عبد القادر إلى لويس فيليب في 2 مارس 1839: التي نشرها

مارسيل إيمريت . أنظر: لاکوست، المصدر السابق، ص.262.

3 - قدورة زاهية ، المرجع السابق، ص.499.

4 - لاکوست، المصدر السابق.262.

القرويين بفاس، وكبار المدرسين بالعواصم الإسلامية، وذلك حرصا على استكمال الإجماع وضبط الاجتهاد وربط الصلّات بين أطراف الأمة الإسلامية الواسعة¹.

إضافة إلى أنه كان يجمع الناس داخل الوطن ليسمع رأيهم في الأمور الخطيرة، ففي الاجتماع الذي جرى قرب مليانة رفض الموافقة على تعديل معاهدة تافنة حسب اتفاق "الميلود بن عراش" فالي " (Valée) (4 جويلية 1838)، وكذا الاجتماع الشوري لإعلان الجهاد ضد العدو، بعد اجتياز الجيش الفرنسي أبواب الحديد في نوفمبر 1839².

ثانياً: مبدأ الالتزام بحكم القانون: مهما كان بسيطاً التزاماً عملياً، مجسداً في أرض الواقع، وهو القائل: "سأحكم والقانون في يدي" والقانون عنده هو الشريعة الإسلامية وحدها³.

وهذا انطلاقاً من أن وظيفة الخليفة محددة في أن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه، والسلطان واحد منهم، ملكه الله أمرهم ابتلاءً وامتحاناً، فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح فهو خليفة الله في أرضه، وظله على عبيده وله الدرجة عنده عز وجل⁴.

وفي هذا الصدد يقول أجرون: "والحال أن عبد القادر اكتفى بتطبيق القانون القرآني ولم يأخذ عن الأتراك والأوروبيين سوى بعض التقنيات الإدارية والعسكرية"⁵.

¹ - مزبان عبد المجيد، "عبقريّة متكاملة"، الثقافة، ع. (خاص)، 75، 1403هـ/1983، ص.6.

² - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج.1، ص.214.

³ - شريط عبد الله، "مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير ونظرية ابن باديس" الثقافة، ع.57، 1403هـ/1983م، ص.237.

• عوض صالح، المرجع السابق، ص.109.

⁴ - الناصري أبو العباس، المصدر السابق، ج.8، ص.28.

⁵ - أجرون روبر شارل، المرجع السابق، ص.31.

ثالثاً: الالتزام بمبدأ المساواة: حيث بنى دولته على المساواة وعدم التمييز، يقول الأمير: " ... لا تسألوا أبداً عن أصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو، إذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة عذبة فلأنها جاءت من نبع صاف" ¹.

كان الحكم السابق يقوم على امتيازات الأتراك والكولوغلي وقبائل المخزن وكان فرض الضرائب وجبايتها يقوم على أساس نهب السكان لإشباع جشع هذه الفئات المتميزة. لكن عبد القادر كان قد تعهد عندما تلقى البيعة بالقضاء على كل المفاصد القديمة، فعمد إلى هدم النظام الإداري القديم القائم على الامتيازات، وتقليص الإقطاع إلى أقصى حد ممكن فأقام بذلك نظاماً إدارياً وقضائياً ومالياً يجعل الجميع متساوون أمام القانون، والضريبة، والخدمة العسكرية ².

رابعاً: ربطه بين الحكم والتوحيد: أو بين الخروج عن حكمه، وبين الخروج عن الدين، والوقوع في الشرك، لأن الدولة إسلامية في قوانينها وهي في حرب مع عدو كافر لتدافع عن هذا الدين نفسه.

خامساً: اعتماده مبدأ الجهاد: فالأمير يفضل الجهاد حتى على الصلاة والمناسك الأخرى ³:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا & علمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه & فصدرونا بدمائنا تتخضب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا & وهج السنايك والغبار الأطيب

¹ - Revue d'histoire moderne et contemporaine 1965, p.354

نقلا عن: طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.236.

² - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص - ص.236-237.

³ - صيام زكريا، المرجع السابق، ص.116.

سادسا: تأكيد رجم حالة الحرب على جبهة البناء الداخلي واعتبارها أهم من الجبهة الحربية، وكانت المعاهدات واتفاقات الهدنة التي أمضاها مع الفرنسيين ليست عن ضعف عسكري بل ليتفرغ أكثر لتمتين دعائم دولته الناشئة.

3.3 / التنظيم الدستوري لدولة الأمير عبد القادر:

نتناول في هذا الإطار صفة دولة الأمير من الناحية الدستورية والسلطات التي جسدت إرادة الدولة وعبرت عن نفوذها وسيادتها.

أولا: الطابع الموحد للدولة:

يذهب غالبية فقهاء القانون الدستوري والقانون الدولي العام إلى استعمال مصطلحي الدولة البسيطة، والدولة الوحدة كمترادفين لا فرق بينهما إلا أن هناك من يذهب إلى تقسيم الدولة البسيطة والدولة المركبة على أساس معيار " السيادة " فإن كانت السيادة لا تنقسم، ولو تعدد من يتصرف فيها سواء أكانت لرئيس الدولة أو للبرلمان فإننا نكون أمام دولة بسيطة وإذا كانت السيادة موزعة بين شخصين أو هئتين فإننا نكون أمام دولة مركبة. فمن خلال ما تقدم يمكن أن نعرف الدولة البسيطة على أساس أن السيادة فيها موحدة تركز في يد حكومة واحدة ويكون لها دستور واحد، ويخضع فيها الأفراد لسلطة واحدة ولقوانين واحدة وبالتالي كانت دولة الجزائر الأميرية من هذا النوع (Etat simple) من نواح ثلاث:

1. من حيث تنظيم السلطة السياسية:

فالدستور الواحد يحدد جميع أجهزة الدولة والمتتبع لسياسة حكم الأمير يجد عنده خاصية الحرص ألا يصدر منه أي تصرف سياسي أو اجتماعي إلا ويكون مطابقا لقوانين الدين في القرآن أو السنة واجتهاد الفقهاء - كما سبق ذكره¹ - .

¹ - أو صديق فوزي، النظام الدستوري الجزائري، "دولة الأمير عبد القادر" (دراسة تحليلية

مقارنة)، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995، ص.16.

2. من حيث الإقليم:

فالإقليم كان واحدا يخضع جميعا لسلطة واحدة فكانت الجزائر مقسمة إلى ثماني مقاطعات¹، وجميعها كانت تخضع لسيادة دولة الجزائر الأميرية بتتصيب موظفين برتب مختلفة لتسييرها، كعمال وقضاة وشيوخ وأغوات.

3. من حيث الجماعة:

فالأفراد يكونون وحدة متجانسة ويخضعون لنظام واحد وهذه الوحدة ذات أسس تتمثل في العروبة والإسلام.

وقد تميزت دولة الجزائر الأميرية بعدة خصائص دلت على أنها دولة موحدة أهمها:
أولاً: مخاطبة جماعة متجانسة فيها رغم اختلاف التقاليد بين أفراد هذه الجماعة. فهدف الأمير هو بناء وتحقيق " استقلال " الجزائريين تحت سلطة واحدة، وقد أدرك بيجو الطابع الوطني لعمل عبد القادر فأكد على وجوب مهاجمة القائد والقومية العربية في صلبها، وأنه يجب القضاء على هذه القومية وعلى قوة عبد القادر وإلا لن تحقق فرنسا شيئا في إفريقيا.

ثانياً: وحدة السلطات الثلاثة في الدولة: فمن خلال ما سنعرضه يلاحظ جليا التركيز الشديد للسلطات في يد الأمير عبد القادر.

ثالثاً: بالنسبة للسيادة حيث يمكن العمل بمبدأ الاستثناء من القاعدة العامة عند اختلاف الضرورة السكانية أو المكانية داخل الإقليم الواحد نتيجة قوة قاهرة أو حادث فجائي، وذلك ما أقرته اتفاقية " نافنة " فالجزائر كانت تحت سلطتين، السلطة الفرنسية وسلطة الأمير عبد القادر بحيث يمكن اعتبارها " كهنة" لينطلق الأمير بعدها أكثر قوة لاستئناف المعركة، وفعلا استطاع أن ينشر سيادته على ثلثي الجزائر².

¹ - Abd El Kader Boutaleb, l'Emir Abd El Kader et la formation de la nation algérienne, de l'emir abd el kader à la guere de libération, « éditions dahleb, 1990, p.100.

² - أو صديق فوزي، المرجع السابق، ص. 19.

• المركزية واللامركزية الإدارية:

اهتم الأمير بالسمات والخصائص اللازمة للقادة الإداريين ولم يعين أحدا في منصب إداري إلا بعد التأكد من صلاحياته وتوفر سمات القيادة الناجحة في شخصه، ووضع الأمير شروطا خاصة للاختيار، تتمثل في سياسة رائدة¹، هذه المقاييس هي محل بحث كثير من الكتاب المحدثين في علم الإدارة العامة.

ولتحقيق هذا التنظيم اللامركزي، قسّم الأمير البلاد إلى ثماني مقاطعات إدارية على رأس كل واحدة منها خليفة وقسمت المقاطعات إلى دوائر ونصب على كل منها "أغا" وتحتوي الدوائر على قبائل، وتتفرع القبائل إلى عشائر، ويوجد على رأس كل قبيلة "قائد" وعلى رأس كل عشيرة "شيخ" ووزعت الاختصاصات الإدارية في تنسيق متكامل روعي فيه التسلسل الوظيفي بين الخليفة، والأغا، والقائد، والشيخ².

وما يميز إدارة الأمير الوصاية الإدارية الشديدة كإصدار بعض القرارات الإدارية الهامة مباشرة كما له حق إعادة النظر في بعض ما يصدر من قرارات على جميع المستويات الدنيا خدمة للمصلحة العامة، بل إن الرقابة والإشراف على تنفيذ سياسة الدولة كانت تتم بصفة مباشرة دون وسيط.

وتأكيدا لهذه السياسة فقد كان مناديه ينادي في الأسواق: أن كل من لديه شكوى على خليفة أو آغا أو قائد فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة فإن الأمير ينصفه من ظلمه، وإن ظلم أحد ولم يرفع ظلامته إلى الأمير فلا يلومن إلا نفسه³.

¹ - فما يتعلق بمعرفة هذه الشروط أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص 307-308.

² - أنظر الفصل الثاني من الباب الثاني المتعلق بالتصور المؤسساتي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر.

³ - Augustin (B.), *Op. cit.*, p-p.15-66.

• Jule (D.), *l'Algérie et les colonies françaises*, préface de M. Labaulaye, Paris 1877, p-p.188-198.

والحقيقة إن هذا التركيز الإداري الشديد في ظل النظام اللامركزي الإقليمي يمكن تبريره بدواعي "الجهاد" ضد المستعمر الفرنسي حتى سنة 1847، ومبررات الوحدة الوطنية. ويجب التنبيه للاختلاف الموجود بين اللامركزية الإدارية واللامركزية السياسية الذي نقصد به "النظام الفيدرالي" وهو قياس غير وارد في دولة الجزائر الأميرية، حيث لا يحق للدولة المركزية الرقابة والوصاية. مع ذلك هناك من ينكر الدور المتحضر والكبير الذي قامت به إدارة الأمير في إرساء دولة القانون وفكرة التداول على السلطة¹.

إن التنظيم الدستوري في عهد الأمير عبد القادر، كان محكما وذلك قصد مواجهة انعدام السلطة التي كانت البلاد تشكو منها من جهة، والقضاء على الامتيازات الذي اعتمدت في ظل النظام السابق².

وقبل دراسة سلطات الدولة، لا بد من ذكر بعض الملاحظات الهامة كمدخل لفهد طبيعة هذه السلطات في عهد الأمير عبد القادر:

أولها: تأثر الأمير إلى حد بعيد بالنظام الإسلامي، فجميع المؤسسات الدستورية في هذه المرحلة كانت ذات ألقاب "إسلامية"، كالأمير والخليفة، القاضي والديوان وغيرها، مع ما تحمله من معان ودلالات.

فالمعهود عند الملوك المسلمين منذ نهاية عهد الخلفاء الراشدين أنهم كانوا يحكمون بمقتضى الشريعة ظاهرا، لكنهم لم يكونوا يترددون في تأويل بعض أحكامها لصالحهم، ويجدون دائما فتوى يبررون بها سلوكهم في العقاب أو استخلاص الأموال³.

ثانيها: الأخذ بفكرة الفصل بين وظائف الدولة⁴، حيث أخذ الأمير بهذا المبدأ على أساس فكرة التعاون المتبادل بين مختلف السلطات، مع متابعة السلطة التنفيذية - وعلى رأسها الأمير - وباقي السلطات الأخرى.

¹ - Augustin (B.), Op. cit, p-p. 15-66.

² - بوالشعير سعيد، النظام السياسي الجزائري، ط.2، دار الهدى، الجزائر 1993، ص.10.

³ - أوصديق فوزي، المرجع السابق، ص.48.

⁴ - فكرة الفصل فكرة قديمة عرفتھا اليونان من خلال تقسيم أرسطو لوظائف الدولة، ثم تحددت في شكل نظرية أثار معالمها مونتسكيو في مؤلفه روح القوانين. أنظر: الفصل الأول من الباب الثاني، مصادر فكرة الدولة عند الأمير عبد القادر.

ثالثها: تميزت إدارة الأمير بوصاية إدارية شديدة، فجميع القرارات الإدارية الهامة كانت تصدر من الأمير مباشرة، ثم تنزل إلى المستويات الإدارية التالية لها، وكان للأمير حق إعادة النظر في بعض ما يصدره الإداريون من قرارات، إذ كان يعدلها أو يلغيها حسب ما يراه محققا للمصلحة العامة. وحقيقة الأمر أن الأمير كان مضطرا لفرض هذه الوصاية الشديدة للظروف السياسية التي كانت تمر بها إدارته التي تكافح الاستعمار الفرنسي حتى عام 1847، مما ألقى على كاهل الأمير عبء الإشراف بنفسه على كافة الأمور الهامة تأميناً لسمعة البلاد¹.

وما يلاحظ أنه رغم التهديد الخارجي المستمر والدائم المزروع لأسس نظام دولة الجزائر الأميرية، إلا أنه استطاع أن يوحد الجزائريين ويبنى دولة مؤسساتية تغالب الأنظمة القائمة آنذاك من حيث الدقة في التنظيم والشرعية.

3.3 /4 سلطات الدولة:

• السلطة التشريعية:

تداخلت معالم السلطتين التشريعية والقضائية في الأنظمة التي طبقها الأمير في إمارته حيث لم تكن واضحة السمات ولا متميزة الصلاحيات بل إننا نجد أنهما متداخلتين في كثير من الوظائف.

فالسلطة التشريعية ومقرها معسكر، اتخذت القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب المذهب المالكي دستورا لها للنظر في القوانين واللوائح الإدارية والبث بقرارات فقهاء القانون الإسلامي، وقد عهدت إلى مجلس تشريعي واحد دراسة قضايا الدولة الأساسية، بينما وزعت القضايا الثانوية على عدة مجالس فرعية.

لقد كان أساس التنظيم الدستوري لدولة الجزائر الأميرية يستند إلى طابع شعوري. ولهذا لم يكتف الأمير بتشكيل حكومة بل عين مجلسا للشورى إضافة إلى المجالس الفرعية².

¹ - أوصديق فوزي، المرجع السابق، ص - ص. 23-24.

² - بونار رابح، "نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر"، ص. 46.

• المجلس الشّوري:

يتكون المجلس الاستشاري "الوطني" من أحد عشر عضوا من كبار العلماء والفقهاء، وهم نواب الدولة بالتعيين، وقد تعين في المرة الأولى السادة: أحمد بن التهامي وعبد القادر بن روكش وعبد الله سقاط المشرفي، وطاهر المحفوظي ومحمد المحفوظي وأحمد بن الطاهر بن الشيخ المشرفي، ومحمد بن المختار بن المكي وإبراهيم بن القاضي.

وقد ترأس الجلسات في معسكر نيابة عن الأمير قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي وهذا الاختيار لشخصية واحدة وإسناد وظيفتين رئيسيتين مختلفتين تشريعية وقضائية إليها فيه دلالة واضحة على التداخل في الصلاحيات والأنظمة¹.

والتصويت في هذا المجلس يتم بالإجماع أي أنه موقوف على اتحاد آراء الأعضاء وكانت نفقات المجلس تصرف من بيت المال كباقي الوظائف الأخرى.

وبما أن أعضاء هذا المجلس كلهم من ذوي العلم والفضل فقد كان صورة حقيقية ومرآة صادقة تعكس آمال الشعب الجزائري ومصالحه السامية خاصة وأن دستورهِ القرآن الكريم.

وتسمية المجلس الاستشاري "للمجالس التشريعية" عبر التاريخ الإسلامي لا يعني عدم التقيد بأرائه، وأنها لا تعدو سوى آراء للاستئناس بها من طرف الحكاء، بل كان بمثابة مجلس للحل والعقد قراراته إلزامية للجميع وذلك تطبيقاً لفكرة "القانون فوق الجميع"².

كان "المجلس الاستشاري" مكانة متميزة عند الأمير حيث كان يستعين به ويأخذ بمشورته في الكثير من المسائل الهامة لاسيما ما تعلق منها بمرفق القضاء وبعض الموضوعات ذات الصبغة المالية كفرض الضرائب الإضافية في الظروف الحربية التي تميزت بها دولة الجزائر الأميرية كما كان المجلس يجتمع للنظر في مسائل الهدنة والحرب والسلام.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 162.

² - أو صديق فوزي، المرجع السابق، ص. 80.

وقد صدرت عنه عدة قوانين أهمها قانون الجيش المحمدي الذي دونه قـدور بن رويلة في كتابه "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب". كما اضطلع بمهمة توزيع منشور تشريعية على شيوخ القبائل ومراجعة القضايا الصادرة على المحاكم الأولية والبت في توزيع البعض منها وهذا ما تعتمد الدول الحديثة في أنظمتها إذ تسند إلى محاكمها العليا صلاحية النظر والبت في الأمور المماثلة. وقد نظم هذا المجلس سجلا خاصا يحتوي كافة القضايا التي عرضت عليه وديوانه عهد إلى مصطفى بن أحمد التهامي بضبط قرارات أعضائه وتسجيلها.

• مجالس الشورى الفرعية:

تعددت هذه المجالس وتوزعت في كافة الإمارة على مستوى المقاطعات. وقد سميت بـ"دار الشورى" مهمتها مناقشة النوازل والأحداث المهمة التي تحدث بين الأفراد أو ما تعلق منها بمصالح الدولة. وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس إلى الخلفاء، والقضايا التي تنتظر فيها يكون فصلها على الوجه الشرعي ويكتب فيها صكوك يضع أصحاب الشورى فيها أسماءهم بخطوط أيديهم ورئاسة كل منها تناط بالقضاء فإذا حضرها الخلفاء فالرئاسة لهم¹. وتمتتع هذه المجالس عن النظر في قضايا تشريعية دقيقة خارجة عن صلاحياتها وتتعدى حدود مقاطعاتها وفي هذه الحالة تعرض على المجلس الشوري في معسكر الذي يجتمع برئاسة الأمير لإصدار القرارات المناسبة بشأنها. ومع ذلك فإن جميع قرارات هذه المجالس لا تكون نافذة إلا بمعية المجلس العالي الأميري أو المجلس الاستشاري².

من خلال ما تقدم نلاحظ الدور الريادي لهذه المجالس حيث التكوين المتخصص للأفراد المنتمين إليها مما ساعد على بعث الرقابة الشعبية وإرساء دولة القانون.

¹ - أوصديق فوزي، المرجع السابق، ص. 80.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 311.

• السلطة التنفيذية:

قامت حكومة الأمير عبد القادر بمعسكر بانتخاب الأمير رئيساً أعلى للدولة، ولم ينتخب الأهالي من سيكونون أعوانه في الحكم وهو أهم فارق يفرق بين حكومة الأمير والحكومات العصرية، بل تركوا أمر تعيينهم له، فاخترت أعضاء حكومته من رجالات القبائل وذوي العصبية وأهل العلم والتقوى وبذلك نجح في إقامة جهاز حكومة كانت بحكم الانسجام بين مختلف أجزائها تعد وعداداً طيباً بالنجاح والدوام¹.

وستتناول هذه السلطة على النحو التالي:

الأمير طريقة انتخابه وصلاحياته، الحكومة أجهزتها الرئيسية والفنية.

أولاً: الأمير: رأس عبد القادر السلطة التنفيذية بعد انتخابه سنة 1832 وتلقب بأمير المؤمنين متحاشياً للتلقب بالسلطان أو الملك.

وقد رأى البعض أن هذا الإعراض إنما هو تأديبا مع سلطان دولة المملوكة المغربية الشقيقة ومراعاة لحرمة الجوار.

لكن إذا رجعنا إلى أصل تسمية "أمير المؤمنين" فنجد أن أول من تلقب بهذا اللقب هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فالخلفاء الراشدون رفضوا تسمية الملك². ونلمس هذا من خلال موقف عمر رضي الله عنه: "والله ما أدري خليفة أنا أم ملك، فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم، فقال قائل: يا أمير المؤمنين، إن بينهما فرقا، قال ماهو؟، قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك. والملك يعسف الناس، فيأخذ في هذا ويعطي في هذا"³.

إذن يلاحظ أن التسمية التي اختارها الأمير كانت أقرب لروح وفحوى شريعتنا الإسلامية الغراء³.

¹ - أو صديق فوزي، المرجع السابق، ص. 57.

² - السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، (د.ط.)، دار الفكر، بيروت (د.ت)، ص. 131.

³ - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص. 155.

فهو لم ينل منصب رئاسة الجزائريين عن طريق "الوراثة" أو "التركية" أو "القبو" ولكن تقلد هذا المنصب على أساس شعوري لتوفره على العديد من الشروط التي تؤهل للإمارة¹.

وإذا كانت الحرية شرطاً أساسياً لصحة الانتخاب فمن خلال السرد التاريخي لمبايعة الأمير، فلا يوجد أي أثر للخروج عن هذا الشرط بحيث أكدت البيعة الخاصة والعامة انتفاء أي إكراه مادي أو معنوي.

فحرص الأمير على تحقق الإجماع في مبايعته يدل على أن العقد الذي قامت على أساسه دولته هو عقد تاريخي تم فيه الاتفاق بين إرادات إنسانية حرة وأفكار واعية ناضجة من أجل تحقيق رسالة سامية.

فبتاريخ 4 فيفري 1833 جاءت الوفود للمبايعة العامة ووافقوا على الوثيقة التي أعدها العلامة السيد محمود بن حوا المجاهري.

ويمكن اعتبار هذه الوثيقة البيان الوزاري الأول الذي تعهد فيه الأمير بما تعهدت به الدولة وانبثاقها عن إرادة شعبية وبيعة شرعية.

وبالنسبة لصلاحياته فعندما ما تقلد منصب الإمارة ظل محافظاً على مبادئه وطريقته حياته حيث يصفه بيليسي دي رينو بقوله: "كان بسيطاً في مسكنه، لا يميل إلى الزخرفة والرفاهية إلا في الخيل والسلاح، ميالاً للثقافة، يستغرق أوقات فراغه القليلة في المطالعة كما كان يصحب معه دائماً كتبه ولم تظهر عليه شارة الملك إلا عند مغادرته لعاصمته حيث يتخذ بيت شعر جميل، يسهر مع مساعديه إلى الثلث الأول من الليل ويستيقظ عند صلاة الفجر فيؤم رفقاءه في صلاة الصبح ويجلس إثرها لإلقاء درس في التفسير أو الحديث"².

¹ - راجع هذه الشروط، في الفصل الثاني من الباب الأول جوانب من شخصية الأمير عبد القادر .

² - البوعبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، ص. 147.

• مركز الرئيس:

عبارة عن خيمة واسعة ومريحة يقف أمامها ثلاثون زنجياً، تحتوي على بعض المغلفات المزينة بأهلة حمراء وزرقاء وخضراء، وكان يقسم الخيمة إلى نصفين ستار مر الصوف.

فالنصف الأكبر واسمه المنزل عبارة عن غرفة استقبال كبيرة مفتوحة لجميع القادمين وفيها كان الأمير يستمع إلى الشكاوي ويدير القضاء.

أما النصف الصغير فيستعمله غرفة نوم ومكتبة خاصة، وفي هذا الجناح كان يستغرق في القراءة أكثر من النوم.

وفي منتصف النهار يصرف عبد القادر كل الحاضرين ويخلو إلى نفسه مكرس ساعة من وقته للصلاة ثم يذهب إلى غرفة الاستقبال حيث كتابه وضباطه ينتظرون. وهناك كانت تناقش حركات العدو والخطط الضرورية لمواجهته، وكان يملئ بنفسه الأوامر والرسائل. وخلال هذه المناسبات طالما أيد عبد القادر وجهات نظره بنصوص مناسبة من القرآن¹.

• صلاحيات الأمير:

من الاختصاصات والصلاحيات العديدة المخولة له نذكر على سبيل المثال لا الحصر مايلي:

أ. **اختصاصات التعيين:** حيث يرجع له الدور في تعيين الخلفاء وهو منصب غير محدود المدة، ويعين الخليفة بدوره الأغا على مستوى الناحية، والقائد على مستوى الأعراش لمدة سنة قابلة للتجديد وقد يمنح الخليفة تفويضاً من الأمير للعديد من الصلاحيات أهمها: نقل الأوامر الصادرة من الخليفة، جمع الضرائب، إقامة الحدود، إجراء القضاء بين الناس، حماية الأمن والمواطنين، محاربة العدو، كما له حق إصدار قرارات العزل نتيجة سوء التشيير أو العجز².

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 63.

² - من ذلك عزله لمحمد بن عبد السلام المقراني وتعويضه بأحمد بن عمار بعد أن شك في اتصال الأول بالعدو، وعزل فرحات بن سعيد وتعيين الحسن بن عزوز بدله بعد أن أظهر الأول تحالفه مع الفرنسيين، وعزل الحاج السعدي، وتعيين أحمد الطيب بن سالم بدله.

أنظر: سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ص - ص. 213-214.

ب. **ترأسه الديوان الأميري:** الذي يوازي بالمصطلح العصري مجلس الوزراء، وكان يتكون من العديد من الوزارات، أهمها: نظارة الأمور الداخلية والخارجية ونظارة المالية والأوقاف - كما سيأتي بيانه -.

أما الأمين العام للرئاسة فقد اصطلح على تسميته بكتاب الديوان الخاص¹.

ج. **للأمير حق اعتماد سفراء الدول** وذلك بتسلم اعتماد أوراق الممثلين الدبلوماسيين الأجانب وإنهاء مهامهم، فهو الذي يقرر السياسة الخارجية للدولة حيث كانت له علاقات واتصالات مع سلطان فاس ومع الخلافة العثمانية².

د. **للأمير حق إصدار العديد من اللوائح:** سواء اللوائح التنفيذية أو لوائح المصالح العامة ولوائح الضبط، و اللوائح البوليسية.

هـ. **الأمير هو القائد العام للجيش:** فقد وضع للجيش النظامي ميثاقا دقيقا توجب قوانينه في (وشاح الكتائب) فكان المشاة مقسمون إلى كتائب (مائة رجل)، وفرسان السريات (خمسون رجلا)، ورجال المدافع على كل قطعة (إثنى عشر رجلا)، كما كانت التدريبات إجبارية. والكسوة والشارات محددة، والترقيات معمول بها حسب القانون، وكان المسؤول عن تحديد الاستراتيجية الواجب اتباعها في المعارك والحروب، فالانفاقيات المبرمة. كانت عبارة عن مناورات سياسية لبيسط نفوذه على باقي البلاد، والاعتراف دوليا بحكومته ودولته. و. **الإختصاصات القضائية:** كلما كان عبد القادر مستقرا في مكان معين فإنه كان الوحيد الذي يقوم بدور القاضي حيث من خيمته يستمع إلى الشكاوي ويحكم في المظالم. وفيما يتعلق بالقضايا الجنائية كان يقرر دون أن يستأنف وكان دائما يستشهد بالقرآن ويأخذ منه الأحكام حيث كانت تصدر مطابقة له الذي يخضع عبد القادر لنصه وروحه خضوع إجلال وتقديس فهو دليله في حياته الخاصة والعامة.

ز. **إمام الصلاة:** حيث كان يؤم الركب بأكمله في عاصمته الزمالة وهو ما رواه عنه الكولونيل اسكوت حيث يتقدم الركب ليصطفوا للصلاة بكل خشوع وتضرع وكان السلطان هو الإمام، وبعد الفراغ يتجه كل واحد إلى اتجاهه الخاص.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 307-308.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 299-313.

للمزيد من التفاصيل أنظر: الفصل الثاني من الباب الثالث العلاقات الخارجية للدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر.

ي. **خطيب القوم**: ظل عبد القادر الذي يخطب القوم يوم الإمارة خطبة الولاية والعهد يتصرف في الخطب حتى المنبرية تصرفه في الحديث والخطب الحربية، وفي محاورته مجالس الشورى، ومراسلات الموالين والخارجين، ومن يستشهد بهم لدعم رأيه من أولي الذكر والفتيا والمنزلة عند الجماهير، ومع أن لخطبة الجمعة بعامه وعندده هو بخاصة هدفا تعليميا منشودا، فإنه قد يعرج فيها على ما تفجؤه به الحال، فيلاقي الحديث العارض بالمقال المناسب، ويرتجل الفكر والأسلوب وحسن التخلص على نحو ما يضطره إليه المقام في ميدان العمل والقتال "كما حدث مع وفد بني عامر"¹.

ويبدو أن الأمير عبد القادر كثيرا ما يخرج على غرار ما يصنعه هارون الرشيد ليختلط برعاياه ويحصل بنفسه على المعلومات بشأن سير الأمور، فقد حدث ذات ليلة أنه جاء من الزمالة إلى تافدمت لوحده لكي يتأكد بنفسه من محتوى تقرير قدم إليه والذي جاء فيه أنه من الخطر التجول ليلا في شوارع المدينة².

وهكذا كان للأمير نشاط لا يعرف الكلال فقد كان دائم الحركة، على أتم اليقظة والانتباه مشرفا بنفسه على جميع المشروعات والخطط التي وضعها لإرساء قواعد دولته.

• حكومة الأمير عبد القادر:

تعتبر مبايعة الأمير عبد القادر بداية حكومة جزائرية صالحة لما تجلى به الأمير من مزايا خلقية وعقلية عظيمة فضلا على أنه كان من صميم الشعب الجزائري. فقد نجح في تأليف جهاز حكومة كانت بحكم الانسجام بين مختلف أجزائها تعد وعدادا طيبا بالنجاح والدوام.

ونظرا للطابع الرئاسي المغلق للنظام السياسي الجزائري في تلك المرحلة فإن الرجل الثاني للسلطة التنفيذية عرف بتسمية "الخوجة الكبير" وأصبح التنظيم الإداري في عهده يتمثل في أجهزة رئيسية وأخرى فنية مساعدة، فالأجهزة الرئيسية تتمثل في أجهزة الدولة المركزية التي تختص بتحقيق الأهداف الرئيسية للإدارة - ويوجد الأمير على قمته.

1- السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص. 34.

2- الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 93.

ثم يأتي الديوان بعد ذلك ويتألف من الوزير - رئيس الوزراء - حسب المصطلح العصري الذي يعرف "بالخوجة الكبير"، ومن النظراء - الوزراء¹.

ومن بين المناصب الحساسة والرئيسية في الدولة منصب الوزارة فقد عني به علماء السياسة الشرعية والمؤلفون في الأحكام السلطانية وجاءوا بهذا المبحث بعد الإمامة مباشرة. مما جعل الأمير يولي اهتماما لهذا المنصب، وكانت غايته ربط البلاد بالإدارة الشرعية، فاشترط في توليه شروطا قاسية من حيث الالتزام والنزاهة والكفاءة، وأبعد أرباب التقدم والنفوذ، خوفا من تشكيل جماعات ضاغطة مؤثرة في السير العادي للدولة. وهكذا لم يتول منصب الوزارة إلا من كان ذا حزم وعزم وقوة شكيمة، من ذوي البيوت المشهورين بالعلم، والفضل وحسن السياسة².

وكانت الوزارة التي اتخذ الأمير مدينة معسكر مقرا رئيسيا لها تعد من أحسن الوزارات في القرن (19م). لما اشتهرت به من دقة ونظام ولما عرف عن أعضائها من خبرة فنية ومهارة علمية وسياسية وكفاءة حربية فائقة، فقد اختار الأمير حاشيته الخاصة من أخلص قادة البلاد العسكريين وعلمائها وقضاتها، ما جعلهم يتبوأون هذا المركز الممتاز ويقومون خير قيام بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهم³.

وأهم الوزارات التي عرفت في عهد الأمير عبد القادر ما يلي:

- **نظارة الأمور الداخلية:** وقد أسندت لأبي المكارم السيد محمد بن السيد العربي.
- **نظارة الأمور الخارجية:** لأبي محمد، الحاج مولود بن عراش.
- **نظارة المالية:** لأبي عبد الله الحاج الجيلاني بن فريحة.
- **نظارة الأوقاف:** لأبي عبد الرحمان الحاج الطاهر أبو زيد.
- **نظارة الأعشار وصنوف الزكاة:** لأبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية.
- **نظارة ضرب السكة والأسلحة ومعاملها:** لأبي البركات السيد محمد بن الجيلاني⁴.

¹ - أوصديق فوزي، المرجع السابق، ص - ص. 67-68.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 307.

³ - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص. 155.

⁴ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 308.

أما الأجهزة الفنية المساعدة، فقد تمثلت في دواوين الكتابة وقد أسند لهذه الأجهزة تنفيذ القرارات واللوائح التي تصدر من الأجهزة الرئيسية، وقد اهتم الأمير بالسماح والخصائص اللازمة للقادة الإداريين، فأعطى نفس الأهمية من حيث الكفاءة والنزاهة في تعيين الموظفين في مجال الأجهزة الفنية.

وبالنسبة لكتابة الديوان الأميري فقد كان من نصيب ابن عمه السيد أحمد بن علي أبي طالب والسيد مصطفى بن أحمد التهامي وبعد ذلك عين لاستخلافهما في المنصب السيد محمد بن الخروبي حيث نقل الأول إلى قيادة فليته، والثاني إلى خلافة الحضرة.

ولكن السيد الخروبي نقل بدوره إلى سطيف فاستخلفه في المنصب السيد محمد بن عبد الرحمن المرسلي والسيد مصطفى بن العوفي، واتصلت خدمتهما في كتابة الديوان التي إن ماتا آخر أيام الإمارة.

ويوازي هذا المنصب في النظم السياسية والدستورية المقارنة الأمين العام للرئاسة أو الأمين العام للحكومة.

وكانت هناك أجهزة مساعدة لهذا الجهاز الرئيسي وهي على التوالي:

- نظارة الخزينة الخاصة التي أسندت لأبي سعيد، محمد بن فاخة.
- الحجابة حيث كان للوزراء رئيسا يسمى حاجبا، وقد تعين لها محمد بن الحاج علي الرحاوي.
- الملبوس الأميري: تعين له النجادي الرحاوي.
- الفراشة: تتصب على رأسها عبد القادر بن أبي معزة.
- السقاية: عين لها البدالي بن شافعية.
- السلاح: نصب عليه عبد الرحمان، بن مقيطيف.
- نظارة الإسطبل: لمحي الدين بن عبد الله.
- نظارة الموسيقى: لأبي مدين بن أبي دغن.
- حمل الشمسية أو اللواء: عبد الله بن يوسف¹

1- ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 308-309.

وكان علم الجزائر أو لواء دولة الجزائر الأميرية من حرير أعلاه وأسفله أخضر ووسطه أبيض مرسوم عليه بالنصب المزركش في صورة دائرة تامة "نصر من الله، وفتح قريب، ناصر الدين، عبد القادر بن محي الدين" وفي وسطها صورة يد مبسوطة مطرزة بالذهب.

وهكذا يلاحظ أن الأمير عبد القادر كان يعتمد على تقسيم العمل وتحديد الصلاحيات تحت الوصاية الإدارية الشديدة له فكان من حقه أن يجيز أو يعدل أو يلغي آثار بعض القوانين، حسب ما تقتضيه المصلحة.

وفي ختام هذه الدراسة ينبغي الإشارة إلى تركيز الأمير الشديد على فئة العلماء المعروفون بالورع والتقوى في بناء الدولة الجزائرية الفتية وإرساء دعائمها.

ولعل اعتماد الأمير على مثل هذه الفئة يعود إلى أسباب وحيثيات أهمها:

1. المكونات الشخصية والأخلاقية أو البناء الفكري والثقافي لشخصية الأمير عبد القادر، فهو إنسان بسيط زاهد في متاع الدنيا لا أفضل عنده من الصلاة والصوم، غير متكبر نبيل إضافة إلى أمانته حيث لا يأخذ شيئاً من أموال الدولة، يحكم بالعدل والقسطاس، عدالتة لينة وصارمة في ذات الوقت، قراراته وأحكامه مطابقة لما جاء في الشريعة الإسلامية ويحب الإنسان المتدين، والذي لا يؤدي أحداً.

فبهذه الأخلاق استطاع المسلمون أن يكونوا أساتذة العالم في مرحلة من مراحل التاريخ، وبهذه الأخلاق استطاع الأمير أن يرسى دولته مطابقاً لما يعرف اليوم بالسوسيولوجية القانونية (Sociologie juridique).

2. إذا كان الأمير عبد القادر يلقب لدى العديد من المؤرخين الأوروبيين بالإمام العسكري أو "الفارس المتصوف" لاعتماده على مبادئ الشرع الإسلامي فهذا لا يعني حسب جوليان (Julien (Ch.)) أن نظامه كان ثيوقراطياً (Régime théocratique)¹

¹ - أنظر:

• Julien (Ch), Op. cit. In Boutaleb (A.), Op. cit, p-p.100-101

ولكن اعتماده على العلماء وشيوخ الزوايا كان لمبررات عديدة أهمها:

- صيانة الوحدة الجزائرية بحكم أن الشعب ينتمي للإسلام السنّي على مذهب الإمام مالك - رضي الله عنه - فكان الإسلام أداة للوحدة أكثر مما يكون عاملاً للتفرقة لأن الجزائريين آنذاك كانت مرجعيتهم العليا موكلة إلى العلماء.

- إشعار الشعب برحمة الحكم الوطني الأصيل المنبعث من معتقداته والذي حرموا منه فترة زمنية حتى يتحمسوا له ويدافعوا في إطاره عن كرامتهم، فقد حاول الأمير أن يرسد دولة تتجه نحو الإخاء والود والمحبة وفقا للتعاليم الإسلامية.

3. إن الأسس والمعايير التي كان يتم بها تعيين جميع الموظفين الساميين للدولة كانت لا تتوفر إلا في شيوخ الزوايا والبيوت التي اشتهر أصحابها بالعلم إلى جانب الشعبية التي تمتع بها الوزراء والخلفاء في مقاطعاتهم نتيجة إخلاصهم وتربيتهم النبيلة وخدمتهم للمجتمع.

ولكن هذا لا يعني أنه كان هناك تمييز في انتقاء الوظائف العليا للدولة، بل استعار بجميع من يكتسب مؤهلات فهذا السيد محمد الخروبي الذي تقلد وظيفته سكرتير الوزير الأول. رغم أنه كان سكرتيرا سابقا لباي وهران فأقدميته في التسيير واستقامته كانت أكبر مؤهل، كما كان على رأس الخزينة محمد بن فغّي وهو أسود البشرة.

إذن لا داعي لإصدار الأحكام المسبقة وإصاق بعض "النعوت" و "الأسماء" إلى دولة الجزائر الأميرية.

4. دولة الجزائر الأميرية دولة العلماء والمجتهدين فمن شعاراتها "العلم والعمل والإيمان"، حيث حاول الأمير أن يجسد عمليا هذه الشعارات كترتيب علماء لتدريس مختلف العلوم في سائر المدن والقرى وعين لهم مراتب على حسب طبقاتهم وحث على طلب العلم واحترام أهله.

ومما سبق نتبين لماذا اتجه الأمير إلى اختيار واستشارة العلماء في تسيير أمور

دولته.

خاتمة:

أهم النتائج المستخلصة من هذا الباب ما يلي:

1. النظام العثماني أسس "دولة" كان نفوذها محسوسا أكثر في المدينة وأحوالها، وكان محدودا في الريف الذي كان له هو الآخر نفوذ، الأمر الذي جعلنا نتوصل إلى نتيجة وهي أنه من الصعب الحديث عن وجود "دولة" مطلقة متكاملة الهيئات في الجزائر خلال هذه الفترة.
2. التكوين الاجتماعي الخاص الذي حظي به الأمير والتربية المنزلية الرفيعة التي تلقاها، حيث كان له أثرا في سلوكاته إذ جعلته يلتزم بأخلاق ارتبطت أساسا بالقران الكريم وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الأخلاق والصفات أهلتة لأن يكون أميرا.
3. ترسيخ البعد العربي الإسلامي في شخصية الأمير من خلال رحلاته وزياراته إلى أقطار المشرق العربي، واكتسابه وعيا سينشئ لديه الرغبة فيما بعد لتأسيس دولة إسلامية عندما تنهيا الظروف.
4. حب الأمير للتطلع والثقافة الذي يتجلى في مؤلفاته خاصة كتاب المواقف.
5. ضرورة قيام سلطة بعد زوال السلطة العثمانية بالجزائر.
6. أهلية الأمير عبد القادر للإمارة واستحقاقه لها من خلال نسبه ونفوذ والده، وقدرته العسكرية في المعارك.
7. تحقق الإجماع في اختيار عبد القادر للإمارة حيث تمت مبايعته عن رضى دور قهر، واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته وجاء هذا الاتفاق لصفات رأوها تستحق المبايعه كالنسب والكمال، وتمسكه الشديد بالشرع، وشجاعته التي برزت في مقاومته للاستعمار الفرنسي.
8. هدف البيعة هو جمع كلمة الجزائريين ورفع النزاع والخصام وتحقيق الأمان وإجراء الحق والعدل وتحقيق المساواة .
9. هدف قيام الدولة الأميرية الجزائرية هو:
- تحقيق وحدة الجزائريين.

- إنكفاء الشعور الوطني لدى قبائل القطر الجزائري.
- إعطاء البعد الوطني للدولة في إطار تجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الوحدة الوطنية، وإعطاء مفهوم عصري لها على أساس الجمع بين الدين والوطنية.
- الدفاع عن الجزائريين وتحقيق استقلال الوطن الجزائري بالوقوف في وجه المشروع الاستيطاني الفرنسي.
- توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.
- دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة.
- 10. اعتماد الأمير على المرجعية التراثية في حكمه، حيث اتخذ القرآن دستورا لدولته، واتخذ إدارتها من رجال الدين وزعمائه، وتسمى أميراً لا ملكاً، ولم يجمع من شعبه سوى الضريبة الشرعية.
- 11. الدولة الأميرية الجزائرية انبثقت عن بيعة شرعية في عهد كانت فيه الدولة في العالم الإسلامي تعيش على السلطانية والحكم الموروث، وكانت دعائم دولته قائمة على:
 - 1. الشورى، 2. مبدأ الالتزام بحكم القانون، 3. الالتزام بمبدأ المساواة، 4. ربط الأمير بين الحكم والتوحيد أو بين الخروج عن حكمه والخروج عن الدين، 5. اعتماد مبدأ الجهاد وتفضيله، 6. التأكيد على جبهة البناء الداخلي واعتبارها أهم من الجبهة الحربية.
- 12. إقرار تنظيم دستوري يعتمد على الطابع الموحد للدولة، والتنظيم اللامركزي للإدارة، وتكوين مجلس شوري ومجالس فرعية لإقرار وتطبيق فكرة القانون فوق الجميع وبعث الرقابة الشعبية وإرساء دولة القانون.
- 13. دولة الجزائر الأميرية هي دولة العلماء والمجتهدين، شعارها "العلم والعمل والإيمان" من أجل صيانة الوحدة الجزائرية وإشعار الشعب برحمة الحكم الوطني، وتدعيم روح الإخاء والمحبة بين أفراد المجتمع وفقاً للتعاليم الإسلامية.

المباح الثاني

التطور العوسلاني للدولة
الجزئية الأمبرية

الإسلامية

جامعة الأمير

مقدمة :

نتناول في هذا الباب التصور المؤسساتي للدولة الجزائرية الأميرية من خلال الفصول الآتية:

1. مصادر فكرة الدولة عند الأمير عبد القادر.
2. تصور الأمير لمجال سيادة الدولة الجزائرية.
3. التصور المؤسساتي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر.
4. التصور المؤسساتي العسكري للدولة الجزائرية عند الأمير.

النص الأول: مصادر فكرة الدولة عند الأمير عبد القادر

1. 1 / مفهوم الدولة:

إن ما أطلق على الدولة في القديم المسمى بالإمبراطورية أو المملكة هو أقرب إلى قبيلة في التاريخ الحديث أكثر منه إلى نظام دولة، وبالتالي فالمجموعات البشرية قديماً اعتمدت على عادات وتقاليد دينية وأخلاقية في تنظيم شؤونها على القانون العشائري الذي هو شرعه شرف أكثر منه مجموعة أحكام¹.

لهذا فالدولة قديماً لم توجد كتشخيص قانوني للشعب، وإنما كانت تشخيصاً للفرد الذي هو الملك أو الإمبراطور، أي لأي اسم يجمع في يده السلطات ويدير الشعب بإرادته ممثلاً للمشيئة الإلهية إن لم يكن نفسه هو الإله².

وقد ظل مفهوم الدولة في تطور، وموضع اهتمام المفكرين. إلى أن أصبح تقريباً علماً قائماً بذاته يطغى على فرع علم السياسة ويرتبط بالعلوم الأخرى.

فالدراسة الشمولية لظاهرة الدولة وتحليل كل العناصر المتصلة بها، والتي تكون حتماً من طبيعة مختلفة تعتبر في حد ذاتها إقامة لمشروع حضاري يمكن الأمة من تنظيم طاقاتها واستثماراتها بكيفية تستفيد منها الأجيال الحاضرة والقادمة³.

و السؤال الذي يطرح: ما هو مدلول الدولة ؟

¹ - أنور عبد الملك، الفكر العربي، ترجمة بدر الدين عروودكي، ط.3، بيروت، دار الآداب 1981، ص.34.

² - الأخصري محمد الصغير، "نشأة الدولة في التاريخ"، القيس، ع.1، 1966، ص.57.

³ - أرزقي نسيب، الظاهرة الدستورية في المجتمع الإسلامي، بحوث، ع.2، جامعة الجزائر 1994، ص.58.

الدولة لغة: بضمّ الدال، اسم الشيء الذي يتداول به بعينه، وهذا المعنى ينطبق خاصة على المال الذي ينتقل من يد إلى أخرى، وفي هذا الصدد يقول الله عزّ وجلّ: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وآتوا الله إن الله شديد العقاب"¹. كما تدل كلمة "دولة" على السنن المتغيرة.

أمّا الدولة بالفتح فتشير إلى حالة الانتصار في الحرب و الانهزام فيها أي أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى. كما يفهم من كلمة "الدولة" الغلبة والقوة².

أمّا اصطلاحاً: ونظراً لتطور مفهوم الدولة فقد أعطيت لها تعريفات متعدّدة: فالفقه الدستوري يحدّد مفهومها بمجموعة بشرية تعيش فوق إقليم جغرافي محدّد، وتخضع لسلطة سياسة معينة تقوم بتنظيم هذه الجماعة وإدارة شؤونها وتأمين النظام الداخلي والدفاع الخارجي³.

وهي من الناحية السياسية تعبّر عن الكيان السياسي والإطار التنظيمي الواسع لوحدة المجتمع والنظام لحياته الجماعية، وموضع السيادة فيه بحيث تعلو إرادة الدولة شرعاً فوق إرادة الفرد والجماعة وذلك من خلال امتلاك سلطة إصدار القوانين واحتكار وسائل الإكراه وحق استخدامها في سبيل تطبيق القوانين بهدف ضبط حركة المجتمع وتأمين السلم والنظام وتحقيق التقدم في الداخل والأمن من العدوان في الخارج⁴.

وإلى جانب الاستخدام العام للمصطلح بمعنى الجسم السياسي للمجتمع هناك استخدام أكثر تحديداً يقتصر فيه المعنى على مؤسسات الحكم.

¹ - سورة الحشر، الآية 6.

² - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، (مادة دول)، ص. 1455.

³ - أبو فارس محمد عبد القادر، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان للطباعة والنشر عمان 1989، ص. 131.

⁴ - الكيّالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج. 2، ط. 2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1981، ص. 702.

ويضفي البعض على الدولة الطابع الإيديولوجي بأنها البنية السياسية المنغمسة في محيط إيديولوجي يميل أكثر فأكثر إلى الروى الدينية¹.

وأحدث تعريف للدولة كان من طرف الألمان الذين اعتبروا وجود الدولة وشيوع أمرها وذيوع خطرهما لا يتم إلا بالتوسع والاستعمار وأن الشعب الألماني لا بد له من شيء اسمه (Lebensraum) أي مجال حيوي يشمل بلاده وبلاد غيره². وهو المفهوم الذي تستعمله اليوم الدول الإمبريالية ذات النزعة المهيمنة على العالم.

وبغض النظر عن المفهوم اللغوي والاصطلاحي فإن ممارسة الدولة لا يتطابق والإطار الزمني لظهورها ولا توجد نظرة جاهزة يتعين من خلالها مفهوم الدولة، إنما للفكر السياسي إسهامات في هذا المجال بحيث حاول تحديد هذا المفهوم وبيان مظاهر الدولة وأركانها ووظائفها.

وأهمها ما جاء في التصور الغربي والإسلامي:

بالنسبة للمنظور الإسلامي فالدولة تنبثق عن مفهوم الوجود والتصور الإسلامي العلم الكون الذي يركز على المحور الجوهري وهو العقيدة وبناء عليه فالدولة الإسلامية لم تكن بناها مماثلة للدولة بمعناها الحديث وإنما كان اهتمامها بتدبير شؤون أمة أي جماعة رابطتهم ليست رابطة المكان والدم ولكن رابطة الدين ووشائج الاشتراك في إيمان واحد وما يفرضه من مصير أخروي واحد، فالأمة محتوى الدولة، وينخرط الفرد في هذه الأمة على صعيد الاجتماع الدنيوي، والروحي الأخروي³.

ومن ثم فإن مؤسسات المجتمع الإسلامي ونشاطاته المختلفة لا بد وأن ترتبط بالمحور التصوري لوجود الدولة وتدل على تكريس وتحقيق مختلف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في واقع حياة المسلمين⁴.

¹ - أركون محمد، المرجع السابق، ص. 56.

² - عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، دار المعارف، مصر 1957، ص. 207.

³ - النجار عبد الحميد، "الدولة والسياسة في فكر المهدي بن تومرت"، الثقافة، ع. 81، 1984، ص. 125.

⁴ - أرزقي نسيب، "الظاهرة الدستورية في المجتمع الإسلامي"، ص. 130.

وهذا المفهوم جسده أكثر آراء المفكرين المسلمين انطلاقاً من الفارابي ووصولاً إلى ابن خلدون.

فالفارابي ينظر إلى الوجود السياسي على أنه نوع من التفاعل الذاتي بين مقومات الجسد السياسي، والمجتمعات عنده كاملة وغير كاملة، وتقوم مدينته على التعاون فهي تشبه جسم الكائن الحي الذي تتعاون جميع أعضائه لتحقيق ديمومته واستمراره، وفلسفة الحكم ما هي إلا تعبير عن ذلك التعاون¹.

أما منصب الرئيس فلا يكون إلا لشخص يتصف بجميع الخصال والصفات المجيدة و إلا أنتفت منه الشرعية².

وبالنسبة لابن رشد فالدولة عنده قائمة على الشرع، والحاكم المثالي إنما هو الخليفة الذي يؤسس سياسته على أصول الشرع لكونه يعبر عن إرادة الله عز وجل بواسطة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وكونه عاماً في تعاليمه، ومسعداً للناس قاطبة، ولاشتماله على الفضائل العلمية والنظرية، وهو في هذا متأثر بالفارابي³.

أما ابن سينا فيذهب إلى أن العلاقات الاجتماعية تنطلق من الأنظمة والقوانين، ودونها لا يمكن أن يتحقق مجتمع عادل، فحتى يكون المجتمع على أسس صحيحة وسليمة محققاً للمثل العليا يجب أن يطابق مبادئ العدالة، والمساواة اللتين تعتبران دعامتين أساسيتين من دعائم الحكم⁴.

¹ - التكريني ناجي، "أصل الدولة والمجتمع عند الفارابي"، دراسات عربية إسلامية، ع.3، جامعة بغداد: كلية الآداب، 1983، ص.331.

- الفارابي أبو نصر، كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وحققه ألبير نصرى نادر، ط.1، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1964، ص - ص.66 - 97.

² - بن علو أحمد، "بناء الدولة في الفكر العربي الإسلامي"، القبس، ع.6، 1969، ص.39.

³ - طالبى عمار، "النظرية السياسية لدى ابن رشد"، بحوث، ع.3، جامعة الجزائر 1994، ص.15.

⁴ - بن علو أحمد، "بناء الدولة في الفكر العربي الإسلامي"، ص.39.

ونجد أن الغزالي يعطي للسياسة بعداً أخلاقياً ينعصر في التعليم والتهديب والارشاد حيث شغلت عنده مكاناً ممتازاً رفيعاً حيث تأتي مباشرة بعد النبوة وبهذه السياسة يتم إقامة نظام الدنيا.

وهو يشدد كثيراً على إعطاء التربية اهتماماً كبيراً في الحياة السياسية للأمة لأنها تحقق هدف الدين وهدف الحياة السياسية، وعليه فإن وظيفة التربية السياسية هي وظيفة تالية لعمل النبوة.

ومنه فالدولة عنده عبارة عن جهاز أو وسيلة لتحقيق مقاصد البشر، فالقهر الذي يكفل الطاعة هو خاصية الدولة عند الغزالي، وهو في ذلك يؤكد مثل المحدثين على ضرورة السيادة كركن جوهري من أركان الدولة¹.

ويؤكد ابن تيمية ما ذهب إليه الغزالي بقوله: "إن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا باجتماع حاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة"².

وبالنسبة لضرورة الولاية وقيمتها فيجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها³.

على هذا الأساس، فالدولة شرط ضروري للحياة الاجتماعية والسياسية للأمة لأنها تحقق الخير وتمنع الشر وأن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بتوفر القوة والسلطة.

وأما الماوردي فيرجع إليه الفضل في إرساء دعائم الفقه السياسي العربي الإسلامي حيث جمع بين المباحث التي كانت موزعة في كتب علم الكلام والفقه، فاهتم بالخلافة والوزارة والإمارة والوظائف القضائية ومختلف الولايات الدينية السياسية.

¹ - زروخي إسماعيل، الدولة في الفكر النهضوي العربي خلال القرن التاسع عشر، ج.1، أطروحة دكتوراه الدولة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ص. - ص. 62 - 63.

² - تقي الدين، أبو العباس، أحمد ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي (د.ط.)، دار الجيل، بيروت 1988، ص.138.

³ - ابن تيمية أحمد، المصدر السابق، ص.161.

وكان الهدف الأساسي مما كتبه هو إبراز وظيفة نظام الحكم الإسلامي الذي يهدف إلى الدفاع عن الشريعة و حمايتها من الزيف و التحريف.

وهو يقول في هذا الصدد: "أرشد الولاية من حرس بولايته الدين، وانتظم بنظره صلاح المسلمين لأن الدين يصلح سرائر القلوب ويمنع من ارتكاب الذنوب، ويبعث على التآلف والتناصف، ويدعو إلى الألفة والتعاطف"¹.

ويؤكد الماوردي على ضرورة ارتباط الدولة بالدين، فالدولة إذا تجردت من الدين أصبح رعاياها أصدادا لها، وتقرفت وحدثها، حتى يصيروا وباء على الدولة ذاتها إذ لا بد من ضرورة حفظ الملك "السلطان" للدين لأنه أساس استقراره واستمراره حيث يقول: "ادفع عنك دينك بملكك، ولا تدفع بدينك عن ملكك، وصبر دنياك وقاية للأخرة، ولا تصبر آخرتك وقاية لدنياك..."².

كما يؤكد أيضا على العدل فليس هناك شيء أسرع في خراب، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور، لأنه لا يقف على حد لا ينتهي إلى غاية، وبالتالي فواجب الخليفة أو الإمام هو تطبيق العدالة³.

من هنا يرى ضرورة نصب الإمام للدنيا والدين معا لأنه كما يقول لا بد لاجتماع الإنسان من سلطان قاهر تتألف برهيبته الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتكف بسطوته الأيدي المتغالبية، وتتقمع من فوقه النفوس المتعالية لأن في طباع الناس من حب المبالغة ما أثروه، والقهر لمن عاندوه ما ينفكون عنه إلا لمانع قوي وراذع ملي⁴.

وما يمكن استخلاصه أن الماوردي، ربط قوة الدولة الإسلامية واستمراريتها برابطتي الدين والسياسة وإن قانون الدولة الأعلى هو القانون الإسلامي "الشريعة" الذي يخضع له الحاكم والمحكوم، وبذلك يكون من أوائل المفكرين المسلمين الذين وحدوا بين الدين والسياسة.

1 - ابن تيمية أحمد، المصدر السابق، ص.50.

2 - زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص - ص.37-38.

3 - زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص - ص.37-38.

4 - زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص.103.

وأخيراً يأتي ابن خلدون ليؤصل فلسفته بما أسماه بعلم العمران، مبيّناً ضرورة الاجتماع للبشر و الغلبة فيه للقهر، منعا للهرج والفوضى بسبب اختلاف أغراض البشر ومقاصدهم، ومحاولة البعض قهر البعض الآخر، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسة مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها، فإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها¹.

وتنظرية الدولة عنده بتجانبها عنصران: العصبية من جهة و الدعوة من جهة ثانية، فهو عندما يؤكد على أهمية العصبية في قيام الدولة لا ينفي أهمية الدعوة في بروزها وإضفاء القوة عليها وهذا التجانب هو الذي يفسر اختلاف النظرة لابن خلدون بين الفقه الذي يعتبره قد خدع بمظهر الملك القائم على قوة العصبية، والذي هو غير الخلافة في الإسلام، وبين الفكر القومي الحديث الذي يحاول أن يماثل بين مفهوم الأمة عند ابن خلدون ومفهومها في الحضارة الغربية الحديثة².

وقد قرر ابن خلدون أن السياسة الدينية هي " حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وأخرتهم " ليميزها بذلك عن باقي أنواع السياسة خارج دائرة الفكر الإسلامي كسياسة الملك القائم على القهر، والسياسة العقلية القائمة على العقل. و يقر بأن السياسة الإسلامية أفضلها، على أساس أن الكل محاط بنظر الشارع وهو أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم في أمور آخرتهم³.

وعلى الصعيد الفعلي ساد هذا المفهوم في واقع الأمة الإسلامية بصفة كاملة فترة من الزمن امتدت طيلة الحكم النبوي والخلافة الراشدة.

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ أو الخبر والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوي السلطان الأكبر، مج. 1، ط. 2، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1961، ص. 256.

² - النجار عبد الحميد، "الدولة والسياسة في فكر المهدي بن تومرت"، ص. 76.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص. 256.

وقد ترجم الفكر الإسلامي هذا المفهوم السياسي في تقريراته المتعلقة بقضية الإمامة والخلافة، حيث تلتقي تعريفاتها عند كافة المسلمين بمعنى القدرة على تنفيذ أحكام الشرع في أمور الدنيا والآخرة.

ويركز ابن خلدون على مبدأ العصبية مخالفاً بذلك الذين سبقوه، فأراؤهم تتفق على أن هناك علاقة ثنائية متمزج أحيانا وتتأفر أحيانا أخرى في علاقة الوجود والحياة وهي علاقة الدين بالملك، أما هو فيرى أن هذين العنصرين لا يمثلان قوة في ذاتها ولا يحددان وجودهما لأنهما يرتبطان بعنصر آخر يحدد وجودهما وهو أشمل وأقوى منهما، وعليه يبني مصيرهما وهو العصبية¹.

فالفكر السياسي الحق الذي نبني عليه المؤسسات السياسية والاجتماعية في حياة الأمة هو الذي تنشئه العصبية ولا أمل آخر إلا فيها، وكل دعوة أو أمل لا يبني عليها فإنه مردود لأنه غير واقعي إذ يقول: "والحق الذي ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدفع عنه من يدافعه حتى يتم أمر الله فيه"².

وبالتالي أصبحت العصبية عنده تمثل كل فاعلية سياسية ودينية لأن الشرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجمهور، فلا بد فيه من عصبية. والعصبية ضرورة للوصول إلى الملك وإنشائه، فهي ضرورية أيضا للمحافظة عليه³.

يعرف ابن خلدون الملك على أنه غاية طبيعية للعصبية وليس وقوعه عنها باختيار وإنما هي بضرورة الوجود وترتيبه⁴.

ويجب أن يكون هذا الوازع متمثلاً في فرد منهم له عليهم الغلبة والسيادة والقهر حتى لا يتعدى أحد على الآخر ويحتاج في ذلك إلى عصبية تدافع عنه وتخضع الإيرادات

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص. 395.

² - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص. 256.

³ - عبد السلام أحمد، دراسات في مصطلح السياسة عند العرب، (د.ط.)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985، ص. 21.

⁴ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص. 256.

البشرية الأخرى إلى طاعته وحكمه، وهذا هو المعنى الحقيقي للملك وهو يقسمه إلى ثلاثة أنواع:

1. الملك الطبيعي: وهو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، ولا يرجع فيه الحاكم إلى أي قانون في حمل الناس عليه، ويشكل أدنى مراتب السياسة، بل يكاد لا يستحق أن نطلق عليه لفظ سياسة.

2. الملك السياسي: وهو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، وهذا النوع من الملك لا يخلو من تحقيق قدر معين من العدالة وهو خاصية إنسانية لأنه لا يتم إلا بمقتضى الفكر والسياسة¹.

3. الخلافة: وهي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها² إذ ترجع أحوال الدنيا كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

في ضوء هذه الأنواع المختلفة يحدد أنواع الحكم ويرتبها حسب قيمة كل نظام من الوجهة الأخلاقية فالطبيعي هو الذي يناسب العمران البدوي والسياسي، منه ما يناسب توفير مصلحة الحاكم الفرد، وهو لا يخلو من عدل، لأن في العدل استقرار الحكم وغني الرعية، وبالتالي قوة ورفاهية الحاكم، وهو نموذج مستوحى من تاريخ الساسانيين، ومنه ما يتوفر مصلحة العموم وهو مستوحى من الحكم اليوناني.

أما النوع الأمثل فهو نظام الخلافة الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وهي ميزة لا تتحقق في أي نظام سواه³.

هذا بشكل عام ما يتعلق بالمفهوم الإسلامي للدولة، فكيف حددته المفاهيم الغربية وما هي وجهة نظرها في مؤسسة الدولة ودلالاتها بالنسبة للمجتمع؟

1 - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص - ص. 332-334.

2 - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص - ص. 336-338.

3 - زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص. 70.

انطلاقاً من تعريف الدارسين الغربيين للدولة يتبين أنها جماعة من البشر يعيشون على أرض مشتركة مؤلفين هيئة مستقلة ذات سيادة¹.

فمنذ القرن السادس عشر ظهر اتجاه إيديولوجي يدافع عن التكوينات السياسية والإقليمية وقد وضع هذا الاتجاه أسساً قانونية تتعلق بمفهوم جديد للسيادة الذي أضفى على الدولة الإقليمية شخصيتها المعنوية، وجعلها مهياً للقيام بدورها الذي يعكس الوعي القومي الذي عرفته أوروبا منذ القرن الثامن عشر.

وقد اختلفت نظرة المفكرين الغربيين إلى مفهوم السيادة كما يلي:

يرى بودان (Bodin) ضرورة إنشاء سلطة مركزية إقليمية قوية تستطيع التعبير عن وجودها وجوداً محلياً واضحاً وفرض سيادتها الحقيقية على هذا المكان، ويتجه "توماس هوبز" إلى نفس اتجاه بودان في مفهومه للسيادة فلكي نعتبر أي تجمع بشري كياناً سياسياً لا بد من وجود سلطة سياسية وطنية عليا مطلقة غير قابلة للانقسام.

أما "جون لوك" فقد وضع نظرية متكاملة أساسها العقد الاجتماعي، وهو الذي أقر مفهوم الفردية في شكل مبدأ أساسي في التنظير السياسي (المذهب الليبرالي) فجعل الفرد وحقوقه مبادئ نهائية.

ويأتي "جون جاك روسو" الذي كان ينجح إلى تفضيل الديمقراطية المباشرة التي عرفتتها المدن الإغريقية ليحصر صفة المواطن فيمن يشار في الشؤون العامة. وقد تطور هذا الاتجاه تطوراً كبيراً في القرن التاسع عشر فارتبط مفهوم الدولة بمفهوم السيادة أكثر كما ارتبط أيضاً بمفهوم الشرعية على اعتبار أن السيادة تعني القدرة الكاملة على حماية الدولة على أرضها وصنع القرارات الأساسية الملزمة لجميع أفراد المجتمع وتنفيذها.

¹ - الحصري أبو خلدون ساطع، آراء وأحاديث في القومية العربية، ط. 2، م. د. و. ع، بيروت 1985،

ثم إن إحدى الوظائف الأساسية للشرعية هي أن تعطي سببا، وأن توفر التبرير اللازم لوجود الدولة، وكذلك التنظيمات الاجتماعية والهيكليات الإدارية والوسائل اللازمة لإدامة هذه المؤسسات والحفاظ عليها.

ويبرز القانون كأقوى مظاهر تعبير الدولة عن سيادتها. يفسر "فريدريك وتكنز" العلاقة بين الشرعية والقانون في فقه الدول، بأن الدولة قطعة من المجتمع الإنساني محدودة بحدود جغرافية وملتحدة أو متوحدة بالطاعة الجماعية لجهة واحدة ذات سيادة، تسيطر على المجتمع. وهنا تتردد قوة الترابط بين مفهوم الدولة ومفهوم القانون أو يزداد وضوح مصدرية القانون لشرعية الدولة¹.

إن هذا الترابط ينبثق أساسا من الافتراض الشرعي بأن كل المجتمعات السياسية تتوحد بحكم القانون الذي يقدر حقوقا وواجبات واحدة لكل أعضاء الجماعات السياسية التي تتألف منها الدولة. ولكي تنفذ القوانين لا بد وأن تكون لها مرجعية عليا تقوم بوضعها، فلا بد من دعمها بالعقوبات الموقعة على من يخرج على هذه القوانين، وهكذا فإن القوة القاهرة والقانون كلاهما شرط أساسي للمفهوم الشرعي للسيادة. لعل أهم ما حققه المهتمون الأولون لفكرة المؤسساتية من "روسو" إلى "فولتير" و"مونتسكيو" على مدى ثلاث قرون، هو خلافهم في التفريق بين صاحب السيادة (الملك) وصاحب السلطة (الحكومة)، وكان هذا التفريق يتفرع من النظرية العامة التي طرحها جان جاك روسو في كتابه "العقد الاجتماعي" وكان من أبرز معالمها إصرار "روسو" على أن السيادة حق للشعب قابل للسلب لا للمصادرة، وأنه لا يحق لحكومة حتى ولو كانت ممثلة للشعب أن تدعي لنفسها نصيبا من هذه السيادة وإن وقع ذلك من خلال التشريع.

إن هذه التحولات نجمت عنها نتائج خطيرة منها أن الأنظمة الديكتاتورية تدعي الشرعية أو تصطنعها وأن طبيعة السلطة السياسية بين الحاكمين والمحكومين لم تعد سلطة ملوك على رعايا بل هي سلطة شعب ذي سيادة على أفراد الداخلين في عضويته.

¹ - رضا جواد محمد، صراع الدولة والقبيلة في الخليج العربي، أزمنة التنمية وتنمية الأزمنة، ط. 1،

إن هذا يعني أن الدولة كمفهوم أصبحت وهمية هي الأخرى، لأن الفكر في هذه الحالة سيتوجه لا إلى مفهوم مجرد اسمه الدولة ولكن إلى الحكومة التي لا تدعي لنفسها السيادة فحسب ولكن في الواقع تمارس كل فعل السيادة وهذه هي الديمقراطية الدستورية¹.

هذا عن مفهوم الدولة أما عن أركانها فهي وحسب الفقه الدستوري الحديث ثلاثة:

1. **ركن الشعب**: يتكون شعب الدولة من جماعة سكان (Population) الذين توافقوا على العيش معا في ترابط وانسجام ولا يشترط بلوغ عدد معين حتى تقوم الدولة، غير أن زيادة عدد السكان تحقق قوة الدولة ومناعتها ويشمل اصطلاح السكان المواطنين والأجانب الذين يعيشون فوق أرض الدولة، أما اصطلاح الشعب فيصرف إلى رعايا الدولة أو مواطنيها الذين يتمتعون بجنسيتها و بالتالي فمصطلح السكان أشمل من الشعب.

2. **ركن الإقليم**: أي وجود حيز جغرافي معين تحتله هذه الجماعة من الناس.

3. **ركن السلطة السياسية**: التي تعتمد على تنظيم سياسي يخضع له السكان ويحكم إقليم الدولة و بالتالي تحقق معنى السيادة ومدلولها.

وحسب اتفاقية "مونتفيدو" التي عقدتها الدول الأمريكية سنة 1983 وهي خاصة بحقوق الدولة وواجباتها فإن شرط الاعتراف بالدولة كشخص من أشخاص القانون الدولي أن تتوفر فيه الشروط:

1. شعب دائم.

2. إقليم محدد.

3. حكومة.

4. أهلية الدخول في علاقات مع الدول الأخرى².

لكن بالنسبة للدولة الإسلامية فإن هذه الأركان إضافة إلى ما ذكر تأخذ مفاهيم أخرى.

¹ - رضا جواد محمد، المرجع السابق، ص - ص. 16-17.

² - سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص. 23.

فركن الشعب يتحدد في الدولة الإسلامية على أساس الدين حيث كان المسلمون المقيمون في دار الإسلام أي فوق إقليمها هم الذين يكونون شعبها.

ونظرا لأن رابطة الجنس لم يكن معترفا بها عند مجيء الإسلام فإنه قد ربط بين المسلمين برابطة جديدة هي رابطة الأخوة الإسلامية التي تكتسب بواسطة الاشتراك في العقيدة الإسلامية.

وبذلك يكون الانتماء إلى العقيدة هو الرباط الذي يربط بين المسلم والأمة الإسلامية وهذه الأخيرة تمثل شعب الدولة الإسلامية التي استهدف الإسلام إقامتها¹.

أما ركن الإقليم فهو العنصر المميز لدار الإسلام ويقصد بها الإطار الذي يخضع لولاية المسلمين وتطبق عليه الشريعة الإسلامية. وقد أوضح الفقه الإسلامي أن دار الإسلام هي اسم الموضع الذي تسود فيه الشريعة الإسلامية وليست مجرد الدار التي يكون فيها المسلمون أغلبية السكان.

وهكذا ظهر عنصر الإقليم واضحا جليا في النظام الإسلامي منذ البداية بينما لم يصبح عنصرا من عناصر الدولة في أوروبا إلا في أواخر العصور الوسطى.

والملاحظ هنا أن المقصود من عبارة "تحت يد المسلمين" هو الحيازة العامة على أساس أن الأرض ملك لله وليست الملكية الخاصة للحاكم وبالتالي لا يجوز له حق التصرف في ملكية أي جزء منه إلا في حدود التصرف في الملكية العامة².

وبالنسبة إلى السلطة وعلى اعتبار أن الدين الإسلامي عقيدة وشريعة فهذا يقتضي وجود الدولة كمؤسسة هامة لضمان تنفيذ جزء هام من الشريعة وإعطت وجمدت أحكامها المتصلة بالمجالات الحيوية للمجتمع السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية وهي ميلادين لا مفر من تنظيمها بقواعد قانونية ملائمة.

وهذا ما انعقد عليه إجماع الفقهاء السياسيين المسلمين³.

والغرض من هذا العرض هو الربط بينه وبين الدولة الجزائرية على عهد الأمير عبد

القادر.

¹ - سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص.32.

² - سعيدوني ناصر الدين، المرجع السابق، ص.27.

³ - أبي يعلى محمد بن الحسن الفراء الحنبلي الماوردي، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حماد الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ/ 1983، ص.5.

1. 2/ سلطات الدولة

تعتبر الدولة أرقى مؤسسة اجتماعية عرفها الانسان وهي تعكس دوما الرقي والمستوى الحضاري الذي بلغه المجتمع وعلى هذا الأساس فهي تجسيد للعوامل السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية التي تؤثر في حياة المجتمعات، وهي قبل كل هذا تنظيم للعلاقات المختلفة والمتشابهة التي يضطر الانسان إلى ربطها مع بني جنسه لمواجهة الحاجات الاجتماعية الضرورية¹.

ولهذا فإن أهم وظائف الدولة المحافظة على كيانها ووجودها في مواجهة العدوان الخارجي والحفاظ على النظام داخلها، وهذا يستدعي ركنا مهما وهو وجود فئة تفرض إرادتها على باقي المواطنين وهو ما يعرف بجهاز السلطة.

وبالنسبة لمدلول السلطة (Pouvoir / Authority) فهي المرجع الأعلى المسلم بالنفوذ أو الهيئة الاجتماعية التي لها حق فرض إرادتها على الآخرين، بحيث تعترف لها الهيئات المختلفة بالقيادة، وبحق المحاكمة وإنزال العقوبات، وبكل ما يضي عليها طابع الشرعية ويوجب احترامها والالتزام بقراراتها.

وتمثل الدولة السلطة من خلال امتلاكها لسمة السيادة لأنها مصدر القانون ولها حق احتكار وسائل الاكراه واستخدام القوة التطبيقية.

ولا تعني الحاجة إلى وجود السلطة واحترامها والخضوع لها، أن تأخذ الصفة المطلقة بل لا بد وأن يكون هناك تقييد في حدود حماية المجتمع والاحتفاظ بحقوقه، لأن سوء استخدام السلطة وانحرافها عن المصلحة العامة يفقدها عنصرا جوهريا من عناصر قوتها واستمرارها وهو التجاوب مع متطلبات التطور الاجتماعي، ويفرض ولو بعد حين تغييرات في تحالف الفئات الاجتماعية المكونة للسلطة أو السيطرة عليها.

وتسعى الدول الحديثة إلى تعزيز سلطتها من خلال العمل على تثبيت الانطباع بأن سلطتها وشرعيتها تستند إلى قاعدة واسعة، إما عن طريق انبثاقها عن الجماهير واشتراكها

¹ - أرزقي نسيب، "الظاهرة الدستورية في المجتمع الإسلامي"، ص.33.

في عملية القرار السياسي، وإما عن طريق محاولة إثبات بأنها تستخدم سلطتها لخدمة الصالح العام¹.

وبالنسبة لسلطات الدولة فهي عبارة عن أجهزة فنية لتنفيذ المهام الأساسية المنوطة بها وتتألف من مهمتها في تجسيد ممارسة سيادتها، فكل عمل حر له عاملان يساعدان على إحداثه: أحدهما معنوي وهو الإرادة التي توجد الفعل. والآخر مادي وهو القوة التي تنفذه. وللهيئة السياسية البواعث نفسها حيث يمكننا التمييز بين القوة والإرادة، حيث تكون الأولى باسم السلطة التشريعية والثانية باسم السلطة التنفيذية².

أ. السلطة التشريعية: مهمتها إصدار قواعد عامة ملزمة للجماعة؛ أي أنها تخص الشعب ولا يمكن أن تخص إلا الشعب³.

ويقوم التشريع في الدولة الحديثة على الانتخاب حيث تنتخب السلطات التشريعية وفقاً للأفكار الديمقراطية الحديثة وتصدر السلطة المؤسسة أي تشريع تشاء، وبما أنه خاضع للأفراد فهو قابل للتبدل والتغيير⁴.

وبالنسبة لصلاحيات الأمير أو الرئيس حسب العرف الحالي فهي مرتبطة بالإرادة العامة وبالقانون، وقوته ليست إلا القوة العامة مركزة فيه. وإذا أراد إتيان عمل مطلق ومستقل من تلقاء نفسه تأخذ رابطة الكل بالتراخي.

وإذا أصبح للأمير إرادة خاصة أكثر فعالية من إرادة الشعب صاحب السيادة فاستعمل لفرض الطاعة لهذه الإرادة الخاصة ما يكون بين يديه من القوة العامة، انهار الاتحاد الاجتماعي في الحال وانحلت الهيئة السياسية.

¹ - الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج.3، ص.215.

² - الطماوي سليمان محمد، السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الإسلامي، دراسة مقارنة، ط.6، دار الفكر القاهرة 1996، ص.54.

³ - روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط، ط.1، دار القلم، بيروت (د.ت)، ص.110.

⁴ - الطماوي سليمان، المرجع السابق، ص.317.

إذا كان صاحب السيادة يريد أن يحكم وإذا كان الوالي يريد إصدار القوانين أو إذا كان الرعايا يرفضون الطاعة فإن الاضطراب يحل محل النظام ولا تعود القوة والإرادة تعملان بانسجام تعيش الدولة في فوضى واستبداد¹.

ب. السلطة التنفيذية: لا تخص مجموع الناس بوصف هذا المجموع مشرعا أو صاحب سيادة لأن هذه السلطة لا تتكون من أفعال خاصة ولا تكون قط من اختصاص القانون ولا هي بالتالي من شأن صاحب السيادة الذي لا يمكن لأفعاله إلا أن تكون قوانين. والهدف من وجود السلطة التنفيذية، المحافظة على النظام العام في الدولة وتقديم الخدمات للمواطنين في ظل القواعد المنبثقة عن السلطة التشريعية².

ويجب أن يتوفر للقوة العامة عامل خاص يوحدها ويحركها وفقا لاتجاهات الإرادة العامة يخدم اتصال الدولة بصاحب السيادة ويعمل في الشخصية العامة ما يفعله في الانسان اتحاد الروح بالجسد. وهذا العامل يتمثل في جهاز الحكومة الذي يخلط بينه - بلا مبرر - وبين صاحب السيادة في حين أنه ليس إلا خادمها³.

والحكومة عبارة عن هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة من أجل الاتصال المتبادل بينهما مكلفة بتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على السواء. أو هي هيئة جديدة في الدولة متميزة عن الشعب، عن صاحب السيادة ووسيلة بين هذا وذلك. وهناك فرق أساسي بين الدولة والحكومة ذلك أن الأولى توجد بذاتها وأن الحكومة لا توجد إلا بصاحب السيادة⁴.

¹ - روسو جان جاك، المصدر السابق، ص.107.

² - الظماوي سليمان، المرجع السابق، ص.14.

³ - روسو جان جاك، المصدر السابق، ص.110.

⁴ - روسو جان جاك، المصدر السابق، ص.110.

وبالنسبة لأعضائها يسمون ولاية وتحمل الهيئة بأكملها اسم الأمير، وعلى هذا الأساس كان أولئك يذهبون إلى أن التصرف الذي يخضع لنفسه بمقتضاه إلى رؤسائه ليس عقداً قط فهي ليست سوى إنابة وظيفة يشغلها موظفون من صاحب السيادة حيث يمارسون باسمه الحكم الذي ائتمنهم عليه والذي يمكن تحديده وتعديله واسترداده عندما يحلو له لأنه خالف الطبيعة الاجتماعية وناقض هدف الاتحاد¹.

فالحكومة تتلقى من صاحب السيادة الأوامر التي يصدرها إلى الشعب وكي تكون الدولة في توازن سليم يجب أن توجد هناك مساواة بين سلطة الحكومة وسلطة المواطنين الذين هم أصحاب سيادة من جهة ورعايا من جهة أخرى². وكي تكون الحكومة فاعلة وتحقق أهدافها يجب أن يعمل أعضاؤها في تناسق وأن يكون لهم وعي مشترك وقوة وإرادة تميل إلى المحافظة عليها.

كما يشترط على الحكومة أن تكون أقوى لاحتواء الشعب كذلك أن يكون صاحب السيادة أقوى بدوره لاحتواء الحكومة وهنا نقصد قوة نسبية لجميع أجزاء الدولة لا قوة مطلقة.

هذا الوجود الخاص يفترض وجود اجتماعات ومجالس وسلطة للمداولة وللحل، وحقوق وألقاب وامتيازات، ويجب أن يكون هذا الكل مستعداً للتضحية بالحكومة من أجل الشعب وليس العكس صحيحاً³.

ومن علامة الحكومة الصالحة أنه كلما قل ارتباط الإرادات الخاصة بالإرادة العامة أي الطباع بالقوانين كلما وجب أن تزداد قوة القمع ويجب أن تكون نسبياً أقوى كلما كان الشعب أكثر عدداً.

وتؤثر السلطة التنفيذية على التشريعية في نقطتين أساسيتين هما:

¹ روسو جان جاك، المصدر السابق، ص. 106.

² - روسو جان جاك، المصدر السابق، ص. 107.

³ - روسو جان جاك، المصدر السابق، ص - ص . 108 - 110.

1. مساهمتها في الإجراءات الخاصة بتكوين السلطة التشريعية (البرلمان) ومباشرتها لوظيفتها.
2. حقها في حل البرلمان.

ج. السلطة القضائية: مهمتها حل النزاعات بين المواطنين عن طريق قضاء مستقل.

هذا عن السلطات ودلالاتها في الفكر الغربي، أما بالنسبة للدولة الإسلامية، فلها فلسفة مختلفة في نظام الحكم طبقت بصورة كاملة في مرحلة معينة ثم طبقت بصورة تبتعد كثيرا أو قليلا عن المثل الأعلى بحسب الظروف.

1. 3/ دستور الدولة الإسلامية:

إن الدستور الإسلامي شرع سماوي قد كفل الحقوق للأفراد وضمنها وهو بذلك يعارض النظام الديمقراطي الذي يقول بأن السلطة للشعب فلا تغير القوانين ولا تمس إلا بحسب ما توصي به عقولهم ولكن الإسلام يقر أن السلطة نابعة من الدستور السماوي والله عز وجل هو المشرع.

وبناء على ذلك فإن فلسفة الحكم في الإسلام تقوم على دعائم ثلاثة تعتبر مبادئ رئيسية: العدل، المساواة والكفاءة. أصول ثلاثة تنطلق منها الفلسفة الإسلامية في إرسائها لأسس الحكم.

ومن هنا قامت الدولة الإسلامية على مبادئ الدستور والعدالة وركزت على نظام الوكالة متجنبة كل أنواع الاحتكار والفردية²، وبالتالي تأتي شخصية الخليفة كعنصر بارز في هذا النظام.

فقد تقرر أن نصب الخليفة واجب بالاجماع لتحقيق العدل ومنع الجور والمفاسد فهو من فروض الكفاية وراجع إلى اختيار أهل الحل والعقد فيتعين عليهم نصبه ويجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا"³.

وشروط هذا المنصب أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل وقد اختلف في النسب القرشي⁴.

ومن هنا تتحدد مهمة الخليفة في تطبيق القانون المحدد عن طريق البيعة الشرعية، حيث يفترض مسبقا أن العلماء يعبرون عن موافقة الأمة كلها وينوبون عنها⁵.

1 - إن المفهوم القانوني للدستور يعبر عن تلك القواعد التي تحكم تنظيم السلطة في المجتمع وعلاقتها بالرعية بصرف النظر عن كونها واردة في وثيقة خاصة أو مندرجة في نصوص أخرى.

أنظر: الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج.2، ص - ص. 679-680.

2 - بن علو أحمد، "بناء الدولة في الفكر العربي الإسلامي"، ص.42.

3 - سورة النساء، الآية 59.

4 - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص - ص. 342 . 343.

5 - النجار عبد الحميد، "الدولة والسياسة في فكر المهدي بن تومرت"، ص.33.

وقد ذكر محمد الغزالي أن الحاكم ليس سيذا ليستعلي وإنما يؤدي عملا موكلا به وذلك سر قول عمر وأبي بكر - رضي الله عنهما - "وليت عليكم ولست بخيركم...".¹

وهذا العمل يتمثل في تجهيز الجيوش وتعيين الحكام والقضاة وملتزمي الضرائب والخراج ورجال الشرطة ورعاية كافة شؤون الدولة في الداخل والخارج إلى جانب كل ذلك يقوم بإمامة المسلمين في الصلاة وإلقاء الخطبة يوم الجمعة وإظهار الغيرة والحماس في الحفاظ على العقيدة. وهو يقوم بذلك بموجب سلطة زمنية (الطبيعة الظاهرة للخلافة).²

وبالنسبة لتصيب الخليفة فيتم عن طريق احتفال رسمي يسمى البيعة التي هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره.

وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فصارت البيعة مصافحة بالأيدي تأسيا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم -³.

وبالنسبة للسلطة داخل الدولة الإسلامية، فإن لها حكومة تقوم بممارستها خاضعة في ذلك للكتاب والسنة، تقوم بتوجيه الأمة والمجتمع وتربي النفوس والعقول وفق دعوة الإسلام وهداية الدين القويم، وتشيع في المجتمع روح التعاون والتواصي بالحق والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁴. وعلى هذا الأساس فإن الحكومة أو السلطة في المجتمعات الإسلامية مؤسسة على مفهومين:

¹ - الغزالي محمد، الإسلام والاستبداد السياسي، ط.2، دار الكتب الحديثة، مصر 1380هـ/1969، ص.37.

² - فودة عز الدين، المرجع السابق، ص.262.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص.370.

⁴ - عثمان محمد فتحي، من أصول الفكر السياسي الإسلامي، ص.63، نقلا عن زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص.94.

• مفهوم قانوني متصل ببيان الحدود نظرا لوجود الشبهات حتى لا يصبح المجتمع فوضويا حيوانيا.

• مفهوم أخلاقي يعتمد على الإرشاد والتوجيه لأفراد المجتمع على اعتبار أن الدولة الإسلامية لها وظائف دنيوية وأخروية وبذلك تتحقق العدالة في أوسع معانيها¹.

وبالنسبة للسلطات داخل الدولة الإسلامية فهي كغيرها عند باقي الأنظمة تختلف من ناحية المضمون وتنقسم إلى ثلاث سلطات:

• **السلطة التشريعية:** تميزت بالاستقرار منذ مجيء الإسلام حيث بقيت قائمة على أسس واضحة تقررت في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - (القرآن الكريم والسنة النبوية) واكتملت عقب وفاته زمن الصحابة - رضي الله عنهم - وهي الإجماع والقياس، وجميع هذه الأسس مستمدة من روح الإسلام وغير قابلة للتغيير والتبديل.

• **السلطة التنفيذية:** استأثرت باهتمام المؤرخين حيث درسها الفقهاء تحت عنوان الخلافة أو الإمامة وتتمحور هذه السلطة حول مركز الخليفة بين الدولة والحكومة وفقا للاصطلاح المعاصر فكان أقرب ما يكون إلى النظام الرئاسي بمفهومه الحديث، فكلام الخليفة ورئيس الدولة يسود ويحكم وهو صاحب السلطة التنفيذية إلا أن الاختلاف قائم حول مبدأ فصل السلطات.

• **السلطة القضائية:** تميزت هي الأخرى بالاستقرار، تستمد أحكامها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وأما اجتهاد المسلمين فيما يتعلق بالوظائف والمناصب الخاصة فقد جرى فيها تطور تبعا للدول الإسلامية، التي قامت عبر التاريخ.

¹ - زروخي إسماعيل، المرجع السابق، ص. 95.

والخلافة مظهر لرئاسة الدولة تمثل طابعا أصيلا يضعها في مكان الصدارة بين النظريات السياسية في هذا المجال.

وبالنسبة لألقاب الخلافة فلدينا الخليفة الذي خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمير المؤمنين الذي هو بمثابة قائد الجيش في الجاهلية ولقب "أمير المؤمنين" أقرب إلى إظهار المعنى الدنيوي لأنه يعني أن المؤمنين استحالوا إلى قوة وأن الأمير أصبح المتصرف في هذه القوة. وقد أطلق هذا اللقب أول ما أطلق على عمر - رضي الله عنه - عندما تولى الخلافة¹.

ويشترط أن يكون الخليفة واحدا بالنسبة للدولة الإسلامية مهما تعددت أقاليمها واختلفت الأجناس المنتمية إليها قال عز وجل "وأن هذه أمكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون"².

وما نستخلص أن المفهوم الغربي يختلف عن المفهوم الإسلامي في قضية توزيع السلطات والعلاقة بينها، فتوزيع السلطات في الفكر الإسلامي يجعل كل سلطة رقيية وموازنة للسلطات الأخرى في ممارسة اختصاصاتها وكذلك تقسيم العمل يؤدي إلى إجابته وسرعة إنجازه.

ففي البداية كانت الوظائف كلها مركزة في يد الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذا نجد أن فقهاء الإسلام الذين عالجوا نظام الحكم كانت بعيدة عنهم فكرة الفصل بين السلطات.

حتى بعد اتساع رقعة الدولة لم يتكلم الفقهاء عن مبدأ الفصل حيث لم يعتبروا الوظيفة القضائية مستقلة عن الوظيفة التنفيذية وإن ميزوا بين التنفيذ والإدارة والقضاء، فمثلا القاضي قد يكون قائدا للجيش وأصحاب الولاية العامة من الوزراء وحكام الأقاليم كما لهم حق تعيين القضاة وعزلهم وتحديد اختصاصاتهم³.

¹ - الطماوي سليمان، المرجع السابق، ص.307.

² - سورة الأنبياء، الآية 92.

³ - الطماوي سليمان، المرجع السابق، ص.600.

ويمكن تبيين الفصل بين السلطات في الإسلام كما يلي:

إن مبدأ الفصل لم يقره الفقهاء المسلمون وإنما جاء تبعاً لطبيعة التشريع الذي هو الله تعالى فإنه في الدولة الإسلامية لا تملك سلطة التشريع، وبالتالي مواجهة الضرورات المستحدثة لا يكون إلا عن طريق مصادر التشريع.

إذن هناك انفصال بين التشريع من ناحية وبين التنفيذ والقضاء من ناحية أخرى فالخليفة كرئيس للسلطة التنفيذية لا يملك حق التشريع (عكس الفقه الدستوري المعاصر) وإن كان يملك حق الاجتهاد، فهو يعمل مجتهداً لا كخليفة.

وبالنسبة للقضاء فهو مستقل عن السلطة التنفيذية، لأن القاضي عندما يستتبط حكماً ليطبقه في نزاع معروض عليه، فإنه يقوم بهذا النشاط باعتباره مجتهداً، وهو مستقل عن السلطة التنفيذية في إجراء الأحكام بالرغم من تبعيته لها، لأن القواعد التي يطبقها مستمدة من التشريع السماوي.

وبالتالي فالدولة الإسلامية من أهم خصائصها أنها لا تعرف الفصل العضوي بين السلطات العامة ولكن تقوم على أساس فصل الوظيفة التشريعية عن سائر الوظائف الأخرى¹.

وهي بذلك تحقق الاعتبار من مبدأ الفصل في الدولة الحديثة (كفالة الحرية الفردية وضمان شرعية الدولة)، على أساس الوازع الديني الذي يجعل كافة المسلمين "حكاماً ومحكومين" على قدم المساواة في الدنيا والآخرة أمام الله عز وجل واعتبار القاعدة أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

• الفرق بين المفهوم القومي والإسلامي لمصطلح القومية:

يستند المفهوم القومي إلى أن القومية شيء موجود في التاريخ باستمرار، قد يشهد الشعور بها ويكتسب قوة فعالة في التاريخ، فيكتسب لذلك مفهوم إيجابياً تعبر عنه بالمبدأ

¹ - الطماوي سليمان، المرجع السابق، ص - ص. 602-604.

القومي الذي هو وضع فكرة القومية في حيز التطبيق ومجال العمل، وقد يفتر هذا الشعور ويضعف لتحل محله روابط أخرى، فتصبح مجرد نظرية تحمل طابع السلبية في مفهومها. والفكرة القومية الحديثة التي تحمل مفهوم انشاء كيان قومي موحد، يتألف من كتل متحدة في اللغة والوطن والمصالح، ظهرت في أوروبا عقب دور النهضة والحركة الدينية الإصلاحية، ثم ظهرت في الدولة العثمانية والأقطار العربية أواخر القرن التاسع عشر. فالقومية العربية الحديثة لا تبنى على أساس وحدة الدين والجنس فقط، وإنما تبنيتها على المفهوم القومي المعاصر الآن وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة والعادات. وقد يتعدد الدين لكن المهم أن لا تختلف وتتعدد عناصر اللغة والوطن والمصلحة والعادات².

وهذا ينافي التصور الإسلامي للقومية الذي لا يقاوم النزوع القومي القطري في الإنسان من حبه للأرض وللأهل، ولا بلغيه وإنما يوجهه في خدمة رباط أقوى وأسمى. إنه رباط العقيدة الإسلامية الذي يظل الأصرة الأقوى التي تتصهر فيها كل الأواصر والروابط الأخرى.

فعقيدة المسلم في جنسيته وعنوان انتماءه، لذلك فالأكرم لهذا المقياس هو الاتقي. والتقوى بعد روعي إسلامي وليست بحال بعدا عرقيا أو جنسيا أو قوميا³.

¹ - هندي إحسان، " القومية والدولة"، العربي، ع.157، 1971، ص.111.

• بوطبة زكية، " طبيعة النظام العثماني بالجزائر وعلاقته بالشعور القومي العربي من خلال نموذجين للنشآت الداخلية في الجزائر"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع.5-6، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية و التوثيق والمعلومات، زغوان 1962، ص.73.

² - دروزة عزة محمد، حول الحركة العربية الحديثة، ج.1، (د.ط)، منشورات المكتبة، بيروت (د.ت)، ص.18.

³ - بلقاسمي مصطفى، الإسلامية والصراع الحضري في شعر مصطفى بلغماري، ساجستير، ص.62.

• الوطن:

يطلق على العنصر الثاني من عناصر الدولة، وهو الأرض، فيطلق عليه عاطفياً اسم الوطن.

ولقد أعطى المفكرون مفاهيم مختلفة ومتعددة لمصطلح الوطن.

فبالنسبة إلى الأوروبيين يعرف "إبرهم لنكولن" الوطني بأنه الذي يخضع سيرته العامة لدافع واحد هو حب البلاد، وهو الذي ينسى شخصه، فلا يرجو ولا يخشى، ولا يغضب ولا يرضى، وإنما يرجع كل شيء للخير العام.

أما "توماس جفرسون" وهو من طلائع الأمريكيان الذين أسسوا الدولة الجديدة، صاحب البيان الممثل لثلاثة عشرة مستعمرة أمريكية للانفصال عن بريطانيا سنة 1776، فيرى أن الوطن هو الذي يحقق استقلاله عن أي خضوع للأجنبي.

وبالنسبة لـ "أ.دموند بورك" الذي كتب عن الثورة الفرنسية عام 1970، فالدولة ليست شركة من أجل مصلحة، وإنما شركة في كل علم، في كل فن، في كل فضيلة، وفي جملة الكمال، وهي رابطة بين أجيال.

أما "جوتيه" نابغة الأدب الألماني سنة 1813، قال: "لا تحسبوا أنني غير مبال بالفكرة الكبيرة: الحرية، الوطن، الشعب، كلا إن هذه الفكرة في دنيا وهي جزء من كياننا". وعن سقراط الذي توفي إعداماً عام 399 قبل الميلاد، فقد رفض الهرب إخلاصاً للوطنية التي يرى وجوب احترامها ولو كانت جائرة، ووضع واجب الطاعة للقانون في أعلى منزلة عرفت من قبل أو من بعد.

ويأتي "بولين بروك" وهو من أقطاب الساسة الإنجليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، له رسالة عنوانها "روح الوطنية" يقول فيها: "أمنك مجد يمكن أن يطمح إليه بشري أعظم من أن يكون طيلة حياته السند للحق دون فساد الحكم، والحارس الأمين على الحرية العامة".

وأخيراً يجمع "جوزيف مازيني" في كتابه "واجبات الإنسان" بين الإنسانية والوطنية، ويذكر شعبه بأن واجباته الأولى تكون نحو الإنسانية وأنهم بعاطفتهم يحتضنون البشرية جمعاء، ولا بدّ من مساعد من امتهنت كرامته.¹

¹ - تصور أديب، وطينون وأوطان (الوطنية كما فهمها أنبل رجال الفكر والعمل في التاريخ)، ط.1، دار

العلم للملايين، بيروت (د.ت)، ص - ص. 56-58.

وبالنسبة للمسلمين فيرى ابن تيمية أن الولاية لمن يتخذها دينا يتقرب به إلى الله ويفعل فيها الواجب بحسب الامكان من أفضل الأعمال الصالحة.

أما ابن خلدون فيركز على وطنية العقيدة، حيث يتعلق الأمر بسيادة دولة على سكان تجمعهم العقيدة أكثر من المنطقة الترابية، وقد عرف الوطنية بالنسبة للمسلمين بأن جميع الأوطان لديهم سواء¹.

وبالنسبة لجمال الدين الأفغاني، في لمحاته يشيد بدور الوطنية بأهمية الولاء للوطن في النهضة وفي مواجهة الاستعمار.

ويرى محمد عبده أن الوطن هو قاعدة الحياة السياسية وأنه خير أوجه الوحدة، لامتناع النزاع والخلاف فيه.

ويعرف رفاة الطهطاوي الوطنية بأنها رابطة أساسية للتضحية، ويربط المواطنة بالحقوق العامة، فانتفاء الفرد إلى الوطن يعني أن يتمتع بحقوق بلده، وهذا يعني أن ينقاد لقانون الوطن ويعين على تنفيذه².

وبالنسبة لأنواع الوطن، فهناك **الوطن الخاص** الذي يتحدد بحدود كل دولة أو كل ما هو خارج الحدود الأجنبي.

وهناك **الوطن العام** الذي يشمل جميع الأراضي التي تسكنها شعوب الأمة على اختلاف دولها وأوضاعها السياسية.

إضافة إلى **الوطن الفعلي** المعترف به من طرف الدول، وأخيرا **الوطن المثالي** الذي تنتشده الشعوب، حيث يتوجه المواطنون بقلوبهم وعقولهم نحو هذا الوطن الذي يجب أن يجمع مختلف شعوب الأمة تحت راية واحدة.

هذا عن مفهوم الوطن ودلالاته، أما الفرق بينه وبين القومية فيتجلى من خلال العنصر الثاني من عناصر الدولة وهو الأرض الذي يطلق عليها عاطفيا اسم الوطن - كما ذكرنا -.

¹ - سعيد محمد، فصل الدولة في الفكر الإسلامي، من كتاب : أركون محمد، المرجع السابق، ص.212.

² - سعيد محمد، المرجع السابق، ص.144.

ومنه فالوطنية هي شعور الحب والولاء الذي يكنه الفرد "المواطن" اتجاه قطعة من الأرض "الوطن"، وحيه لوطنه يجعله مستعداً للدفاع عنه والموت في سبيله.

أما القومية فهي عاطفة الولاء اتجاه الأمة، بمعنى الشعور المشترك بين جماعة معينة تنتمي إلى حضارة واحدة، ولها حدود جغرافية معينة، وتتشارك في التاريخ والمصير. وهذا ينطبق على مفهوم الأمة أكثر.

ولهذا فعاطفتنا القومية والوطنية لا تنطبقان تماماً إلا في حالة واحدة وهي حالة الأمة الدولة.

• المفهوم الإسلامي للأمة:

ارتبط ظهور الأمة بالاسلام، فكلمة الدولة لم تعرفها التقاليد الإسلامية الأولى. فمحور الخطاب السياسي هو الجماعة، وسعى ذلك الارتباط إلى تأسيس أرضية لوحدة اجتماعية تتجاوز الشعور القبلي وتدعو الأجناس الأخرى للانصهار فيها، بحيث تشكل لهد إطاراً من الفكر ونظاماً من القيم.

ومفهوم الأمة انطلاقاً من هذا يقوم على أساس وحدة العقيدة الدينية التي تربط المسلمين كافة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ومواقع أوطانهم، سواء من يعيش في دار الإسلام أو خارجها.

وفي ضوء هذا المنطلق يمكن تعريف الأمة بأنها الكيان الاجتماعي الذي جمع كل المسلمين من خلال إقرارهم بالشهادة، وهذا الكيان يتكون من الجماعة التي تضم المسلمين المؤمنين وأهل الكتاب، وبالتالي دل هذا المفهوم على الجماعة التي ارتبطت بمكان ما وتعايشت فيه وانضوت تحت لواء سلطة سياسية واحدة، لذلك لم يبعد غير المسلمين من الجماعة السياسية.

ومن هنا يتشكل المفهوم المعنوي والحضاري للأمة من انتماء ديني، حيث يسيطر كتاب واحد وتعاليم واحدة، ويكون أساس قوام هذه الجماعة هو مبدأ الإخاء والتضامن، ومن ثم تصبح الدولة الإسلامية حقيقة مجردة لا ترتبط بكيان ولا بزمان ولا تتحدد بإقليم أو بحدود مصنوعة وضعها البشر. — وهو الأساس الذي اعتمده الأمير في تصوره للدولة وعلاقاته بالخلافة العثمانية والدول الإسلامية عامة —.

مصطنعة وضعها البشر. - وهو الأساس الذي اعتمده الأمير في تصوره للدولة وعلاقاته بالخلافة العثمانية والدول الإسلامية عامة. -

وحتى عندما يختفي الخليفة الواحد فإنه لا يمنع من وجود تلك الدولة، كما أن الصراعات لا تحول دون استمرارية المفهوم المعنوي للدولة الإسلامية¹.

أما الرابطة التي تجمع أفراد الدولة فهي رابطة سياسية قانونية، تفرض عليهم الولاء للدولة والخضوع لها، وتلقي على عاتق الدولة في المقابل مسؤولية حماية أرواحهم وأموالهم، وكافة حقوقهم التي يقرها لهم القانون.

وإن الأمة الإسلامية تعتبر الحق والعدل واجبا ومقدسا، وتعتبر الحق والحقيقة التي نتلمسها في الوحي والفطرة والعقل حقيقة موضوعية تسعى إلى بلوغها والتحلي بها، وتعتبر المشورة منهاجا أساسيا للوصول إلى ذلك الحق وتلك الحقيقة. زتري في إحقاق الحق وتكريسه السبيل الصحيح إلى تحقيق المصلحة العامة والخاصة في مفهومها الإسلامي².

وخلاصة ما تنتهي إليه من استعراضنا لمفهوم الدولة ونشأتها في الفكر العربي الإسلامي هو التساؤل التالي: هل وضع الأمير أسس دولته انطلاقا من المفهوم الإسلامي أم وفقا للمحاكاة المدنية (لاحتكاكه بالنظام المدني الغربي)؟.

¹ - حلمي مصطفى، مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، ط.2، : دار

الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية 1412 هـ / 1991م، ص - ص.240-241.

² - أبو سليمان أحمد عبد الحميد، أزمة العقل المسلم، ط.2، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1413

هـ/1992م، ص.196.

الفصل الثاني: تصور الأمير لمجال السيادة في الدولة الجزائرية

2. 1 / تصور الأمير لمجال السيادة :

عندما بويق عبد القادر أميرا كان هدفه الانتقال بالمجتمع القبلي الذي يخضع لسلطة رئيس القبيلة إلى مجتمع متحضّر تسيير الأمور فيه على ما جاءت به الشريعة الإسلامية من مبادئ عليا وأخلاق فاضلة تختلف عن الروح القبلية، لهذا كان إصراره على تحقيق وحدة القبائل والشعور الوطني الجامع لكافة الجزائريين.

وما إن أعلن الأمير دعوته من أجل الطاعة والجهاد حتى تفرقت الكلمة واختلقت الرؤى فمن القبائل من قبلت منح تأييدها القوي إلى رجل دعاهم للجهاد من أجل العقيدة ومنها من رفضت دعوة الخضوع إليه.

فالرؤساء الذين صاروا من أجل الإبقاء على وجود مستقل في إطار الحكم السابق لم يشعروا بواجب قبول حكم من نذ لم تكن دعواه إلى السيادة في نظرهم أولى من دعواهم، كما وقفت قبائل المخزن موقفا معاديا، وأمّا الفرق الدينية كالقادرية والطيبية والتيجانية، فقد وقفت موقفا متباينا، فبينما أيده أنصار الطريقة القادرية عارضه أنصار الطريقة الطيبية والتيجانية.

وكان الأمير يدرك مدى عمق الروح الاستقلالية لدى القبائل وزعماء الطرق الصوفية ومدى تأثير ذلك على مشروع الوحدة مما يجعله أكثر صعوبة ومن جهة أخرى كان يعلم استياء هذه الأطراف من الوجود الفرنسي فاستغل ذلك رابطا بين مشروع تحقيق الوحدة ومقاومة العدو.

ولكن الأمر لم يكن سهلا فالأمير كان يعلم أنه ليس بإمكانه أن يعمل عملا مثمرا على الجبهتين الداخلية والخارجية، ولما كان يعتقد أن العمل في الجبهة الأولى هو الأساس كان لا بد من تحييد الجبهة الثانية، ومنه اتخذ سياسة المهادنة مع العدو.

ورغم نجاحه في الحصول على موافقة المجلس الاستشاري على اتباع هذه السياسة، فإنها لم تقبل بالإجماع، حيث اتخذتها بعد الأطراف حجة لرفض سلطة الأمير بامتناعها عن دفع ضريبة الجهاد متخذة من ذلك ذريعة للانفصال¹.

وأمام هذا الموقف قرّر الأمير تحقيق مشروع الوحدة باستخدام القوة، حيث قامت سياسته على استخدام السيف لتحقيق الوحدة الوطنية، حيثما فشلت المساعي السلمية، وعلى الاشتباك مع الفرنسيين أملاً في تحقيق نصر يقضي على عوامل الفرقة ويذلل كل الصعوبات الداخلية، كما قرر إقامة سيادته على أرض صلبة، عن طريق الاحتفاظ بمراكز قوية² ورغم عدم تدخله في العادات القبلية وسلوكيات الطرق الصوفية، فإنه كان يخاطب الجميع بلغة الدين والوطن والوحدة.³

هذا لأنه أدرك أن مقاومة دولة كبيرة كفرنسا غير ممكنة إذا بقيت موكولة للعشائر المتفرقة والقبائل المتنافرة وإذا لم يجمع شتاتها قبضة دولة وطنية مخصصة.

وقد بدأ الأمير أولاً بمواجهة المشاكل الداخلية والقضاء عليها فيما يتعلق بزعماء الطرق الصوفية، ورؤساء الدوائر والزمالة، ثم بسط سلطانه فيما بعد على أقصى نقطة في البلاد وصلت يده إليها.

بعد أن فرغ الأمير من شؤون البيعة، نهض في فيفري 1832، ليتفقد أحوال من تخلفوا عنها ليردهم على الطاعة، فجال في المواطن، وجبى الأموال ثم عاد إلى الثغور فأنتهى إلى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد بن طاهر يراجع حاكم وهران ويدعوه إلى الاستيلاء على المرفأ فقبض عليه الأمير واعتقله.

¹ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 233.

- Bellemare (A.), *Op. cit.* p.80.
- Wahl (M.), *Op. cit.* p.123.
- Cokenpot (Ch.), *Op. cit.* p.14.

² - رمضان عبد العظيم، المرجع السابق، ص. 98.

³ - سعد الله أبو القاسم، *الحركة الوطنية*، ج. 1، ص - ص. 278.279.

يقول أندري كليش: "لقد أعطى للأمير القوة والسلطة، وإن التزامه بالقرآن وتعاليمه، يجعله يحارب الخونة للعقيدة وللأرض، ثم يلتفت للفرنسيين".

أنظر:

- Cleach (A), *Visage de l'Algérie*, éditions des horizons de France, Paris, p.86.

ثم أقبل على ضبط الثغور فرتب الحامية وقدر ذخائرها ثم أرسى قواعد الأمن في البلاد، وأول عمل جريء قام به هو دك قبيلة فليطة¹ التي تتشكل من بطون وعشائر عديدة ، وتخضع لنفوذ سيدي العربي الذي قابل دعوة الأمير بامتعاض مكشوف، وكان من دأبهم سلب النفوس والأموال وقطع الطريق خاصة بعد سقوط النظام المركزي.

وبعد الانتهاء من أمر « فليطة » بلغ الأمير انتفاض قبائل عكرمة وبني مديان، فسار إليهم وحثهم على الرجوع، فأظهروا الشقاق على الطاعة، فأغار عليهم واستولى على موجوداتهم، ولما ندموا رد إليهم أمنهم وأموالهم وطلب منهم أن يلتفوا حوله لإجلاء الدخيل. وهكذا نجح الأمير إلى حد بعيد في إقرار الأمن بإقليم وهران.

وبعد توقيع معاهدة " ديميشال " فكر الأمير في بسط نفوذه على ساحل الشلف إلى غاية الحدود الفاصلة بينه وبين الجزائر العاصمة، وحاول أن تكون له صلة حسنة مع الحكومة الفرنسية، وفي الوقت نفسه استعمل ما لديه من قوة لإخضاع القبائل المناوئة له، بفضل الأسلحة التي كان يتلقاها من " دي ميشال "².

فبدأ بإخضاع محمد البغادي الذي كانت تتبعه قبائل الزناخرة، أولاد نايل، وأولاد مختار، ثم قبائل بني عراش نتيجة لتعرضهم لقوافل الأمير ورفضهم الطاعة، حيث هاجمهم الأمير على حين غرة حين كانوا يتجمعون في أكثر من عشرة آلاف خيمة. فانتصر عليهم، وتحقق بذلك ولاء شيوخهم وأصبحوا فيما بعد من أكثر أتباع الأمير إخلاصا ووفاء³.

¹ - مجموعة من الأهالي تقطن بين أغاليك الغرابية ومجاهر وأغاليك الشراقة بوادي الشلف على نهري مينة ومنداس، تضم واحد وعشرون بطنا: العناترة والمحال وأمعية والشرفة وأولاد سيدي بن يحيى والحرارثة، تحت قيادة ميلود بوطالب ابن عم الأمير. أنظر: الأمير عبد القادر، المذكرات، ص.118.

² - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص.163.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.134.

ثم تأتي مواجهة الأمير لسيدي لعريبي¹ زعيم قبيلة فليّنة، ليواصل عمله وسط سهل الشلف الواسع والمناطق المجاورة له إلى أن بلغ منطقة الونشريس².

أمّا بالنسبة لقبيلة الأنجاد، والتي كانت أول القبائل التي انفصلت عن دولة الجزائر الأميرية على إثر توقيع معاهدة "تافنة" بتحالفها مع الفرنسيين وقبول إرادتهم، حيث أعلنت في 20 جوان 1837م استقلالها داخل حدودها ومنعت كل مندوب للأمير من التجول في مناطقها لتحصيل الزكاة والعشور وجباية الضرائب، فقد حاربها الأمير وردّها إلى الطاعة³.

ومما يذكر أنّ أمر استباحة دماء هؤلاء إنّما يرجع لكونهم صاروا ممن أباح الله دماءهم وأموالهم بسبب شقهم عصا المسلمين وخروجهم عن الطاعة ومخالفة أهل السنة والجماعة وإعلان العدوان والمجاهرة بالعصيان، وعدم طاعة أمير أجمع أهل الجزائر على مبايعته.

ومع ذلك فإنه في تعامله معهم ينذر أولاً ثم يطلب التوبة وأخيراً يعاقب. من جهة أخرى لم تر معظم القبائل أي معنى وفائدة من سعي الأمير لإنشاء دولة، حيث لم يدرك زعمائها معنى تأليف حكومة قويّة لضبط الأمن والنظام وتكوين جهاز إداري، وتدريب جيش قوي.

فنظرت إلى الأمور من زاوية خاصة، ورأت أن الجهاد ومساعدة بيت المال انتهيا بتوقيع معاهدة "ديميشيل".

وبالمقابل فإن الأمير نظر إلى أن السلام الحقيقي لا يتم ولا يستقر في أرجاء الجزائر إلا إذا قضى على الموقف القبلي وذلك باتخاذ سياسة عسكرية جريئة لإرغام المتمردين على

¹ - عائلة أولاد عريبي تتمركز حول وادي تقيّة والشلف في فترة معيّنة مارست الحكم على عدد كبير من القبائل داخل الشلف، وناحية مستغانم، لقد شكّلت سلطة عسكرية ودينية، حتى أن البابات راعوا جانبها كثيراً، خاصة وأنها كانت السيدة في علاقاتهم بين وهران والجزائر العاصمة عن طريق وادي الشلف. أنظر:

• Capolani (X). les confréries religieuses musulmanes, 1879, p.180

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.165.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.279.

الاعتراف بسلطته ودفع الضرائب لخزينته، لهذا جهّز قوات عسكرية في عزم وثقة للقيام بهذه المهمة.

ورغم أنه لا بد من استعمال القوة، إلا أن الأمير كان يدرك أن هذا الأسلوب يحقق الخضوع المؤقت (طاعة خوف)، وهو لا يصلح أساساً لبناء دولة ولهذا حاول أن يوضح بالقول والعمل أنه لا يعمل لنفسه بل للصالح العام، وتجسد هذا في نصّ ندائه للقبائل :

"ولذلك ندعوكم لأن تشاركوا في هذا العهد أو العقد، بيننا وبينكم، سارعوا إذن لإعلان ولائكم وطاعتكم، والله يجازيكم في الدنيا والآخرة، إن هدفي الأساسي هو الإصلاح وفعل الخير مادامت حياة، إن تقني في الله ومنه وحده أرجو الجزاء والنجاح".¹

وقد كان الشعراء والوعاظ ورجال القوافل والمنشدون في الأسواق يؤكدون هذه المعاني، حيث جاء في بعض الأناشيد الشعبية في بلاد القبائل أن الأمير لا يطمح أبداً إلى العرش والعظمة وأن رغبته هي أن يخضع الناس لأوامره كلخوة لطرده الكفار.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.60.

2. 2 / المواجهات الداخلية:

جابه الأمير نفوذ الطّرق الصوفية لا سيما التيجانية والدرقاوية بسلاحها نفسه، فاعتمد على نفوذه الديني ولكن ليس كقادري، وإنما كأمر للمؤمنين حامل راية الجهاد بموجب بيعة عامّة، واعتمد على العلماء الذين جمعهم حوله، وكان يشركهم على الدوام في أعماله وقراراته بفتاوى وشرعية، ولم يكتف بذلك بل نجح في أن يكسب إلى جانبه رجال الدين في المغرب عن طريق استشارتهم والحصول على فتاوى منهم تقرأ أعماله، كما حصل على تأييد الرّأي العام المغربي وسلطان المغرب، فحرم الدرقاوية والتيجانية من قوة دعم أدبية هامة¹. وبالنسبة لأحقية الأمير في مواجهة هؤلاء الرافضين الولاء له يقول صاحب المذكرات:

"إن الأمير تخلق واتصف بالعدل، وقد أجمع أهل الحلّ والعقد من علمائنا وأشرافنا وعرفاء الأجناد والقبائل حضرا أو بدوا، على أنه كان لا يتجاوز ما حدّ له من الحدود الشرعية ولا يتبع هوى نفسه، ولا يوقر قريبا على أجنبي، أو صديقا على عدو دنيوي، مع اتفاق حكمه على النصوص الشرعية المنصوص عليها في كتبنا الفرعية المبنية على مآثر القرآن والأثر النبوي، التي من جملتها قتال الباغين ومحاربة المارقين.

وفي هذا الصدد سئل مالك رضي الله عنه: هل يقاتل من وراء إمام؟ فأجاب: إن كان كعمر بن عبد العزيز فنعم، وإلا فدعه، ينتقم الله من ظالم بظالم، حتى ينتقم من كليهما"². وقد تمت مواجهة الأمير لزعماء الطرق الصوفية كما يلي:

أ - مواجهة الدرقاوية³:

ظلّ أمر شرشال متأرجحا بين الإستقلال وضغط الفرنسيين وضغط الأمير، وبعد معاهدة "دي ميشال" والانتصار على موسى الدرقاوي ودخول الأمير "المدينة" أصبح وضع شرشال مختلفا، فقد بلغت سمعة الأمير آذان الخاص والعام، وانظم إليه أهل حجوط وبنو مناصر وغيرهم من أرياف الناحية.

¹ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 235.

² - الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 112.

³ - بالنسبة لدرقاوة لم ينظروا إلى الأمير كأمر للمؤمنين وإنما كرجل طموح له نفس هدف الأتراك من قبل والمسيحين الفرنسيين الآن، ولو بلغ هدفه لم يعمل سوى على تأكيد قوته، أنظر:

• Neveux (E.De.), Op. cit, p. 11.

وجاءت الرسائل من خليفة الأمير في مليانة محمد بن علال، إلى الشيخ محمد السعيد بن عودة¹ قائد شرشال، تطلب منه الدخول في طاعة الأمير صراحة، ودفع الضريبة له، خصوصا وأن الأمير جعل شرشال تابعة لخليفته في مليانة منذ سنة 1835. وكان بن عودة يعد بذلك ولكنه كان يخشى الفرنسيين. وظل الأمر كذلك إلى أن حل الأمير شخصيا بمليانة سنة 1836م، فلم يسع بن عودة إلا إرسال وفد إليه وإعلان الطاعة له. وجاء الخليفة بن علال إلى شرشال بنفسه، وحقق في أمور الإدارة، وثبت بن عودة في قيادته.

ب - مواجهة التيجانية² واستمرار نفوذ الأمير في الناحية الغربية:

التفت الأمير إلى الأغواط التي تقع على بعد مائتي ميل من وهران، وكانت بها قبائل بني عراش وهي عشرة قبائل قوية وكثيرة العدد، يتزعمها محمد بن سالم التيجيني، الذي

¹ - عائلة بن عودة التي ترجع أصولها إلى أولاد علي الذين يعتبرون فرع مهم من عائلة بني عمور، التي مع الحشم بايعت الأمير سلطانا سنة 1835م.

أنظر: Capolani, (X.), *Op. cit*, p.111

² - أسس الطريقة التيجانية أبو عباس بن محمد المختار التيجاني الذي عاش خلال الفترة ما بين 1150. 1230 هـ في قصر عين ماضي الذي يقع على مسافة 28 كم إلى الغرب من مدينة الأغواط.

بعد ما تلقى العلوم ببلدته انتقل إلى البيوض حيث أقام خمس سنوات، ثم رحل إلى تلمسان سنة 1181 هـ قبل أن يسافر إلى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، وهناك أقام بمكة والمدينة مدة ثم اتخذ طريقه إلى القاهرة حيث أنشأ طريقته مع شخص يدعى محمود الكردي. ولما عاد إلى المغرب حاول أن ينشر طريقته بتلمسان وفاس، وبعض المناطق الصحراوية، ثم رجع إلى فاس حيث أقام المركز الرئيسي لزوايته في سنة 1213 هـ، حيث توفي ودفن في الزاوية نفسها. ترك الشيخ ابنين محمد الصغير ومحمد الكبير الذي توفي في إحدى هجوماته على النظام التركي على معسكر في الفترة ما بين 1241 هـ. 1242 هـ. وبالتالي تولى محمد الصغير نشر الطريقة التيجانية في الصحراء وإفريقيا الغربية والسودان.

أنظر: العربي اسماعيل، "مسالك الإسلام العربية إلى الصحراء الكبرى"، الثقافة، ع.62، 1401 هـ/1981م، ص.52.

ولمزيد من التفصيل حول نسب التيجاني ونشأته ومشايخه أنظر:

- مخطوط رقم 2093 "أحمد التيجاني شيخ طريقة زويتو في عين ماضي قبلة الغوط"، مكتبة

الحامة.

يرفض تماما أن يكون هناك سلطان في الوطن، وبناء على ذلك لم يجب على رسائل الأمير ورأى حطا من قيمته أن يدفع المساعدة الشرعية إلى وكيله، وقد تحدى عبد القادر لأنه رأى نفسه محصنا¹.

ولهذا قرر الأمير مواجهته وفي كتاب إلى وكيله بوهان الحاج الطيب أخبره بما وقع وأنه كان مجبرا على خوض الحرب ضد التيجاني² خوفا من أن تكون الرأفة به سببا في ضياع الهدف المنشود وهو جمع الجزائريين على كلمة واحدة ومنع انتشار الشرور بينهم وحفظهم، وقد استعملنا حق سيادتنا وكنا على أية حال الطرف المعتدى عليه، وكان الدين يفرض علينا محاربتهم، وأملنا هو أن الله سيذكر موقفنا خلال هذه المناسبة ويعفو عنا³.
وقد تعين الحاج العربي خليفة للأمير في الأغواط، وقد جلب تعيينه عددا من قبائل الصحراء إلى الجهاد الوطني تحت راية الأمير، وقد نصب حكومته في الأغواط بعد أن تغلب على أنصار أحمد بن سالم.

واستمر الوضع على ما هو عليه إلى سنة 1838، حيث يخبرنا ((Louis (R.) الخبير الفرنسي في شؤون الطرق الصوفية أن الأمير قد اتصل بكل من محمد الصغير التيجاني في "عين ماضي" و "الحاج علي" في تماسين محاولا ضم الطريقة التيجانية إلى سلطانه وذلك منذ 1836، لكنهما رفضا لظنهم عدم جدوى كفاح الأمير ضد فرنسا ولا دخولهما تحت طاعته⁴.

¹ - لقد تصدّت عين ماضي للأتراك، ولحسن باي وكانت محوطة بجدران كثيفة وقد سميت بعين ماضي نسبة إلى عين كانت تدفع ماءها الرائق نحو القصبية بواسطة قناة خاصة وكانت الآبار التي تجمع ماء المطر تكفي حاجة السكان. أنظر: تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 129 - 130.

² - أنظر ملحق رقم 01، "رسالة الأمير عبد القادر حول أسباب محاربة التيجاني".

وما يذكر أن الأمير قد تراجع ن موقفه اتجاه التيجاني. أنظر ملحق رقم 02، "رسالة اعتذار من الأمير عبد القادر إلى محمد الحبيب التيجاني".

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 132.

⁴ - يقول (De Neuveux) أن التيجاني وقف موقفا معاديا من الأمير وأنه يبحث عن الشهرة وأن الله بعث الفرنسيين ليعاقبوه وأنه لما تخلت عنه القبائل جاء لبيحث عن ملجأ عندنا.

أنظر:

- Neuveux (E.De), Op. cit, p.11.
- Rinn (L.), Op. cit, p-p. 425-427.

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.217.

لهذا قرر الأمير محاصرتهم¹ استنادا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث، زان عن إحصان، وقائل نفس بغير حق، والتارك لدينه، المفارق للجماعة"² وقوله أيضا "من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية"³.

ج. مواجهة الدوائر والزمالة:

لقد كان من الطبيعي أن يتجمع من بقايا الأتراك ومن أنصارهم من الحضر، خصوصا الكراغلة حزب من الأنصار يتأذى بسقوط النظام القديم، حيث يفقد مصالحه الذاتية والسياسية ويعمل كل ما في وسعه على إعادته إذا تمكن، أو مساندة القوى التي تمثله إذا عجز عن استرداده كما كان⁴.

ثم إن إقطاعيو المخزن وأمام نفور الأمير منهم وعدم الاستعانة بهم في دولته، لم يجدوا حرجا من أن يخدموا قضية غير عادلة ولكنها غانمة (قضية المستعمر الدخيل) وذلك بعدما تبين لهم أنهم لا يستطيعون بحكم طبائعهم وعقليتهم ومصالحهم الطبقية أن ينزلوا إلى مستوى الشعب وأن يشاركوا معه في الدفاع عن قضية ليس من ورائها أي مغنم⁵.

وفي هذا الصدد يقول كاتب ياسين: "إن مشروع الأمير لاقى صعوبات جمّة تسبب فيها المحتل بفضل عملائه على كل أنحاء الوطن، حيث وجد منهم مساعدة كبيرة لأنهم كانوا دائما يخضعون للوصول إلى الحكم، فرأوا في التدخل الأجنبي فرصة لا تعوض"⁶

¹ - Augustin (B.), Op. Cit, p.221.

• Azan (P.), L'Emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.114.

² - مسلم (1302/3): كتاب القسامة (28) باب (6) ما يباح به دم المسلم. البخاري (38/4): كتاب الدايات: باب قوله تعالى "النفس بالنفس والعين بالعين".

³ - البخاري (87/4) كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "سترون من بعدي".

• مسلم (1475/3): كتاب الإمارة (33) باب (13): وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

⁴ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.114.

⁵ - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.54.

⁶ - كاتب ياسين، الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر، ص.16.

• Azan (P.), L'emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.16.

ولهذا أدرك الأمير بثاقب فكره وعن وعي سياسي ثوري أصيل مجرد عن كل عاطفة ذاتية أن هؤلاء الملاك الكبار الذين دأبهم السعي لنيل المناصب والألقاب الجديدة، دون إقامة أي وزن للشعب الذي سلك طريق البناء والتشييد، هؤلاء يشكلون خطرا كبيرا قد يفرق وحدة الصف ويشتت شمل الفلاحين الذين هم أهل البلاد لتحرير التراب الوطني.

وبتحليلنا لموقف الدوائر والزمالة فإننا نحصره في موقف شيخهم وكبيرهم مصطفى بن اسماعيل الذي يعتبر الشاب عبد القادر سليل أسرة أدنى من مرتبة أسرته، وأن له الفضل هو وأبوه في إنقاذه من "الباي حسن".

وحدث أن قدم إلى الأمير فوجده عاقدا المجلس يستمع فيه لشكاوى الشعب، ولم يقطع الأمير الجلسة لاستقباله، تأدبا مع الناس، فحز ذلك في نفسه وقال له: "لما أن الذين كانوا بالأمس عندي خدما، أصبحوا اليوم من ذوي الكلمة النافذة، بل صاروا يرفعون أصواتهم أمامي، فإني أقسم بالله أن لا تقع عيني على عينك بعد اليوم".¹

وقد ذكر (Philippe De Cossé Brissac) أن عملاء الأتراك سابقا قد استجابوا للعروض المغربية التي قدمها لهم الجنرال (Boyer) وهو أول من أدرك التوافق بين مصالحهم ومصالح الفرنسيين، والفائدة التي يمكن أن يجنيها من ولائهم لفرنسا، وكانوا لا يفتأون يعربون عن استعدادهم لتقديم خدماتهم، ومن ذلك أن ابن غماري عرض على القائد الفرنسي أن يقوم بمهاجمة الوفد الجزائري الذي كان في طريقه إلى المغرب.²

ولكن تشرشل له تعليق مغاير عن موقف الدوائر والزمالة، حيث يبرره بحكم موقعها القريب من الساحل مكان تواجد الفرنسيين، وقد عانت كثيرا من الخسائر، فجعلت غرائز الطبيعة المتسامحة تملئ عليهم فكرة تعويض الخسائر بتعاملات ودية ظاهريا مع عدو يضمرون له العداوة داخليا.³

¹ - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.57.

² - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.56.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.69.

ولكن مهما كانت الضرورة، فإن هذا لا يسمح لهذه الجماعات أن توقع معاهدة مع "ديميشن" لتكون تحت العلم الفرنسي، ثم أخرى مع "تريزيل" ومضمونها تقديم المساعدة للفرنسيين، العدو الأول للجزائريين جميعا. إنهم بذلك خانوا الدين والوطن وتكروا للشرف والأنفة والضمير، ويعتبر موقفهم خرقا لمبادئ القرآن الكريم الواضحة والصريحة، ذلك الكتاب الذي لم يقر ولم يؤيد مبدأ الخضوع للعدو الأجنبي.¹

ولما كان عبد القادر مدافعا عن ذلك الكتاب فإنه قد جعل واجبه الأساسي حماية القرآن الكريم بيقظة لا تعرف الكلل والتواني، ومقابلة أبسط خروج عن مبادئه بشدة لا تعرف التراجع، فشعاره الذي لا يقبل المساومة ولا الخضوع هو الانتصار أو الموت في سبيل الله والوطن.

وعن تبريرهم لموقفهم بأن تعاملهم مع العدو بسبب قريهم منه وبالتالي تحمل خسائر منه، يرد الأمير أنه إذا سمح أن يكون القرب من العدو مبررا للاستسلام إليه، وأن تكون القسوة والمعاناة مبررا للخيانة فإن سياسته التي يخطتها لتحرير بلده ستتهار بسرعة، وأن خطته لتجديدها وإنعاشها ستصبح خيالا.²

وأنه إذا رضي بهذا الاستسلام أو غض عنه الطرف أو برر مثل هذا الضعف مهما كان سببه فكأنه تخلى عن الرسالة التي آل على نفسه حملها والمهمة التي أقسم على تحقيقها. ومهما كانت السياسة التي يطبقها تمثل علامة إرهاب لدى البعض، فإن ذلك لا يهم، فالمغزى هو تحقيق المصلحة المشتركة.

ومن هنا فإن خطة الأمير شاملة هدفها تحقيق الشعور بالانتماء الوطني، والتخلص من جميع العراquil التي يمكن أن تقف أو تهدد الصالح العام وتضر بخطة العامة ولهذا قام ببعث المرابطين ونشرهم بين القبائل التي اعتادت على التجارة مع المدن الواقعة تحت يد الفرنسيين فلا بد من المقاطعة مهما كانت الأرباح.

1 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.69.

2 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.70.

فكان لهؤلاء المرابطين دور كبير في التوعية وتحويل الشعور التجاري إلى شعور وطني مما أدى إلى توقف الجزائريين عن التجارة في الأسواق الفرنسية.¹

وهكذا اعترفت الدوائر والزمالة بقوة الأمير، وكذا كولوغلي المشور، ولم يعد للفرنسيين سوى مراكز عسكرية خارج وهران ومستغانم وأرزيو، وقد ضيق الأمير الخناق فعانوا ظروفًا صعبة.²

2. 2. 1/ العلاقات السياسية بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي:

قبل التعرّض لتحليل العلاقة مع الحاج أحمد باي، ينبغي أن نحدد الموقف الصحيح للأمير من بقايا السلطة العثمانية في الجزائر. فمن دلائل عدم إنكار الأمير للدولة الجزائرية في عهد الدايات أو العهد العثماني، برغم انتقاده لما ينتقد في بعض تصرفاتهم، وأحيانًا كانت كثيرة، كتصرفات أي إنسان كان معرضًا للخطأ.

ففي سنة 1845، نجده وهو يجتدّد وفقًا لمعهد علمي في مدينة مازونة، كان أسسه العالم محمد بكداش³ الذي حرّر وهران سنة 1807، يقول الأمير في تجديد هذا الوقف: "وجدنا لهم حكم المتقدمين، قاصداً بذلك وقف الذي محمد بكداش المذكور"⁴. فلو كان يعتبر الدايات أشرارًا لما وصفهم بالمتقدمين، أي السلف، وما كان يرضى أن يكون خلفًا - لشرّ سلف - ولا يستعمل عبارة "إقامة مؤسسة وقفية" أو "تأسيس المعهد" بدون ذكر أوامر المتقدمين"⁵. ومن هنا ينبغي إعطاء تحليل موضوعي لعلاقة الأمير بالحاج أحمد باي.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.73.

² - Xavier (B.), *Op. cit.*, p.226.

³ - معنى اسمه: الحجر الصلد.

⁴ - نايت بلقاسم مولود بلقاسم، "استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر أو الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية"، *الثقافة*، ع(خاص).75، 1403هـ/1984م. ص.47.

⁵ - نايت بلقاسم مولود بلقاسم، استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر أو الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية"، ص.47.

لقد تناول العديد من المؤرخين العلاقة بينهما، وأثير الكثير من الجدل حولها، خاصة وأن الرجلين ظهرا على مسرح الأحداث في الجزائر في فترة زمنية واحدة، وكليهما تحمل ظروف المقاومة والدفاع عن حرية الشعب الجزائري وأرضه، حتى أن نهايتهما كزعيمين للمقاومة تمت في نفس العام 1847.

ومثار هذا الجدل إنما تعلق بعدم توحد رمزي المقاومة، حتى ضيعوا فرصة تحرير البلاد، أو عدم انضواء أحدهما تحت لواء الآخر.

فبينما اتجه فريق إلى تأييد أحمد باي في موقفه من الأمير وأنه الأحق ببسط سيادته على كامل الجزائر، رأى فريق آخر أن هذه الأحقية إنما تكون للأمير، بينما غلط البعض كليهما وأن الصراع بينهما- الذي وصل إلى حد الاشتباك المسلح- كان من أجل النفوذ والسلطة في وقت كانت فيه البلاد في أمس الحاجة لتوحيد الصفوف.¹

وقبل أن نعطي التفسير الموضوعي لموقف الرجلين، نعرض أولاً الحجج والشبهات التي أثارها كل فريق ضد الآخر.

فالذين أيّدوا أحمد باي نظروا إلى أنه قائد ومقاوم وطني نظم المقاومة في وقت كان فيه موظفوا الدولة العثمانية يتعاونون مع الجيش الفرنسي على أساس أنه أقوى ضمان لبقائهم في مناصبهم.

وأنه حاول إقامة دولة تعتمد على تأييد السلطان والارستقراطية المحلية، وبعد احتلال الجزائر حاول أن يوسّع دائرة حكمه بتأييد الجماهير له، فكان لا يقرّر شيئاً هاماً إلا بالرجوع إلى الأعيان وشيوخ القبائل والعلماء والجيش.

وكان هدفه إقامة دولة شرعية تفرض الأمن والاستقرار، وتعلق أحمد باي بالباب العالي ووفائه له، راجع إلى تربيته وعقيدته وأصله، وأنه كان يرمي من وراء ذلك إلى

¹ - فليل عمار، ملحمة الجزائر الجديدة، ج.1، ط.1، الجزائر 1412هـ/ 1991، ص.44.

إعطاء حكمه طابع الشرعية والهيبة، فهو لم يفكر في إعلان الاستقلال وتوحيد البلاد تحت شعار الوطنية ولم يستقل استقلالاً تاماً كما فعل محمد علي، لقد كان الوحيد الذي يمتلك التجربة والنظام والقوة سنة 1830، وبالتالي كافح الفرنسيين كمثل حكومة شرعية.

وإن تصرفه كان وطنياً صرفاً وأن سلوكه كان جزائرياً، وأن إعادته تنظيم البايلك كان تجربة رائدة ومثالية غفل عنها تيار معين لحجة أنه بقي وفياً للخلافة. وبالنسبة لتحليل هذا الفريق لموقف الأمير من الحاج أحمد باي، فقد نظر إليه نظرتة لبقايا السلطة العثمانية التي كان يتمنى زوالها، فكانت نظرتة له لا تختلف عن نظرتة للباي حسن، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه لم يدرك أهمية التضامن معه في تلك المرحلة، لأن رغبته تكمن في توحيد الجزائر تحت قيادته، لذلك وقف موقف الحياد من نضال قسنطينة، رامياً من وراء ذلك إلى الولاء الكامل وتحقيق السيادة المطلقة إذا انهزم أو انتصر، لأنه في حالة انهزامة ينضم إليه سكان قسنطينة، وفي حالة انتصاره يطرد الفرنسيين، ولكن الأحداث فيما بعد كشفت له سوء التقدير.

وأما بالنسبة لموقف أحمد باي من الأمير فعلى حد زعم بعض الآراء¹ أنه لم يتمكن من الاتفاق معه لأنه كان يرى فيه دعياً منتحلاً للسلطة على أساس أنه الوريث الشرعي. إضافة إلى أنه عميل للسلطة الفرنسية، فقد تعاون معها ضده، بتوقيعه الاتفاقات مع الفرنسيين، خاصة معاهدة تافنة، وهدّد أنه سيهاجم مع الفرنسيين إذا لم يستسلم له الحاج أحمد باي².

وفي الأخير فإن أحمد باي أحق بالإمارة³، وإذا لم ينجح قدر نجاح الأمير عبد القادر لأنه يمثل السلطة العثمانية السابقة، في حين كان الأمير متصوفاً يمكنه أن يخلق تأثير

¹ - من بين هؤلاء، عبد الجليل التميمي، عما قليل.

² - لقد ذكر أحمد باي في مذكراته: أن الأمير أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كافة أنحاء البلاد، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني ويدخلوا في طاعته، وإن لم يفعلوا يثير عليهم الفرنسيين وتسحقهم قواته سحقاً.

أنظر: الزبيري محمد العربي، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش.و.ن.ت، الجزائر 1973، ص.80.

³ - حقي إحسان، المرجع السابق، ص.76.

أكثر من قائد يستند إلى القوة كأحمد باي وأن الأمير كان يتلقى مساعدات من المغرب فسي حين لم يتلق أحمد باي أية مساعدة من الباب العالي.¹

فعلى الأمير أن لا يتناسى إنجازات هذا الكرغلي، فإذا كانت التجربة السياسية له قد مكنته من إنشاء دولة عرفت تطورا ملحوظا، فإن الحاج أحمد وفي إطار إصلاحاته وحركته العسكرية يبقى شخصية مجددة، دافعت عن الجزائر في نفس مرتبة الأمير إن لم تكن أكثر وفاء وإخلاصا وإصرارا للدفاع عن الذاتية الجزائرية العربية الإسلامية.²

إن التحليل الموضوعي للعلاقة بين الرجلين يطرح جانبا الظنون التي ليست أكيدة والتي حملها المؤرخون للرجلين وبنوا عليها تصوراتهم وأحكامهم، ويقودنا هذا إلى حصر أسباب الخلاف في التباين في فكرة كل واحد منهما وتصوره للدولة.

فالحاج أحمد باي إثر الاحتلال اعتبر نفسه الممثل الوحيد للخلافة وأطلق على نفسه لقب "باشا" وكان يريد إقامة دولته في ظل الخلافة العثمانية - رغم التبعية الصورية - راميا إلى إيجاد نظام سياسي واجتماعي وعسكري مغاير لما كان سائدا أيام "الداي حسين"، إذ صار يعتبر الإيالة إقليما عربيا إسلاميا مرتبطا بالخلافة ارتباطا روحيا رغم عجزها.

وهذا ما أكده في أحد رسائله للباب العالي: "إن فكرتنا في الدفاع عن الدين واستكمال واجبنا، ومما يبرر هزيمتنا هو استمرارنا على الإخلاص والطاعة لمولانا".³

1 - أرجمنت كوران، السياسة الفرنسية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط.2، تونس 1974، ص.85.

2 - التميمي عبد الجليل، "الحاج أحمد باي وبايالك قسنطينة (1830-1837)"، الأصالة، ع.64، الجزائر 1399هـ/1978م، ص.23.

3 - فركوس صالح، "سر الخلاف بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي"، مجلة النهضة، ع.7، الجزائر 1991، ص.39.

وبالنسبة للأمير فهو رجل علم وجهاد، اعتلى كرسي الحكم عن بيعة شرعية ودانت له مدن الإقليمين الغربي والوسط، وهو كان يهدف إلى إقامة دولة تعتمد الشريعة الإسلامية في تنظيماتها وتحقق أمة جزائرية موحدة.

وبالتالي عندما أراد ضم الإقليم الشرقي فليس من منطلق نزعة فردية طموحة لمن وضعوا الأمير موضع الحسد والغيرة من أحمد باي، وإنما انطلق على أساس أنه رئيس دولة وممثلها أمام الشعب وضد الاحتلال، ولا بد من أن تدعن له جميع الأقاليم، ودعوته لأحمد باي لا تختلف عن دعوته لزعماء الوسط والجنوب.

في حين أن أحمد باي لم يحاول أن يوسع سلطانه حتى يشمل الجزائر كلها، وإنما كان مكتفياً سواء في صلاته مع الفرنسيين أو مع السلطان العثماني بحدود إقليمه.¹ لقد أراد الاعتماد على العنصر الوطني لكن ذلك لم يتحول عنده إلى تغيير للنظام كله وإلى مفهوم جديد في العلاقات مع الشعب ومع الخلافة.²

وأما بالنسبة لنظرة الأمير لأحمد باي على أساس انه من بقايا السلطة القديمة، واتجاهه إلى المغرب، وعدم استعانته بالخلافة، فهذه الأخيرة كانت لها أكثر من فرصة لتتدخل وتتخذ الجزائر ولم تفعل، فلماذا يستعين الأمير بها، وإنه من خلال الوثائق راسل السلطان أكثر من مرة، فماذا كان الموقف؟ وعندما استسلم الأمير ماذا فعلت له؟ بل ومماذا فعلت للحاج أحمد باي الذي ظلّ وفياً لها؟.

أما بقايا السلطة فلنا الشهادات على تولية بعضهم في أرفع المناصب وأشرفها في دولة الأمير.³

1 - سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر، بداية الاحتلال، ص. 146.

2 - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ص. 141.

3 - أنظر: الفصل الثالث من الباب الأول البيعة وتأسيس الدولة، والفصل الثالث من الباب الثاني التصور المؤسسي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر.

أما قضية دعوة الأمير لأحمد باي، فنحن لا نستبعد هذا الأمر لأنها قد تأتي ضمن دعوته لمختلف القبائل، لكن الأمر المستبعد هو أن يكون الكره هو سبب الرفض فالوجه أنه ربما رفض لأنه هو أيضا أراد أن ينضوي الأمير تحت لوائه.¹

ومهما يكن فقد تحرينا الموضوعية في معالجة موقف الرجلين كلا من الآخر وتبقى بعض المواقف يشوبها غموض في انتظار أبحاث ووثائق تبرزها وتزيل اللبس عنها. إذن فكل واحد انطلق لا من شخصه، وإنما من حكم شرعية سلطته.

ويبقى السؤال المطروح: من هو الذي شرعيته أصح وأصدق؟ لكي نقف عند هذه المسألة موقفا محددا، تجنبنا لنظرة الذاتية لبعض المؤرخين وننزله رمزي المقاومة عن كل لبس ونقد.

أما بالنسبة لما أثير حول معاهدات الأمير من أنها مؤامرة ضد أحمد باي وموالاة للفرنسيين فهذه مغالطة كبيرة وانتقاص شديد في حق الأمير فمن خلال ما عرضناه حول شخصيته وما قاله في الأعداء، فهو أنزه وأجل عن هذه الدسائس الوضيعة.

ولم تعدو تلك المعاهدات خاصة "تافنة" أن تخرج عن إطار الإستراتيجية العسكرية والحكمة الدبلوماسية للأمير وإذا كان هناك تقصير من جانب الأمير فهو لا يعد قصر نظر وعدم إدراك لما هو في الغيب فحسب، وليس كما قيل وادعي بأنه تحريش وإزالة منافس².

¹ - A. O. M, Constantine, le 26 Août 1939, Rapport du général Gullios au Gouvernement général

نقلا عن: فركوس صالح، "سر الخلاف بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي"، ص. 39.
² - بتاريخ 24 أكتوبر 1841، وجه الأمير رسالة إلى الباب العالي يدافع فيها عن اتهام أحمد باي له، ثم كان له اتصال ثان في ديسمبر 1841. انظر: التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر وتونس وليبيا (1816-1871)، زغوان 1986، ص. 165، ص. 202.

فالأمر لم يقصد المؤامرة بل هو سعي لربح الوقت قصد الاستعداد، وهو رجل حرب وجهاد لم يتقن للمؤامرة الاستعمارية، لأن فرنسا كانت ملتفتة إلى قسنطينة ثم الرجوع إلى الأمير، وقد أدرك الأمير هذا، فراح يزيد من تنظيمه وتحصيناته.

وقد نفي ذلك في مراسلة له إلى الخليفة العثماني: «لم أكن متفقا مع الفرنسيين ولم يقع ذلك البتة، وحسب مبادئ الإسلام يسمح باستعمال الحيلة والمداهنة مع العدو، وهذا ما قمت به اتجاه الفرنسيين».

في حين أن أحمد باي يعمل على إبراز الأمير كعدو للخلافة.¹ ثم إنه كانت هناك محاولات كما يقول الجنرال «قاليو». من خلال تقريره له بأكس آن بروفانس أن الأمير عرض على الحاج أحمد باي الوحدة وذلك عام 1839، وألح عليه لتحقيق هذا الأمر المصيري، ولكن الباي كان يرفض في كل مرة.

2. 2. / علاقة الأمير ببني ميزاب:

ليس للإباضية بالجزائر دولة، وليس للإباضيين فيها سلطان، وإنما هم يكونون مجتمعا مستقلا أو شبه مستقل يسكن في بعض الواحات من جنوب الجزائر، أو أسرا متناثرة في مختلف أنحاءها، يتولى شؤونه مجلسا منتخب يعرف بمجلس العزابة.²

ومن المعروف تاريخيا أن بني ميزاب لهم مفهوم خاص بالنسبة لمبدأ السيادة، فهم يتمتعون باستقلالهم الذاتي وتسيير شؤونهم منذ القرن الرابع الهجري وطيلة أيام الحكم العثماني في الجزائر وتربطهم به اتفاقية على تبعية اسمية فقط على أن يدفعوا إليها سنويا

¹ - راجع: رسائل أحمد باي إلى الباب العالي التي أوردها التميمي عبد الجليل في مقاله:

« Trois lettres de Hadj Ahmde Bey de Constantine à la Sublime porte », in revue de l'occident musulman et de la Méditerranée, N°.3, 1966, p.133.

² - معمر علي يحي، الإباضية في الجزائر، ج.2، تصحيح أحمد عمر أويكة، غرادية (د.ت)، ص.576.

"اثنى عشر عبداً أو اثنتي عشرة أمة"، حيث يتجهون إلى الاستقلال عن الإدارة المركزية، وتفضيل إدارة شؤونهم بأنفسهم دون تدخل منها.¹

إن مشاركة بني ميزاب في مقاومة الغزو الفرنسي مشدودة إلى عاملين: الأول هو مقاومة من اعتدى على وطنهم الجزائر بحكم أنهم مسلمون، الثاني وهو كفاحهم في سبيل حرية واستقلال وطنهم الخاص.²

وما يؤكد هذه النظرة ويبرزها ما ذكرناه بالنسبة لعلاقة الميزابيين بالإدارة العثمانية، فأتناء تواجدها في الجزائر، اتفقوا معها أن يعترفوا بسيادتها وأن يدفعوا لها ضريبة معينة قدرت آنذاك بـ 45.000 فرنك فرنسي، وأن لا يساعدوا أي مناهض لحكمها أو يأووه، ولهم مقابل ذلك أن يتعاطوا تجارتهم في أي بلد خاضع لسيادتها، بحرية كاملة، وأن تؤمن طرقهم ومواصلاتهم، وقد وفوا لها بما اشترطت عليهم، ووفت ببعض ما اشترطوا عليها، وقد بقي الوضع على هذه الحال إلى أن انتهى الحكم العثماني بالجزائر.

والسؤال كيف كانت العلاقة بين الميزابيين و الأمير؟

انطلاقاً من هذا الاعتبار التاريخي، تحدّد موقف بني ميزاب من الأمير في مسألة إعطاء الولاء له وبسط نفوذه وسيادته عليهم³ إضافة إلى أن الميزابيين لا يقولون بالولاء ولا يعطونه، إلا عندما يجدوا فعلاً قوة مادية تقف عندهم، فيعطون الضرائب مقابل حمايتها لهم.⁴ لكن وبعيدا عن هذا الاعتبار، فقد كان للميزابيين دوراً في صفوف الأمير عبد القادر، حيث يصنع له السلاح، وتطبع له عملته نقوداً ذهبية بواحد ميزاب على نفقته الخاصة،

¹ - النوري حمو محمد عيسى، نبذة عن حياة الميزابيين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505هـ إلى

1962، ج.1، دار الكروان للطباعة والنشر، باريس (د.ت)، ص.248.

² - يذكر بفايفز الألماني أن الميزابيين قد شاركوا في مقاومة الغزو الفرنسي بمجموع حوالي أربع آلاف تحت قيادة أمينهم في الجزائر العاصمة.

أنظر: دودو أبو العيد، المرجع السابق، ص.80.

• النوري حمو محمد عيسى، المرجع السابق، ص.248.

³ - أنظر ملحق رقم 03، "رد بني ميزاب على دعوة الأمير لهم للخضوع والطاعة".

⁴ - حسب حوار أجرته مع إبراهيم بحاز، أستاذ بمعهد العلوم الاجتماعية - جامعة قسنطينة (أذن لي).

وكان لهذا السلاح من الجودة بحيث يعادل سلاح فرنسا. كما انضمت إلى جهاد الأمير وجوه بارزة من بني ميزاب، كانت من أطوع جنده، فاتخذهم في بطانته وجعلهم من خاصيته وأمناء سره.

ومن بين هؤلاء: الحاج داود دادي بابه، الذي كان ذو نفوذ واسع وجاء عريض، تحمل مسؤولية تموين نواحي البخاري والجلفة، في مجاعة أيام مقاومة الأمير، وكان أمين ماله.

كما نجد أميني الحاج يوسف بن محمد بن موسى شقيق أمين الحاج داود الذي كان أمين الأمير في المدينة، أما بالنسبة لأميني محمد بن صالح فكان أمينه في الجلفة. وكان من خواص الأمير أيضا الطبيب الماهر باي أحمد باي بن أحمد بن بابا عيسى، اتخذه الأمير طبيبه الخاص وكاتبه وأمين سره من مدينة مليكة بميزاب.

وكذا يدر حمو بن يحي من تجار معسكر وأعيانها صاحب الرحلة الحجازية كان من خاصة الأمير في معسكر، وبها توفي وابنه يدر الحاج أحمد بن حمو قاضي معسكر¹. وكن هؤلاء وغيرهم من أخلص حاشية الأمير وأركان دولته يشدون أزره ماديا ومعنويا ويقومون بتسيير ما أنيط بهم من مسؤوليات في المدن والقرى، في أعراش تلك الأرجاء كما كان المتطوعون منهم في جيشه من أخلص جنده.

وبرغم هذه الأدوار، قد أفتى الأمير الفقهاء لمحاربة الميزابيين؟ فهل كان الخلاف بينه وبين الميزابيين خلافا مذهبيا أم خلافا سياسيا "الرعية والشرعية"؟.

¹ - النوري حمو محمد عيسى، المرجع السابق، ص. 255.

2. 3 / اتساع إقليم الدولة:

2. 3. 1 / في الوسط:

إن الانتصارات التي حصل عليها الأمير عبد القادر في الوسط كانت تصل إلى آذان المجاهدين في متيجة وعلى رأسهم الزعماء الثلاثة، الحاج السعدي، الحاج محي الدين، والحاج بن زعموم، يضاف إليهم بلقاسم أو قاسي الذي أخذت قواته تهاجم العدو بقوة. وكانت معاهدة "دي ميشال" 1834، وحلول الأمير بالمدينة، وتعيين خليفته ابن مبارك، كل ذلك جعل أنظار المجاهدين تتجه نحوه، وتعلق عليه آمالاً عريضة، فلا غرابة أن ينضم إليه كل من الحاج محي الدين، والحاج السعدي، وكلاهما من رجال الدين الذين جعل منهم الأمير عمود سلطته.

أما الحاج ابن زعموم فقد أرسل أحد أبنائه (وقد كان شيخاً مسناً) وهو حمدان بن زعموم إلى الأمير وقابله، وكانت المفاوضات بينهما من أجل تنسيق الجهود ضد العدو والاعتراف بالأمير كرمز للجهاد والوحدة.¹

إن الشعور الوطني الذي كان يختلج في نفوس الحضر شعوراً صادقاً ما في ذلك شك، ومن الشواهد على ذلك أحداث 1835، حيث عمت البليلة وساد الاضطراب، وكانت مدن مقاطعة الجزائر تطالب الأمير بتعيين خلفاء له يتسلمون زمام الأمور، لأنها بقيت مدة طويلة دون قيادة.

وأن موقف أهالي المدينة من طلب موسى الدرقاوي بتسليم جميع اليهود والمسيحيين عن بكرة أبيهم، ورفضهم طلبه، يدل على الوعي القومي والعواطف الإنسانية النبيلة التي كانت تجيش في نفوسهم، وقد عجل الأمير وألحق هزيمة بالدرقاوي وجماعته واستتب له الأمر في المنطقة.²

1 - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.130.

2 - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص - ص.224-225.

* بالنسبة لمنطقة الوسط كانت تتمتع بالنفوذ فيه العائلات التالية: عائلة محي الدين بن مبارك في الشرق، وبومعزة وأولاد مختار في الوسط، وأولاد عبد السلام، وبني ونوغة ومرابطي الاغواط في الجنوب، وبني شرفة في الغرب. أنظر:

Capolani (X), Op.cit, p.111.

بعد الانتصار في المدينة، رغبت القبائل الساكنة ببلدة مليانة، التي كانت خاضعة للشيخ "ولد السايح" في الخضوع لسلطة الأمير، ووضع جميع إمكانياتها تحت تصرفه، كما انضم إليه رؤساء قبائل حجوط، بني مناد، وبني مناصر.

وعندما وصل الأمير إلى مليانة اتصل بأسرة الولي الصالح "سيدي أحمد بن يوسف" التي تتمتع بصيت كبير في المنطقة، فقدم أعضاء هذه الأسرة خدمات جليلة، وتقدم علاوة على هؤلاء مشايخ "جندل" وجميع الجنود التي كانت بمعيتهم، وقابلوا الأمير بحفاوة تامة، وقد عين لهم خليفة.¹

ثم تقدم وأخضع قبائل أولاد المختار في إقليم تيطري سنة 1837 وعلى رأسها المختار بن عودة البغدادي.²

أما بجاية فقد زارها الأمير عام 1839، بهدف كسبها إلى صفه حيث زار زاوية سيدي معمر بها، وحاول أن يتصل بقيادة المدينة، إلا أن السكان ارتابوا من تصرف الأمير باتصاله بالفرنسيين ورغم نفيه لأية شبهة إلا أنه اتهم بالخيانة، ورفضوا الانضمام إليه.

وبعد إخضاعه لمعظم إقليم تيطري، اتجه إلى جبال جرجرة (تمتد شرقا من مدينة الجزائر إلى بجاية)، وقد كان سكانها من النوع المستعصي حيث فشلت جميع المحاولات العسكرية في إخضاعهم.

فأراد الأمير استعمال طريقة اللين معهم، فسار في خمسين فارس في سبتمبر 1839 منطلقا من برج حمزة ومؤيدا لخليفته بن سالم تحت شعار "لنكسب تأييد جرجرة".³

1 - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص - ص. 164 - 165.

2 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 288 - 291.

▪ سعد الله أبو القاسم، الحركة، ج. 1، ص - ص. 187 - 188.

3 - أنظر ملحق رقم 04، "خطاب الأمير لأهل جرجرة".

2. 3. / 2 / السيادة في الغرب:

بعد أن أخضع الأمير شيوخ الطرق والقبائل في الإقليم الوهراني. كما سبق ذكره، اتجه إلى تلمسان لإخضاع "بن نونة"، حيث استعان بقوته الرئيسية المتمثلة في بني عامر، وبني هاشم، وبعد أن أخذ معه وحدات قوية من هذه القبائل، اقترب من تلمسان¹ وكان أهلها منقسمين إلى حزبين.

الأتراك والكراغلة، حيث كانوا يحتلون القلعة، أما الأهالي فقد كانوا تحت قيادة "بن نونة" وقد طلب منه الأمير الاستسلام فرفض، لكنه وقع بين هجوم الأمير من جهة، وإطلاق النار من طرف كراغلة القلعة من جهة أخرى، فانهارت قواه.

وبعد انتصاره عامل أهلها بكل احترام، لكن الكراغلة لم يعترفوا بسيادته لتحصنهم فتركهم، وعين الأمير الخليفة البوحميدي على تلمسان، وخطب في أهلها من أجل مؤازرته عسكريا وماليا.²

وما بين عامي (1837-1838)، بسط الأمير نفوذه على الصحراء الغربية وعين ماضي، كما تقدم.

2. 3. / 3 / امتداد نفوذ الأمير عبد القادر إلى الشرق:

أواخر عام 1837 وبداية عام 1838 قام الأمير بعمليتين بارزتين في حياة الجزائر السياسية في الأول بسط نفوذه على الصحراء الغربية - كما سبق ذكره - وفي الثاني بسط نفوذه على جزء كبير من الشرق الجزائري.

¹ - تلمسان: تبعد بحوالي سبعون ميلا جنوب غرب وهران، تقع على نجد في سفح جبال منحدره عالية، وهي مشهورة، لكثافة وقوة أسوارها التي طالما أعيت الحصارات.

أنظر: تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.66.

▪ الأمير عبد القادر، المذكرات، ص.163.

² - Le Duc D'Orléans, Op. cit , p-p. 293-294

• Azan (P.), L'Emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p-p.100-101.

ففي أواخر سنة 1837 نزل الأمير في برج حمزة وعين من هناك خليفته الجديد أحمد الطيب بن سالم وأغا فليسة الحاج محمد بن زعموم الذي أصبح يحكم القشطولة، النزليوة، بني خلفون، الحرشاوة، الزواتنة والخشنة.¹

ولما استولى الفرنسيون على قسنطينة فرّ أحمد باي إلى الزيبان وحشد الحشود وزحف بهم إلى بسكرة ففر فرحات بن سعيد واتصل بالأمير في المدينة. فجهز الخليفة البركاني مع فرحات قاصدين بسكرة فاستقبلته قبائل نفزاوة والذواودة وغيرهم وقدموا طاعتهم وطاعة من تبعهم، وقد أمر البركاني بتمهيد تلك النواحي إلى أطراف الصحراء ثم بالانقلاب إلى سطيف وما إليها من بلاد مجانة إلى جبال زناتة ففعل. ثم عاد إلى المدينة وأقر الأمير فرحات بن سعيد على ولاية بسكرة.²

بالنسبة لاستيلاء الأمير على منطقة الزاب، فبعد انعقاد "تافنة" وقبل أن يدخل المنطقة رأى من المناسب أن يعلم الحاكم الفرنسي في قسنطينة عن نواياه وقد أخبره بأنه وبصفته حليفا لفرنسا وصديقا لها فإنه أقدم على هذه الحملة لصالح فرنسا نفسها ما دامت الاضطرابات كانت قوية جدا في إقليم يقع تحت سيطرتها وأن هذه الاضطرابات قد تمتد إلى أماكن أخرى.³

وبعد هذه المراسلة أمر الأمير خليفته على بسكرة "البركاني" أن يجمع قواته ويزحف على المدينة، وقد استقبله "فرحات بن سعيد" بصدر رحب، حيث كان يعتقد أن الأمير سيسميه خليفة على الزاب، ولكن بدلا من ذلك، تعين مكانه الحسن بن عزوز، ممّا أدى إلى استيائه فأخذ في مراسلة الفرنسيين، فاكتشف أمره واعتقل وأرسل مكبلا بالقيود إلى "تاقدمت"⁴.

¹ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.215.

• Azan (P.), L'Emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.106.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.300.

³ - قليل عمار، المرجع السابق، ص.39.

⁴ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.164.

• قليل عمار، المرجع السابق، ص.39.

واستنتاجا فإن الأمير استطاع ما بين عامي (1837-1839) أن يتغلب على عصيان القبائل الثائرة والطرق الصوفية وأن يبسط سلطانه على تئسي الجزائر، وبالمقابل ظل الفرنسيون محصورين في وهران والجزائر العاصمة وفي جزء من بيلكية قسنطينة¹.

والأمر الذي يثير الاهتمام هو ثبوت النظام المركزي وصموده مدة طويلة أمام نظام داخلي متشعب وقوات العدو العظيمة. فمن خلال ذلك تظهر الوسيلة الفعالة التي استعملها الأمير لمقاومة عوامل الانحلال معتمدا تارة على العنف لإخضاع الثائرين وأصحاب النفوذ، وأخرى إرضاء رغبات القبائل لكسبهم إلى صفه.

وهذا دليل على أن القوات القادرة على الاتحاد في أحضان دولة كانت أعظم من عوامل التخلف والانحلال، وأنه لم يتوفر لها الوقت للانتصار وتحقيق أهدافها بسبب التفوق العسكري الذي كانت تتمتع به القوة الاستعمارية².

وكان من أهم عوامل نجاح الأمير بروز عنصر الوطنية، الذي كان له تأثير كبير على عقلية العملاء وأعوان الاستعمار، فسلوكهم كان متقلب مما يدل على شعورهم بتأنيب الضمير وبمركب النقص تجاه الشعب والدليل فرار الأهالي المتطوعين من الوحدات العسكرية التي شكلها الفرنسيون إلى درجة جعلت "فالي" يطلب في شهر يناير 1833 من وزير الحربية تسريحهم من الجندية.

وفي هذا المجال يقول (Camile Rousset) إن المارشال "فالي" يعتقد أن هؤلاء المتطوعين من الأهالي سوف يشكلون النواة الأولى لجيش الأمير عبد القادر النظامي فالجنود المشاة الذين وفرنا لهم التدريب أعطيناهم العتاد والسلاح، يفرون زرافات ووحدانا وينضمون إلى كتائب العساكر التابعة للأمير، أما الفرسان منهم، فينظمون إلى سرية الخيالة، وهذا ما جعل «كانروبير» يتذمر:

"ليس لنا بين الأهالي سوى أعداء... وليس لنا بين العرب أصدقاء."³

¹ - Xavier (B.), Op. cit, p.226.

² - لاكوسنت، المصدر السابق، ص.280.

³ - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.93.

وبالنسبة للصباحية (Spahis) من الأهالي والقوم الذين عملت فرنسا بتواطؤ مع عملائها على تجنيدهم، كانوا يتصرفون في المعارك تصرفاً لم يكن ليرض الضباط الفرنسيين، من ذلك أن القبطان "دي لاكرو" لاحظ في سنة 1846 أن وجود الأمير عبد القادر في المعركة كان دائماً يؤثر على الخيالة من الأهالي تأثيراً لم يكن من السهل التخلص منه، ومهما بذلنا من جهود، فقد كان ذلك التأثير يحط من معنوياتهم وشجاعتهم.¹

نجد الأمير إلى حد بعيد في تحقيق مشروع إقامة وحدة وطنية تتجاوز الشعور بالانتماء القبلي، وخدمة المصلحة الخاصة، إلى توحيد الجهود للتفاني في خدمة الوطن وأهله.²

¹ - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.93.

² - Berques (J.), *Op. cit*, p.66.

الفصل الثالث: النصور المؤسسي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير

عبد القادر

3. /1 الإدارة:

رغم انشغال الأمير بحاجيات الدفاع عن البلاد أمام الخراب الذي نشره العدو فيها لم يمنعه من أن ينشئ جيشاً وبنى مدناً ويسك نقوداً وينظم إدارة متكاملة تقريبا ومنسجمة مع أخلاق البلاد.

فبعد أن بوع المبايعة العامة أخذ على عاتقه تنظيم الدولة الجزائرية من جديد فكانت مرحلة الهدوء والاستقرار التي نعمت بها البلاد بين سنتي (1837-1839) فرصة سانحة للأمير لتأسيس دولة وبناء مؤسساتها، وتمكن بفضل حكمته وقوته العسكرية من ترسيخ مبادئ العدالة والمساواة وتوفير الموارد المالية الضرورية لمختلف أجهزته للقيام بالمهام المنوطة بها¹. وفي هذا الصدد يقول "توشي": "كان إصلاحه يرمي إلى وضع أسس وحدة دولة وأن تلك الدولة قد اصطبغت منذ البداية بصبغة جزائرية خاصة"².

سعى الأمير إلى تجنب أخطاء الحكم "العثماني" الذي جعل ممثليه في الجزائر عرضة للخطر وكراهية الناس فعمل على بناء إمارة أساسها إخلاص الحاكم وثقة المحكومين.

كان الاضطرار إلى حماية البلاد وتحقيق وحدتها بإضفاء الصبغة الوطنية هو الذي حمل الأمير لا على هدم الأنظمة الإقطاعية فحسب، بل تحقيق استقلال الجزائريين وخلق سلطة دولة مركزية³.

¹ - حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847)، ج.2، ش.و. ن.ت، 1403 هـ/1983م، ص.39.

• العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.43، ص.257.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص.277-278.

• Bellemare (A.), *Op. cit*, p-p. 218-220.

² - لاکوست، المصدر السابق، ص.257.

³ - العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.258.

• صاري جيلالي، "دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، ص.104.

• المقاطعات الإدارية: قسّم الأمير ما دخل في طاعته إلى إقليمين: مقاطعة تلمسان وولّى عليها محمد البوحميدي الولهاصي، ومقاطعة معسكر (حاضرة الإمارة) وولّى عليها السيد محمد بن فريحة المهاجي، وبعد وفاته تولى هذا المنصب الحاج مصطفى بن أحمد التهامي.

ولمّا امتدّت طاعته إلى ماوراء الشّلف أضيفت إليها مقاطعة مليانة وقد ولى عليها محي الدين بن علال القليعي ولمّا توفي ولى بدله محمد بن علال. ولكل مقاطعة مرسى خاص بها فكان لتلمسان مرفأ "رشكون" ولمعسكر مرفأ "أرزيو" ولمليانة مرفأ "شرشال".

ثمّ دانت له بلاد تيطري فجعلها مقاطعة رابعة وولّى عليها محمد البركاني وجعل حاضرتها المدية.

ثمّ تزايد نفوذ الأمير في الجهات الشرقية والجنوبية، فاتّسع ما دخل تحت نطاقه إلى ما وراء بلاد مجانة قرب قسنطينة شرقا وإلى الجنوب إلى القفر فيما وراء وادي سوف.

وفي الشّمال إلى ما وراء بلاد مجانة حيث جعلها مقاطعة خامسة حاضرتها سطيف، وجعل بلاد الزيبان مقاطعة سادسة وحاضرتها بسكرة، وبلاد الجبال مقاطعة سابعة وحاضرتها برج حمزة¹.

إذن في أواسط سنة 1839 أصبح عدد المقاطعات ثمانية مقسمة على النحو التالي:

1. مقاطعة تلمسان.
2. مقاطعة معسكر.
3. مقاطعة مليانة.
4. مقاطعة تيطري.
5. مقاطعة مجانة.

¹ - ابن عبد القادر محمد ، المصدر السابق، ص.306.

• العربي إسماعيل، ، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.220.

6. مقاطعة الزيبان والصحراء الشرقية.
7. مقاطعة جبال القبائل أو برج حمزة.
8. مقاطعة الصحراء الغربية.

وقد قسم الأمير هذه المقاطعات إلى دوائر، ووضع على كل منها آغا، وهذه الدوائر تشتمل على قبائل وكل قبيلة تحتوي على بطون وعشائر. فجعل على كل قبيلة قائدا، وعلى كل بطن وعشيرة شيخا. فكانت الأوامر الأميرية تصدر عن العمال المعروفين بالخلفاء ومن طرفهم إلى الأغوات ومنهم إلى القواد ومنهم إلى المشايخ. وبالمقابل فالقضايا التي تحدث في الدوائر يرفعها المشايخ إلى القواد وهم يرفعونها إلى الأغوات ومنهم ترفع إلى الخلفاء ثم تعرض على الحضرة الأميرية أينما كان.

هذا في القضايا المهمة وأما في غيرها فإن الخلفاء يفصلونها من دون أن يرفعوها إلى الحضرة الأميرية، وفي وقت الحرب يكون هؤلاء الرؤساء رؤساء عسكرية فيجمع كل منهم جماعة من عشيرته ويحضر بهم إلى القتال¹.

وأمام هذا التنظيم الهرمي الذي يأخذ بعين الاعتبار العلاقات البشرية والأوضاع الاجتماعية العامة السائدة في البلد في ذلك العصر، لم يتمكن الفرنسيون من اختراع ما هو أفضل وأكثر ضبطا منه عندما آل إليهم حكم البلاد فيما بعد فاكتفوا باعتماده كما هو دون أي تعديل يذكر².

3. 1. / خلفاء الأمير

• خلفاء المقاطعات:

كان الأمير شديد التدقيق في اختيار أعوانه الإداريين وولاته بحيث لا يكلف بمسؤولية في إدارته إلا من تتأكد لديه مقدرته ووطنيته وتقواه، وقد أبعد كل من له مركز ونفوذ في الإدارة القديمة.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 307.

² - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص. 223.

ولما كان قصده ربط البلاد بالإدارة الشرعية، لم يستخدم إلا من اشتهر بمعرفة الأحكام، وعرف بالعفاف والإقدام، فاستخدم في إدارة الأمور، من كان ذا حزم وعزم، وقوة شكيمة، من ذوي البيوت المشهورين بالعلم، والفضل وحسن السياسة.

فالخليفة وإن كان يستمد نفوذه الأساسي من لقبه ومركزه في الدولة، فهو أيضا في العادة شخصية ذات مركز اجتماعي قوي في منطقتة، حيث يكون له أنصار وأتباع يعتمد عليهم في مختلف المهام في السلم والحرب¹.

وهذا الاعتبار هو الذي جعل الخليفة غير قابل للنقل من مقاطعة إلى أخرى². وقد استعان الأمير بشخصيات غير معروفة في أكثر الأحيان، نظرا لأصلها الشعبي المتواضع، لأن العبرة في نظره ليس بالأصل بل بالأخلاق والكفاءة³.

وهو في هذا الصدد يقول⁴ :

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري & فليس يريك الرسم صورتنا العظمى
فتم وراء الرسم شخص محجب & له همة تلو بأخصمها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره & ولكن بالعقل والخلق الأسمى
وإن جمعت للمرء هذي وهذه & فذاك الذي لا يبتغي بعده نعي

1 - التّف شعب شرشال حول محمد بن عيسى البركاني الذي تلقب بلقب قائد، وكان من عائلة عريقة سكنت شرشال وبني مناصر وبوصلح، ولها صيت في الناحية كلّها، وكان البركاني رجل حرب، ولكنه كان عندئذ منقطعاً للعبادة، بعيداً عن العالم الخارجي.

وكان البركاني صديقا للحاج محي الدين وعائلته ابن مبارك عموما، تربط بينها علاقات الدين والمصاهرة، وها هي الآن علاقة جديدة تظهر وهي الجهاد ضدّ العدو المشترك.

وبعد ثلاث سنوات في قيادة شرشال التحق البركاني بالأمير عن طريق صديقه الحاج محي الدين وترك مكانه للشيخ محمد السعيد بن عودة الذي قبله أهل شرشال قائدا عليهم.

أنظر: سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.133.

2 - العربي إسماعيل، حكومة الأمير عبد القادر، ص.224.

3 - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.54.

4 - صيام زكريا، المرجع السابق، ص - ص.288-289.

وهكذا اعتمد الأمير في تعيين قاداته وخلفائه أسسا جديدة وقواعد ثابتة، فكان يختار العالمين بمبادئ الدين الإسلامي والشريعة، المتفوقين في ساحات القتال.

لقد توخى أن يوكل في كل مكان تابع لنفوذه رؤساء مرغوبا فيهم لدى الأهالي الذين رؤسوا عليهم: فعين سنة 1832 خليفة في تلمسان عضوا قادريا من مجموعة قبائل الطرارة "البوحميدي الولهاصي"، وعين قائدا له تاجرا من نفس المدينة. وفي مليانة اعتمد سنة 1835، على شيوخ الدين التقليديين للمدينة، سيدي علي الخلادي وسيدي الحاج. وفي المدية نصب رجلا من عائلة "بركان" الذي كانت أسرته مسيطرة وراثيا على أراضي بني مناصر الواسعة النطاق.

كما كان يستعمل - إن اقتضى الحال - عملاء غير مسلمين مثل الإسرائيلي ابن دران، الذي عينه قنصلا في الجزائر، ومثل "مانويل مانونشي" الذي أصبح أكبر الرجال المكلفين بشؤون دولته المالية، كما كان يستعمل رجالا مسيحيين - اعتنقوا الإسلام أم لم يعتنقوه - من أشهرهم صاحب كتابته الخاص "ليون روش"¹.

شغل الأمير عبد القادر جميع المناصب الهامة برجال نبلاء، تقديرا منه للنتائج المثمرة التي تعطيها النظرة الصحيحة للتكوين الطبيعي للمجتمع، واعتبارا منه لتكريم العرب الغريزي للنسب والدم، ولكن أولئك الرجال الذين وقع عليهم الاختيار كانوا في الوقت نفسه يمتازون بالشخصية القوية، والسمعة النظيفة.

فكانوا مثالا في إخلاصهم وتفانيهم مما أوجب طاعتهم واحترامهم، وبذلك شاع بين كل الطبقات، من قمة المجتمع إلى قاعدته، شعور عال بالواجب والاحترام الذاتي، كما بعث العمل بالدين والفضيلة والشرف والأخلاق، التي اختفت أيام الحكومة السابقة².

¹ - لاكوست، المصدر السابق، ص.255.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.156.

يقول بن أشنهو: لقد بنى الأمير إدارته على أسس الدين الإسلامي، والسلطة الحازمة القوية، والاهتمام بالمجتمع وتطويره، وهذا ما سمح ببقائها لمدة خمسة عشرة عاماً¹.

وكان تعيينهم يتم بمراسيم خصوصية تتحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، وتختتم بأعلى سطر منها بخاتم الإمارة، وهو خاتم كبير الحجم، منقوش في دائرته². إذ يتم تنصيب العامل داخل الديوان الأميري، بحضور الحاكم الجديد وعند تسليمه مرسوم التقليد، وتكليفه بمهامه، يسلم خاتماً نقش عليه اسمه ولقبه، ويخلع عليه البرنوس الرسمي المصنوع من الجوخ³، ونوعه يختلف تبعاً لدرجة المنصب الإداري الذي عين فيه، ثم يحلف على صحيح البخاري يمين الطاعة، والعمل بإخلاص، وعدم العدول عن الحق، والصدق في الخدمة مع الأمير والرعية، والتضحية في سبيل الإمارة وشعبها⁴. وتطلق عبارات نارية من بنادق رجال المدفعية الذين اصطفوا أمام الباب أثناء إتمام مراسيم التعيين.

وكان يعين في كل دائرة قاض من العلماء الذين اشتهروا بالتقوى والعلم والفضل مهمته الفصل في القضايا طبقاً لأحكام الشريعة، على مذهب الإمام مالك، وجميع القضاة يخضعون لسلطة قاضي القضاة في الإدارة المركزية، ويتبع كل قاض عدلان، أحدهما يقوم مقام المفتي.

وللقضاء على الفساد والرشوة وطرق ابتزاز أموال الشعب خصّصت حكومة الأمير مرتبات لجميع الموظفين تدفع إما مالا عيناً أو مواد تموين، وقد كان مرتب الخليفة وهو أعلى مرتب في الإدارة 110 دور و (550 فرنك) وتقديم الطعام للزوار وعابري السبيل. وأما الأغا فيحصل على عشر ما يجمعه من الزكاة والضرائب⁵.

¹ - Benhachenhou (A.), *Op. cit*, p.70

² - أنظر ملاحق رقم 05 - 06، "مرسوم تعيين خلفاء المقاطعات"، "نص نموذج مرسوم التولية للسيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى الأغواطي".

• حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.52.

³ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.147.

⁴ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.307.

⁵ - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص.224.

وقد تعين على رأس المقاطعات الخلفاء الأتية أسماؤهم:

♦ مقاطعة تلمسان & محمد البوحميدي الولهاسي¹.

♦ مقاطعة معسكر & محمد بن فريحة المهاجي، وبعد موته تولى ابن عمه مصطفى بن أحمد التهامي.

♦ مقاطعة مليانة & محي الدين بن علّال القليعي ولما مات تولى محمد بن علّال² (أحد أقاربه)

♦ مقاطعة تيطري & محمد البركاني³.

♦ مقاطعة مجانة & محمد بن عبد السلام المقراني ثم السيد محمد الخروبي القلعي⁴ ثم محمد بن عمر العيسوي.

¹ * **البوحميدي الولهاسي**: أحد أبطال المقاومة الوطنية، عرف بالصدق في الوطنية، والحلم في المعاملة، والإخلاص في العقيدة، وأصله من قبيلة ولهاسة، يكبر الأمير بأربع سنوات وقامته تزيد على قامته قليلاً، متفقه في علوم الدين، مشهور فيها، نحيف قوي العضلات، ذو لحية سوداء كثيفة، وهومن أنذر الفرسان، صاحب كفاءة دقيقة، شجاع، له نظرة حارة، وبديهة حاضرة، وقد جمع بين العلم والبطولة، فلم يكن يحب شيئاً مثل حبّه لكتبه وسلاحه.

أنظر: خرفي صالح، المرجع السابق، ص - ص. 54-55.

² - **محمد بن علّال**: من أنشط خلفاء الأمير، بقي يحارب في صفوفه، ويؤيده في جهاده، وقد جمع بين الشجاعة والسياسة وبين الحسب والنسب، والجهاد والشهادة.

وبالنسبة لاستشهاده: لما شغلت الزمالة إلى بلاد الحسانة، سنة 1843، وجّه بوجو قوة بقيادة "تامبور" لمطاردته وقد انتهت الواقعة بمقتله واستشهاده، وقد ولى الأمير بدله ابن أخيه قُدّور بن علّال وهذا في 28 شعبان 1259هـ/22 أفريل/1843.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، صفحات، 306، 337-338، 369-373.

³ - **محمد ابن عيسى البركاني**: من أعزّ أصدقاء الأمير وأقوى خلفائه، حارب تحت لوائه مدة طويلة، حتّى سنة 1837، وبعد استسلام عبد القادر، أخذ نفوذٍ يضعف بين القبائل، إثر ذلك هرب إلى الصحراء، ليعود ويقضي أواخر أيامه في "تازة".

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 300.

⁴ - **الحاج محمد الخروبي القلعي**: كان كاتباً للأمير في ابتداء إمارته ثم جعله خليفة له في إيالة "سطيف" ووقع في أسر الفرنسيين ثم أطلقوا سراحه، فلحق بالمشرق، فحج واستوطن دمشق، ثم انتقل إلى بروسة، ولم يزل مع الأمير فيها وفي دمشق إلى أن توفي سنة 1276هـ/1862، والأمير إذ ذاك في الحجاز.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج. 2، ص. 594.

♦ مقاطعة بسكرة والصحراء الشرقية & فرحات بن سعيد¹ ثم الحسن بن عزوز² ثم محمد الصغير بن عبد الرحمان بن أحمد بن الحاج.

♦ مقاطعة الصحراء الغربية & قدور بن عيد الباقي.

♦ مقاطعة برج حمزة & أحمد الطيب بن سالم التبسي³.

والخلفاء أو الولاة تختلف مراتبهم ودرجاتهم وفقا لأهمية الولاية التي يحكمونها، فعلى حسب جسامه المقاطعة أو الخطة تكون مكانة الحكام في الشرف والشهرة.

فولاية تلمسان كانت تعتبر أهم الولايات تليها ولاية معسكر، ثم ولاية مليانة فولاية المدية، وقد كانت جميع الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كبير، ومن ثم فإن الخليفة كان محاطا دائما بهالة من التقدير بوصفه شخصية دينية وعسكرية وسياسية في آن واحد.

والخليفة يظل يحتفظ بمركزه ومكانته عند الأمير وبين شخصيات الدولة حتى بعد سقوط عاصمته وذهاب منصبه.

¹ - فرحات بن سعيد: هو فرحات بن أحمد بن محمد السخري، نشأ عند عمه سيدي خالد وهو من الذواوذة، وأمه رجاجة بنت الشيخ ابن الحدار ضرة أم هاني التركية. تولى شيخا للعرب بدل أبيه سنة 1821، ازداد نفوذه في الصحراء كلها شمالها وجنوبها، وكان التنافس حاد بين أسرته وأسرة بن قانة، وعندما تولى أحمد باي عزله وولى مكانه صهره بن قانة، ولهذا كان دائما يسعى للإطاحة به، فتحالف مع الفرنسيين ضده، ومن قبلهم مع ابراهيم باي، وعندما لم يستجب كل منهما لندائه، اتصل بالأمير عبد القادر، وبعد مفاوضات اعترف به شيخا على العرب وأمدّه بالسلاح والتأييد، ويبدو أنه حارب الفرنسيين وأحمد باي بدافع شخصي لا وطني، وما زالت حقائق كثيرة مجهولة حول هذه الشخصية. أنظر:

• خير الدين، المصدر السابق، ج.1، ص.54.

• سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث - بداية الإحتلال، ص - ص. 95-96.

² - الحسن بن عزوز: ينتمي إلى أسرة بن عزوز الدينية، ذات الشهرة والمكانة في إقليم الزيبان، قدمت من الناحية الغربية، واستقرت في واحة البرج قرب واحة بسكرة.

³ - أحمد بن سالم: ينتمي إلى أسرة عريقة من المرابطين في منطقة القبائل، وكان له دور كبير في المقاومة تحت لواء الأمير، وقد اشتهر بعلمه وفضله وتقواه. عينه الأمير خليفة على المنطقة سنة 1837، وظل يجاهد تحت إمرته مدة عشر سنوات، وفي سنة 1847 سلم نفسه إلى الفرنسيين بسور الغزلان.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 282. 285.

أما خلفاء الأمير في الأقاليم الأربعة الجديدة فأمرهم يختلف نوعا ما، فقد كان بعضهم لا يحكم إلا مدة قصيرة، وكان بعضهم الآخر لا يتمتع بصيت ونفوذ قوي، مما جعل سلطة الأمير لا تنفذ ولا تحترم كما نفذت واحترمت في الأقاليم الأربعة الأولى. حيث لا يتمتعون بسلطة شخصية أو إدارية أو دينية تجلب لهم طاعة الناس. ومثال على ذلك الحاج العربي بن الحاج عيسى الذي لم يستطع أن يوطد سلطة الأمير على الأغواط وما جاورها من الصحراء الغربية، وكان على الأمير أن يستبدله بغيره أمام عجزه عن جلب أو تحييد أحمد بن سالم ومحمد التيجاني. عكس الخليفة أحمد الطيب بن سالم الذي كان ورعا قويا الشكيمة استطاع أن يبسط إدارته بكل قوة وجدارة على المنطقة التابعة له.

وبالنسبة لوظيفة هؤلاء الخلفاء فقد كان الخليفة هو الممثل المباشر للأمير في الإقليم الذي فوض له إقرار سلطته عليه حيث تتحدد مهمته في مراقبة تحرك الأغوات وجمع الضرائب والزكاة عبر ولايته حيث يكلف الأغا بجمعها ثم يقوم بتسليم نصيب بيت المال منها إلى الأمير¹.

والضرائب والزكاة تجمع مرتين في السنة، ولمراقبة عملية تحصيلها يسير الخليفة على رأس قوة من جيشه، ويقوم بجولة في مختلف أطراف الولاية ليتفقد الأحوال ويتلقى شكاوي الناس التي يحول ما يستحق التحويل منها إلى ديوان الأمير. والزكاة تدفع نقدا بالمال العين أو بالحبوب والحيوانات لتستعمل في تموين الجيش أما الفائض من الحيوانات كالبقر والغنم فتوضع وديعة لترعى عند القبائل وتستعاد في وقت الحاجة.

وأما الخيل فتوزع على الجيش أو تعطى للقوم، والباقي يودع أيضا عند القبائل، وأما الفائض من القمح والشعير فيحفظ في المطامير في أراضي بعض القبائل تحت مسؤولية القائد. وبفضل هذه المطامير الموزعة في مختلف أنحاء المملكة، يضمن الجيش في حله وترحاله ما يحتاج إليه من التموين، دون أن يضغط على موارد السكان في المنطقة التي يحل بها.

¹ - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص.224.

• Benhachenhou (A.), *Op. cit*, p.84 .

كما تستعمل هذه المخزونات لمساعدة الأهالي والتخفيف من أزمة توفر المواد الغذائية في سنوات القحط. وهذا التنظيم المحكم كان يقوم بوظيفته على أكمل وجه، الخليفة في أوقات السلم، أما في حالة الحرب يصبح كل شيء عرضة للنهب¹.

ويحتفظ الخليفة بجيش في ولايته يوفر له المؤن والذخيرة كما يتولى مهمة الإشراف على التحصينات وإقامة المنشآت العسكرية الضرورية وشراء الأسلحة. وهذه القوة من جيشه النظامي هي التي ترافقه في تنفيذ المهمات الموكلة إليه خاصة فيما يتعلق بمراقبة تحصيل الضرائب حيث تتعرض القبائل التي ترفض دفع المتوجب عليها للملاحقة والحصار والقتال.

ونظرا لحرص الخليفة على إقرار النظام في مقاطعته فإنه كان يطلع بنفسه من أغوات الدوائر على سير إدارتها، وينظر في المسائل القضائية المهمة ويفصل فيها. وهكذا تمتع خلفاء الأمير بكفاءة عالية في إدارة مقاطعاتهم في حالتي السلم والحرب، والأمثلة على ذلك كثيرة والشهادات مختلفة.

فالأمير عندما عين الحاج السعدي خليفة عنه في المنطقة الممتدة من سهل متيجة إلى ناحية الشرق، وقيامه بمهمته خير قيام أدى ذلك إلى زيارة الأمير لبلاد القبائل أواخر سنة 1837.

وبالنسبة للوالي بن سالم، فشهادة قادة الفيالق الذين التحقوا به - بعد سقوط المدينة - بأنه قد لحقهم فقر شديد، وأنه استهلك كل ما لديه حتى ثيران الحرث كطعام لهم، ولم ييخل بما لديه، وهو الذي كان من الأغنياء في سبيل قضية بلاده، وكان يطمئن الناس ويبعث فيهم الثقة، بعد عدم تلقي أي خبر عن الأمير ومنطقة الغرب بكاملها، حيث كان يذكرهم ويخطب فيهم بأن الأمير لا يزال على قيد الحياة وقد بايعناه في السراء، فينبغي أن نضل له أوفياء في الضراء².

¹ - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص - ص. 224 - 225.

² - عوض صالح، المرجع السابق، ص. 122.

حيث نجد أن أحد الضباط الفرنسيين بعث برسالة إلى المارشال "دي كاستلان" سنة 1842 مضمونها أنه لا بد وأن يفصل خلفاء الأمير عنه فلو أننا وقفنا في استمالة بن علال والبركاني وبين سالم لحصلنا على ما نبتغيه من السلم.

وفي هذا الإطار حاول "بيجو" استمالة بن علال أواخر سنة 1842 حيث عرض عليه ألف فرنك وإعادة أملاكه الواسعة إليه ومعاشا سنويا قدره خمسين ألف فرنك بشرط أن يستسلم لفرنسا ويقيم بمدينة الجزائر والقلعة مسقط رأس عائلته.

فكان جواب الخصم الأنوف. كما يسميه "شانغارني": "ليكن في علمك أنني أحكم وأقاتل ضمن منطقة تمتد من جبل دخلة إلى وادي فضة، وماذا أراك تعرض علي مقابل هذا الحكم الذي أمارسه لإعلاء كلمة الله وفي خدمة سيدي السلطان عبد القادر، أراك تعرض علي أملاكي تلك الأملاك التي سوف أستعيدها بالبارود... وتعرض علي المال والخيانة...".¹

ورغم كفاءة هؤلاء العمال واستيفاء شخصهم للشروط المقررة أثناء اختيارهم وتعيينهم إلا أن هذا لم يمنع الأمير من متابعتهم ومراقبتهم فهو لم يكتف بسلوكهم الظاهري بل كان يستعلم عنهم جميعا حتى لا يقدموا على أية هفوة تمس الدولة و الرعية.² وكان مناديه في غالب الأوقات ينادي في الأسواق أن من له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد أو شيخ فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة فإن الأمير سينصفه من ظالمة وإن لم يرفع ظلامته فلا يلومن إلا نفسه.³

¹ - عوض صالح، المرجع السابق، ص.125.

• أنظر: شانغارني، المذكرات، ص.219، نقلا عن: الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.125.

² - حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.52.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.307.

إن تصريحاته وكتابه التي خلفها تدل على شخصية واعية مدركة تمام الإدراك للوضع السياسي آنذاك ومن هذه التصريحات ما ذكره رداً على بيجو عندما وجّه خطاباً لأهل القبائل قائلاً لهم:

"إن فرنسا تريد اليوم أن تحكم بلادكم لكي تعيشوا في نعيم، ولكي يتمتع كل واحد منكم بثمرة عمله، وبرزقه بدون خوف من أن يجردّه أحد من ماله... ولتعلموا بأن فرنسا دولة كبيرة وقوية، وسوف تصبحون معها كباراً أقوياء"¹.

فكان ردّ بن سالم أن: "لا تتخذوا أيها الجزائريون، ولتعلموا أنّ فرنسا دولة قوية، وما أرسلت قواتها إلى هذه البلاد إلا من أجل احتلالها بأكملها، إنها لا تصرف كل هذه الأموال الطائلة ولا تضحى بأبنائها، إلا لكي تخضعنا جميعاً لسيطرتها وما أنا إلا مواطن مثلكم، وربما لم تسمع بي فرنسا أبداً، إن الوسيلة الوحيدة لإيقاف هؤلاء الغزاة هي أن تقاؤهم متحدين وبدون هوادة وأن تعاقبوا الخونة الذين رضوا بالذل واستسلموا"².

ومما يدل أيضاً على يقظة خلفاء الأمير ما صدر عن ليون روش من تصرف عندما قرّر مغادرة معسكر الأمير، فقد أخذ خاتمه بصفته كاتباً له، وعدداً من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخادع كل من يعترض طريقه، لأنه يعلم أنه مهما كان عاملاً في صفوف الأمير فلا بدّ وأن يقدم لخلفائه الدليل على ذلك، وهذا غاية في الحزم والمراقبة والدقّة الشديدة³.

وقد لاحظت السلطات الفرنسية مدى فاعلية هؤلاء الخلفاء بالنسبة لإدارة حكومة الأمير ونفوذها فعملت كل ما في وسعها لاستمالتهم إلى صفّها نظراً لعدم كفاءة أعوانها.

¹ - Daumas (E.), La Grande Kabylie, p.249 .

• نقلاً عن الأشرف مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ص. 123 .

² - Daumas (E.), Op. cit, p-p 258-259.

• نقلاً عن: الأشرف مصطفى: المرجع السابق، ص. 124.

³ - مناصرية يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847)، م.و.ك، الجزائر 1990،

حيث نجد أن أحد الضباط الفرنسيين بعث برسالة إلى المارشال "دي كاستلان" سنة 1842 مضمونها أنه لا بد وأن يفصل خلفاء الأمير عنه فلو أننا وفقنا في استمالة بن علال والبركاني وبن سالم لحصلنا على ما نبتغيه من السلم.

وفي هذا الإطار حاول "بيجو" استمالة بن علال أواخر سنة 1842 حيث عرض عليه ألف فرنك وإعادة أملاكه الواسعة إليه ومعاشا سنويا قدره خمسين ألف فرنك بشرط أن يستسلم لفرنسا ويقيم بمدينة الجزائر والقلعة مسقط رأس عائلته.

فكان جواب الخصم الأنوف. كما يسميه "شانغارني": "ليكن في علمك أنني أحكم وأقاتل ضمن منطقة تمتد من جبل دخلة إلى وادي فضة، وماذا أراك تعرض علي مقابل هذا الحكم الذي أمارسه لإعلاء كلمة الله وفي خدمة سيدي السلطان عبد القادر، أراك تعرض علي أملاكي تلك الأملاك التي سوف أستعيدها بالبارود... وتعرض علي المال والخيانة...".¹

ورغم كفاءة هؤلاء العمال واستيفاء شخصهم للشروط المقررة أثناء اختيارهم وتعيينهم إلا أن هذا لم يمنع الأمير من متابعتهم ومراقبتهم فهو لم يكتف بسلوكهم الظاهري بل كان يستعلم عنهم جميعا حتى لا يقدموا على أية هفوة تمس الدولة و الرعية². وكان مناديه في غالب الأوقات ينادي في الأسواق أن من له شكوى على خليفة أو آغا أو قائد أو شيخ فليرفعها إلى الديوان الأميري من غير واسطة فإن الأمير سينصفه من ظالمه وإن لم يرفع ظلامته فلا يلومن إلا نفسه³.

¹ - عوض صالح، المرجع السابق، ص.125.

• أنظر: شانغارني، المذكرات، ص.219، نقلا عن: الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.125.

² - حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.52.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.307.

مع ذلك فإنّ هذا لا يعني أنّ هناك استبدادا من طرف الأمير في ممارسة سلطته على خلفائه فطاعة هؤلاء لم تكن مطلقة وفي جميع الظروف حيث يبدو أحيانا أنّ قرار الأمير ليس وجيها فيعارض بكل حرية وربما اتخذ قرارا يتعارض وقراره¹.

وخلاصة القول فيما يتعلق بالإدارة التي أسسها الأمير ومدى انسجامها وكفاءتها ما ذكره "بوجولا" الذي تحدث سنة 1844: "إن فرنسا اتبعت في الأعماق مثال الأمير عبد القادر إزاء الأهالي فجعلت وظائف الخلفاء والأعوان كما فعل هو، فكان على كل إقليم من الأقاليم الثلاثة جنرال، تحته مجموعة من الخلفاء والأعوان في شكل مناطق خاصة بهم، كانوا يتراسلون مع المكاتب العربية التي كان على رأس كل منها ضابط فرنسي يمثل فرنسا لدى السكان"².

¹ - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص.224.

• ومثال تعارض قرار الخليفة مع قرار الأمير عندما تنازل هذا الأخير بموجب أحكام معاهدة "تافنة" للفرنسيين عن القليعة والبليدة، نجد الخليفة بن علال رفض تسليم المدينتين للعدو.

² - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.229.

3. 2/ مكانة القضاء:

كان الأمير حريصاً أشد الحرص على إقامة الحق، ونشر لواء العدل بين عموم الرعايا، فكان تنظيم العدالة شغل الحكومة الدائم لأنها العامل الأساسي لتثبيت سيادتها على كافة الأراضي التابعة لها، وضمان حقوق مواطنيها.

وقد أشرف الأمير على تعيين القضاة، فعين في كل عمالة، وكل دائرة واسعة الأجزاء قاضياً عالماً، يشترط فيه أن يكون فقيهاً نزيهاً، مشهوراً بالعفاف والتقوى والتحرري في دينه، وربط إدارة مجموع القضاة بمراجعة العلامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراهي (رئيس مجلس الأمير الخاص). وقد عين لكل قاض كاتبين، أكبرهما يقوم مقام المفتي في مطالعة الفتاوى التي تجري الأحكام على مقتضاها، باعتماد المذهب المالكي في فصل القضايا¹.

وقد قسم الأمير القضاء إلى مدني وعسكري، وخص له راتباً شهرياً وإضافات مالية لقيام القضاة بواجباتهم الخاصة، وقد كان القرآن هو المرجع الوحيد للقضاء بصفة عامة.

القضاء المدني: فرض عبد القادر على خلفائه فئة من العلماء والفقهاء المتميزين بالعلم والنزاهة وتوزيعهم على المقاطعات الإدارية للإفتاء في الدعاوي والفصل في الخصومات وقد ألحق بكل مجلس إقليمي كاتبين - كما سبق ذكره - يقوم الأكبر منهما بدراسة الفتاوى التي تصدر عن القاضي، فيبث في الثانوية منها ويحيل الأساسية إلى معسكر للحكم فيها².

القضاء العسكري: يشرف عليه السيد بن عب بن مصطفى المشرفي في معسكر حيث عين في كل كتبية قاضياً يساعده مسؤولون في إصدار الأحكام وتنفيذها، أحدهما أمر مخفر الشرطة العسكرية.

1 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 309.

2 - حرب أديب، المرجع السابق، ج. 2، ص. 46.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 309.

وقد كان القضاة سواء المدنيين أو العسكريون، ينتخبون لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد مرات عديدة شرط اجتيازهم امتحان الكفاءة، وعدم ارتكابهم أخطاء جسيمة مهينة للوظيفة¹

وقد انحصرت صلاحياتهم في القضايا المتعلقة بالأمر الشخصية، وكان يطعن في أحكامهم أمام مجلس الشورى بمعسكر الذي يفصل أيضا في المسائل التي تمس المجتمع وفي الجرائم الموجهة ضد أمن الدولة.

وفي الحالات الدقيقة كان الأمير يستفتي الفقهاء ولا يتردد في طلب أهل العلم في فاس والقاهرة.

وعن التنظيم المالي للقضاء أقام الأمير نظاما قضائيا جديدا حيث صار القضاة موظفين رسميين بعد أن كان هذا مفقودا في العهد العثماني بالجزائر وحتى في تونس والمغرب الأقصى. فالقاضي في نظام حكومة الأمير يتلقى مرتبا شهريا قدره 10 درو أو ما يعادل خمسون فرنكا إضافة إلى رسوم يتلقاها عند ما يبرم أنواعا معينة من العقود.

وبالنسبة لتنفيذ الأحكام فقد كان يجري القصاص الشرعي والسياسي على أصحاب الجنايات بما يستحقونه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، وكان الناس يقبلون أحكامه ويتلقونها بانسراح وطيب خاطر. وكان يقوم بنفسه بالنظر في العرائض والقضايا ومتى كانت الشكوى تقوم على أساس كان الحكم بشأنها سريعا في صالح المتظلم وإذا كانت الشكوى مفتعلة فإن العقاب ينزل بصاحبها حتى لا يستنفذ وقتا في شكاو عابثة.

وإذا كان الحكام الأتراك من قبل يحكمون بالموت تبعا للنزوة والغلظة فإن الأمير لم يسمح بأي تنفيذ للإعدام إلا بعد حكم مطابق للسرعة حيث لا يعتبر نفسه سوى منفذ لها.

ومتى أصدر الأمير حكما كانت هناك إشارات، فمتى حكم بالجلد استخدمت العصا بكفاءة، وعندما تكون الغرامة هي العقاب يرسل جماعة لاستخلاصها مباشرة ومتى تعذر استخلاصها نقدا عاد الجنود بالجياد والبقر والماشية التي تساوي المبلغ المفروض.

¹ - حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.46.

• Bellemare (A.), *Op. cit.*, p-p 238-239.

أما الأحكام التي يصدرها القاضي فيقوم الشاويش بتنفيذها حالاً، ويراعي في الأحكام المتعلقة بالقضايا الجنائية التي تتسم بالصرامة أن تكون رادعة. ومتى صدر الحكم بالإعدام في حق مذنب يقاد في الحال إلى غرفة التنفيذ التي احتفظت باسمها التركي "باش عودة" أو كما تسمى "بيت الرؤوس".

ويلخص لنا الأمير عبد القادر النظام الذي أقامه حفظاً للأمن وإقراراً للعدل بقوله: أنه لا شك أن كثيراً قد عانوا من نظامي هذا، ولكن لم يعان أحد من دون حكم شرعي وجميعهم قد ارتكبوا نوعاً من الجرائم أو خانوا دينهم".

إن شريعتنا صريحة في أن كل من أعان عدواً ببيضائه فقد أحل ببيضائه وكل من أعانته بسلاحه فقد أحل حياته.

ويقارن اسكوت بين حكومة الأمير وحكومة المغرب في مجال تطبيق العدل ونشر الأمن فيقر أن الفرق بين كفاءة كل منها في قمع الجرائم شاسع، فالأمير محبوب ومحترم من طرف الجميع ولكن اللصوص يفرعون منه أشد الفزع لأنه صارم وسريع في تنفيذ الأحكام.

التعليم:

إن المجهود الثقافي الذي قام به الأمير عبد القادر هو مجهود معتبر إذا ما روعيت ظروف المقاومة وعدم الاستقرار العسكري والعمراني¹. ويأتي اهتمام الأمير بالتعليم من منطلق أنه منحدر من أسرة عريقة في العلم، فاهتم بإنشاء الزوايا في مختلف أنحاء البلاد وجعل منها العمود الفقري لنظام التعليم فكان يزودها بالمعلمين ويمدها بالمساعدة بالمال وبالمواد الغذائية.

وهذه الزوايا بدورها كانت تساند نظامه حيث تشكل مركزا للتربية والتعليم ومنابر بث الدعوة إلى الجهاد في المناطق التي تقع فيها². وكانت خيمة العلم في معسكرات الأمير من أكبر الخيام وأبهاها وكانت لا تمر ليلة من ليالي الكفاح دون تنظيم حلق للدراسة والمباحثة والمطالعة الجماعية.

وكان العلماء والأدباء والفقهاء الذين يحيطون به من أحب الناس إليه وكان يخفض الطرف عن زلاتهم وربما تردد في إجراء العقوبات على أعدائه من رجال العلم مدركا أن تكوين العالم نتيجة مجهودات الأمة جمعاء وبالتالي لا يمكن أن تحطم بالحكم السريع. وبما أنه عالم متضلع في الدين واللغة العربية فلا غرو أن يعتني بعناية خاصة بالكتب ويعمل جاهدا بمختلف الوسائل للمحافظة عليها.

¹ - مزيان عبد المجيد، "عبقريّة متكاملة"، ص - ص 6-7.

² - العربي إسماعيل، "حكومة الأمير عبد القادر"، ص 226.

3. 3/ نظام التعليم:

لم يكن اهتمام الأمير بالعلم والتعليم محصورا في شخصه أو ذويه فحسب، بل أراد أن يوجه هذا الاهتمام لجميع أفراد الأمة الجزائرية فاجتهد في وضع أسس نظام تعليمي هدفه المحافظة على وحدة الثقافة العربية الإسلامية وتماسكها بالمحافظة على تراث الجزائريين وتغذيتها في حركة الكفاح ضد الاستعمار¹.

فكان من بين اهتماماته إنشاء نظام للتعليم العام بين القبائل جميعا وأصبح التعليم لأول مرة مهمة حكومية فقد رتب الأمير في سائر المدن والقرى علماء لتدريس فنون العلم المختلفة وأمر بطلب العلم واحترام أهله.

وقد عبر عن هذا بقوله: *إن واجبي كحاكم أن أؤيد وأبعث العلوم والدين لذلك فتحت المدارس في المدن وبين القبائل، وفي هذه المدارس كان الأطفال يتعلمون الصلوات ويحفظون تعاليم القرآن وعروضه ويعرفون جيدا القراءة والكتابة والحساب*.²

وصارت الدولة التي أسسها رجل مثقف تجرى النفقات على الطلبة القائمين بالتعليم، وتعين مرتبات للعلماء على حسب طبقاتهم. وقد تم تيسير جميع السبل لتحصيل العلم فبذلت أقصى الجهود للمحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع فقد أعطى الأمير أوامره المشددة في جميع المدن والقبائل أن يبذلوا عناية قصوى بها وأن كل من وجد يـتلف أو يفسد مخطوطا يجب معاقبته معاقبة شديدة على أساس أن الكتب قليلة في البلاد وعدد الطلبة كثير².

وقد كان الجنود يعرفون مدى اهتمام الأمير بهذا الموضوع فكانوا يحرصون على إحضار كل ما تقع عليه أيديهم من مخطوطات أثناء الغزوات وذلك بعناية فائقة وكان هو بدوره يعطيهم جوائز قيمة إثارة لحماسهم وتشجيعا لهم. وبفضل هذه العناية تجمع للأمير عدد

¹ - Azan (P.), L' Emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.135

• Bellemare (A.), Op. cit, p-p. 237-238.
• Julien (Ch.A.), Op. cit, p.179.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.152.

لا بأس به من المخطوطات وضعت في أماكن أمينة في الزوايا والمساجد وأكلها إلى الطلبة الذين كانوا محل ثقته¹.

من جانب آخر كان يشجع الطلبة على تحصيل العلم ويكافئهم على نشاطهم فيه وذلك بتقديم امتيازات خاصة بهم من بينها:

- تخصيص رواتب لهم على حسب معارفهم ودرجاتهم.
- العفو عنهم حتى لو كانوا مجرمين محكوما عليهم بالموت.
- إصدار الأوامر باحترامهم واستثنائهم من جميع الخدمات.
- إكرام النجباء منهم بعد امتحانهم في الفن الذي يتعاطونه والإعراض عن المتهاونين فيه.

فكانت النتيجة أن انتشر العلم في جميع المقاطعات وأقبل الناس على تعليم أولادهم فكثر النفع وعمت الفائدة².

3. 3. 1 / مراحل التعليم:

ذكرنا أن التعليم على عهد الأمير أصبح مهمة حكومية وخلال فترة السلام (1837-1839) أصبح موكلا لفقهاء القبائل والزوايا في مراحل الابتدائية والثانوية والعالية. وقد خص الأمير كافة المعلمين برواتب ثابتة نقدا أو عينا، ومنح الطلبة المتفوقين مبلغا ماليا لمتابعة التحصيل في الصفوف العالية.

وقد عرف التعليم على عهده مراحل ثلاث:

- **الطور الأول:** مرحلته أربع سنوات يتعلم الطفل خلالها القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وفي كل قرية كانت هناك خيمة تدعى "الشريعة" يشرف عليها مؤدب يختاره سكانها وينال فركين أجره في اليوم³.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 153.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 309.

³ - سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال، ص - ص. 158. 163.

• حرب أديب، المرجع السابق، ج. 2، ص. 70.

جامعة الأمير
عبد القادر للعظيم الإسلامية

تحدث في مناطقها فضلا عن يقظة جهاز الشرطة مما جعل الطرق آمنة تماما وأصبح الناس آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم¹.

وفي هذا الصدد يقول الأمير: "... فرغم وجودي بين شعب يعيش تحت الخيام وكان من الصعب أن يدار وأن يوجه لاتساع المساحة التي كان منتشرا فيها، فقد استطعت أن أصل إلى عهد أصبحت فيه سرقة الخيول بالليل غير معروفة، وأصبحت المرأة تستطيع أن تخرج وحدها دون أن تخاف المهانة وعندما يعلق الناس على هذه النتيجة الكبيرة ويطلبون السبب كان العرب يجيبون: إن مصائد السلطان منصوبة وليس هناك حاجة لنصب مصائدنا الخاصة"².

هذا بالنسبة للأمن وأما العدل فإن النظام القضائي الذي كان مطبقا وناظرا بأحكامه كان كفيلا بتحقيقه بين أفراد المجتمع.

تهذيب الأخلاق: إجتهد الأمير في تهذيب الأخلاق وإصلاح الآداب العامة، محاولا بذلك إرجاع الجزائريين إلى طريق القرآن الذي ابتعدوا عنه كثيرا، فالعهر قد حورب بشدة، ومنع استعمال الذهب والفضة في ثياب الرجال منعا باتا لأن هذا يؤدي إلى التبذير والتحلل حيث لم يسمح إلا بتزيين الأسلحة والسروج.

أما النساء فإن المنع لم يشملهن، لأن الجنس الضعيف يحتاج إلى تعويض عكس الرجل الذي في إمكانه أن يتمتع بجميع أنواع الملذات التي يرغب فيها كالحرب والصيد والأشغال الفكرية.

¹ - Azan (P.), L'Emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.134.

• Julien (Ch.A.), Op.cit, p.179.
• Bellemare (A.), Op.cit, p-p.239-241.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.153.

• العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.222.

ومثال على ما يدل على انتشار الأمن وتحققه ما رواه الكولونيل أسكوت أنه سقط جمل من التعب وترك وعليه شحنة أوصلها إلينا رئيس إحدى القبائل العربية دون أن يسرقه أحد.

أنظر: الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.49.

وبالنسبة إلى الخمر والميسر فقد منعها الأمير منعاً باتاً كما منع التدخين ليس لأن الدين يمنعه فحسب ولكن لأن الجنود كانوا فقراء فحرص على إبعادهم عن عادة معروفة بزيادة الفقر والتي أوصلت العائلات إلى الجوع والهلاك. مع ذلك بقي بعض الناس يدخنون ولكن في مناسبات فقط وفي سرية أيضاً ولقد حققت هذه الخطوة كسباً كبيراً. أما المرابطون والطلبة وكل من له علاقة بالحكومة فقد أبطلوا عادة التدخين تماماً. وبالنسبة إلى الصلوات الخمس أمر الأمير أن تكون في المساجد ومن وجد في دكانه وقت الصلاة يجلد، وقد منعت النساء من إتيان المساجد نظراً لظروف الحرب¹.

كان الأمير عبد القادر لا يفرض شيئاً على الجزائريين حتى يفرضه ويطبقه على نفسه ممتثلاً للآية الكريمة: " أتأمرون الناس بالبر وتتسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون"². محققاً بذلك النموذج الاجتماعي والقوة الحسنة لأفراد مجتمعه. وقد كان يلبس الثياب البسيطة ليس تميزاً أو خوفاً من ضربات العدو والقبائل، وإنما ليظهر لجنوده خاصة أنه من الأفضل أمام الله عز وجل أن نشترى سلاحاً وذخيرة وخيلاً للحرب بدلاً من أن نكون بزينة جميلة وغالية ولكن غير مفيدة.

• المرافق الاجتماعية:

من الأمور التي أحدثها الأمير وحاز بها الفضل على من تقدمه من ملوك المغرب عنايته بالطب وإنشاء المارستانات لمرضى العسكر في كل المقاطعات وعين في كل مارستان أربعة أطباء يرجع أمرهم إلى طبيب حضرته العلية "أبو عبد الله الرزوالي"، وكان ماهراً في علم الطب وشهد له أهل الخبرة بذلك، وكان عالماً بخواص الأعشاب على اختلاف صنوفها وكان يخرج الرصاص من داخل العضو المصاب بسهولة دون ألم. وأثناء الحملات الحربية يصاحب القادة العسكريين أطباء من المشافي الميدانية.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.310.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.154.

• العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.222.

² - سورة البقرة ، الآية 44.

وعني الأمير عناية خاصة بالعلوم، فقد استدعى الأطباء من فاس والرباط وتونس لكي يديروا المستشفيات في مختلف المناطق ويدرسوا وينقلوا العلوم الطبية في المعاهد للشباب المتفوقين.

وكان يرافق هذا النشاط الطبي أنشطة أخرى في الفيزياء والكيمياء وعلم النبات وتركيب الأعشاب المفيدة وصنع العقاقير منها¹.

كما بنى دار الضيافة لاستقبال الوفود في الحضرة (معسكر) وأقام ناظرا عليها من أمناء دولته وكان ينزل الناس فيها على حسب طبقاتهم وتقدم لهم المأكل والمشرب على حسب مقامهم².

• الإحتفال بالمناسبات:

أ. صوم رمضان: يحتفل بهذه المناسبة بكثير من البهجة والسرور حيث تطلق أعيرة نارية في جميع أنحاء المدينة، ويقضي الناس أيام رمضان في مرح وحبور واستمتاع على مختلف طبقاتهم³.

ب. الإحتفال بالمولد النبوي: كان يحتفل به احتفالا عظيما، حيث يخرج الأمير يوم المولد النبوي الشريف هو وخاصته وأمراء جيشه إلى أرض فيحاء متسعة، ثم تصنع العسكر فيها شبه محاربة بحيث تقف العسكر المشاة المنظمة كهيئة قلعة مربعة الأركان ويصنعون ما يحتاجون إليه من البارود والذخائر وسط تلك القلعة في كل ركن من أركانها مدفعين، ثم تأتي فرقة من الخيالة فتحيط بتلك القلعة، فتخرج إليها شردمة منها لتردها عنها فتبتعد عن القلعة نحو عشر دقائق وتطلق البارود على الخيول المقابلة لها فتهمج الخيول عليها وتطلق النيران حتى تدخل القلعة وتقف في مكانها التي خرجت منه. ثم تطلق عساكر القلعة النيران المتتابعة على تلك الخيول وتطلق مدفعا أو مدفعين من الركن الذي يليها فتراجع الخيالة عنها، ثم تخرج شردمة من الجهة الثانية إلى ما يليها من الخيالة فتهمج عليها بحيث يخيل للناظر أنها لم تخرج منه أصلا ثم تطلق النيران المتتابعة على الخيالة ويطلق المدفع عليها من الركن المقابل لها حتى ترجع القهقري⁴.

1 - الحسني بديعة، المصدر السابق، ص. 148.

2 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 311.

3 - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 163.

4 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 312.

الفصل الرابع: التصور المؤسسي العسكري للدولة الجزائرية عند

الأمير عبد القادر

4. 1/ التنظيم العسكري:

كان همّ الأمير يتمثل في بناء قوة عسكرية لتنظيم جيش مقاتل.¹ فكيف تمت المواجهة بين الأمير الشاب الذي تلقى تعليمه في زاوية أبيه، وبين كبار قادة فرنسا الذين تلقوا تعليمهم في كبرى جامعات العالم وأكاديمياته العسكرية، وبين مجموعات من المجاهدين غير المدربين والفاقدين لكثير من الوسائل والأدوات، وبين جيش منظم ومجهز بكل وسائل الفتك المتطورة، ومخزونه مصانع ضخمة يمدّه بأحدث الانجازات؟²

وتظهر ديناميكية الأمير في هذا الجانب بشكل كبير، إذ بمجرد مبايعته نظر إلى إمارته نظرة رجل الدولة المسؤول، فاهتم بإنشاء جيش منظم وقوي، وزعه في كافة أنحاء دولته تحت إشراف خلفائه، تسانده جيوش الجماعات المحلية.

وكان وهو يرى انهزام الجيوش الرسمية وضعف التنظيم عند الجماعات المحلية، وتفوق العدو العسكري وأهدافه وأطماعه، يخلص إلى نتائج هامة ترسم له أفق تخطيطه العسكري، وتنظيمه للجيوش وبنائه للحصون والمصانع العسكرية، خاصة وأن معاركة ضد العدو أكسبته خبرة وتجربة دفعته إلى تدريب وحداته على أحدث الأسلحة، وفقاً للمبادئ القتالية الأوروبية.³

1 - مزيان عبد المجيد، "عبقريّة متكاملة"، ص. 6.

2 - عوض صالح، المرجع السابق، ص. 93.

3 - عوض صالح، المصدر السابق، ص. 94.

فلما علم الأمير ما بين الجنود المنتظمة والحشود المتطوعة من الفرق العظيم، عزم على تنظيم جند كاف، يكون دأبه التمرين والتدريب، ليصل بقوته ومعرفته بالأمر الحربية إلى مقاصده الجسيمة. ولكن تجنيد هذا الجيش من شعب لم يعرف التجنيد الإجمالي من قبل، حتى أيام الحكم العثماني، شعب تثور طبيعته لمجرد فكرة التجنيد لتعارضها مع طبيعته وعدم تألفها مع الحياة القبلية في الأرياف. هو تجربة خطيرة تحتاج إلى حنكة وحذر كبير. لهذا لجأ إلى وسيلة أخرى وهي التجنيد الاختياري، فقد عقد مجلساً عمومياً من رجال الدولة وأعيان الرعية وزعمائها وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه، وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد كاف منه.¹ فأجابته الجميع إلى ذلك، فاعتمد الأمير المنادين العموميين يجوبون الأسواق فينادون في الناس ليدعوهم إلى الدفاع عن الإسلام والوطن، وليتجنّدوا وراء قائد للجهاد هو الأمير عبد القادر الذي أصدر بياناً مفاده: "ليبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين، بتجنيد الأجناد، وتنظيم العساكر، من كافة البلاد، فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي، ويشمله عز النظام، فليسارع إلى دار الإمارة "معسكر" ليتقيد اسمه في الدفاتر الأميرية".²

تلقى الناس هذا الأمر بانسراح وارتياح، واستحسنه كل عاقل وفاضل، وتقدموا يلبون نداء الجهاد ويتجنّدون مدى الحياة على اختلاف الأعمار، وقد اشترط الأمير أن يكون سن المتجنّد يتراوح ما بين خمسة عشرة إلى خمس وعشرين سنة لكن هذا لم يمنع من تهيئة الأطفال خاصة أبناء الجند، الذين كان يتكفل بإطعامهم وتحصينهم، وتربيتهم حتى يصبحوا أشداء قادرين على القتال. وكان المتطوع يسجل اسمه لدى القائد بعد تأكيد العزم على التجنيد، وارتضاء الحياة العسكرية فيحول إلى أقرب الكتائب، وكان الضابط الذي يستقبله يقدم له البدلة العسكرية، ويقوم بإدراجه ضمن الجنود المسلحين. ومن هؤلاء الجنود كان يختار أحسنهم وأشدّهم مراساً في المعارك ليكونوا قوة الفرسان، ويبدو أن التطوع والعمل في الجندية له شروطه عند الأمير التي تتمثل في:

¹ - عوض صالح، المرجع السابق، ص. 96.

• طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 239.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 191.

- أن يكون الجندي جزائريا مسلما، عاقلا بالغا حرا.
- أن يكون الجندي صحيح الجسم قوي البنية.
- أن يدون اسمه في سجلات رسمية أي الدفاتر الأميرية لتحديد واجباته وحقوقه.

• أن ينصرف إلى القتال انصرافا تاما فيمتنع عن تعاطي أي نوع من أنواع المهن الأخرى مثل الزراعة أو التجارة أو الصناعة.¹

ويسري على المتطوع الجديد ما يلي:

- اعتبار عقده نهائيا بعد تسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية.
- تطبيق أنظمة وقوانين الجيش المحمدي عليه بعد التسجيل.
- فسخ عقده عند اقترافه عملا منافيا للأخلاق أو معارضا للأنظمة العسكرية أو مخالفا لتعليمات الأمير.²

عندما بدأ الأمير تنظيمه ورث لدى الناس تقاليد عريقة متواضعة جدا، وكان المجاهدون مسلحين ببنادق وسيوف ومسدسات، فاعتزم النظر في أحوال العسكر وتكثير عدده واستكمال عدته.

ولما علم "ديميشيل" بذاك أوعز إلى وكيله "بمعسكر" عبد الله بمساعدة الأمير وإعطائه الآراء في تحسين أحوال الجند، والاستقصاء في تعليمهم وتدريبهم. وأرسل من طرفه معلمين ماهرين وأربعمائة بارودة ومقدارا وافرا من الذخائر الحربية وقال: "إن الأمير مستعد للقيام بأعباء الملك غير أن ذلك لا يتم له إلا بالعسكر المنتظمة والجيوش المدربة، وأما الحشود والجموع غير المنتظمة، فلا تجدي نفعا ولا تستطيع جلبا، ولا دفعا"، فعجب الناس من مساعدة "ديميشال".³

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 197.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 145.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 191.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 145.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 218.

وبالنسبة لنواة جيش الأمير فقد كان عددها لا يزيد عن ألف رجل، تأسست بمعسكر، ودرّبت بواسطة جندي ألماني هارب من فرقة الليف الأجنبي، وقد أقام الأمير ثكنة عسكرية لفيلق قوي، مقسّم إلى كتائب وذلك بلباسهم وطعامهم، وكان هذا الفيلق هو القوة التي يهاجم بها الأمير المراكز الفرنسية والقبائل المتمردة أو المتواطئة مع المحتل. وكان المجندون مسلحين ببنادق، وبسيوف "الباطاغان" ذات الحدين، وبمسدسات، وكان سلاح المدفعية يتألف من ست قطع صغيرة ليس لها شأن، صنعها الكراغلة وهم الذين يشغلونها.¹

واستغل الأمير معاهدة دي ميشيل ليضاعف من مشترياته، فتحصل عام 1834 على ألف ومائة وعشرة بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة، واشترى كميات أخرى تبلغ ألفي بندقية من الغرب وصلته سنة 1838.

وأنشأ معامل لصنع الأسلحة، في مدينة تلمسان مصهرة لصنع المدافع، وفي مليانة مصنع للبنادق والبارود، وبعد معاهدة تافنة أكمل الأمير بناء جيشه وتنظيمه، ووضع له القوانين، وخلع عليه الرتب، وكان الجيش الذي خاض به المقاومة الكبرى من سنة 1839 إلى 1847 يتألف من قوتين رئيسيتين هما: الجيش النظامي والمتطوعون من القبائل.

فالجيش النظامي هو جملة العسكريين الموجودين في الخدمة الفعلية والمتطوعين في ثلاثة أسلحة. وكان شعار جيش الأمير يوحد بين مختلف الأسلحة، وتحمله مقدمته أثناء المهمات القتالية، وكان عبارة عن حرببة بشكل هلال ركزت على عصا مزينة بالنقوش. ورغم قلة عدد الجيش النظامي إذ لم يتجاوز خمسة عشر ألف وثلاثمائة منها: إثنا عشر ألفا مشاة، وخمسمائة خيالة، وخمسون مدفعيون، فقد كانوا يمثلون الدعم الأساسي للأمير، حيث تميزوا بالشجاعة والبرسالة، فقد كان الواحد منهم يعد بعشرة، وكانت كتائب الجيش النظامي التي أحكم اختيارها وتدريبها، كانت كل واحدة منها تشكل نواة للمقاومة

¹ - قداش محفوظ، "جيش الأمير تنظيمه وأهميته"، الثقافة، ع(خاص)، 75، الجزائر 1403هـ/1983،

المنظمة تنظيماً عقلائياً في البوادي والأرياف وكان كل خليفة من خلفاء الأمير مسؤولاً عن اثنين أو ثلاثة من هذه الكنائب في المقاطعة.

والدليل على الدور الفعال الذي قام به هذا الجيش، ما استوثق للأمير من قوة وسيادة وتحقيق للأهداف الداخلية والخارجية، حيث أقام الأمير في مواجهة جيش المحتل، الخارجين على طاعته مدة تزيد عن ستة عشرة سنة.

وبالنسبة لتصنيف الجيش فقد تولى الأمير بنفسه تنظيمه وترتيبه فقسمه إلى ثلاثة

استعدادات:

- القوم الراكبون وسماهم الخيالة.
- المشاة وسماهم العسكر المحمدي.
- الرماة الطوبجية (المدفعيون).

وفي البداية عين الأمير قائداً للجيش يطلق عليه اسم الآغا¹، وإليه ترجع جميع مسائل الجند، فأول من تولى هذا المنصب قدور بن بحر، فاستشهد يوم "وقعة الزبوج" (شجر الزيتون) ومعركة المقطع، فتولى بعده الحاج محمد بن السنوسي، الذي عزله الأمير عن العسكر، وتولى موضعه الحاج علي بن عومر المستغانمي، ومات شهيداً، ثم عين المختار بن عيسى ثم رده على الخيالة وجعل في موضعه سيدي الحبيب بالانزاري² ولما ازداد نفوذ الأمير وكثر الجيش واتسعت المملكة تعددت آغوات الجيوش على حسب ذلك.

¹ - آغا: كلمة فارسية "آقا" تعني الزعيم أو السيد تقابلها "خادم عسكر" بالتركية والكولونيل والجنرال والمارشال عند الفرنسيين.

² - يذكر صاحب التحفة أسماء أخرى (عبد القادر بن عز الدين، محمد قوشارمة، محمد السنوسي، سالم الزنجي، أحمد الغديوي وغيرهم)

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 191.

فكان ما يسمى بسلاح "العسكر المحمدي" أو المشاة وقد قسمه الأمير إلى مائة، وجعل على كل مائة سياف¹، وجعل له كاتباً يكتب ما يعرض لهم، وجعل على كل عشرة سيافين آغا (رئيس العسكر المحمدي).

وقسم كل مائة إلى ثلاثة أقسام، وجعل لكل قسم خباء² وعين لكل خباء كبيراً سماه رئيس الصف³، وجعل نائباً له يقوم مقامه إن غاب سماه الخليفة، إضافة إلى الطباقين والسقائين.

ويقوم رئيس العسكر بالنظر في سيرة السيافين ورؤساء الصفوف مع العسكر المحمدي، أما السياف فمهمته تفقد أحوال المائة كل يوم اثنين وخميس⁴.

أما الكاتب فوظيفته تعليم المائة الذي هو كاتب عليها جميع العبادات والعقائد، يؤذن للصلاة، ويصلي إماماً. ويرأس الكاتب، الباش كاتب⁵، ووظيفته كتابة أمور الجيش كالرواتب والأكسية والديون، التي تترتب في ذمة أفراد العسكر، وقراءة القانون وقت الحاجة، ومن وظيفته أيضاً أنه يجمع ما تحته من الكتاب ويعلمهم فرائض الغسل والوضوء والتيمم والصلاة والصوم وعقائد التوحيد، كما عليه أن يعلم الأغا وظائف الدين ويؤممه في الصلاة، وقد أوجب الأمير على العسكر ورؤسائه احترامهم ومن أهانهم تعرض لعقوبة شديدة وصارمة⁶.

1 - سياف: باللغة الفرنسية (çenturion) أو (yuz-bachi) باللغة التركية، ومعناها يوز: مائة، بلش: رأس، وقد اعتمد الأمير هذه الوحدة المقاتلة سرية (خمسون فارساً بدلاً من مائة فارس)، والتي أطلق عليها اسم قائدها الذي كان يعمل رتبة سياف، أنظر: حرب أديب، المرجع السابق، ج. 2، ص. 77.

2 - الخباء: خيمة تصنع من الوبر أو الصوف أو الشعر وكانت تضم ثلاث وثلاثون جندياً، بين الخباء والخباء خمس وعشرون خطوة، وبين الحارس والحرس ثلاثون خطوة، وجعل الأمير الأخبئة دائرة دائرة.

أنظر: الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 148.

3 - رئيس الصف: أمر لمجموعة قتالية عددها ثلاث وثلاثون مقاتلاً.

4 - ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص - ص. 39-41.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 193.

5 - كاتب: كلمة تركية معناها رأس الكتاب، أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 192.

6 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 200.

وبالنسبة لفصل المنازعات يرفع أهل الخباء شكايتهم إلى رئيس الصف (كبير الخباء)، وهو بدوره إلى السياف ومنه إلى الآغا، وإذا لم يقدر فالى السلطان¹ ويجوز لرئيس الصف أن يخلف خليفة السياف، وهذا الأخير يخلف السياف، والسياف يخلف الآغا، وآغا الخيالة يخلف آغا الجيش²، وكذلك سلاح الخيالة.

يتولى قيادة هذا السلاح، قائد يعينه الأمير ويشرف على تدريب وتجهيز وحداته بغية إعدادها للقتال، سماه رئيس الخيالة. يتألف هذا السلاح من كتائب تضم كل منها ألف فارس بقيادة "آغا"، والكتيبة تنقسم إلى سرايا، عدد أفراد الوحدة خمسون فارسا بإمارة سياف³، والمجموعة الأخيرة في هذا التقسيم عبارة عن فرقة تتكون من عشرين فارسا، تدعى الفصيطة، تأتمر بإمارة رئيس الصف⁴ بمساعدة الجاويش⁵ وعين لكل ألف كاتب، وعلى مجموعة الإداريين رئيسا أي باش كاتب⁶.

أما سلاح المدفعية كان يشكل القوة الثالثة في جيش الأمير عبد القادر النظامي، فقد سمي قائده "باش طوبجي"⁷، واختار لهذا المركز "محمد آغا" المعروف بابن الكسكسة، الذي أوكل إليه قيادة العناصر وتدريب سدنة المدفع، والسهر على تنفيذ جميع التدابير المتعلقة بحسن استخدامها.

تألف هذا السلاح من مائتين وأربعين عنصرا، خدموا عشرين مدفعا فقط، بمعادل اثني عشر جنديا لكل مدفع بإمارة رئيس ونائب له، وجعل لهم كاتبا بجانب الحرس الأميري المتكونة من مجموعة من خمسمائة جندي بإمارة سالم آغا الزنجي، اتخذهم الأمير لحمايته

1 - الأمير عبد القادر، المذكرات، ص - ص. 146 - 147.

2 - الأمير عبد القادر، المصدر السابق، ص. 148.

3 - ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص - ص 39 - 41.

4 - رئيس الصف: أمر لمجموعة قتالية عددها عشرون فارسا، وهي أصغر الوحدات المقاتلة في سلاح الخيالة وكانت هذه المجموعة توازي في التنظيم العسكري التركي فصيلة (section).

5 - الجاويش: كلمة تركية معناها العريف.

6 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 192.

7 - نسبة إلى طوب وهو المدفع، والكلمة والنسبة إليها تركيبان معناهما المدفعي.

أثناء السير ولحراسته ليل نهار وفي القتال وعند التوقف. وكانت أسلحتهم محلاة بالذهب والفضة ومرصعة بالمرجان.

وشكلت قوات عبد القادر غير النظامية القسم الأكبر من جيش الولاية، وقد تألفت من عناصر القبائل المؤيدة للأمير، الذين يجمعهم الخلفاء لأغراض الدفاع المحلي، وللإشتراك في العمليات التي يقودها الأمير إلى جانب جيشه النظامي، ثم تعود إلى ديارها فور انتهاء المهمات الموكلة إليها.

فقد جعل الأمير في كل قبيلة كبيرة أو مجموعة قبائل مسؤولاً عن تجميع المتطوعين يدعى "آغا" وأحاط المحسكر بسبع أغالكة، وكان خليفته في معسكر سيدي الحاج مصطفى بن تهامي يتولى تنسيق أعمال الأغالكة ومراقبتها، وانتشرت هذه الأغالكة في جميع المناطق التي تشرف عليها إدارة الأمير، وكان لهذه التشكيلات دور هام في ملاحقة الجنود الفرنسيين¹.

واختلف عدد وحدات هذه القبائل من سنة إلى أخرى، فبلغ حوالي 83 ألف مقاتل من مشاة وفرسان في 30 سبتمبر 1838، و53 ألف عندما أعلن الأمير الحرب على الفرنسيين في 18 نوفمبر عام 1839 وقد تعدت نسبة الفرسان فيها السبعين بالمائة².

التنظيم العسكري:

إعتنى الأمير بالشؤون العسكرية وأولاه اهتمامه فكان له جيش دائم حقق له أهدافه الداخلية والخارجية وحرص على حشد طاقته البشرية والمادية في سبيل تحديث إمارته وغنائها فنجح إلى حد بعيد بفضل الأمن الذي نعمت به مقاطعاته.

نظر الأمير إلى إمارته نظرة رجل الدولة المسؤول فعمل جاهداً لتطويع المجتمع والنظام والاقتصاد، واهتم بإنشاء جيش منظم وقوي، على غرار الجيوش الأوروبية، وكان معجباً بالمجهودات التي كان يبذلها محمد علي في هذا المجال .

¹ - عوض صالح، المرجع السابق، ص. 96.

² - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 239.

وقد أكسبته معاركه ضدّ القوات الفرنسية خبرة وتجربة دفعتّه إلى تدريب الجيش على أحدث الأسلحة ووفقا للمبادئ القتالية الحديثة¹.

لقد حافظ الأمير على أسس عديدة ورثها عن أسلافه فأضاف إليها، أو عدّلها حسب مقتضيات الوضع، وهكذا فرض على جميع أفراد جيشه الطاعة والانضباط، وهو مبدأ أساسي معتمدا في جميع العالم، وقد حسن في تأليف فرق قتالية وتشكيلها، فأخضع عناصرها لقواعد دقيقة حدّدت واجباتهم وحقوقهم.

كان عبد القادر رجلا قادرا وحكيما لتأسيسه دولة، أدارها بنفسه وضبط أمورها وأصولها وحافظ على وحدتها واستقلالها، فكان لا يرى في الأمور العظيمة إلا ما يحقق لإمارته النجاح والمكاسب، ومهما كانت الطرق المؤدية إلى تنفيذ أهدافه محفوفة بالمخاطر، فإنّها كانت تثير فيه الحذر والتيقّظ وحسن التخطيط ودقّة العمل².

عندما بدأ الأمير عبد القادر في تكوين جيشه النظامي، أخضعه لتقاليد مضبوطة، فالنظام والقوانين، ألبسة العساكر وشعارات الرتب، الأوسمة والأسلحة، التمارين والمناورات، الارتقاء في الرتب وواجبات الضباط، كانت مسطرة بكلّ دقّة في ترتيب يدلّ على براعة الأمير وكفاءته الإدارية والعسكرية.

وحدّدت الرتب في جيش الأمير من مشاة، الخيالة، المدفعية كما يلي³:

◊ الأَعْمَال: تميّز رتبة الأغا أربع علامات من الذهب، إثنان على منكبيه إحداهما مكتوب عليها كلمتا الشهادة: أشهد أنّ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّد رسول الله " والأخرى حكمة: " الصّبر مفتاح النّصر".

¹ - ابن رويّلة قنور، المصدر السابق، ص - ص. 39-41.

• ابن عبد القادر محمّد، المصدر السابق، ص - ص. 191-192.

• بوعزيز يحيى، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ص. 35.

• قداش محفوظ، "جيش الأمير تنظيمه وأهميته"، ص. 56.

² - قداش محفوظ، "جيش الأمير تنظيمه وأهميته"، ص. 52.

³ - ابن عبد القادر محمّد، المصدر السابق، ص. 194.

واثنان على صدره بشكل قمر وهلال، فذات اليمين مكتوب عليها اسم الجلالة: "لا إله إلا الله"، وذات الشمال مكتوب عليها "محمد رسول الله".

◊ **السياف**: يختص بعلامتين من الفضة على شكل سيف: إحداهما مكتوب عليها: "لا أرفع من التقوى والشجاعة" والأخرى "ولا أضرب من المخالفة وعدم الطاعة".

◊ **رئيس الخباء أو الصف**: له علامة واحدة من الفضة توضع على عضده الأيمن، مكتوب عليها "من أطاع رئيسه واتقى مولاه، نال ما يرجوه ويتمناه".

◊ **خليفة رئيس الخباء أو الصف**: يختص بعلامة من الجوخ الأحمر يضعها على ساعده الأيمن ليمتاز بها عن مطلق العسكر المحمدي أو الجنود.

◊ **مطلق العسكر المحمدي**: دون أية علامة، إنما يختص بكسوة الشايق الأزرق والأسود.

◊ **رئيس الخيالة**: يميز بعلامتين من الذهب، إحداهما على منكبه الأيمن مكتوب عليها الحديث الشريف: "الخير معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة".

◊ **السياف**: لسياف الخيالة علامة واحدة يضعها على عضده الأيمن، وهي مصنوعة من الفضة ومكتوب عليه أيها المقاتل، احمل تغم"

◊ **رئيس الصف**: له علامة واحدة من الفضة كرئيس الخباء في سلاح المشاة، توضع على عضده الأيمن ومكتوب عليها "من أطاع رئيسه واتقى مولاه، نال ما يرجوه ويتمناه".

◊ **الجاويش**: يختص بعلامة من الجوخ الأحمر، كخليفة رئيس الخباء في سلاح المشاة، فيضعها على ساعده الأيمن ليمتاز بها عن الخيالة.

◊ **الخيالة**: دون أية علامة مميزة، إنما يختص بكسوة العسكري، من الملف إرهابيا للعدو.

◊ **باش طوبجي**: تميز بعلامة مدفع من الفضة، يضعها على كتفه الأيمن وكتب عليها قوله تعالى "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى".

◊ **رئيس المدفع**: يختص بكسوة ملف أسود ليمتاز بها عن دونه.

◊ **نائب رئيس المدفع**: مماثل لرئيسه، إذ يختص بكسوة ملف أسود ليمتاز عن دونه من المدفعيين.

◊ **الطوبجي**: دون أية علامة مميزة.

- ◊ **رئيس الكتاب أو الكاتب الكبير:** تميز بعلامة واحدة من الفضة على شكل قمر وضعت على ساعده الأيمن، وقد كتب عليها لقب أمير المؤمنين **ناصر الدين**.
- ◊ **كاتب المئة:** يختص بكسوة الملف.
- ◊ **المدفعية:** يختص بكسوة ملف عكري.

وقد دعم جيوشه بجهاز طبي ومدربون يتكون من:

- ◊ **رئيس الأطباء:** يختص بكسوة من الجوخ الجيد.
- ◊ **أطباء الوحدات المقاتلة:** يختص بكسوة من الجوخ الجيد.¹

- ◊ **معلم الحرب:** يختص بكسوة ملف عكري.
- ◊ **الطبنورجي:** يختص بكسوة ملف عسكري.

وبالنسبة للترقية في جيش الأمير عبد القادر فإنها تخضع للشروط التالية:

- ◊ لا يرقى أحد في الجيش، مهما كانت رتبته أو اختصاصه، إلى رتبة أعلى، إلا إذا تحلى بالصفات الحميدة وبعد موافقة الأمير.
- ◊ لا يرقى أي من العسكريين إلى الرتب العليا إلا بعد ترقيته إلى مختلف الرتب الأدنى من مطلق العسكر المحمدي أو الخيال إلى خليفة رئيس الخباء أو الجاويش إلى رئيس الخباء أو الصف فالسياف فالأغا.
- ◊ يعفى من التدرج المذكور أعلاه كل عسكري يحمل الشيعة المحمدية، شرط أن لا يكون هناك سبب آخر يمنع الترقية².

• الشيعة المحمدية:

اختار عبد القادر وساما سماه الشيعة المحمدية ويختلف في مظهره حسب جدارة مستحقة، فهو يتكون من خالص الذهب والفضة بشكل يد ممدودة، وعدد هذه الأصابع يشير

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 194.

• ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص. 45.

² - بالنسبة لشروط الترقية: أنظر: ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص - ص. 53-54.

إلى عدد موقف الشجاعة والبطولة التي وقفها العسكري، وفي وسط الوسام كتبت عبارة "ناصر الدين" وكان لا يلصق على الصدر بل على أحد جانبي البرنس.

ويمنح هذا الوسام مكافأة للمجاهدين الشجعان من أفراد جيشه في الحرب والذين ينفذون أحد رفاقهم أثناء المعركة، ويعطى أيضا لمن ينقض على عدوه غير آب بالنتائج أو يصد محاولات تسلل خصمه.

أما تقليد هذا الوسام فيعود للأمير، الذي يحضر لهذه الغاية في إطار حفلة عسكرية رسمية.

وكان يمنح هذا الوسام أيضا للمدنيين الذين أدوا خدمات إدارية عظيمة!

• الزي العسكري للجند:

جعل الأمير كسوة العسكر المحمدي على نوعين: ملف أو جوخ، وشائق (الكتان المنسوج بالقطن)، وقد جعل الجوخ على ثلاثة أصناف:

- ◊ **أحمر قان:** وهو الأعلى ويميز به رئيس العسكر المحمدي ورئيس الخيالة.
- ◊ **الأحمر الكاشف:** وهو كسوة السيفين والكتاب، صاحب الرتبة الأولى، ومعلم الحرب والطنبورجي (وهو صاحب الطرنيطة).
- ◊ **الأسود:** وهو لباس الطوبجي، ورئيس الإثني عشر مدفعا وكتابهم.

أما بالنسبة لرئيس الصف ورئيس الخباء فكسوتهم متنوعة، فرئيس الصف عبارة عن غليظة من الجوخ الأسود، والسروال من الجوف الأحمر، والعكس بالنسبة لرئيس الخباء.²

¹ - ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص - ص. 47-48 .

• ابن عبد لقادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 194-196.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص 141.

• العربي إيساعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص. 225.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 193.

ويختص مطلق العسكر بكسوة الكتان الأزرق والأسود، وبالنسبة للجند الخيال فبكسوة العكري من الملف إرهابا للعدو.

وقد وصف لنا "اسكوت" هذا الزي بقوله: "زي الجنود يتكون من سراويل تركية وجاكيتة زرقاء مصنوعة من الجوخ مقفولة بأزرار، وحزام يشبه الحزام الذي يستعمله أفراد الجيش الإسباني لعمل الذخيرة، وضاربوا الطبول، معظمهم من الجنود الهاربين من الجيش الفرنسي، وتبعاً لذلك، فقد كانت معظم الأنغام "المارش" التي يضربونها فرنسية. والضباط يتميزون بحمل صفحة صغيرة من الفضة تتدلى، معلقة بسلاسل من الفضة عليها عدة أهلة، وكل جماعة يقودها ضابط برتبة قبطان (سياف). وأما ضابط الصف فهو يتميز بزي أحمر ويحمل ثلاثة أشرطة من الفضة والذهب على كُمه، والقبطان (السياف) وضابط الصف كلاهما يلبس زياً أحمر اللون"¹. قد نبّه على الجميع أن لا يبدّل أحد كسوته المخصوص بها، سواء كان آغا أو سياف، كبير الصف أو خيالا، طبجيا أو عسكريا، ولو بلغ ما بلغ من الغنى، ومن استهان يعاقب بشدة². وبالنسبة لثمن الألبسة فإليك توضيحها حسب الجدول التالي:

1 - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 266.

2 - ابن رويلة قُدور، المصدر السابق، ص. 45.

• ابن عبد لقادر محمّد، المصدر السابق، ص. 93.

يذكر صاحب المذكرات: أنه لكل من كبراء الجيش ورؤساء الاسلحة قمجة وسروال وصدريّة (مسا يلبس فوق البدعية) وغليلة وحزام، أما العسكري فمكان الغليلة عنده الكبوط، والسببته ووعاء البارود مكان الحزام، ولكل واحد قرعة ماء، وقرعة صغيرة لدهن المكاحل، انظر: الأمير عبد القادر، المذكرات، ص.

ثمن الألبسة

الجدول رقم: 01

النوع	القطعة	الثمن	الملاحظات
1. الجوخ	• السروال • الغليظة • الصدرية	• 16 ريال • 5 ريالات • 3 ريالات و 16 محمدية	1. يمنع على العسكريين من مختلف الرتب إجراء أي تحويل في ألبستهم.
2. الكتان	• الكبوط ¹ (المعطف الشتوي) • السروال • القمجة (القميص) • الشاشية (غطاء الرأس) • الصدرية • البلغة (المداس)	• 4 ريالات • 3 ريالات و 8 محمديات • ريانان إلا 6 محمديات • 20 مجمدية • 16 محمدية • حسب سعر السوق	2. إذا فقد العسكري أثناء التدريب أو القتال قطعة من أمتعته أو سلاحه أو جزء منها يعفى من الثمن ويعطى بديلا عنها. 3. إذا أتلّف العسكري، في غير الحالتين المذكورتين أعلاه قطعة من أمتعته أو سلاحه أو جزء منها يغزّم بالثمن ويعطى بديلا عنها.

¹ - **الكبوط**: الرداء الطويل يلبس للإستدفاء به في الشتاء فوق جميع الملابس، وهي فرنسية الأصل.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 197.

• يذكر ابن رويلة ثمن بعض الأسلحة والعتاد وقطع الغيار منها:

الحرية: 3 ريالات إلا محمديتين

• البندقية: 20 ريال

الخرطوش و القوس: ريال.

• السيف: 11 ريال

4. 2/ جرایة الرواتب:

جعل الأمير للمسكوكات الجارية في البلاد صرفا معلوما تتعامل به رعيته وهناك نوعين من العملة، إحداهما المحمدية والأخرى النصفية وجعل صرف "الدورو" أو "بو مدفع" المعروف "بأبي عمود" أربعة ريالات وكل ريال فيه ثلاثة أرباع جزائرية وكل ربع جعل صرفه ثماني محمديات وكل محمديّة نصفيتين من السكة الجديدة الضروبة في دار السكة بحيث إذا أطلق الريال لا ينصرف إلا إلى هذا الصرف.

وجعل "الدورو الجزائري" ثلاث ريالات إلى ثمان محمديات وبهذا الصرف يعطى راتب العسكر بأصنافه.

وقد حددت الرواتب بفئتين:

◊ رواتب العسكريين المحالين إلى التقاعد.

◊ عناصر الخدمة الفعلية.

أ. رواتب العسكريين المحالين إلى التقاعد:

يحال العسكري إلى التقاعد في حالات ثلاث:

◊ عند استشهاد الأغا أو السيف أو رئيس الصف أثناء القتال تستفيد عائلته من الراتب التقاعدي لغاية تطوع أحد أفرادها في الجيش المحمدي. عندئذ يتقاضى المتطوع الجديد راتب الجندي وينقطع بالتالي راتب التقاعد الممنوح له ولأفراد أسرته.

◊ عند جرح العسكري جرحا بليغا يمنعه من السير والقتال ومتابعة الخدمة في أي من الأسلحة فيكون التعطيل دائما وله الحق بالراتب التقاعدي الكامل مدى الحياة.

◊ عند مرض العسكري مرضا يمنعه من متابعة الخدمة بشهادة طبية يدفع له نصف راتبه حتى وفاته.

واختلفت الآراء حول رواتب الجند وكيفية دفعها فبالنسبة للرواتب قال دوماس بأنها ليست ثابتة ومحددة أما حول دفعها فاعترف ماسو بدفعها بانتظام كل ثلاثة أشهر وتتأخر بالنسبة لآخر سنة كاملة.

أما دي فرانس، فقد صرح بأنه عند وقت دفع الرواتب للجند، كانوا يجتمعون في ساحة المعسكر وينادي كل باسمه فيتقدم ويقبض راتبه.

ب. رواتب عناصر الخدمة الفعلية:

وقد حددت بما يلي:

- ◊ الآغا: من خمس إلى سبعة دورو .
- ◊ السياف: أربعة دورو .
- ◊ خليفة السياف: ثلاثة دورو .
- ◊ كبير الصف: اثنان دورو .
- ◊ العسكر: واحد وثلاث دورو .

وتوضيحا أكثر يكون حسب الجدول التالي:

الجدول رقم: 02 الرتب والرواتب

الراتب		الرتبة
بالفرنك الفرنسي	بالريال	
		أ. سلاح المشاة
28.60	22	◊ الآغا
15.60	12	◊ السياف
10.40	08	◊ رئيس الخباء أو الصف
8.45	6.50	◊ خليفة رئيس الخباء
7.80	06	◊ مطلق العسكر المحمدي
		ب. سلاح الخيالة
24.70	19	◊ الآغا
11.70	9 و 16 محمدي	◊ السياف
10.40	08	◊ رئيس الصف
9.10	07	◊ الجاويش
9.10	07	◊ الخيالة

الراتب		الرتبة
بالفرنك الفرنسي	بالريال	
		ج. سلاح المدفعية
18.20	14	◊باش طوبجي
9.10	7	◊رئيس المدفع
9.10	7	◊نائب رئيس المدفع
8.45	6.5	◊الطوبجي
		ج. الجهاز الإداري
15.60	12	◊الكاتب الكبير (باش كاتب)
9.10	7	◊كاتب المائة
9.10	7	◊كاتب المدفعية
9.10	7	◊حامل الراية ¹
		هـ. الجهاز الطبي
15.60	12	◊رئيس الأطباء
15.60	12	◊أطباء ووحدات مقاتلة

التغذية²

إضافة إلى تحديد الأمير للرواتب، فقد حدد أيضا في نظامه مواد غذائية يومية ثابتة لعناصر وحداته، واعتمد الرطل أساسا للوزن والكيل في إمارته. وقد وزعت المواد على أفراد الجيش كما في الجدول التالي:

¹ - حامل الراية: لا يكون إلا من أهل النجدة والشجاعة والجرأة وينزل مع الرئيس في محله.

أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 201.

² - بالنسبة للمؤونة والتغذية؛ أنظر: ابن رويلة قدور، المصدر السابق، صفحات. 55-56-66.

الرتبة	لحم	خبز (رغيف)	سمن	برغل أو دشيشة - رطل -
١. سلاح المشاة	شاة كل اثنين وخميس	1-3 أبيض، أسمر (2)	نصف رطل	6
١٥ الأغا	1/4 شاة كل اثنين وخميس	1-2 أبيض، أسمر (1)	أوقيتان	2
٥ السيف	1/4 شاة كل اثنين وخميس	1-2 أبيض، أسمر (1)	أوقيتان	1.50
٥ خليفة رئيس الخباء	1/4 شاة كل اثنين وخميس	1-2 أبيض، أسمر (1)	أوقيتان	1.50
٥ مطران العسكر المحمدي	شاة كل اثنين وخميس	أبيض (1)، أسمر (1)	4 أوقيتان	4
ب. سلاح الخيالة	شاة كل اثنين وخميس	رغيف أبيض واحد	أوقيتان	2
١٥ الأغا	1/4 شاة كل اثنين وخميس	رغيف أبيض واحد	أوقيتان	1.50
٥ السيف	1/4 شاة كل اثنين وخميس	رغيف واحد	أوقيتان	1.50
٥ رئيس الصف	1/4 شاة كل اثنين وخميس	رغيف أسمر	-	1.50
٥ الجاويش	1/4 شاة كل اثنين وخميس	أبيض واحد، أسمر واحد	3 أوقيتان	3
٥ الخيالة ^١	-			
ج. سلاح المدفعية				
٥ باش طوجي	1/4 شاة كل اثنين وخميس			

١ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 202.

1.50	أوقيتان	رضيفان من الخبز الأسمر	8/1 شاة كل اثنين و خميس	رئيس المدفع
1.50	أوقيتان	رضيفان من الخبز الأسمر	8/1 شاة كل اثنين و خميس	نائب رئيس المدفع
-	-	رضيف واحد أسمر	-	الطوبجي ¹
2	أوقيتان	أبيض (1)، أسمر (1)	1/4 شاة كل اثنين و خميس	ج.الجهاز الاداري
2	أوقيتان	رضيفان من صنف واحد	1/4 شاة كل اثنين و خميس	الكاتب الكبير
2	أوقيتان	رضيفان من صنف واحد	1/4 شاة كل اثنين و خميس	كاتب المائة
2	أوقيتان	رضيفان من صنف واحد	1/4 شاة كل اثنين و خميس	كاتب المدفعية
2	أوقيتان	رضيفان من الخبز الأبيض	1/4 شاة كل اثنين و خميس	م.الجهاز الطبي
-	أوقيتان	رضيفان من الخبز الأبيض	-	رئيس الأطباء
1	أوقية	رضيفان من صنف واحد	1/4 شاة كل اثنين و خميس	أطباء و وحدات مقاتلة
-	-	رضيفان من صنف واحد	-	ز. مختلف الوحدات
-	-	رضيفان من صنف واحد	-	معلم الحرب
-	-	رضيفان من صنف واحد	-	صاحب الطيور
-	-	رضيفان من الخبز الأسمر	-	مطلق الطيور جي
-	-	-	جد الشاة التي يذبحها	صاحب الرأية المحمديّة
-	-	-	-	الطباخ

1 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 203.

4. 3/ تدريب الجيش:

عني الأمير بتدريب جنده على أساليب القتال، واهتم بتنشئتهم العسكرية، وعلمهم مبادئها. واستقدم لهذه الغاية مدربين من تونس والمغرب، وأحق بقواته مجموعة من الفارين الفرنسيين الذين درسوا الخطط التي تلقوها ونفذوها عمليا في جيشهم. وفرض الأمير على عناصره طاعة مدربيهم والانتباه التام أثناء التعليم ليكتبوا معلومات تؤهلهم لمحاربة الجيش الفرنسي، وفرض النظام الداخلي. وحثهم على التنفيذ بقواعد السلوك وحسن التصرف مع الجميع من رؤساء ومدربين، الذين أعطوهم الكثير من المعلومات العسكرية وأفهموهم المبادئ القتالية وكيفية استعمالها عند الضرورة. وكانت اجتماعات التعليم تحصل عند دق البوق لحنا خصا، وينفذ فيها برنامجا جدت فيه الأوقات والدروس وكان الأمير في بعض الأحيان، يشرف على التدريبات القاسية ويسهر على مناورات وحداته التي تكون تتويجا لانتهاه كل دورة.

ويتعرض التلميذ الجندي إلى أشد العقوبات إذا لم يتابع التعليم بانتظام، أو لم ينفذ ما يطلب منه بسرعة واندفاع. وانطلاقا من ذلك، فرض على أفراد العسكر المحمدي أن يتعلموا دروس الأسلحة الخاصة بالبندقية بغية استعمالها بسهولة في جميع الحالات. وشجع سدنة المدفعية على حفظ مبادئ تفكيك وتركيب أسلحتهم وكيفية التسديد عليها بحفاوة تامة لإصابة الهدف عند مشاهدته.

وكان الجنود المشاة يجندون من المتطوعين فقط، ولكنهم كانوا أكفاء إذا ما روعيت الوسائل المالية، والأسلحة المتوفرة، وكان مدربوا الجيش النظامي من المشاة هم جنود "النظام" من تونس وطرابلس، بالإضافة إلى الفارين من الجيش الفرنسي حيث ازداد عددهم فأصبحوا يكونون كتيبة خاصة بهم، وكانوا يحاربون ضد مواطنيهم بكل شجاعة وإقدام، وقد وزعوا على مقاطعات خلفاء الأمير¹.

¹ - Bellemare (A.), *Op. cit.*, p-p. 226-227.

ويقول الأمير: "ولو أن الوقت قد منح لي لاستعسأت أخيرا الطريقة الفرنسية في تجنيد الجنود، ولم يكن ديني ليمنعني من ذلك لأن هدف التجنيد المحافظة على شرف الرأية ونقذ البلاد من الاعتداء المسيحي"¹.

وقد عين الأمير للعسكر المشاة والطوبجية منبها سماه (الطنبورجي) يجمع العسكر والطوبجية ويفرقهم عند دقات الطنبور، ويدعوهم للاقدام والاحجام، وله صيغ خاصة أثناء التدريب وخارجه، فصيغة للحراسة وأخرى لتبديلها، وصيغة لاجتماع رؤساء الصف، وصيغة لاجتماع السيفين، وصيغة للحمل على العدو وأخرى للحذر منه وهكذا².

أما الخيالة فمنبهم وهو النفير المعروف بالبوري يجمعهم ويفرقهم بأصوات مختلفة يفهمونها، وبالنسبة للتدريب فقد عينت له أوقاتا معلومة، في أيام معلومة، يخرج فيها العسكر والخيالة والطوبجية، كل صنف على حدى، حسبما تقتضيه قوانين الحرب³.

ومن أفسد شيئا من السلاح أثناء التدريب فعلى بيت المال، أما خارجه فعلى السذي أنثف تعويضه، إذا أثبت أنه لم يفرض، وأنه ضاع رغما عنه، يكون التعويض كالاتي:

- مؤخرة البندقية خمسة دورو.
- المدك والجيادة والفولة والربطة، واللويحة واللؤلؤ بنصف الخمس.
- تضييع المكحلة سبعة دورو.

أما إذا ثبت أنه فرط فالغرامة والسجن⁴.

وكان الجنود المقيمون في الحامية ملزمين بحصص من التدريب العسكري يمارسونه ثلاث مرات في الأسبوع، وكان المشاة يتمرنون بما فيه الكفاية لكي يصبحوا من أحسن الرماة.

أما الفرسان النظاميون فقد تم إعفاؤهم من التدريب واعتمدوا على تقاليدهم الحربية والكمان والمفاجآت حيث رفضوا أن يوضعوا تحت التدريب فكانوا في أسلوبهم الحربي

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.141.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص.194-195.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 195.

⁴ - الأمير عبد القادر، المذكرات، ص - ص.146-147.

تقودهم شهامة مستقلة تمنعهم من الاعتراف بسيد يخضعون له، إنهم كانوا يعلمون أنهم لا يساؤون شيئاً عند الاصطدام ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم بدون منازع في الاشتباك الفردي وفي الكمين والمفاجأة.

ولم يكن الهروب في نظرهم خطأ من قيمتهم حتى أمام قوات أصغر منهم لأن هروبهم في الغالب لم يكن سوى خدعة حيث كان المبدأ الذي علمهم إياه قائدهم عبد القادر هو أن يضربوا بالعدو بقدر ما يستطيعون دون تعريض أنفسهم للضرر¹.

إضافة إلى عناية الأمير بتدريب الجند فقد عني أيضاً بمراقبة تغذيتهم، فكان التزويد بالتموين منتظماً وكانت الماشية الآتية من فريضة الزكاة والصدقات توضع تحت حراسة رعاة يعينهم القائد ويراقبهم، السلوك نفسه كان مع الحبوب المجمعة من الزكاة.

وكان يعتني بمرضى الجيش وجرحاه فيتعهدهم بالعلاج في عيادات موزعة بواقع عيادة واحدة على الأقل في كل أقاليم ترعاها الدولة، وكان يشرف على العلاج أطباء وممرضون².

وهكذا فالنظام والقوانين وألبسة العساكر وشعارات الرتب والأوسمة والأسلحة والتمارين والمناورات والارتقاء في الرتب وواجبات الضباط كانت مسطرة بكل دقة في ترتيب محكم يتوخى مصلحة المحاسبة³.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.141.

² - ابن ربيعة قدور، المصدر السابق، ص.67.

• عوض صالح، المرجع السابق، ص.199.

³ - لاکوست، المصدر السابق، ص.199.

• إقامة المعسكر ورحيله¹:

إتخذ المعسكر شكلا شبه دائري ثبت على جانبي مدخله الرئيسي مدفعين وتوزعت خيمة المخروطة بطريقة جد مدروسة، إذ ابتعدت الواحدة عن الأخرى مسافات متعادلة وكانت على النحو التالي:

في مقدمة المعسكر خيمة قائد سلاح المدفعية تقابلها خيمة رئيس الأطباء ومعاونيه وخيمة المستشفى.

وفي وسطه خيمة الأمير حيث تعقد الجلسات لمناقشة المسائل المهمة واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها.

وعلى مسافة ستة أمتار من خيمة الأمير يقع مركز رايات الجيش ومربط خيله وعلى يمينها ويسارها تتصبخيم كتيبة أسراره وحراسه، ومن ورائهم خيم محافظي الخزينة ومستودعات أسلحة الجند وتغذيتهم.

¹ - ابن رويلة قدور، المصدر السابق، ص.64.

4.4 / القضاء العسكري:

لا بد لكل جيش من قوانين تمنع الخروج عن أنظمته وهيئاته أو الإضرار والإساءة إلى مقوماته.

ويعتبر قانون القضاء العسكري في دولة الأمير من الضوابط التي تؤمن هذه الغاية، فتحدّد لجنده نطاق حقوقهم، وواجباتهم وتنظّم شؤونهم وفقاً لما يتوافق مع مصلحة الجيش¹. ومن البديهي أن يفرض تنظيم القضاء إجراءات رادعة للمجرم أو المخالف، الذي يشكّل خطراً على الجيش وميرر كيانه، وعلى المجتمع واستقراره وعلى الدولة وأسسها.

يشتمل القضاء العسكري في جيش الأمير على:

1. العقوبات والجرائم العسكرية.

2. أجهزة القضاء العسكري:

4.4 / 1/ تأليف المحاكم وتشكيلاتها:

يتألف القضاء العسكري في جيش الأمير من:

- مجلس الشورى ومركزه معسكر برئاسة أحمد بن الهاشمي المراجي.
- محكمة عسكرية دائمة ومركزها معسكر برئاسة بن عبّ بن المصطفى المشرفي.
- قضاة منفردون في الكتائب بمعدّل قاض واحد في كل كتيبة ومساعدان، أحدهما رئيس مخفر الشرطة العسكرية.

4.4 / 2/ صلاحيات المحاكم:

• مجلس الشورى: تشمل صلاحياته كامل أراضي الإمارة، وهو المرجع الوحيد الصّالح للبتّ في الأمور التشريعية للدولة، والمسائل العسكرية التي تستطيع المحكمة العسكرية الدائمة اتخاذ قرارات بشأنها.

• المحكمة العسكرية الدائمة: تشمل صلاحياتها كافة وحدات الجيش وتنتظر في أحكام القضاة المنفردين وتبتّ فيها.

¹ - بونار رابح، " نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر"، الأصالّة، ع.23، الجزائر، ص - ص.46-47.

القضاة المنفردون: تتحصر صلاحيات كل قاض بحدود عناصر كتيبته حيث طبقت الأحكام الصادرة من مجلس الشورى والمحكمة العسكرية الدائمة والقضاة المنفردين على العسكريين كافة، وفقا للعقوبات المنصوص عليها في الحكم الشرعي، وعلاوة على ذلك، يحق للأمير فرض عقوبات إضافية على العسكريين المخالفين. ويقصد بكلمة العسكريين، جميع العناصر التي هي في الخدمة الفعلية دون سواها.

4. 4. 3 / الجرائم العسكرية:

في جرائم التملص من الواجبات العسكرية نجد:

- في التخلّف: يعد متخلفا كل شخص يدعى للخدمة ولا يلبي الدعوة. وكانت عقوبته شهرا كاملا حبسا إضافة إلى ما يقرره الأمير.
- في الفرار: يعاقب العسكري الفار من وحدته بدون إذن أو عذر شرعي بأيام حبس تساوي عدد أيام فراره شرط أن يعود باختياره ولكن إذا قبض عليه، فعقوبته يحددها الأمير.

في الجرائم المخلة بالشرف والواجب العسكري:

- في الإتلاف: كل عسكري يقدم على إتلاف سلاحه أو جزء منه أو يفسده في غير القتال، يعاقب باجتهاد السلطان بالإضافة إلى تغريمه بالثمن.
- في الغش: كل آغا أو سياف غش أو تحصل على مبالغ مالية بطريقة غير شرعية يعاقب بستين يوم حبسا.
- كل آغا غش في الخدمة ثبت عليه ذلك، يعاقب بشطب اسمه من الديوان العسكري ويطرد من الجيش¹.

¹ - بالنسبة لهذه العقوبات، أنظر: ملحق رقم 07 الخاص بالحكم الشرعي لجند الأمير الذي هو عبارة عن اجتهاد شرعي وقانون عسكري يجرى على العسكر المحمدي.

في الجرائم المخلة بالانضباط العسكري:

- رفض الطاعة: يعاقب بخمسة عشر يوما حبس كل عسكري يرفض طاعة رؤسائه أو تنفيذ الأوامر التي يتلقاها ما لم يحول دون ذلك سبب شرعي.
- يعاقب بالحبس شهرا كاملا كل عسكري يرفض الخروج للقتال بعد سماع دقة النفير.

مخالفة التعليمات العسكرية:

- يعاقب بالحبس بيوم وليلة كل عسكري يطلق طلقة واحدة أو يمتطي جواده بدون إذن.
- يعاقب بالحبس بيوم وليلة كل عسكري يتخلف عن التعداد الصباحي أو المسائي، وبيومين كل من يتغيب عن التعليم جلسة واحدة.
- يعاقب بالحبس بيوم وليلة كل عسكري يرتدي ثيابا غير المسلمة له من الجيش، وبثلاثة أيام كل من يوسخ سلاحه أو قطعة من ثيابه.
- يعاقب بالحبس ستة أيام كل رئيس صف أو خباء أو كاتب يتخلف عن التعليم من غير سبب موجب.
- يعاقب بالحبس ثمانية أيام كل عسكري ينام أثناء قيامه بالمراقبة.
- يعاقب بالحبس عشرة أيام كل سياف يهمل يومي الإثنين والخميس إجراء التعداد على جنده أو التفتيش على أسلحتهم وعدتهم الحربية وأمتعتهم.
- يعاقب بالحبس عشرين يوما كل آغا يهمل نهار السبت إجراء التعداد على جنده أو التفتيش على أسلحتهم وعدتهم الحربية وأمتعتهم.

في العزل:

- كل ذي رتبة يقدم على عمل يوجب عزله، يجرّد من رتبته ويصبح جنديا عاديا في الوحدات المقاتلة¹.

¹ - ابن رويلا قدور، المصدر السابق، ص - ص. 68-70.

• ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 207-208.

وعن مرجعية التنظيم العسكري عند الأمير يقول مناصريه: إن الباحث إذا حقق النظر جيدا في نظام الأمير العسكري، فإنه لا يختلف عما أجراه في بقية التنظيمات، وجميع الأسس التي وضعها لدولته الناشئة، حيث يلاحظ أنه استمد كل ذلك من النظم الإسلامية في العهود الزاهرة، حين كان الأوروبيون يعيشون في عصر الظلمات".

وإذا اعتقد الفرنسيون أن تنظيم الفرق العسكرية وتقسيمها إلى فصائل، وكتائب وفيلق قد اقتبسه الأمير من تنظيماتهم العسكرية بإيعاز من ليون روش، فإن السؤال الذي يطرح من هو ليون روش هذا، ذلك الضابط الشاب البسيط الذي كان عمره لا يتجاوز الثلاثين عندما انضم إلى صفوف الأمير.

ودليل المرجعية أن الأمير كان يعلن الجهاد في جميع مساجد دولته، ويأمر جميع المسلمين بشراء الأسلحة والذخيرة والخيول استعدادا للحرب¹. إضافة إلى تمييزه الرتب والشارات العسكرية بعبارات مأثورة، عبارة عن آيات قرآنية أو أحاديث نبوية وأقوال مأثورة عن السلف الصالح.

فلم تخل الأوسمة والنياشين من شواهد تعلن عن العزم والعلم والنظام والتزام التراث الأدبي التزامها النظام الجهادي².

وهكذا كان الدين بواجباته وسلطانه حاضرا في نظام الأمير في كل دائرته باعتبار أنه أساسي وضروري ومدعم للجهد الإنساني³.

لقد كوّن الأمير عبد القادر جيشا وطنيا منظما وموحدا، وهيا له الوسائل وأنشأ له المصانع، واختار له المواقع الحصينة.

ومحافظة على الأسلحة فقد رتب لها صنّاع لإصلاحها وهم المسّمون بالقرداحية، وكانوا يرافقون الجيش، ورتب عددا من الخياطين والسروجية لإصلاح ما يلزم إصلاحه من الألبسة وسروج الخيل للعسكر والمتطوعة في أيام الحرب⁴.

¹ - مناصرية يوسف، المرجع السابق، ص - ص. 37-38.

² - السيد محمد علي الوزير، المرجع السابق، ص - ص. 39-40.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 145-146.

⁴ - Bellemare (A.), Op. cit., p-p. 228-229.

فالسلاح عنصر حيوي بالنسبة للرسالة الخطيرة التي نهض بها الأمير، لذا فهو حريص على الحصول عليه من مختلف الطرق وبشتى الوسائل، فهو لا يكتفي بمجرد المبادلة مع العدو¹، بل يستغل فرصة المهادنة لكي يبني معاملا للأسلحة².

وكان يحصل على السلاح من جهات متعددة، فالبنادق التي كان مسلحا بها جيشه النظامي كان يحصل عليها بعد المعارك أو من الجنود الفارين، أو بالشراء من المغرب الأقصى، وكل جندي ضبط بندقية فرنسية في حوزته كان عليه أن يبيعها إلى الأمير بمبلغ يصل إلى جنيهين إنجليزيين، ثم له أن يحصل على بندقية محلية بطرقه الخاصة.

كما كان يحصل على الأسلحة من الأسواق المحلية أو من قبائل الصحراء التي تأتي إلى التل وتغرق البلاد بأسلحة من تونس، ومن أولاد سيدي الشيخ، إضافة إلى الكميات الكبيرة التي كان يشتريها من المغرب الأقصى.

وبالنسبة لمادة الكبريت فكان يأتي بها من فرنسا بموجب المعاهدات، كما كانت له علاقات تجارية مع بريطانيا عن طريق جبل طارق، وفي حالة السلم كانت المدن الفرنسية الساحلية تمد الأمير بالرصاص وكذلك المغرب الأقصى إضافة إلى فتحه منجما للرصاص بجبال الونشريس.

وكان جلب السلاح يكلف الكثير، لذا كان لا يوزع من مخازن الدولة على العسكر إلا بمقدار ضئيل لتبذيرهم البارود أثناء احتفالاتهم وألعابهم³، ولم يشد الأمير عن هذا المبدأ إلا بالنسبة لأولئك الذين كانوا يحاصرون المعسكرات الفرنسية أو في ميدان القتال عندما تنفذ الذخيرة.

¹ - يقول ابن عبد القادر محمد: " رأيت ثلاث مدافع في باريس أخذت أيام الحرب، مكتوب على كل مدفع فوق خزائنه النارية (عمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين ، السيد عبد القادر بن محيي الدين سنة 1255هـ).

² - خرفي صالح، المرجع السابق، ص.96.

³ - Bellemare (A.), Op. cit, p-p.227-228.

وبالنسبة لشراء الأسلحة والذخيرة فإن الأمير لم يسمح به لقواده وحلفائه، وإنما حصر هذا العمل به وبمن يندبهم، فإذا لم تف البنادق التي كانت تنتجها مصانعه في معسكر وتقدمت منذ سنة 1837 بحاجة مشاته النظاميين، زودهم بالبنادق التي يشتريها عن طريق معاملته التجارية.

وبالنسبة لصفة البندقية المستعملة فقد كانت لها حربة في الرأس رفضها الجنود في بادئ الأمر، إلا أنهم أعادوا النظر في استعمالها وقبولها في تمارينهم وحروبهم، وكانوا يحملون جعبا للذخيرة اتسعت الواحدة منها لثلاث علب من الخرطوش.

وقد خص الأمير فرسانه بالسيوف المراكشية من فاس، في حين رفض استعمال الإسبانية، كما صمم على شراء كمية من المسدسات، وتوزيعها عليهم فقط بينما افتقرت بقية الجيش إلى هذا النوع من الأسلحة أما خيولهم فطبع على كتفها الأيسر حرف "ك" كما كان يطبع على الكتف الأيمن بعد التدريب.

وإذا قتل الحصان ولم يكن القائد موجودا، يقطع الفارس الحرف ويأخذه له إثباتا لذلك وفي حال فقدان عدد من الخيول في معركة ما يسارع إلى استبدالها بأخرى من المنطقة التي تحصل فيها المعركة¹.

إن الظروف التي مكنت الأمير من الاستمرار في مقاومة أمة من أكثر الأمم تقدما في العالم، وبخطتها العسكرية الحديثة يجب أن تقنع كل من تضلع في فنون الحرب، بأن هذا الرجل عبقرية حربية نادرة، لا تقل عن عبقريته السياسية. ولو أتيح له ما أتيح لنابليون من فرص التعليم والتدريب، لكان دون شك أكبر منافس له عبر التاريخ².

إن نجاح جيش الأمير، سببه أولا الكفاءة التي تميز بها قائده الأعلى، الذي لم يدخر جهدا في تدريبه وتوفير الوسائل له بأحدث الطرق وأكثر الأسلحة تطورا.

¹ - حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.74.

² - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.108.

ثم بسبب مساندة فئات الشعب بمختلف طبقاتهم ومشاركتهم الفعالة في الحرب، فلولاها ما تمكن الأمير من قهر جيوش فرنسا التي كانت تبلغ أحيانا مائة وخمسون ألف جندي مسلح¹.

والدليل على هذه الكفاءة شهادات القواد العسكريين الأوروبيين، ومنها شهادة اسكوت الذي شهد نقل معسكر من المعسكرات فقال: والحق أن كفاءة الجنود العرب وسرعتهم في نقل المعسكر، كفاءة لم أر مثيلا لها في حياتي العسكرية والتناقض الموجود بين الجنود العرب الذين يعملون بجد وصمت، والجنود الإسبان الذين ترتفع أصواتهم بالسب والشتم والضجيج أثناء التنقل كانت من الأشياء التي أثارت انتباهي منذ البداية².

وكذلك شهادته حول ما قام به جندي من جنود الأمير، عند تدمير القلعة من طرف الفرنسيين، حيث أخفى المدافع المركبة تحت الأرض وغطاها بعدة أقدام من التراب، ونظروا لأنه لم يكن يسمع بحاملات المدافع فقد ركبها في هذه المناسبة على بضعة أحجار³.

وكذلك تعليق القبطان كلير سنة 1846 حول إحدى حملات الأمير العسكرية: إن الحملة التي قام بها الأمير عبد القادر أثارت إعجاب العسكريين الذين عندهم دراية بالحرب، فما كان منهم إلا أن انحنوا لإجلاله لعبقريته، إنه عدو لا تقع أعيننا عليه أبداً ولكنه مع ذلك موجود في كل مكان⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير أقرّ مبدأ معاملة الأسرى حيث لم يكن معروفا لدى القبائل مصطلح "أسير" وكيف يعامل.

ولأن بعض حلفائه يخطئون ويتجاوزون في حق الأسرى فقد أصدر مرسوما وطنيلا عن معاملتهم من خلال مجلس عقده مضمونه:

1 - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص.158.

2 - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.95.

3 - الكولونيل اسكوت، المصدر السابق، ص.145.

1. إن كل فرنسي سواء قبض عليه في الميدان أو غيره، يجب اعتباره سجيناً ومعاملته بطريقة فائقة إلى أن تحين الفرصة لتبادلته.
2. كل من يحضر جندياً فرنسياً أو مسيحياً سالماً ينال جائزة (8 دولار على الذكر و10 دولارات على الأنثى).
3. كل عربي في حوزته فرنسي أو مسيحي فإنه مسؤول عن حسن معاملته، ومأمور أن يقوده إلى أقرب خليفة له أو السلطان، وإن لم يفعل يعاقب أشد العقاب وإذا فعل ينال جائزة.
4. في حالة شكوى السجين من أي نوع من سوء المعاملة يفقد الجائزة¹.

وقد ضرب الأمير عبد القادر المثل الأعلى في تسامحه مع الأسرى، والأمثلة كثيرة ولا تحصى وهو بذلك قد طابق العرف الحديث في معاملتهم فقد كتب مونتسكيو في كتابه "روح القوانين" (l'esprit des lois) سنة 1784، أنه لا بد من حسن معاملة الأسير، وأيده في ذلك جان جاك روسو، ويحق لأسرى الحرب مزاولة النشاط الديني والفكري والثقافي والرياضي، وأسرى الحرب الذين يحاولون الهرب، يكونون عرضة للعقوبات التأديبية ويسلمون إلى السلطة المختصة.

وعلى الدولة الأسرة أن تتولى دفن الأسرى باحترام، وطبقاً لشعائر دينهم كما يحق لها إحراق الجثث وإغراقها لضرورة صحية والأمير قد التزم بكل هذه المعاني، بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير².

• إحصاء الجيش:

بلغ عدد جيش الأمير عبد القادر عشرة آلاف جندي نظامي من بينهم 8000 من المشاة، و2000 فارس بالإضافة إلى 240 مدفعي، و25 قطعة مدفعية³.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 207 - 208.

² - الموسوعة العسكرية، ج. 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981، ص - ص. 78-79.

³ - Wahl (M.), *Op. cit*, p.142.

• Bellemare (A.), *Op. cit*, p.225.

• Augustin (B.), *Op. cit*, p.200.

ولكن هذه القوة لم تكن ثابتة فهي إما في نقصان أو في زيادة من سنة إلى أخرى. فقد أشار ديميشيل إلى أنه لم يكن لعبد القادر، وهو في عز قوته سنة 1834 سوى إثني عشر ألف فارس¹.

وكان جيش الأمير قبل محاصرة عين ماضي في ماي 1836 يتألف من 2230 رجلا، 2000 من المشاة، 200 فارس و 30 مدفعيا يستخدمون قذافين ميدانيين، وكانت أمتعة الجيش ينقلها 600 بعير، و 200 بغل².

وحسب رواية روش فإن جيش الأمير يتألف من نواة جيش دائم كان عدده 5960 جنديا سنة 1839، و 9400 سنة 1840.

• إستراتيجية³ الأمير عبد القادر العسكرية:

يقول بول أزان عن الأمير كرجل تخطيط حربي: "لقد كان التنظيم الاستراتيجي للسلطنة يقوم أساسا على المهمة التي رسمها الأمير عبد القادر لنفسه والمتمثلة في طرد الفرنسيين من الجزائر وبالتالي إخراجهم من الساحل". وقد تمثلت استراتيجيته في بناء خط دفاعي للدولة أو ما يعرف بالحصون، وخلق فنون عسكرية قتالية تساعد على التغلب على العدو يفوقه عدة وعددا.

فبالنسبة للتخطيط العسكري، اتبع التقنيات التالية:

1. التركيز على سرعة تحرك قواته مما يحقق هدفا كان ينشده الأمير في مثل هذه الحالة، والذي يتمثل في انسياح قوات العدو وتعبها الشديد داخل مجال فضائي رهيب

¹ - رسالة "ديميشيل" إلى الوالي العام بتاريخ 19 أكتوبر 1834.

² - قداش محفوظ، "جيش الأمير تنظيمه وأهميته"، ص. 51.

³ - استراتيجية: اشتقت هذه الكلمة أصلا من الكلمة اليونانية (Stretegos) التي تعني: فن قيادة القوات، وهو فن مارسه الإسكندر وغيره، ويعبر عنها على أنها علم وفن ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع الذي تستخدم فيه القوى بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل تحقيق هذه السياسة التي يتعذر تنفيذها عن غير ذلك السبيل. أنظر: الموسوعة العسكرية، ج.1، ص - ص. 66 - 67.

بتركيباته وبأبعاده وتتنوع مناخه وهكذا كان للأمير أن يخوض الحرب كما يشاء ودون أي مراعاة لفصول السنة، وباستطاعته أن يواجه جيشاً قوامه 106.000 رجل بأقل من 2000 فارس و 10.000 جندي محارب¹.

وفي هذا الصدد يقول بيجو: "ويمكن أن نتساءل عنم يستحق مزيداً من الإعجاب: أهم جنودي المقدامون الذين لا ينال منهم التعب أم الرجل الذي يقف في وجه جيش قوامه 106.000 بأقل من 2000 فارس، و 10.000 جندي محارب، فينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل في مؤخراتنا، وأجنحتنا، ويقلت من بين أيدينا في الوقت الذي يخيل إلينا بالذات، أنه يكفي أن نمد أيدينا للقبض عليه، ويرهق جيوشنا بمناوشاته التي لا تنتهي ويلجأ على الدوام لخطة لا تقهر تتمثل في تشتيت صفوفنا والنيل منها بالإرهاب والنار معا"²

2. إقامة مخازن للحبوب تحت الأرض منتشرة، تزود القوات والأهالي بمورد لا ينضب، بحيث يجدون المواد الغذائية أينما حلوا.

3. التركيز على المضائق، حيث حفر في كل مرتفع أو هضبة خنادق، وتوجت أعلى القمم بمعازل تحتوي على بطاريات ثقيلة وجوار هذه المعازل وضع عبد القادر مشاته النظاميون.

فكانت هناك فرق المدينة ومليانة ومعسكر، وسباو، وتقدمت على رأسها ضباط فرنسيون كانوا قد فروا من جيشهم، وقبع العرب في الجحور والمخابئ لإطلاق النار على القوات الفرنسية عندما تعبر المضائق، فلقى العديد منها حتفه فيها³.

4. محاصرة المدن الساحلية، حيث يتواجد الفرنسيون والتعرض لأطرافها عن طريق القبائل المقيمة فيها، التي كان الأمير يمدّها بالجياد، وكانت تشكل نوعاً من الطليعة فهناك الغرابية في ناحية وهران، والحجاجطة في ناحية الجزائر، والقبائل في ناحية عنابة،

¹ - صاري جيلالي، "دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، ص.106.

² - الأمير عبد القادر، مقاومة وقائد، سلسلة الفن والثقافة، ص.88.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.188.

وكانت مهمة هؤلاء جميعا تتنل في محاصرة المدن الساحلية، ومنع المؤونة من الدخول إلى أسواقها، وجعل المعيشة لا تطاق بها¹.

5. انطلاقاً من قوله تعالى: *"انفروا خفافاً وثقالاً"* أنشأ الأمير "الزمالة" فالفرنسيون، كانوا أقوى ولكنهم يسرون في طرق ممهدة في طوابير طويلة متقلين بالمدافع وسيارات الإسعاف والمعدات.

فكان معسكر الأمير خفيفاً ومتنقلاً فعندما يرى هدف عدوه يتفاداه، وعندما يكون في ورطة متخطباً في الشعب ينقض عليه.

وأما عن احتمال وصول الفرنسيين إلى الخط الوسط عمداً إلى إنشاء خط من المواقع المحصنة في الحدود الجنوبية لمنطقة التل، كان لها نوع من التطابق الجغرافي مع المدن التجارية في التل وقد عرفت هذه المواقع بمدن الأمير عبد القادر.

6. تصدر الأمير جنده لمجابهة المدافع، ومشاركته في أشغال بناء المعسكرات ورفع لمعنويات الجرحى من جنده بتلاوة آيات من القرآن الكريم على مسامعهم تتعلق بالذين يقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل قضية عادلة².

¹ - بورويبة رشيد، "القلاع والحصون والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير"، التقافة، ع(خاص).75، 1403هـ / 1983، ص.87.

² - المدني أحمد توفيق، "الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر"، التقافة، ع(خاص).75، 1403هـ / 1983م، ص.51.

• كاتب ياسين، الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر، ص.15.

4. 5/ بناء المنشآت العسكرية :

ما من شك أن معرفة الأمير الحميمة بالمحيط الطبيعي وبالمناح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هي التي جعلته يفكر في إقامة سلسلة من التحصينات على مدى طول منطقة حساسة، منطقة الاتصال والاحتكاك بين التل في الشمال والسهوب في الجنوب التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ المغرب الاقتصادي والاجتماعي تبعا لمشروعه السياسي¹. وقد اعتمد على عمق البلاد وحركية سكانها، فنقل العديد من أهل العواصم الشمالية إلى شريط المدن التي أنشأها كجبهة ثانية للصمود، وكان هذا الخط العمراني الذي شيّد قلاعه على حافة الهضاب العليا يعتمد على مدن جديدة وهي مدن عبد القادر كما كانت تسمى آنذاك.

فعند حدود التل والسهول العليا التي تشكل نقاط الاتصالات الاقتصادية، حيث مواقع الأمصار القديمة الجزائرية الأصيلة مثل تاهرت، أشير، القلعة، أسس سلسلة من المدن: بوغار قرب المدينة، وتازة قرب مليانة، وسعيدة قرب معسكر، والقلعة والبرج ومارونة وتلمسان، وتقدمت بالأخص على بعد عشرين كيلومترا جنوب غربي تاهرت العتيقة، التي ستكون العاصمة الجديدة بفضل موقعها المركزي، وقربها من معسكر². وقد أوضح الأمير للجنرال دوماس، اتجاهه إلى تأسيس هذه المدن والهدف منه فقال: لقد أقمت على حدود التل عددا من الحصون كلفني أموالا طائلة بينما كنت أواجه صعوبات جمة، وكان الهدف من إقامتها هو إشعار قبائل الصحراء المضطربة بالسلطة، والابتعاد عن هجوماتكم، ولكن حطمت هذه الحصون فيما بعد... لقد كنت مقتنعا أنه متى استأنفت الحرب فإنه علي أن أترك لكم كل المدن الواقعة في الخط الوسط للأطلس، ولكن يكون من المستحيل عليكم على الأقل لمدة طويلة أن تصلوا الصحراء لأن الثقل الذي يتقل كاهل جيشكم سيعرقل تقدمه³.

¹ - صاري جيلالي، "دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، ص.47.

² - لاکوست، المصدر السابق، ص.264.

³ - مزيان عبد المجيد، "عبقريّة متكاملة"، ص.7.

كانت تقع هذه المدن من جهة الغرب في سبدو، وفي سعيدة بالنسبة لجنوب تلمسان، وفي تاقدمت بالنسبة لجنوب معسكر، وفي تازة بالنسبة لجنوب شرقها، وفي بوغار بالنسبة لجنوب مليانة، وفي بلخورط (الواقعة شرق مدينة الجزائر) بالنسبة للمدية، وأخيرا في بسكرة بالنسبة لجنوب قسنطينة.

تمّ بناء هذه المؤسسات في ظرف أربع سنين دون أن يترك لأجلها بناء معسكر (إعادة بنائها)، وكانت تلك النهضة المدنية تابعة لهضبة النشاطات في سبيل تمصير الأمصار¹.

لقد كانت هذه المراكز عبارة عن قلاع ومستودعات مثل سعيدة²، تاقدمت، بوغار³، تازة⁴، وسيباو وكانت "تاقدمت" أهم هذه المراكز، وقد أخذت مظهر عاصمة حقيقية، تتمتع بموقع استراتيجي واقتصادي لكونها وسيطا بين السواد والصحراء، وانتقل إليها الأمير بأهله وأهل دائرته، وأنشأ دارا للسلاح وأخرى لسك العملة، ومستودعات ضخمة للبارود والحديد والرصاص والنحاس والفضة، كما سيأتي تفصيله.

لم تكن تلك البناءات كما يظنّ بعض الناس، عبارة عن ملاجئ لاستقبال سكان المدن المهجورة في أيام الحرب فحسب بل كانت تحتوي على قصبات محصنة ومعسكرات، القصد منها خلق شبكة مدن دائمة، إضافة إلى وظيفتها العسكرية، كما هو مبين في الكتابة المنقوشة على حجر في مدينة "تازة": "إنّ الله يشهد لي أنّ هذا العمل عملي وسيبقي محفوظا في مكررة الخلف، كل من يقربون مني ويقبلون على أراضينا السعيدة طلبا للأمن والطمأنينة، يجدون بعدي وإلى الأبد أسوة في خدماتي وأعمالي الصالحة"⁵.

فزيادة على الجنود المعسكرة، وعلى الكراغلة الذين نقلوا من مدن التلّ المحتلة وأحيطوا بمن يراقبهم خشية خيانتهم، أسكن الأمير الهاربين من المؤسسات الفرنسية بالجزائر

1 - لاكوست، المصدر السابق، ص. 265.

2 - سعيدة: مدينة في غرب الجزائر تبعد بـ 74 كم جنوب معسكر.

3 - بوغار: الآن بلدية تبعد بـ 8 كم شمال قصر البخاري وبحوالي 43 كم جنوب مدينة المدية.

4 - تازة: موضع يبعد بحوالي 50 كم من مدينة مليانة في منتصف الطريق بين بوغار وثنية الحد.

5 - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 264.

خصوصاً مع العمال الذين جمعهم والأسرى والهاربين من جيش العدو الذين يخدمون بجانبهم.

كان أولئك اللاجئين إن وجدوا عند لحاقهم سكناً وقدرًا طفيفاً من المال، سرعان ما اضطروا إلى العمل للارتزاق، وهكذا تشكلت في المصانع وورشات المدن الجديدة نظام الإجارة.

أ. مدينة "تازة":

يسمىها الأمير تازة الجزائرية، أو تازة الصحراء للتفريق بينها وبين تازة المغربية، وبالنسبة لوصف المدينة فهي ذات منظر خلّاب تهبط تدريجياً من جبل يقع في الجنوب الشرقي منها إلى وادٍ منخفض، وبجانب التلال التي تمتد عليها المدينة يجري واديان صغيران عميقان، وبذلك تبدو المدينة وكأنها جزيرة تحيط بها حدائق غناء معظمها غابات البرتقال التي يملكها قائد المدينة من قبل كان يملكها السلطان وهي أجملها جميعاً¹.

وعند استئناف الحرب عام 1839 كانت "تازة" التي بنيت سنة 1838 تتألف من حوالي ثلاثين كوخاً، وبعد سقوطها في أيدي العدو سنة 1840، كان عدد سكانها خمسين بيتاً، مبنية بالحجارة المغطاة بالخشب والحشيش تخترقها طرق واسعة وترويه مياه القناة، وبفضل جهاز كانت تلك المياه تدير مطحنتين.

يصنع في المدينة نوع جيد من البارود يقال أنها توارثت صناعته منذ أوائل العهد المسيحي، وفي جوار المدينة توجد معادن الكبريت والملح الصخري، ولكن الكبريت لا يستخرج من هذه المناجم بسبب عدم وجود مختص في تقنيته وإزالة التراب الذي يختلط به². كما يوجد بها رحي ومستودعات للذخيرة إضافة إلى المتاجر³. ولما دخل الأمير مدينة "تازة" ورأى تشييدها في أقرب وقت، حمد الله وأثنى عليه وقال ارتجالاً⁴:

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص - ص. 34 - 35.

² - Pelissier (R.De.), Annales Algeriennes, T.2, Paris, 1854, p.p 467-468.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 313.

⁴ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 313.

• بورويبة رشيد، "القلاع والحصون والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير عبد القادر"، ص. 91.
• لقد كتب الأمير في أسفل الباب الحديدي: "هذه المدينة تازة قد أسست من طرف أمير المؤمنين الحاج عبد القادر نصره الله".

الله أعلم أن هذا لم يكن
 كلاً... وإن مني لقرية
 ورضى الإله هو المنى ليكون من
 مني على الأمل الطويل دليلاً
 مني وأصبح في التراب جديلاً
 بعدي انتفاع الخلق ثم طويلاً

ب. مدينة تلمسان:

كانت تسمى (Pomaria) في عهد الرومان، وبعدها أصبحت قاعدة الإقليم، في عهد إدريس الأول، أضحت مركزاً مهماً للدراسات الفقهية تحت سلطة المرابطين الذين أسسوا مسجدها الكبير، كما كانت مركزاً مهماً للتبادل التجاري بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، ولما ضعف سلطان الموحدون في النصف الأول من القرن السابع الهجري أصبحت عاصمة المغرب الأوسط تحت سلطان بني عبد الواد، ولكنها شهدت تدهوراً حضارياً وسياسياً في عهد العثمانيين بالجزائر.

هذا عن المدينة تاريخياً، أما جغرافياً فهي تقع على مرتفع من الأرض وتمتد في جنوب شرقها هضاب تشكل السلسلة التي تمتد على مقربة من "تافنة" تتجه إلى الشمال وتنتهي عند ساحل وهران، وتكاد تحيط بها الأشجار من جميع الجهات، يقدر عدد سكانها بعشرين ألف نسمة منهم ألف يهودي¹.

وتبدو أهمية المدينة بالنسبة للأمير من الناحية الاقتصادية العسكرية، فقد أنشأ مصنعا للمدافع، كلف إدارته خبيراً إسبانيا يدعى "دون خوسي" منحه الأمير بيتاً ويتلقى المواد الغذائية الكافية.

والقطع التي أنشأها المصنع تبلغ قوائفها أربعة وستة أرطال وهي مصنوعة من النحاس.

وقد أثبت هذا الخبير للأمير أنه معلم ماهر، حينما صنع له مدفعين تزن قوائف كل واحد منهما أربعة أرطال، وقد كافأه الأمير بمبلغ 3 دولارات، أو 12 شلن وستة بنسات لإنتاج القطعة الواحدة من المدافع.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص 66.

وكان دون خوسي يستعين بعمال هم من بين الأسرى الذين يحتفظ بهم الأمير في تلمسان، وكان من بين الخبراء ضابط برتبة قبطان في جيش المشاة الفرنسي¹.

ج. مدينة بوغار:

بنى الأمير حصن بوغار بجهة المدينة، وكان يحتضن معامل لصناعة البرانس، ومخازن كبيرة للكبريت والصدود ومعدن الرصاص، كما كان يحتضن زيادة على المرافق المنشأة لمصلحة السكان مستودعا للقمح والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والبنادق ونصيبا من الآلات المبعوثة من باريس².

د. مدينة سعيدة:

كان بعض سكانها من الحضر المطرودين من معسكر وتلمسان سنة 1836، بعد حملة كلوزيل، وكانت المدينة مستودعا للقمح والحديد.

هـ. مدينة معسكر:

عبر القبطان شانغارني عند دخوله إلى معسكر مع الجيش الفرنسي أنه تجول في مختلف أرجاء المدينة فوجدها أحسن مما كان يتصوره، إذ لم ير فيها خياما بل منازل موريسكية لا تخلو من جمال وأناقة والمسجد الكبير بها على غاية من الجمال كما شاهد من الأضرحة ما بهره ببديع صنعه ودقة زخارفه، ومن الناظر أن تقع العين على ذلك الرخام³.

و. مدينة تاقدمت:

أهم حصون الأمير على الإطلاق وكانت عاصمته ما بين 1836-1838، وتتضح الأهمية التاريخية للمدينة من خلال معرض حديث الأمير في جوابه عن سؤال دي فرانس

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.66.

² - لاكوست، المصدر السابق، ص.266.

يذكر "رينو" أن بوغار تقع أمام قصر البخاري، فوق مرتفعات الضفة اليسرى، ولقد بنى بها الأمير مستشفى ومستودعات ودكاكين تجارية، ويوجد بها بعض البيوتات المصنوعة بالحجر، وقد أخذ الفرنسيون عند احتلالها ثلاث مدافع. أنظر:

• Pelissier (R.De), Op.cit, p.467.

³ - Le Duc d'orléans, Op. cit, p.39.

عن المدينة: "إنها كانت جميلة جدا وعظيمة جدا وأنها عريقة في القدم، ولم تكن ذات يوم مسيحية وكانت إحدى أوائل المدن التي بناها العرب، وكان أجدادي السلاطين، الذين كان مركزهم تأقلمت يحكمون من تونس إلى المغرب الأقصى... وإنما ما زلت أمل أن أعيد إلى تأقلمت ماضيها المجيد وأني سوف أجمع القبائل فيها حيث ستكون في مأمن من هجومات الفرنسيين..."¹.

فعلا لقد كان للمدينة تاريخ عريق حيث بناها الرومان على مسافة ستين ميلا شرق وهران، وخلال عهد الازدهار الإسلامي كانت مراكز مهمة لحكومة الدولة الرستمية، وتيهرت التي بنيت على أنقاضها تأقلمت تبعد عن مدينة تيارت بثماني كيلومترات، عند منحدرات جبل قزول، أسسها الشيخ الإباضي عبد الرحمن بن رستم في النصف الثاني الهجري من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وسرعان ما تطورت ونمت في عهده وأضحت عاصمة المغرب الأوسط السياسية والدينية وقد قامت بدور هام في الحياة الاقتصادية حيث شكّلت ملتقى القوافل القادمة من مختلف أقطار العالم العربي.

وكانت إلى جانب ذلك مركز إشعاع ثقافي تحتل فيه العلوم الدينية مكان الصدارة، إضافة إلى إنتاجها للعلماء والشعراء، وفقدت تيهرت أهميتها بعد سقوط الدولة الرستمية سنة 296 هـ / 908م، فقد ألحق بها تأسيس مدن أشير، والمسيلة وبجاية ضررا بالغا، فعندما دخلها الأمير سنة 1836 وجدها أنقاضا تعرف بتأقلمت.

• دوافع اختيار وبناء تأقلمت:

عندما استرجع الأمير مدينتيه معسكر وتلمسان بعد سقوطهما على يد الجنرال كلوزيل شعر أن لهما قلة مناعة، فأراد أن يهيئ قلعة حصينة فقرر تأسيس تأقلمت وجعلها عاصمة له.

ويأتي اختيار الأمير هذا بناء على الأهمية التاريخية والحضارية لها إضافة إلى الموقع الجغرافي الممتاز، فهي تصل التلّ بالسهوب وتتحكّم في مناطق وعرّة المسالك ومتنوعة التعاريف. ولها حصانة طبيعية فهي تقع على منحدر هضبة في غربي القلعة وتمتد

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 139.

حتى نهاية هذه الهضبة فوقها يشبه إلى حد كبير مدينة "إسلا" قاعدة شارل الخامس في نفار¹.

وقد سأل دي فرانس الأمير أثناء محادثته له معه قائلاً: ماهي مشاريعك التي تتوي تحقيقها برفع أنقاض هذا المكان ووضع أسس لهذا المعقل.

فأجابته الأمير بأنه يريد تشييد هذه المدينة وجعلها أكبر وأكثر ازدهاراً مما كانت عليه، وبناء حصن آمن يقيني من هجمات الفرنسيين، وقد راق موقعها الجزائريين إذ كان يعجبهم الاستقرار به لما يجدون فيه من منافع ومزايا كبيرة، فأردتها مركزاً يربط تجارياً بين التلّ والساحل، وأيضاً شوكة أضعها في أعين القبائل المستقلة بالصحراء، التي لم تعد قادرة على الهروب مني، بل بادرت بالخضوع لي.

وقررت عندما أستكمل بناء هذا المعقل المنيع، أن أنطلق منه للانقضاض على المسيحيين، فأطردهم من جميع المواقع التي استولوا عليها.

وفي هذا الصدد يقول الدوق أورليان: " يتحسّب الأمير للضراء في أيام الرخاء، والسرّاء، ويعمل على اتقائها، ويختار لنفسه خطاً دفاعياً ثانياً... وفي هذا الموقع البعيد عن الحدود التي يفترض إمكان وصول طلائع الفرنسيين إليها، عمدت تحت حماية الحصون... إلى ايداع كنوزه، وودائعها، ومعامله، وترسانته وجميع موارده التي وفرّها ببصيرته النافذة لمواجهة حرب تكون الغلبة فيها لمن هو أكثر صلابة ومثابرة"².

ويرى ليون روش أن الأمير عزم على أن يجعل من تاقدمت مركزاً لقوته وسلطانه نظراً لأهميتها التاريخية³، أمّا بول أرزان فيذكر أنه عندما سقطت مدينتنا معسكر وتلمسان، قرّر الأمير نقل مخازنه وتمويناته إلى الجنوب وإيداعها في خرائب تاقدمت الكبيرة، وكان يعتزم تحويل هذا المعقل الحصين بعد ترميمه وإصلاحه إلى عاصمة عسكرية، وترسانة، وملاذ تنطلق منه حملاته العسكرية الرامية إلى طرد الفرنسيين من الجزائر.

¹ - صاري جيلالي، " دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، ص.106.

• الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.89.

² - بوروية رشيد، "تاقدمت عاصمة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع.88، 1404هـ/1984م، ص - ص.125-

³ - Roches (L.), Trente deux ans à travers l'Islam (1832-1864), P.277.

• Pelissier (R. De.), Op. cit, T.1, P.460

وهكذا تبين أهمية تآدمت العسكرية و الاقتصادية و الاستراتيجية، فقد ساعدته على بسط نفوذه على المناطق النائية حيث بقيت أربع مراكز فقط لم تصلها سلطته وهي: ميزاب، ورقلة، تقرت، وادي سوف.¹

وعن إعادة بناء تآدمت يروي دائما "دي فرانس"² الذي حضر نزول الأمير المدينة أنه وضع منذ مدة طويلة قرار رفع أنقاض مدينة قديمة، ولكي يوفر لنفسه الموارد ويحصل من القبائل المجاورة على المؤونة والزاد، وكثيرا من المعونة عند الأشغال، أعفاهم من الضريبة، وأعرب لقادته أن يتلقى المساعدات مستقبلا والتي تنقل إلى معسكر.

وفي 20 سبتمبر 1836، عند وصولنا إلى نواحي تآدمت، وبينما كانت جيوش الأمير عاكفة على تجهيز المعسكر الجديد وإعداده، رحل الأمير مصحوبا ببعض المرابطين لزيارتها. وعندما رجع دخل المعسكر وأصدر أوامره برفع الأنقاض من المكان الذي كانت تحتله القسبة قديما وبناء معقل بدلا من ذلك.³ وقد قام الأمير بتحريك هذه الأنقاض، وهو يأمل في بعث الحياة من جديد في خرائب هذه الأمة الكبيرة، ويريد إعادة تعمير المكان الواسع المهجور، ووضع أسس لمدينة تكون عاصمة يحكم منها الجزائر جمعا.⁴

اجتمع بن بكير وبوشليحة، الجيلالي، بن فاخة، بن عبو⁵ لتباحث موضوع إعادة بنائه تآدمت، وأما القلعة، فقد بدأ العمل في إعادة بنائها، وكانت عدة مئات من العمال العرب

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 136-137.

• بنت الشاطي، "عبد القادر قصة بطولة وكفاح في سبيل الوطن العربي"، ص - ص. 46-50.

² - بورويبة رشيد، "تآدمت عاصمة الأمير عبد القادر"، ص. 124.

³ - بونار رابح، "نظام الحكم في إمارة الأمير عبد القادر"، ص. 124.

⁴ - بورويبة رشيد، "القلاع والحصون والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير عبد القادر"، ص - ص.

29-31.

⁵ - ابن عبو: يصفه القبطان "دوماس" قنصل فرنسا في معسكر، في رسائله إلى حكومته بأنه يشغل منصب أمين المال، ويتمتع بثقة الأمير التامة، ويكره الفرنسيين كرها شديدا، تأخذ سحنته إلى لون الرمل الغامق ويبلغ من العمر نحو الستين، أبيض الشعر، وتبلغ قامته نحو ستة أقدام، إنه يتحدث من أنفه بسبب حادث مؤسف وقع له في معركة اشترك فيها في تافنة.

أنظر: الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 103.

يعملون منذ الآن لإزالة الأتقاض¹.

وأول حجر لتأقدمات الجديدة وضعه الأمير في شهر ماي 1836، كما وضع خطة التحصينات التي كانت ستحيط بها، وقد دفع جوائز لكل القبائل المحيطة بها، شرط أن ترسل العمال للمساعدة في بناء الحصون، فسكان معسكر تحملوا مسؤولية توفير السلال والمجارف والمعاول، أما سكان المدينة ومليانة فتوفير الأجبان والفواكه المتنوعة، ومن هذه التموينات تقدم أجور العمال وأطعمتهم.

وكان الأمير يشرف على كل العمال برقابة شخصية مستمرة، حيث كان لباسه من البساطة بحيث لا يميزه المرء من العمال إلا بصعوبة.

الزمامة²

عندما شعر الأمير أنه يحارب ضد عدو محظوظ ذلك أن مراكزه الثابتة قد تعرضت للغزو وخربت وأصبح أعضاء أسرته وعائلات أكبر أتباعه عرضة لزيارات الغرباء الكفرة وما صاحبه من تعدي على الحرمات فأصبح تحقيق عمل مزدوج بإفشال خطط العدو من الخارج ووقف انتشار روح التخلي عنه في الداخل أمرا صعبا للغاية.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.103.

² - الزمامة لغة : زمل يزمل ويزمل زمالا: عدى وأسرع معتمدا في أحد شقيه، رافعا جنبه الآخر وكأنه يعتمد على رجل واحدة وليس له بذلك تمكن المعتمد على رجليه جميعا. والزامل من الدواب الذي كأنه يضلح في سيره من نشاطه. والزاملة البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع. أو بعير يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه وطعامه. وفي حديث أسماء: "كانت زمامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزمامة أبي بكر واحدة أي مركوبها وأدواتها وما كان معهما في السفر.

وزمل الشيء أخفاه، أنشد ابن حنين: "يزملون حنين الضغن بينهم & والضغن أسود أوفي وجهه كلف" وقوله تعالى: "يا أيها المزمل". قال أبو اسحاق: "المزمل أصله المتزمل بمعنى تلفف بثيابه".

واستنتاجا: الزمل الخفة والسرعة.

أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مج.3، مادة زمل، ص - ص.1863 . 1865.

ولم يطل به التفكير في سبيل العثور على خطة محكمة وتصميماً لا يزال مبعثاً للاكبار وهو تأسيسه لعاصمة متنقلة كانت مثار دهشة واستغراب وهي بكل ما تحتوي عليه من أقال كانت سريعة التحرك خفيفة الحمل والإقامة تنتقل خطأها حسب التكتيك الحربي¹.

والسؤال المطروح ما هي الزمالة؟

هي عاصمة الأمير المتنقلة الجديدة عقب تدمير معسكر وتقدمت وإحلالهما، هذه المنظمة الفريدة كانت عبارة عن مجمع من المنازل الخاصة، لقد كان العرب يرسلون إليها باعتبارها مأمناً وملجأً مشتركاً لأشياءهم الثمينة وقطعان ماشيتهم ونساءهم، أطفالهم وشيوخهم وعجزتهم.

وبذلك أصبحت عاصمة ضخمة متنقلة تقدر بأكثر من 20 ألف نسمة² وكانت تتبع حركات الأمير سواء في تقدمه نحو المدن أو في تراجعها نحو الصحراء. وعندما ما تكون العاصمة في الصحراء فإن الخيام تصبح في الأفق الواسع أما عندما تكون في التل فإنها تملأ السهول وتغطي منحدرات الجبال.

أما عن تنظيمها فقد كانت منظمة حسب ترتيب عسكري محكم فالدوائر التي كانت خيامها تختلف عدداً، بناء على قوة كل منها كانت موزعة على أربعة مخيمات كبيرة، وكل دائرة تعرف مكانها، وكل رئيس له مركز معروف ووظيفة معينة طبقاً لمكانته والثقة التي يوحى بها³.

¹ - حرب أديب، المرجع السابق، ج. 2، ص. 595.

• Notice sur l'expédition qui s'est terminer par la prise de la Smalah d'Abd El Kader, le 16 Mai 1843, p. 11.

• Roche (L.), Trente deux ans a travers l'Islam,, T2, p.263.

² - Notice sur l'expédition qui s'est terminer par la prise de la Smalah d'Abd El Kader, le 16 Mai 1843, p. 13.

• بلمار قدر عدد السكان بـ 60 ألف نسمة، أنظر:

• Bellemare (A.), Op. cit, p-p. 286-288.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 199.

وفي هذا الصدد يقول الأمير: "كان نظام التعسكر محترما من الجميع ومنظما تنظيميا دقيقا فعندما أضرب خيمتي يعرف كل واحد المكان الذي يشغله"¹.

وهكذا كان التنظيم دقيقا، ففي الوسط خيمة الأمير محاطة بخيم أقربائه وخدامه وبالتالي:

- النطاق الأول: ويضم خمسة دواوير.

- النطاق الثاني: يمثل دوار خلفائه الكبار وعائلاتهم، والجند النظامي، والرؤساء المهمين ويمثل 10 دواوير.

- النطاق الثالث: ويضم الحشم الشراقة والغرابة الذين كان عددهم قليلا، ولكن حين سقوط الزمالة كان عددهم كبيرا، لأن الأمير أتى بمعظمهم من غريس، ويمثل هذا النطاق 207 دوارا، وكان كل دوار يحتوي على 15-20 خيمة.

- النطاق الرابع: قريب أو بعيد من النطاقات الأولى تبعا لصعوبات أرض المنطقة ويضم 146 دوارا وبالتالي فالمجموع 368 دوارا يشكل الزمالة².

ولم يدخر الأمير جهودا في الدعاية لها والهجرة إليها، ولذلك كان العدد يزداد يوميا، وقد أدى إلى توحيد القبائل تدريجيا ودون شعور، تربطها أقوى عرى الأخوة والإنسانية. وعين الأمير أربعة قبائل كانت مهمتها مراقبة وحماية، وإرشاد الزمالة أثناء تحركاتها، كما عين جندا نظاميا لحراستها، يتراوح عدده ما بين 300-400، إلى جانب الفرسان غير النظاميين وكلف اليهود رسميا بتقديم قروض من النقود إلى المحتاجين منها³.

وتأتي أهمية الزمالة انطلاقا من وعي الأمير بالأخطار التي تتجرّ عن فعل قوات الاحتلال، ولأنه يريد أن يواصل الكفاح أطول مدة ممكنة فلا بد من ترتيب عاصمة ذات

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.215.

• Le cheval de troie « La Smalah une conferie namade », par Bruno (E.), p.64.

² - Notice sur l'expédition qui s'est terminer par la prise de la Smalah d'Abd El Kader, le 16 Mai 1843, p.12.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص.199 - 215.

نمط عمراني مغاير يتلاءم ومقتضيات الخطة الجديدة التي ستسلكها المعارك وتراعي متطلبات التنظيم والدفاع الاجتماعي والاقتصادي الذي عليه الحرب الشاملة¹.

لقد أصبحت الزمالة وسيلة مراقبة قوية لحفظ الأمن وبسط السيادة، ضد هروب بعض القبائل، ذلك أنه عندما يُغريهم الفرنسيون بالعهود المعسولة، كان هناك صوت يوشوش *«إين لدي نساءكم وأطفالكم وقطعانكم فاحذروا»*².

لقد لاقى هذا الإجراء الغريب والجديد نجاحا كبيرا وحقق الأهداف التي جعل من أجلها، إذ شملت هذه العاصمة الواسعة جميع مؤسسات دولته وإدارتها، من منشآت عمومية بما في ذلك المدارس والمساجد ومصانع الأسلحة وورش التصليح ومصانع السروج، المدابع ودكاكين للخياطين والحدادين بالإضافة إلى المتاجر العادية كما كانت تعقد فيها أسواق دورية للتبادل التجاري بقصدها السكان المقيمون على أطراف الصحراء لمبادلة منتوجاتهم بمنتجات الزمالة ومصنوعاتها، وبالنسبة للحبوب والقمح والشعير فكانت تجلب من قبائل الشمال³.

وإلى جانب ذلك كانت لها وظيفة إدارية حيث كانت تضم الدواوين الحكومية وخزينة بيت المال وخزائن الولايات، ومستودعات الخلفاء ورجال الدولة من الأموال والمجوهرات. بالإضافة إلى الجانب العلمي فلو أعطي للأمير الوقت لم يجعل منها فقط مركزا لسلطته بل مركزا علميا حيث كان يخطط لإنشاء مكتبة ومدرسة ثانوية، وإذا استخدمنا تعبيره هو: *«فإن الله لم يشأ ذلك، فالكتب التي أحضرتها من كل أجزاء الشرق لهذه المكتبة أخذت مني، عندما استولى ابن الملك على زمالتي، ومما زاد في سوء حظي أنني كنت قادرا على*

¹ - صاري جيلالي، « دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر »، ص. 107.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 199.

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 215.

• قدر (Etienne) سكان الزمالة بـ 20 ألف نسمة بالإضافة إلى 12 ألف حصان و 3 آلاف من البغال. أنظر:

Le cheval de Troie « La Smalah une conferie namade », par Bruno (E.), Op. cit, p.62.

تتبع طابور الجيش الفرنسي أثناء عودتهم إلى مدينة المدية، بأوراق الكتب الممزقة المبعثرة، تلك الكتب التي كانت قد كلفتني كثيرا من الوقت والجهد لجمعها¹

• سقوط الزمالة:

كان سقوطها إثر واقعة طاكين 16 ربيع الثاني 1259هـ/15 ماي 1843، وكان السبب خيانة عمر بن فراح من بني عياد، حيث انطلق ابن الملك في 10 ماي 1843، ووصلها في 14 ماي بإرشاده على رأس 1300 رجل و600 فارس ومدفع ميدان²، وأخطأوا بداية، لكن عمرا كشف مكانها في 16 ماي عند نبع طاقين، وفي أقل من ساعة كان النصر حليف الفرنسيين لوجود خمسمائة جندي فقط لحراستها.

إضافة إلى أن الأمير، كان قرب تأقذمت يراقب الحملة الفرنسية بوهران، كما كان قواده الكبار منشغلين (ابن خرّوب في فليّنة، ابن علاّ في الونشريس، ابن التّهامي بين بنسي ورغة)، ولم يكن أحد يراقب تحركات ابن الملك جهة المدية³.

وهكذا سقطت الزمالة، وكانت الخسائر كبيرة، المكتبة (5 آلاف ليرة)، 3 آلاف أسير (عائلات خلفاء الأمير، إبنة المولود بن عرّاش، عائلة الخرّوبي)، آلاف الحيوانات، الصندوق العسكري (ملايين الفرنكات)، صناديق خلفائه وقواده (محشوة بالنقود الذهبية، والفضية والحلي الثمينة)⁴.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.139.

² - Azan (P.), Bugeaud et l'Algérie, préface de M. André Maginot, Paris, 1930, p.72

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص. 213 - 215.

⁴ - ابن عبد القادر محمّد، المصدر السابق، ص.430.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.215.

• Xavier (B.), Op. cit, p-p.254-255.

• Azan (P.), Les grands soldats de l'Algérie, p.55.

• Benhachhou (A.), Op. cit, p.131

• Notice sur l'expédition qui s'est terminer par la prise de la Smalah d'Abd El Kader, le 16 Mai 1843, p.17

وكان وقوع الزمالة خسارة كبيرة وصدمة للأمير، فتجأ بالصبر والصلاة وقال: الحمد لله أن كل تلك الأشياء التي كنت أقدرها حق قدرها والتي كانت عزيزة على قلبي، والتي شغلت قلبي كثيرا، لم تزد أن أعاقبت حركاتي وحولتني عن الطريق الصحيح أما في المستقبل فسأكون حرا في محاربة الكفار".

وكتب إلى خلفائه: "إن الفرنسيين قاموا بغارة ضد الزمالة، ولكن علينا أن لا نفقد الشجاعة سنكون منذ الآن أخف حملا وأفضل استعدادا للحرب".

وقد حلت الزمالة بتخوم المغرب الأقصى في 28 شعبان 1259هـ/22 أيلول 1843، وبقت إلى غاية توقف الأمير عن الجهاد سنة 1847.

4. 6/ توقف الأمير عن مواصلة الجهاد :

تقول بديعة الحسني: لم يكن في نية الأمير "تسليم نفسه" للعدو ليقتل أو يسجن بل كان يبغي الهجرة التي أمر الله بها عباده المضطربين وتسليم أمره إلى الله عز وجل".

لقد كان الطريق الوحيد والشانك أمامه هو الهجرة التي أصبحت فرضا شرعيا عليه، وهو الفقيه العلامة الذي لم يحد قيد نملة عن شرع الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - منذ قبوله حكم البلاد وبناء دولته ومحاربة الإستعمار.

تحدث العلماء كالبخاري والنووي ومسلم عن شروط الهجرة فقالوا:
"إن كان للمسلم قوة أو عشيرة تحميه أو كان في مأمن على حياته وماله ودينه فالهجرة غير مفروضة عليه".

ولكن الأمير بات محاصرا من إخوانه الذين جندهم ليتخذوا منهم حاجزا ودرعا له ورفض كثير من أعوانه الاستمرار في المقاومة، فقرّر أن يختار بلادا إسلامية أرضا لهجرتة.

وإن هذا القرار كان بعيد المرامي والأهداف ومبني على حقائق تاريخية موثقة وشرعية وكان قرارا بالاجماع وليس من طرف الأمير وحده¹.

فهل ما اختاره الأمير هو توقف عن الجهاد؟ وإذا كان كذلك فما هي الظروف والأسباب والنتائج التي أحاطت به؟

تبدأ عوامل ضعف الأمير ابتداء من وقوع زمالتة في قبضة الدوق "دومال" حيث انهارت معنوياته خاصة بعد النكبات التي حلت بمساعديه إما بوقوعهم في الأسر أو لأنهم لقوا حتفهم في مقاتلة جيش الاحتلال وبالتالي لم يكملوا المهام التي كلفوا بها.

¹ - الحسني بديعة، المصدر السابق، ص.182.

فقد استسلم بومعزة في تاقدمت، ثم جاء دور أحمد بن سالم أحد خلفاء الأمير الشجعان الذي سلم نفسه للعدو بعد مقاومة يائسة في سور الغزلان¹. وباستسلامه ضعف نفوذ الأمير في الجهة الشرقية وقعد الأهالي عزمهم وبدأت القبائل تسارع للدخول في طاعة الفرنسيين².

4. 6. 1 / سياسة بيجو وأثرها في إضعاف قوة الأمير:

عندما عزل الجنرال "قالي" ونظرا للخسائر الفادحة التي تسبب فيها، عيّنت الحكومة الفرنسية الجنرال "بيجو" 22 فيفري 1845، ووضعت له إمكانيات ضخمة لم يحصل عليها أي حاكم آخر، إذ بلغ عدد جيشه 108 ألف جندي أي ما يعادل ثلث الجيش الفرنسي وقد اتبع أسلوب الإبادة، حيث يرى بأن الاحتلال يجب أن يتحقق، وكل شيء يقف في طريق الوصول إليه يجب أن يزول مهما كانت قيمته، فاستغلّ سياسية "الأرض المحروقة" وأعطى لجنوده الأوامر بأن يخلقوا جواً من الرعب تستحيل فيه الحياة المادية للجزائريين، فكانت أوامره اليومية على النحو التالي:

حرق المحاصيل الزراعية، حجز النساء والأطفال إمّا كرهائن أو للبيع للحصول على الخيول، وخنق قبائل كاملة في الكهوف، ومناظر الرعب والهلع.

وقد أثرت سياسته على القبائل، حيث أبيد الأهالي في جبال جرجرة، وسطيف والزبيان وجبال عمّور، وقد تغلبت بكثرة جيشه لا غير³ وأمام هذا الوضع أعربت القبائل رغماً عنها أنها غير قادرة على مساعدة الأمير، وهناك من طلبت منه عدم الالتجاء إليها للضرر الذي لحقها (قبائل أولاد سيدي الشيخ)، وبالتالي أصبح الأمير يرتحل عنها فاقداً بذلك للدعم المادي والمعنوي⁴.

¹ - ما يذكر أن ابن سالم طلب من العدو تخليّة سبيله إلى المشرق فأمنه ووعدّه باجابة دولته إلى ما طلب منه، وقد وقع التسليم في 12 ربيع الأول (1263 هـ/ 29 فبراير 1847).

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 482.

³ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ص. 20.

• Cleach (A.), Op. cit, p-p. 87-88.

⁴ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 464 - 465.

وهنا عرضت عليه سلطات الاحتلال التوقف عن الجهاد مع السماح له بالذهاب إلى الأستانة لكنه رفض وأثر اللجوء إلى المغرب ريثما تتاح له فرصة استئناف المقاومة. ولكن الفرنسيين لم يستسلموا للأمر، وضغطوا على حكومة المغرب وسلطانها، وهددوه باستخدام القوة، وبالفعل احتل "لامور سبير" المراكز الواقعة على الحدود مثل سبدو وللأمغنية.

وقد أدت حوادث الحدود إلى اشتباكات مع قبائل بني سناسن ومطير، ووقعت معركة "إيسلي" بين فرنسا والمغرب، حيث هزم هذا الأخير فيها، كما قام الأمير "دي جوانفيل" بقصف أسطول طنجة في 6 أوت 1844 فحطم نصفه ليحتل بذلك جزيرة "موجادور"، مما أدى بالمغرب إلى توقيع معاهدة طنجة مع فرنسا يوم 10 سبتمبر 1844. وهذا الضغط جعل سلطان المغرب يجري تخطيطا جديدا للحدود المغربية الجزائرية والكف عن مساعدة الأمير¹.

وهكذا عاد الأمير إلى الجزائر سنة 1845 حيث استأنف القتال في سبتمبر وأدى هذا

إلى:

• انتشار الثورة في جنوب وهران.

• اتصال الأمير بزعماء الجمعيات الدينية الثائرة.

لكن فرنسا أبادت هذه الجمعيات وتفرغت للأمير بخمسين ألف جندي، فراجع إلى

الحدود المغربية من جديد ليقوم مع القبائل الموالية له.

لكن الضغط الفرنسي تواصل، حيث بعث بيجو يهدد القبائل المغربية وأعطى

الأوامر لقائد القوات على وهران، بأن يزحف على الحدود المغربية، وبعث إلى دولته يعلمها

بانتهاج المقاومة، ويطلب إعفائه من أعماله لشدة ما لحقه من المتاعب وذلك في 4 ماي

1847، بعد أن أباد نصف شعب بأكمله.

¹ - كاتب ياسين، الأمير واستقلال الجزائر، ص. 26.

• بلاسي أحمد نبيل، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب،

مصر 1990، ص. 18.

• لمزيد من التفصيل: أنظر: الفصل الثاني من الباب الثالث، العلاقات الخارجية للدولة الجزائرية في

عهد الأمير عبد القادر.

4. 6. 2/ موقف المغرب المعادي للأمير:

بعد هزيمة المغرب في معركة "إسلي" أمام الجيش الفرنسي، ضعف أتكال الأمير على المساعدات المغربية، حيث تتكررت السلطات المغربية له، وازداد تحرشها به تحت الضغط الفرنسي¹ ووجد الأمير نفسه محاصراً بجيشين، المغربي من جهة، والفرنسي من جهة أخرى.

وأثناء الحصار، وجّه الأمير نداء أخيراً إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام، وقد كلف بالمهمة "محمد البوحميدي" وذلك في شهر نوفمبر 1847. وفي الوقت الذي ابتعدت فيه القافلة، أحسن الأمير بحسرة قاتلة تعصر قلبه، وكأنه أحسن بما سيحدث لرفيقه وخليفته، وتحت تأثير هذا الألم تفجر بأبيات شعرية مرتجلة في أروع صورة تعبيرية، مفعمة بالمشاعر الصادقة².

قَدَّتْ يوم البين جيد مودعي	دررا نظمت عقودها من أدمعي
وحدى بهم حادي المطايا، فلم أجد	قلبي، ولا جلدي، ولا صبري معي
ودعتهم ثم انتثيت بحسرة	تركت معالم معهدي كالبقع
ورجعت لأدري الطريق ولا تسل	رجعت عداك المبعوضون لمرجعي
يا صاح.ع. وانصت لأخبار الهوى	حاشى لمتلك أن أقول ولا يعي
إنني أحدث الهوى بغرائب	وعجائب حتى كأنني الأصمعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم	طيب الحياة، ففي البقاء، لا تطمعي

¹ - لاكوست، المصدر السابق، ص. 278.

² - خرفي صالح، المرجع السابق، ص - ص. 55 - 57.

• "شيربونو أوجست" المستشرق الفرنسي 1813-1882 الذي كان معلماً للغة العربية بقسنطينة، و "هنري بريس" وصي استعماري للغة العربية، نشر سنة 1832 قصائد لعبد القادر نظمت في الجزائر وفرنسا، وكليهما كذب على الأمير عبد القادر في أن هذه الأبيات قالها في تغزله بسيده فرنسية. ولكن باتروني المترجم العسكري اهتم بهذه القصيدة حيث نشر مقال بعنوان "ارتجال للأمير عبد القادر"، ورد على شيربونو وهنري في أن القصيدة قيلت في توديع البوحميدي. أنظر: خرفي صالح، المرجع السابق، ص. 54.

وفعلا فقد سم البوحميدي غدرا بأمر عبد الرحمان بن هشام، وفي نفس الوقت توفي في "تازة" محمد بن عيسى البركاني، وخليفته السابق على المدينة.

لقد أنقل الأمير النضال ضد ثلاث جبهات، جبهة الفرنسيين، وجبهة القبائل التي نكثت العهد وتنازلت عن الكفاح، وجبهة السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام.

ولم تغن محاولات الأمير لرد القبائل إلى النضال الوطني لا بالإقناع ولا بالقوة، كما فشلت جهوده لتجنيد قوات من قبائل الصحراء، فأينما حل وجد الفرنسيين أمامه قد سبقوه، وقد استسلم أولاد نائل، وبنو صهيب، وبنو حسن الذين طالما مون نفسه من مواردهم، واعتاد أن يجد عندهم الملجأ وقت الشدة.

وحيثما حل الأمير وجد القنوط والفتور واليأس، حتى أصبح نزوله ببعض القبائل من سوء الطالع.

ومما زاد من صعوبة الموقف وشدته، إصرار عبد الرحمان بن هشام على خروج الأمير من الحدود المغربية ثم نشوب الحرب بينهما¹.

ولما كبر على الأمير مقاتله من هم من بني جلدته، رأى التسليم للأقدار، فجمع مجلسه واستشاره قائلا: *إن المقاومة قد انتهت وعلينا أن نعتزف بذلك، والله شاهد على أننا قد حاربنا طالما كان في وسعنا ذلك، ولكن القبائل أصبحت متعبة من الحرب، ولم تعد تطيعني، ولم يبق أمامنا سوى الاستسلام، والسؤال الآن: لمن نسلم أنفسنا إلى الفرنسيين أم إلى السلطان عبد الرحمن؟ لكم أن تقرروا ما تشاءون ولكن أفضل ألف مرة من أن أثق فيمن حاربنى على من خانتني*².

¹ - عبد العظيم رمضان ، المرجع السابق، ص - ص. 132 - 133.

² - حول ظروف توقف الأمير عن الجهاد، أنظر: ابن التهامي مصطفى، المصدر السابق، ص. 174.

4. 7 / موقف العالم الإسلامي وأثره في توقف الأمير عن مواصلة الجهاد:

لم يكن العالم الإسلامي في وضع يمكنه من تقديم المساعدة، وبخاصة بعد أن حصن الفرنسيون الحدود منعا لتسرب الإمداد، وكانت الدولة العثمانية حينئذ ضعيفة أمام دول أوروبا الفتية، فضلا عن اللامبالاة من طرف سلاطينها إزاء ما يجري في الجزائر والأقاليم التابعة لها.

فهؤلاء السلاطين كانوا في غفلة من الزمان، ولم يبق لهم من الإسلام إلا الشعارات والطقوس والظلال، ولم يبق لهم من لغة القرآن إلا العبارات الدينية التي تقال في المناسبات، بل لم يبق لهم من القوة إلا قوة التآمر على بعضهم.

أما علماء المسلمين، فقد كان أغلبهم كما قال "ابن العنابي" منشغلين بتكوير وتكبير العمائم وإطالة أكمام الجبابب، وصبغ اللحي، والشوارب، والتكثير من حبات السبح، والتحذلق والحوقلة، والتقرب من ذوي السلطان والنقاش حول الحلال والحرام، أما أمر الجهاد فمطروح جانبا ولم يفهم هذا بل دعموا "ليون روش" في فتواه.

فكانوا بموقفهم هذا قد خذلوا الأمير في جهاده، وأثروا على حركته ربما أكثر مما أثرت عليه لامبالاة سلاطين آل عثمان، أو سيوف سلطان فاس¹.

¹ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص - ص. 275- 276.

4. 7. 1/ فتوى "ليون روش" ¹:

لقد اقترح بيجو زيادة على خططه العسكرية فتوى من كبار العلماء تحرم على المسلمين محاربة أهل الكتاب لتفتيت صف الأمير، واختير "ليون روش" لهذه المهمة. فقد سافر إلى تونس، واستطاع بمساعدة رفقائه من اتباع الطريقة التيجانية، أن ينال الفتوى من مجلس علماء القيروان، في 7 أوت 1847، ولتدعيم هذه الفتوى واصل روش رحلته إلى الحجاز، مروراً بمصر وصادق عليها علماء الأزهر، وشريف مكة والطائف.

وخلصة هذه الفتوى يجب على المسلمين مهادنة الكفار الذين غزوا بلادهم أو أراضيمهم بالقوة، وذلك إذا لم يؤذ هؤلاء نساءهم، وأطفالهم وسمحوا لهم بممارسة دينهم، وتركوا لهم حرية إيمانهم ².

وقد قال أحداً الباحثين الفرنسيين: "وقد أدت هذه الوثيقة (الفتوى)، في وقتها أكبر خدمة لتأسيس احتلالنا للجزائر" ³.

إذن بناء على العوامل والأسباب المتقدمة لتوقف الأمير عن الجهاد بعد أن نفذت قدرته الحربية وتحطمت قواه المعنوية ⁴.

¹ - ليون روش: ولد في "جرينوبل" سنة 1810، تخرى عن دراسته ولحق بأبيه في الجزائر سنة 1832، وهنا عكف على دراسة اللغة العربية، ثم عين مترجماً محلفاً سنة 1835، وقد تقلد رتبة ملازم أول في عهد الجنرال كلوزيل.

وبعد توقيع معاهدة تافنة التحق بالأمير وأعلن إسلامه (طبعاً للتظاهر فقط، وخدمة لمصلحة بلاده)، في هذه الأثناء كان يعمل جاسوساً ويمد فرنسا بالمعلومات والأسرار.

في أكتوبر عام 1839 هرب وعاد إلى الجيش الفرنسي ليعمل مترجماً عسكرياً من الدرجة الثانية في عهد فالي، ثم كبير المترجمين في قيادة الجنرال بيجو.

بعدها أحيل على المعاش، كتب مذكراته "ثلاثون سنة في الإسلام" في جزأين خلال 1884-1885، وقد توفي في ماي 1901.

أنظر: الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 169. ومناصيرية يوسف، المرجع السابق، ص - ص. 62 و7.

² - مناصيرية يوسف، المرجع السابق، ص. 40.

³ - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج. 1، ص. 276.

• Benhachenhou (A.) *Op. cit*, p-p. 139-141.

⁴ - الورتلاني الفضيل، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة 1992، ص - ص. 55-56.

إن السؤال الذي طرحه بعض المؤرخين والباحثين: لم اختار الأمير مخرج التوقف عن الجهاد والذهاب إلى المشرق، وأثره على الثاني وهو النزوح إلى الجنوب، حيث كان بإمكانه استئناف المقاومة؟

في الحقيقة لا نستطيع أن نجيب بجواب قطعي، كما لا يمكن أن نتقبل المؤكّدات الموجودة في كتب التاريخ لما فيها من الأغراض.

ولكي نفهم الظروف التي ألجأت الأمير إلى اختيار التوقف عن الجهاد على النزوح إلى الجنوب. يجب أن نذكر أولاً أن الحكم الذي أصدره كان خطيراً جداً لا على نفسه لأن توقيفه عن الجهاد أو نزوحه إلى الجنوب مآلهما واحد، وخصوصاً بعد انتهاء المأمورية، مأمورية انقاذ الحرية الجزائرية. بل الكلام حول مستقبل الجزائر والخطر الذي كان يهدده من طريق الحكم أو القرار الذي اختاره الأمير، الذي أثبت انتصار المحتل عندما أخذ صكّ توقف قائد عظيم عن الجهاد.

وسيكون لذلك حجة قوية في نشر دعايته، يستظهر بها، ويتخذها ذريعة لتنفيذ خطته، وفرض سلطته على الجزائريين، كلما أراد منهم أن يخضعوا إلى قوانين لا تلائم مشاريعهم الفكرية وعقائدهم الدينية.

ولو نزح الأمير إلى الجنوب ثم إلى تونس ومنها إلى المشرق الذي كان يأمل فيه تحقيق أهدافه لكان قد قام بعمل عجيب لا يخلو تحقيقه من الأخطار، لكن فيه لذة التصحية في سبيل الوطن، ولمنع الجزائريين من السقوط في أحضان اليأس الذين بقوا فيه أمدا طويلا ولعللوا أنفسهم مفتخرين بقول المحتل "إننا لم نتوصل إلى القبض على الأمير".

ولكن ومع أنه هذا الذي يجب أن يقال، فلا بدّ من انصاف رجال الماضي، بأن نحيل حياتهم في ذلك الوقت، ونراعي الظروف التي أحاطت بهم.

فمن الممكن أن الأمير لم يفكر مطلقا في الأشياء التي تحدثنا عنها، ولم ير آنذاك سوى شيء واحد بسيط وهو أنه لما خابت مساعيه من أجل إنقاذ وطنه، لم يبق لديه سوى الميل إلى التقاعد، حيث يتمكّن من قضاء بقية عمره في عبادة ربه بالأراضي المقدسة، وهذا أمل كل مسلم.

وهل يصح أن نتكلم عن توقف عن الجهاد مع أن الأمير كان لا يرى في موقفه هذا سوى إيقاف المناورات للذهاب إلى المشرق ليقوم بسعي آخر لتدعيم موقف بلاده.

ولو رجعنا إلى ذلك العهد لاطلعنا على الآلام الحسية والمعنوية التي قاساها الأمير ومن معه في أرض الغربية التي لم تألفها طباعهم.

ورغم العروض التي قدمت له بفرنسا بما تحمله من اغراءات عجيبة، فإنه لم يتخل عن الاحتجاج وإظهار السخط والمطالبة بإطلاق سبيله.

ونسأل الذين يزعمون أنه توقف عن الجهاد، ماذا تريدون؟ هل أن يقاوم الأمير قوات تفوقه عدة وعددا، ومن ثم يقع أسير في أيديهم ويقدم على طبق من فضة مغلول اليدين إلى الفرنسيين.

وقد قال الأمير في هذا الصدد، قولاً مؤثراً: "إشهدي أيتها النخلة أن استسلامي لم يكن حفظاً لنفسي ولا جبناً أمام الموت، إنما أنا رجل ككل الرجال، تحالفت ضدي قوى الشر في الداخل والخارج وجئت في زمان انتقلت فيه البطولة من القلوب إلى المصانع، فهل حرارة إيماني تستطيع إذابة هذه الحديد الذي سدد إلى وطني"¹.
وقال دوماس معلقاً: "إنه في نفس الوقت رجل الحرب والعقيدة، الحرب خدعته فهو يواسي نفسه بالإيمان"².

وبتوقف الأمير عن الجهاد، يمكن القول بأن الدولة التي أسسها قد زالت منذ فترة، فنجد القضاء على مراكزه العسكرية والاقتصادية، أخذت زمامه 14 ماي 1843، وبذلك قضى على إدارته المركزية.

ومن أجل القضاء على قومية الجزائريين، أصدرت سلطات الاحتلال عام 1848 قانوناً يقسم الجزائر إلى ثلاث مديريات مع إعلانها جزءاً من أراضي فرنسا³.

¹ - ابن هذوقة عبد الحميد، " الأمير عبد القادر والمجاهدة الأمتكافئة"، ص.193.

² - Marçel (E.), *l'Algérie à l'époque d'Abd El Kader*, Larose, Paris, 1951, p.246.

³ - قدورة زاهية، المرجع السابق، ص.509.

خاتمة:

مما ذكر في الفصول الأربعة السابقة لهذا الباب يمكن أن نستخلص أن: الدولة شرط ضروري للحياة الاجتماعية والسياسية للأمة لأنها تحقق الخير وتمنع الشر، ولا يتم ذلك إلا بتوفر القوة والسلطة .

وهي من المنظور الإسلامي تختلف تماما عنها في المفهوم الغربي من حيث التصور والتطبيق.

وإن اتجاه الأمير إلى تحقيق عنصر السيادة لدولته انطلاقا من تصور خاص هو الانتقال بالمجتمع الجزائري من النظرة القبلية الضيقة إلى الاتحاد والتآخي في إطار دولة وسلطة واعية هذا من جهة ومن جهة أخرى مقاومة الاحتلال الأجنبي وتحقيق استقلال الجزائريين.

وقد نجح الأمير في تأسيس نظام إداري حديث محكم على أسس الدين الإسلامي والسلطة الحازمة القوية والاهتمام بالمجتمع وتطويره.

كما عني بتحقيق العدالة داخل المجتمع بإقامة نظام قضائي يسهر على تنظيمها باعتبارها العامل الأساسي لتثبيت سيادة السلطة الحاكمة على كافة الأراضي التابعة لها وضمان حقوق مواطنيها.

وما يذكر أن الأمير أدخل تجديدا على القضاء فجعله تنظيما رسميا تابعا للدولة.

زيادة على اهتمامه بتعليم أفراد المجتمع وتثقيفهم من أجل أن يكونوا في مستوى الصراع الحضاري آنذاك، وإقرار الأمن وتهذيب الأخلاق وبناء المرافق الاجتماعية.

أما عن الجانب العسكري فقد عمل الأمير على إحداث نظام التجنيد وإنشاء جيش نظامي من أبناء الشعب، واعتنى بتدريبه بوسائل وطرق حديثة دلت على براعته وكفاءته العسكرية، وأنشأ له قانون عام خاص في غاية من الدقة والتركيز، كما أقام المدن والحصون وتوظيفها في خدمة الجانب الحربي.

المباحث الثالث

التطور الاقتصادي والدولي
للولة الجزرية الأميرية

الإسلامية

مُقلِّمة:

نتناول في هذا الباب التصور الاقتصادي والدولي للدولة الجزائرية في الفصلين الآتيين:

1. التصور الاقتصادي للدولة الجزائرية الأميرية.

2. العلاقات الخارجية للدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر.

❖ الفصل الأول: التصور الاقتصادي للدولة الجزائرية الأميرية

يعد النظام الاقتصادي الأساس القوي في بناء وتطور أي نظام سياسي، والسؤال المطروح ما هو النظام الاقتصادي الذي تبناه الأمير؟

بذل الأمير جهدا في تأسيس قواعد اقتصادية لدولة مركزة كان يهدف من خلالها إلى خلق وسائل لإنتاج العتاد والتمويل اللازمين لتكوين جيش قوي قادر على حماية مجال السيادة في حالة اعتداء دولة متطورة عليه. ولما كانت الوسائل والمبادرات معدومة في القطاع الخاص، كان على الدولة وحدها أن تقوم بهذا الواجب وأن تبذل الجهود اللازمة لأدائه¹. فأوجد الأمير نظاما اقتصاديا موجهها بإشراف الدولة على الصناعة والتجارة، هدفه جعل هذا الاقتصاد في خدمة الأغراض العسكرية بصفة أساسية².

وتمثلت القطاعات الاقتصادية في النقاط التالية:

- الزراعة
- الصناعة
- التجارة
- التنظيم المالي
- النظام الجبائي.

¹ - لاكوست، المصدر السابق، ص.262.

² - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.238.

1.1 / الزراعة:

أدرك الأمير أن بلاده زراعية والمنتج الأساسي هو الفلاح، فسهل التتمية بإلغاء ضريبة الخراج التي كانت مفروضة من قبل والتي شكلت عبئا على الأرض ومحاصيلها. وقد شجع هذا التدبير الفلاح على العمل فاعتنى بممتلكاته، واستعان بأدوات بدائية لحراثة أرضه، فكان يستهلك مع أفراد عائلته قسما من محاصيله، ويودع الزائد في مخازن لينفق عند الضرورة على الأغراض العسكرية.

ثم إنه كان من الضروري أن توفر الدولة الزراعة وتقوم بتربية الأنعام للحصول على المواد الغذائية والذخائر ووسائل المبادلات مع الأجانب، وساعد إلغاء الخراج على أن يحصل نوع من التطور في هذا المجال.

كان الأمير شديد الاهتمام بتطوير هذا القطاع، حيث أسند للبعض مهمات اقتصادية في الخارج، من ذلك ما رواه "إرستيد جلبر" من أن عبد القادر كلف أحد التجار من الجزائر بالسفر إلى مصر كي يجلب منها بذور القطن ويستقدم منها الفلاحين لزراعة هذه النبتة في الجزائر¹.

لقد انصب الاهتمام على إنتاج محصول الحبوب، حيث كانت مطاميره الوسيلة الناجعة التي يستعملها أهالي القرى فهم يحفرون ما يتراوح بين أربعين وخمسين مطمورا للقبيلة يتسع كل منها لحوالي ألف بوشل.

والمكان الذي يختار للحفر يكون جافا رملي التربة، ويتخذ شكل أنية ضخمة من الفخار، وتملط حيطان المطمور بكثافة بسمك قدم ثم يعبأ بالقمح الذي يكون من السعة بحيث يكفي لدخول الرجل، وهو يقع على حوالي ثلاثة أقدام تحت سطح الأرض، وهذا الفم يملط بدوره ثم يغطى بالتراب، حتى يكون المطمور على مستوى الأرض المحيطة به. والتراب المستخرج من الحفر ينقل بعيدا، ولا يكاد يمضي شهر أو شهران حتى ينمو العشب على فم المطمور و يختفي كل أثر له و لا يعرف أحد غريب شيئا عنه².

¹ - لاکوست، المصدر السابق، ص.263.

² - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص - ص. 130-131.

و الحبوب المدفونة بهذه الصورة تحتفظ بسلامتها عدة سنوات و حسب شهادة "اسكوت" فقد أتيح له تناول خبز في الزمالة عجن من قمح بلغ عمره عمر الأمير وهو لا يختلف عن خبز صنع تلك السنة. هذه المطامير هي التي تصدت لسياسة حرق الأراضي من طرف بيجو.

وقد ذكر الأمير الهدف من بناء هذه المستودعات، حيث ذكر أن الإجراءات التي اتخذها لم تكن كافية لضمان مؤونة الجند، فقرر إنشاء مطامر للحبوب في حدود كل قبيلة بالنسبة للبايلك، وتكون هذه المطامر تحت مسؤولية القائد وبعيدة ومؤمنة عن عيون العدو.

وبالتالي كان على كل قبيلة أن تكون لها مستودعاتها الخاصة، وكان الأمير يهدف من وراء هذا الإجراء إلى تحقيق أمرين :

• الأول: عسكري وهو تموين الجيش كي لا يعيش على استغلال السكان كما في العهد السابق.

• الثاني: مساعدة السكان في المواسم السيئة وتأمين البذار ومساعدة الفقراء وكان ذلك كله من أجل إعداد البلاد على أحسن وجه للقتال¹.

وقد كانت نتائج حسنة ومرضية بالنسبة لمردود الإنتاج، ففي سنة 1837 فاق المردود الزراعي كافة المحاصيل السابقة، وسنة 1839 كان احتياط الحبوب في مخازن المقاطعات يكفي جيش الإمارة لسنتين، وإنتاج سهل غريس كان يكفي لمدة عشر سنوات.

¹ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص.238.

1. 2/ الصناعة:

إن الحاجة إلى العتاد التي لم تستطع المبادلات التجارية تغطيته دفعت الأمير إلى القيام بمحاولات جادة لتنظيم هذا القطاع عن طريق خلق تشكيلات للإنتاج الصناعي مانحا الأولوية فيها للصناعات الحربية حيث ركز على بناء مصانع الأسلحة ومصانع المعادن والمناجم المعدة لتموينها. والسؤال المطروح هل يعني هذا أن الأمير تمكن من تطوير الصناعة الجزائرية من تقليدية إلى حديثة؟

لإنشاء المصانع لم يتردد الأمير في استدعاء عمال فرنسيين وإسبان بجانب الهاربين من الجنود والأسرى الذين قبض عليهم في الحرب، فبمساعدهم شرع في استخراج الحديد والنحاس من المناجم، حيث أمر بتشيد كور في مليانة قرب مناجم الزكار تحت إشراف مختص بعلم المعادن يدعى "الكبير كاز"¹.

أضف إلى ذلك أن الحضرة كانت لهم تقاليد عريقة، وحس مدني، وكانت الصنائع بشكل خاص مزدهرة عندهم، ولهذا لم يتردد الأمير في الاستعانة بهم كلما أحدثت منشآت جديدة ومعامل ومخازن ومصانع للأسلحة.

وقد روى "لويس فييو" أن قنصل الأمير في وهران كان يبذل جميع المساعي لترحيل البقية الباقية من العمال في المدينة، لأن عبد القادر وضع مشاريع هامة وكان في حاجة إليهم لتحقيقها².

¹ - لاكوست، المصدر السابق، ص.264.

• ذكر اسكوت أن الأمير عرض سنة 1838 في بيان أصدره لهذه الغاية، إقطاع أرض لكل من يريد الاستيطان في مملكته هادفا من وراء هذا الإجراء إلى تشجيع الأجانب حتى يجد فيهم قاعدة لتصنيع بلده. أنظر: الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.114.

² - الأشرف مصطفى، المرجع السابق، ص.225.

1. 3/ التجارة:

كانت حكومة الأمير تهتم اهتماما خاصا بالتجارة ولا سيما التجارة في الحبوب والصوف، وهي تمثل الإنتاج الأساسي لبلده، وقد احتفظ الأمير لنفسه باحتكار تصدير الحبوب إلى الخارج بموجب أحكام معاهدة ديمشبل وكان يستعين في ذلك بخبرة وكيله اليهودي بن دران.

كما كانت الدولة تحتكر التجارة مع الإدارة الاستعمارية، وقد منع الأهالي من التعامل مع الجيش الفرنسي مباشرة. ولتسهيل التعامل التجاري أنشأ الأمير دارا لضرب النقود وصك العملة، وقد كانت حكومته تحتكر التجارة في العملة الأجنبية التي كان الدورو الإسباني أهمها، وتحدد أسعارها.

وقد نشطت التجارة في مدن إمارة الأمير وارتبطت أسواقها المهمة فيما بينها فكان ذلك مناسبة لعمليات واسعة في البيع والشراء، وتوفير الأموال الطائلة لبيت المال في معسكر حيث نظمت فيها الأسواق التجارية أسبوعيا ولمدة ثلاثة أيام ابتداء من يوم الجمعة إلى غاية يوم الأحد .

أما في أواخر عام 1839 فقد شكت الجزائر من سوء المواصلات، وطريق السلطان كانت الوحيدة الصالحة لسير العربات وغيرها وتمتد من وهران إلى الجزائر وقسنطينة، وكان سلوكها فيه خطرا نظرا لوجود قطاع الطرق وشيوخ القبائل الثائرين. جميع هذه الاعتبارات إضافة إلى قلة الانتاج ونذرة النقود، حدث من توسيع التجارة وأعاققت تبادل السلع.

وبالنسبة لعملاء الأمير التجاريين فإن لكريتز (*Lacritz*) وهو تاجر وضابط برتبة كولونيل ورئيس المحكمة التجارية في مدينة الجزائر قام بعدة عمليات تجارية لحساب الأمير عبد القادر في الداخل ومع بعض البيوتات التجارية في فرنسا بواسطة شقيقه الذي كان يقيم في وهران، أو بواسطة يهوذا بن دران الذي كان صديقا له وشريكا في بعض الصفقات التجارية الكبرى¹.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.155.

وكمثال لعمليات التبادل التجاري، ما ذكره اسكوت من وصول مائة برميل من الذخيرة أرسلت إلى "مانوتشي" عبر فاس لحساب "السلطان" عبد القادر، وقد تم نقلها إلى مدينة "تاقدمت".

وكلف الأمير التاجر الإسرائيلي ابن دران شراء الفائض من الغلات لتصديرها إما إلى جبل طارق، وإما إلى إسبانيا أو لبيعها إلى المؤسسات الفرنسية في القطر الجزائري بمقابل من المواد الأولية والعتاد ومنتجات المصانع والأسلحة التي يحتاجها.

فالعلمية وإن كانت رابحة لابن دران الذي كان يبيع بـ36 فرنكا القنطار بعد أن يكون اشتراه بـ16 فرنكا، فهي عملية مفيدة للدولة وللفاعلين الذين وجدوا بابا مفتوحا لبيع غلاتهم، بابا فقدوه منذ زمن.

وخلاصة التنظيم الاقتصادي بالنسبة للزراعة فإن طبيعة ونوعية الزراعة الريفية وخصائصها قد حددتها وضعيتها الأرض بموجب قوانين الإمارة الداخلية، فكانت في مظاهرها انعكاسا لهاته الوضعية وذات فائدة كبيرة لخزينة الدولة.

أما الصناعة فلم يكن لها إلا دور محدد في وضع نوعية بنائها كما كانت موردا ضئيلا للخزينة .

ويبقى النشاط التجاري هو الذي كان له الدور الأكبر في إمداد خزينة الأمير بالأموال اللازمة لإرساء دعائم دولته وبناء جيشه¹. وبذلك يكون الأمير قد طور الصناعة الحربية إلى حد ما وفقا لمتطلبات المرحلة التي كانت تعيشها الجزائر.

¹ - حرب أديب، المرجع السابق، ج.2، ص.69.

1. 4 / التنظيم المالي :

احتاجت دولة الأمير إلى أموال كثيرة لتنظيم مؤسساتها وجيشها ودفوع موجباتها والتزاماتها شأنها في ذلك شأن جميع الدول، والسبيل الوحيد لذلك هو سك العملة وجباية الواردات، فكان من الواجب إنشاء نظام مالي مركزي، والسؤال المطروح هو هل يعد ما سكه الأمير من عملة هو مبتكر من العدم أم اعتمد في ذلك على النقود العثمانية؟.

اعتمدت الدولة العثمانية سياسة مالية معينة تمثلت في التركيز على جانب المصاريف والاهتمام بالخزينة العامة باعتبارها رمز السياسة المركزية في المجال المالي وبالتالي المحافظة عليها إبقاء لكيان الدولة، فكان الاعتماد في ذلك على أمرين:

1. المحافظة على ثروتها وبالتالي إهمال التوظيف لأموال الدولة في المشاريع الإنتاجية والعمرانية والاجتماعية الأمر الذي أوقعها في الركود الاقتصادي.
2. المحافظة على ودائع الخزينة وبالتالي اتباع سياسة التقشف في النفقات غير الضرورية.

وقد أدت هذه السياسة إلى وجود عجز في ضبط المصاريف وتحديد النفقات مما تسبب في وجود عجز مالي. وقد انعكست هذه السياسة على النظام النقدي إذ لم يساهم بصورة فعالة في تطوير الأجهزة المالية للإيالة، إذ لم يكن يخضع لقوانين تنظمه وتوجهه لخدمة الاقتصاد المحلي، لأنه متأثر بالأوضاع التي كانت عليها العملة الجزائرية وهي:

أ. انعدام الوحدة الأساسية للعملة، فقد كانت هناك أنواع عديدة لها، كل منها يستمد قيمته من نوع المعدن الثمين المتكون منه، ومن مواصفات وزنه وحجمه، ومدى مقدرته على الصمود أمام بقية النقود المحلية والأجنبية. يعني هذا أن العملة لم تكن لها هوية وطنية محلية.

ب. كانت الجزائر (الإيالة) سوقا حرة للتعامل النقدي، فالعملات المحلية والأجنبية، كانت مطروحة للتبادل دون تمييز (السيطرة وفق مبدأ التنافس الحر)، وقد استفادت المصالح الاقتصادية الأجنبية من ذلك، فبادرت إلى تصدير النقود المعدنية مقابل استيراد السلع والبضائع، وقد ساعدها في ذلك إقبال السكان على النقود الأجنبية (باعتبارها الأجود والأحسن).

ج. شيوع مبدأ المقايضة أدى إلى الحد من تطور الاقتصاد الجزائري، وبقائه بعيدا عن أنظمة أوروبا.

د. العملة نادرة بالأسواق لاختفاء المعادن الثمينة، ومنافسة النقود الأجنبية، وتضرر سمعتها من منافسة النقود المزورة والمغشوشة.¹

هـ. اختفاء النصوص الدينية المتمثلة في البسمة وشهادة التوحيد والآيات القرآنية وتعويضها بألقاب وأدعية للسلطان بالنصر والتأييد والعز.²

والنتيجة بقاء النقود المعدنية مجمعة في صناديق الأغنياء اليهود والحضر، أو متراكمة في الخزينة العامة، وبذلك انعدمت روح المبادرة الاقتصادية، وأقبل الناس على الانحار، وأصبحت البوادي والأرياف تفضل مبدأ المقايضة على كل تعامل نقدي غير مأمون العواقب، بينما لعملات الورقية لم تستطع أن تفرض وجودها، فهي لم تتعد كونها نوعا من السندات والحوالات المالية في أيدي التجار والشركات الأجنبية المتعاملة مع الخارج.

وقد أثرت هذه السياسة على الجانب الاقتصادي والاجتماعي، فالتنظيم المالي، فرض نمطا اجتماعيا خاصا بالمدن الجزائرية (فئة الأتراك متحكمة في المال، وفئة الكراغلة واليهود تقوم بدور الوساطة)، إضافة إلى أسلوب الاحتكار الذي أوجد الطبقة بسبب عدم ذهاب الأموال إلى الخزينة، مثلما شجع إثارة التنافس العشائري عن طريق اعتماد الملكية الجماعية.

1. 4. 1 / صك النقود :

يعتبر وجود السكة مظهرا من مظاهر السيادة الجزائرية بضرب نقود محلية متميزة عن غيرها من النقود الأجنبية. والنقود التي كانت تستعمل بالإيالة الجزائرية في آخر الفترة العثمانية ليست محلية الصنع كلها، فهناك عملة محلية لها دار سكة قرب قصر الداوي تحول

¹ - سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ط. 2، م. و. ك، الجزائر 1985، ص - ص. 192-193.

² - للمزيد من التفاصيل أكثر حول النظام المالي العثماني بالجزائر أنظر: درياس يمينة، السكة الجزائرية في العهد العثماني، دكتوراه الحلقة الثالثة، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1987-1988.

مقرها إلى القصبه في عهد علي خوجة سنة 1817 وعملة مستوردة ذات أصل أجنبي. فالمحلية ثلاث أنواع فضية، وذهبية ونحاسية.

• الفضية عبارة عن مزج لـ ست وخمسين رطلا من الفضة بـ خمس وثلاثين رطلا من النحاس، ولدينا ألف رطل من النقود يساوي ستين رطلا من الفضة إضافة إلى أربعين رطلا من النحاس، وبالنسبة للعملة المخصصة للبدو في تعاملهم مع السداي فهي عبارة عن رطل فضة إضافة إلى ثلاثة أرطال نحاس.

وبالنسبة للعملة الفضية الجيدة فهي التي تساوي 60 رطلا من الفضة إضافة إلى 40 رطلا فضة ممزوجة، وأحسن مزج هو لـ 60 رطلا فضة صافية إضافة إلى 40 رطلا نقود فضية قديمة. والعملة الفضية هي الأكثر طلبا والأكثر استعمالا.

• أما النحاسية فهي تخضع لعملية تصفية فمثلا عملية تصفية لـ 10 قناطر من معدن النحاس نستخلص منها 5 قناطر من النحاس الصافي الذي تصنع منه الدراهم، والباقي يستعمل لصنع أو ضرب النقود الفضية¹.

ونظرا لقلّة النقود بسبب قلّة المعادن فإن هذا أدى إلى الاستعانة بالعملات الأجنبية حيث كان وجودها عاملا مساعدا على توفير النقود الضرورية للتبادل المالي والتجاري، ولكن في نفس الوقت لها أثر سيئ وهو تحكمها في المعاملات المالية.

وأهم العملات الأجنبية المتداولة في السوق الجزائرية هي الإسبانية والتونسية والمغربية وعملة الأقطار العثمانية والدويلات الإيطالية والنمساوية والبرتغالية والفرنسية، ولكن العملات التي احتلت مكانة في السوق التجارية هي الإسبانية² والتونسية والمغربية وعملة الأقطار العثمانية³.

¹ - سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ص - ص. 192-193.

² - نظرا لاحتلالها لدول أمريكا وتهاطل الذهب عليها وبالتالي انتشار عملتها.

³ - راجع جداول العملات: ملحق رقم 08 .

والعملة الفضية هي الأكثر استعمالاً إذ لا توجد العملات الورقية ما عدا بعض التعاملات التي كانت تتم عن طريق تسديد السندات والحوالات المالية.

والعملة الجزائرية لم تكن لها وحدة أساسية بالمعنى الصحيح لأن كل نوع من أنواعها كان يعتمد في تقييمه على نسبة المعدن الثمين المتكون منه، وعلى وزنه وحجمه وعلى مقدرته على الصمود أمام بقية العملات الأجنبية والمحلية. ووفق هذا فإن عملة "بدقة شيك" تعتبر العملة المفضلة لا الأساسية، لمنافستها من طرف البوجو الفضي والسلطاني الذهبي¹.

1. 4. 2 / شكل العملة:

النقود العثمانية تنعدم فيها صور الحكام والشعارات، مزينة بحروف عربية من الجانبين: وجه ريال بوجو عليه عبارة "سلطان البرين و خاقان البحرين السلطان محمود عز نصره"، والوجه الآخر "ضرب في الجزائر 1241 هـ"²، وهي ذات شكل مستدير، مع أن نقود المغرب العربي يغلب عليها الشكل المربع خاصة في عهد الموحدين، ولم يهتم الصانع بالشكل بل بنوع ومعيار النقود.

هذا بالنسبة للنظام المالي العثماني في مظهره وأسس، أما بالنسبة للأمير عبد القادر فإنه تظن إلى أهمية العملة كوسيلة اقتصادية هامة وكمظهر للسيادة، فسعى إلى تكوين نظام مالي حديث، والاستقلال عن الخارج قدر المستطاع، فأنشأ عدة معامل في معسكر ومليانة والمدية وتلمسان ووظف الأجانب مؤقتاً ليستبدلهم فيما بعد بالجزائريين بعد أن تم تدريبهم لهذه الغاية، وأراد إضفاء الطابع العربي الإسلامي على إمارته نتيجة لسياسة رسمها منذ معاهدة ديميشيل كان الهدف منها إرضاء شعبه بشعور ديني إسلامي وذلك بضربه عبارات التوحيد.

¹ - وحدة الذهب: 12.5 قرشا في عهد السلطان محمود (1808-1839).

² - سعيد وني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ص - ص. 191-196.

وقد اتخذ من تأقذمت مقرا لضرب السكة بأن جعلها بنك الإمارة المركزي حيث ضرب العملة فيها وحصرها بقوانين إمارته دون سواها، دلالة على مظهر من مظاهر السلطة المركزية القوية والاستقرار السياسي في عاصمته. والعملات التي سكها وتداولها الناس وما تحمله من نقوش وعبارات عربية إسلامية، تعبر عن استقلاليتها وتحرره من النفوذ الأجنبي لا سيما الفرنسي.

1. 4. 3/ موارد العملة:

قلنا إن الأمير حاول استخراج الموارد الضرورية للسك، بأن استدعى اختصاصيين أجانب لهذه المهمة، فوجد مناجم الرصاص والنحاس في جبال الونشريس، الذهب بالقرب من تلمسان والكبريت في جوار تأقذمت¹، حيث كان حريص أشد الحرص على استغلال الثروة المنجمية التي يحتوي عليها تراب بلده، ولكن للأسف لم يمكن القيام بأي عمل لتحقيق هذا الهدف ما دامت الحرب قائمة.²

وقد ذكر اسكوت أنه وصل هارب فرنسي يستخدمه المهندس "دوكاس" يحمل رسائل تفيد بأن كميات كبيرة من معدن الرصاص موجودة في الجبال، جنوب شرقي "تازة" ويضيف هذا الخبر أن نسبة الفضة في الخامات التي انكشفت في بعض المناطق تبلغ الخمس. وذكرت الرسالة أنه يوجد معدن النحاس في مكان يقع على طريق مليانة يمكن استغلاله بسهولة، إضافة إلى أن اسكوت أحضر حجرا ثميناً من محجر غير بعيد من تازة وهو يستحق الاستخراج والاستغلال التجاري.

ولما كانت الكميات التي وجدها الأمير لم تف بالغرض لجأ إلى استيرادها من الخارج، فاتصل بابن عبي ممثل مراکش في جبل طارق وبكل من ابن دارن و

¹ - Julien (Ch.), *Op. cit.*, p.184.

• Bellemare (A.), *Op. cit.*, p-p. 474-478.

• Baudicours (L.), *Op. cit.*, p-p. 422-427.

• Roches (L.), *Trente deux ans à travers l'islam*, p-p. 474-478.

• Bouchenaki (M.), *la monnaie de l'emir Abd El Kader*, SNED, Alger, 1976, p.37.

² - الكولونيل اسكوت، *المذكرات*، ص.129.

(Jhon Giaritz) قنصل بريطانيا السابق، قلبى جزء من طلباته، ووصلته المواد من مراكش، ومن مرفأ سدة خوثة.

هذا إضافة إلى أن الأمير أوجد عدة أنشطة أثرت على ضرب السكة كالتجارة الخارجية وإنشاء المصانع، إضافة إلى المنابع الطبيعية وعائدات الخزينة.

1. 4. /4 سك العملة:

لقد سك الأمير نقودا تداولها الناس تحمل نقوشا وكلمات تعبر عن استقلاليتة وتحرره من النفوذ الأجنبي لا سيما الفرنسي.

وقد أصدر عددا من القطع بعضها مصنوع من الفضة ذات قيمة مختلفة: 2 شلن و8 بنسات، 1 شلن و4 بنسات، 4 بنسات، 2 بنسات، وبعضها الآخر مصنوع من النحاس، قيمة القطعة 20 بنسا و 2 بنسا، كل قطعة تحمل ختم الأمير والسنة التي ضربت فيها¹.

من ضمن المعطيات حول نقود الأمير ما يتعلق بإشارات القنصل دوماس الذي كان مقيما في معسكر حيث كتب في 27 ماي 1838، إلى الجنرال (*Rapatel*) لقد ضرب الأمير السكة في تاقدمت بدأها بقرابوراس (*Grabouras*) وهي قطع بثلاث ليرات، والمحمدية قطع بست ليرات وقد كتب على أحد الوجهين لا إله إلا الله وعلى الجهة الأخرى ضربت في تاقدمت من طرف السلطان عبد القادر².

ثم بعث برسالة أخرى في 3 جوان أوضح فيها أنه بصدد جمع بعض قطع النقود التي ضربها الأمير في الآونة الأخيرة، وهذا العمل صعب نوعا ما لأنها لم تدخل بعد معسكر، وأنه أخطأ في وصفه السابق حيث يرجح أنه مكتوب على أحد الوجهين عبارة حسبى الله ونعم الوكيل.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.114.

² - أنظر النص كاملا:

إن دumas لم يستطع أن يعطي وصفا دقيقا لهذه النقود لعدم توفر الوسائل الضرورية لديه.

لكن يكفي لكي نفتح نماذج النقود الإسلامية لـ (H.Lavois) وكذا دراسة (S.D Brethes) و (J.Tarrugia de Canadia) ودراسة عبد الرحمن الجبالي لكي نقف عند وصفها¹.

فهذه الدراسات تكاد تتفق على أن الأمير عبد القادر ضرب عملته بتأقدمت ما بين 1250 - 1256هـ / 1834-1841م، وهي عبارة عن نوعين من النقود، ذهبية وتحتوي على قطعتين من نوع النصفية التي ضربت سنة 1254 هـ / 1838-1839م، ونحاسية وتحتوي على قطع عديدة من نوع المحمدية، ضربت سنة 1250 - 1256هـ / 1834-1841م.

¹ - للتعرف على النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسات فيما يتعلق بأنواع النقود التي سكها الأمير أنظر:

• Bouchenaki (M.), Op. cit, chapitre « catalogues et études des monnaies de l'emir », p-p. 22-31.

1. 5/ النظام الجبائي :

اختلف المؤرخون حول ما إذا سوت إدارة الأمير بين المواطنين في الضرائب أو أبقّت على نظام المخزن الذي كان سائداً في العهد العثماني. فبعضهم ذهب إلى أن الأمير أزال التمايز بين قبائل المخزن والرعية، وجعل الجميع يدفعون نصيباً واحداً ويقومون بواجبات واحدة نحو الدولة.

ولكن آخرين رأوا أن الأمير قد أبقى على بعض الامتيازات عند القبائل المخزنية، إذ كانت هذه تدفع نصيباً أقل من الرعية وتحتفظ بالباقي إلى نفسها على أن تقوم بالمشاركة في الحملات الحربية بدور أكبر.

وتحدث هؤلاء أن الأمير جعل من بعض القبائل قبائل ممتازة مثل هاشم والغرابية الذي جند منهم معظم موظفيه وسلطهم أحياناً على قبائل أخرى لمعاونة خلفائهم في فرض الطاعة.

ولكن هذا أو ذلك يتبين لنا من خلال عرضنا لنظام الجباية الذي اعتمده الأمير في نظام حكمه.

اعتمدت حكومة الأمير في القيام بمهامها العسكرية ومشاريعها الصناعية وفي تسيير أجهزتها الإدارية على المداخل الجبائية وموارد بيت المال المتعددة، إذ اقترح الأمير على وزرائه أن يفكروا في إرساء قواعد متينة للميزانية للقيام بمتابعة الحرب بأن يعملوا على تزويد بيت المال بالأموال الكافية لشراء ما يلزم من ذخائر حربية ومواد تموينية.

ولقد عرض الأمر على مجلس الشورى الذي يتكون من ذوي الخبرة ورؤساء العشائر والعلماء والوجهاء الذين اتفقوا وألوا على أنفسهم بأن لا ييخّلوا على الخزانة بالأموال الكافية، والسبيل إلى ذلك الزكاة التي هي فريضة شرعية وضرورة اجتماعية لتحقيق التكافل الاجتماعي.

وكان ما اتفق عليه مجلس الشورى هو أن تفرض على المسلمين ضريبة في شكل — معونة — بنيت على أسس شرعية مؤيدة بنصوص فقهية وأعمال سلفية¹.

¹ - مجاهد مسعود، المرجع السابق، ص. 160.

وما يلاحظ أن الأمير أصلح نظام الضرائب فعممها على الجميع دون استثناء وبلا تمييز، حيث ألغى امتيازات المخزن وسوى في الضرائب، واكتفى بجبايتها، وأخذت الضريبة على عهده مفهوماً آخر فلم تعد غاية ولا هدفاً في حد ذاتها بل وسيلة لتطويع المجتمع الجزائري وتثبيت وتطبيق الشريعة الإسلامية¹.

حرص الأمير على التمسك والتقيّد بأحكام الشريعة الإسلامية وإلغاء ما كان مستحدثاً من مغارم كاللزّمة والغرامة والعوائد وغيرها، وتعويضها بضريبتَي العشور والزكاة التي أقرتها الشريعة الإسلامية².

وقد اتخذ عدة إجراءات تتصف بالبساطة والكفاءة والذكاء والمرونة والحزم في أن واحد عند تحصيل الضرائب وتسيير شؤون بيت المال، فكان يتساهل في كيفية الدفع ولا يشترط النقود في تحديد الضريبة بل كان يقبلها عينا أيضاً³.

و لقد صنف الأمير الضريبة في الأنواع التالية:

• **العشور** : ضريبة تجمع مالا عينا على كل أصناف المزروعات كالحبوب والخضر والثمار⁴.

• **الزكاة ومصارفها** : كانت تستخلص من الخيول والجمال والبغال والأبقار والأغنام، حسب النسب المحددة شرعاً، إذ كانت العادة تقتضي أن يؤخذ من مجموع الأغنام 100/1 ومن مجموع الأبقار 100/3 ومن مجموع الجمال 100/5⁵.

¹ - طلاس مصطفى، المرجع السابق، ص. 237.

• Baudicours (L.), Op.cit, p-p. 422. 427.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 166.

• Baudicours (L.), Op.cit, p. 422 .

³ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 136 .

• Baudicours (L.), Op. cit, p. 422.

⁴ - Baudicours (L.), Op.cit, p.422.

⁵ - Baudicours (L.), Op. cit, p.423

• Bouchenaki (M.), Op. cit, p-p. 57-59.

• Bellemare (A.), Op. cit, p-p. 230-231.

• Julien (Ch.), Op. cit, p.184.

وهذه الضريبة جعلها مجلس الشورى فرضا واستفتى الأمير علماء مراکش فيما يتعلق بمشروعيتها، فاجتمعوا وقرروا بالإجماع أن من تخلف عن أداءها يعتبر مرتدا ولا تقبل شهادته.

وقد علق سلطان مراکش بقوله: " إن هذه الفتوى فتوى موافقة للسنة والقياس والاجماع. وأن من تعرض لتنفيذها وأولها تأويلها فإنه يعتبر من الظالمين".

وكانت جباية ضريبتى العشور والزكاة من مهام كل الموظفين الإداريين على اختلاف درجاتهم، فشيوخ القبائل يساعدون في وضع قوائم المساهمين في دفع هاتين الضريبتين، بينما القياد يطلب منهم ضبط تلك القوائم نهائيا اعتمادا على تقدير مساحة الأرض ونوعية المحصول وكميته، وتقديمها للأغوات للاحتفاظ بها وتكليف مساعديهم لتسلمها، هذا في الوقت الذي يخرج فيه الخليفة أو حاكم الولاية من مقر إقامته للتجول في الأرياف وإظهار قوة الدولة حثا للأهالي على دفع ما يتوجب عليهم، وتتم عملية جمع العشور في الصيف عندما يتوجه رجال القبائل إلى أماكن معينة لتسليم حصصهم للأغوات، ومن هناك تشحن الحبوب إلى المطامير العامة أو مخازن الدولة الواقعة أغلبها بالمدن الداخلية كسبدو وتازة وسعيدة و تاقدمت وبوغار، وذلك حتى يصبح من الممكن تسويقها للخارج عن طريق المرافئ البحرية أو توزيعها على الجيش وحفظها لوقت الحاجة. بينما قطعان المواشي والخيول والجمال التي تستوفى كزكاة من سكان الريف فهي أيضا توفر للدولة حيوانات الركوب والنقل وتمد الجيش باللحوم، أما ما بقي منها ولم يحتج إليه فيوزع على القبائل ويتولى القياد تخصيص مراع له واستئجار رعاة للمحافظة عليه.

أخذا بعين الاعتبار للظروف الصعبة التي كان يواجهها الأمير التي تقتضي الحصول على الدعم المادي لمواجهة العدو الفرنسي، التجأ إلى طلب العون من رعيته، فاستحدث ضريبة خاصة لدعم المجهود الحربي عرفت بضريبة المعاونة أو المعاونة¹ وقد

¹ - يقول الماوردي: إذا كان مسوغا في الاجتهاد - لأمر اقتضاه - لا يمنع الشرع منه لحدوث سبب يسوغ الشرع الزيادة لأجله أو النقصان لحدوثه جاز.

أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ص. 348.

استشار في إقرارها وفرضها على مجموع السكان، بعض الفقهاء العارفين بأصول الدين بالغرب الجزائري والمغرب الأقصى، حتى لا يتجاوز في ذلك أحكام الشرع.

ومما يلاحظ أن ضريبة المعاونة استحدثت بعد تزايد الضغط الفرنسي وضعف الخزينة العامة ابتداء من عام 1839 وهي ضريبة استثنائية تفرض في كافة المناطق وتدفع مالا أو عينا لخزينة الدولة في أيام الحرب.¹

وقد طبق الأمير ضريبة الخطية والغرامة على الجنج والمخالفات، وما يتحصل عليه من غنائم في الغارات والحملات الانتقامية والمعارك الحربية، ولأخذ فكرة على مقدار هذه الغرامات، نذكر أن الغرامة التي فرضت على قبائل السبخة بمنطقة الشلف الأسفل التي وقفت في وجه الأمير وحالت دون بسط نفوذه على الجهات الشرقية بتحريض من أولاد درقاوة بلغت خمسمائة دورو و ألف بندقية ومائة حصان، بعدها بشهر فرضت غرامة أخرى على أتباع درقاوة بأعالي الشلف ونواحي الونشريس لا تقل قيمة عن الغرامة السابقة.²

وإضافة إلى هذه الضرائب كانت موارد أخرى تمويل خزينة الدولة منها:
أ. رسوم الأسواق وحقوق الجمارك، التي يتولى الإشراف عليها المحتسبون، وقد أولى الأمير عناية خاصة بهم، وذلك حتى يحول دون تسرب الأقات والبضائع للمراكز الفرنسية بالسواحل، فمنع تصدير أي بضاعة أو إنتاج دون رخصة خاصة منه، وأوقع العقاب الصارم بالمهربين ومعترضي سبيل القوافل المتقلة بين الأقاليم أو المتوجهة إلى الأسواق الداخلية وهذا ما مكن بيت المال من الحصول على مبالغ ضخمة كانت في أشد الحاجة لدعم المجهود الحربي ضد الفرنسيين.³

¹ - لقد وزعت هذه الضريبة حسب الأقاليم والقبائل كما يلي: نواحي المدينة ومليانة 250 ألف، قبيلة فليطة 150 ألف، هاشم الغرابية 20 ألف، هاشم الشراقة 20 ألف، قيادة زدامة 30 ألف، قيادة آغا الغرابية 25 ألف، معسكر وندرومة 5 آلاف. أنظر:

• Bouchenaki (M.), *Op. cit.*, p.58.

² - لاکوست ، المصدر السابق، ص.274.

³ - سعيدوني ناصر الدين، "النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع (خاص).75،

ب. عوائد احتكار تصدير المواد الأولية، وقد اتبع الأمير في ذلك خطة اقتصادية انتهجها الدايات في العهد العثماني، وتتمثل في منع الفلاحين وملاك الأراضي ومربي المواشي من بيع إنتاجهم مباشرة إلى التجار الأجانب أو تسويقه إلى المراكز الفرنسية بوهران وأرزيو ومستغانم رغم ما تنصّ عليه المعاهدات التي وقّعها الأمير مع الفرنسيين، وإلزامهم اعتمادا على أحكام الشرع. ونظرا لظروف الحرب بيع فائض إنتاجهم الفلاحي والحيواني بسعر محدد من قبل وكلاء الأمير، ومع أن هذا الاحتكار وفرّ لخزينة بيت المال مبالغ ضخمة، إلا أنه ألحق أضرارا بالغة بالفلاحين لأنه فرض عليهم بيع محاصيلهم وقطعانهم بثمن بخس في حين يعاد تصدير نفس المحاصيل والمواشي بأثمان مرتفعة، ففقطار القمح كان يشتريه الوكلاء التجاريون للأمير بـ 16 فرنك ويعاد بيعه إلى الأجانب بثمن 36 إلى 40 فرنك.¹

هذه العمليات التجارية مكّنت اليهودي ابن دارن الوسيط والشريك في آن واحد، من الاستحواذ على ثروات ضخمة وإبرام صفقات خيالية بعد أن اطمأن إليه الأمير وفوضه حق شراء الحبوب والحيوانات وتصديرها إلى الخارج عن طريق جبل طارق والموانئ الإسبانية والمراكز الفرنسية بأرزيو ومستغانم ووهران.

ج. مساهمة الموظفين الخاصة في خزينة بيت المال، بضريرة خاصة تعرف بحق البرنوس تسمح لهم بمشاركة الرعية فيما تتحمّله من مطالب مالية، وفي الوقت نفسه تمنحهم حق الاحتفاظ بمناصبهم الإدارية مدة سنة أخرى، وحتى لا تتحول إلى نوع من حقوق شراء المناصب الشائعة في العهد العثماني، حدّدت بصفة نهائية حسب الترتيب التالي: الخليفة 5000 بوجو ضريرة مساهمة، وحق البرنوس 50 بوجو إعانة لموظفي الخزنة، الأغا 100 بوجو مساهمة و50 بوجو إعانة للموظفين، القائد 70 بوجو مساهمة و50 بوجو إعانة للموظفين، الشيخ 20 بوجو مساهمة و50 بوجو هدية لموظفي الدولة.²

¹ - Azan (P.), L'emir Abd El Kader du fanatisme musulman au patriotisme français, p.46.

² - Roches (L.), La situation du sultanat en 1839. cité par Emerit (M.), Op. cit., p.275.

د. مردود الأملاك العقارية التابعة لببيت المال بالأرياف والمدن، وما يخص بييت المال من التركات، حيث يتولى استخلاصها وحفظ ما يعود لببيت المال منها، موظف يعرف بقائد الطريق الذي يقوم بنفس المهام التي يتولاها بييت المالجي في العهد العثماني، ويلحق بمردود أملاك بييت المال تلك الأرباح التي يحصل عليها صاحب بييت المال من استغلال ملاحات أرزيو التي يشرف عليها.

كل هذه المصادر المختلفة وفرت لخزينة الأمير عبد القادر موارد ضخمة، ومساعدته على الإنفاق ورعاية أجهزة دولته الناشئة، ولأخذ فكرة عن مقدار هذه المصادر نشير إلى أن الجيش الفرنسي في هجومه على منطقة "غريس" عام 1841 وجد بالمطامر العامة كمية كبيرة من الحبوب قدرت بـ 2500 قنطارا، كما أن ليون روش قدر ثروات دولة الأمير عام 1839 بما يلي: 1.500.000 فرنك ذهبي، وما يكفي من الحبوب لمدة سنتين في المطامر، و 2000 جمل، و 800 بغل و 1000 حصان منها 700 خاصة بالفرسان المحاربين، و 300 خيمة قديمة وجديدة تتسع كل واحدة منها لإيواء 33 رجلا مع 800 طنا من البارود الخام، بالإضافة إلى 8000 بندقية و 2000 طنا من الحديد و 200 طنا من النحاس و 100 طن من الكبريت وكميات أخرى من الجبس المهيا للاستعمال.¹

وهكذا حصلت الدولة على موارد إضافية وقللت من نفقاتها، وتمكنت من مراقبة صرف النقود باحتكارها لضربها، ولم تنزلق في حياة التبذير الذي ابتلي به العهد السابق.

1. 5. 1/ مصارف الضريبة :

كانت جميع مداخيل الدولة تنفق على مختلف أجهزتها، وكان أكبر قسط يخصص لسد حاجيات الجيش نظرا لظروف الحرب ومتطلبات الدفاع عن البلاد. أما الجانب الآخر من وجوه الإنفاق على المجهود الحربي، فهو شراء العتاد واقتناء السلاح، وإنشاء طر لسك النقود، وتشبيد المصانع، وقد تطلب ذلك أموالا ضخمة ومصاريف باهظة.

¹ - Roches (L.), La situation du sultanat, en 1839, cité par Emerit (M.), op.cit, p- p. 275-276.

وتأتي في الدرجة الثانية من حيث مقدار الأموال التي كانت تصرف من بيت المال مرتبات الموظفين وإعانة المسافرين والفقراء والمحتاجين، ومد يد المساعدة لطلاب العلم وشيوخ الزوايا، إذ خصص لكل هؤلاء علاوات وجرايات شهرية، فموظفو الدولة مثلا حددت جرايتهم الشهرية حسب نوعية الخدمات التي كانوا يقومون بها وتبعا للمكانة والرتبة الإدارية التي يحتكرونها في السلم الإداري، فالخلفاء كانت جرايتهم أعلى المرتبات في الدولة إذ خصص لكل واحد منهم 110 درو شهوريا أي حوالي 550 فرنك ذهبي مع صاع من الشعير يوميا للإنفاق على الزوار وإعانة المحتاجين، ثم يأتي بعدهم حكام المقاطعات والجهات من الأغوات و"القياد" الذين يحق لهم أخذ حصة من مدخول الضرائب التي يجمعونها¹.

ومما تجدر الإشارة إليه أن رعاية المؤسسات الدينية والثقافية والإنفاق على سلك العلماء والفقهاء، والمدرسين كان من اختصاص خزينة الأوقاف التي لها استقلال مالي عن الخزينة العامة، هذا باستثناء المصاريف التي تتطلبها دار الشورى والتي يتولى الإشراف عليها قاضي القضاة، إذ إن صرف نفقاتها من صلاحيات بيت المال وحدها.²

بعد هذا العرض لمصادر الدخل ووجوه الإنفاق التي تتحكم في النظام الضرائبي لدولة الجزائر الأميرية، نتطرق إلى أهم الصعوبات التي اعترضت تطبيقه ونذكر منها :

1. تجدد الحرب مع الفرنسيين إثر نقض معاهدة تافنة والتي أدت إلى انهيار الاقتصاد وإتلاف الإنتاج وتعطيل المصانع وإبطال صلاحيات الموظفين في تحصيل الضرائب، مما أدى إلى تضرر الخزينة من المصاريف المتزايدة من جراء الحرب حتى أصبحت مع حلول شهر جانفي من عام 1839 شبه خالية من كل احتياطي نقدي أو ودائع ثمينة.

¹ - العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ص.220.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.311.

2. تزايد اعتماد الأمير على ضريبة الجهاد المستحدثة -المعونة- مما أثقل كاهل السكان الذين لم يعودوا قادرين على دفعها بعد أن تعرضوا لحملة مدمرة من طرف الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال بيجو .

3. عدم تمكن الأمير عبد القادر من إقرار نظام خاص به يخدم مصالح دولته في المجال الاقتصادي، فرغم إنشائه لدار السكة بتاقدمت في ماي 1836، وتمكنه من إصدار مجموعة من النقود الفضية والنحاسية بمختلف فئاتها، إلا أن شيوع العملات الأجنبية كالدورو الإسباني "بومدفع" والشلن الإنجليزي والفرنك الفرنسي "اللويز" والدرهم المغربي واليوجو العثماني، وكذلك رفض المتعاملين مع الأمير قبول نقده الخاص، إذ رفض المغرب الأقصى وفرنسا قبول نقود الأمير في المبادلات التجارية، كل ذلك حال دون وضع أسس تعامل نقدي موحد في دولة الأمير يكون ركيزة للنظام الجبائي وأساس الجهاز المالي.

وعلى كل فإن الأنظمة الجبائية وما يتصل بها من أوجه الانفاق والدخل وما تتميز به من مميزات وأوضاع تعطي لنا صورة صادقة على مدى الجهد الذي بذله الأمير في بعث الدولة الجزائرية وفي تصديده للغزو الفرنسي، كما أن هذه الأنظمة تظهر لنا جانبا من عبقرية الأمير وكفاءته في مجال التنظيم والتسيير .

❁ الفصل الثاني: العلاقات الخارجية للدولة الجزائرية في عهد الأمير عبد

القاسم

2. 1/ علاقات الأمير بالدول الخارجية:

تعدّ الدبلوماسية أداة رئيسية لتحقيق أهداف السياسة الخارجية والتأثير على الدول والجماعات الخارجية بهدف استمالتها وكسب تأييدها بوسائل شتى¹. وللعلاقات الدبلوماسية دور في إضفاء الشرعية على صفة الدولة، ولعل هذا ما دفع الأمير إلى العناية بهذا الجانب والعمل على إنشاء وتطوير العلاقات بينه وبين الدول الخارجية، إذ لم يكن نشاطه مقتصرًا على العمل الداخلي، بل فتح المجال واسعا لتأسيس علاقات بينه وبين حكومات عربية وغير عربية، ساعيا إلى إيجاد مكانة دولية للجزائر وتثبيتها.

وقد تمكن الأمير من معرفة ما كان يجري من أحداث على الصعيد الدولي بواسطة الصحف الفرنسية التي كانت تترجم له، وبواسطة التقارير التي كانت تأتيه من مبعوثيه ووكلائه ولا سيما في مدينة فاس والجزائر العاصمة. كان للأمير عملاء من أبناء الأقلية اليهودية مرتبطين بعلاقات تجارية وثيقة مع نظرائهم في فرنسا يزودونه بمعلومات خدمت علاقاته الدبلوماسية.

ومن الدلالات على اهتمام الأمير بالشؤون الخارجية توجيهه أسئلة إلى اسكوت تتعلق بتوازن القوى بين مختلف الدول الأوروبية خاصة حول قواتها العسكرية وتجاريتها الخارجية، وفي هذا بين الأمير تقديره لقوة كل من روسيا وإنجلترا على أنهما أعظم الدول الأوروبية.

¹ - الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ج. 2، ص - ص. 658-660.

وبرغم من عدم اعتراف دول أوروبية لدولة الجزائر في شخص الأمير وتمنعها عن إقامة علاقات دبلوماسية معه برغم ذلك فقد ركز الأمير نشاطه الدبلوماسي على محاور متعددة هي: المغرب الأقصى وفرنسا.

2. 1. 1/ العلاقات بفرنسا:

التي كانت علاقات الأمير بها خاضعة للمد والجزر تعثرها فترات من السلم وأخرى من الحرب¹.

والسؤال الذي يمكن طرحه هو: ماذا أسس الأمير من علاقات دبلوماسية؟ وهل كان هدفه من التركيز على إقامة علاقات خارجية الحصول على المساعدات المادية فقط أم اضفاء طابع الشرعية على الدولة الجزائرية لتكون في مصاف الأنظمة القائمة آنذاك؟.

كان الأمير - كما ذكرنا - شديد الاهتمام بإقامة علاقات خارجية خاصة مع فرنسا، وتثبت المعاهدان اللتان وقعهما معها بعد نظره الدبلوماسي وسعة اطلاعه، فهو يتبين من خلالهما الرجل الذي كان يدافع عن مبادئ واضحة إلى أبعد من نظرتيه، كان هدفه بالدرجة الأولى انتزاع اعتراف العدو به كمثل للشعب الجزائري "كأمة عربية إسلامية" ليست مستعدة أن تندمج في الحضارة الأوروبية ولا في النظام الإداري الفرنسي. ومن أهدافه أيضا منع الفرنسيين من الاستقرار في الجزائر كلها وهو ما يفسر رفضه الاعتراف بالسيادة الفرنسية المطلقة على الجزائر عكس الأمر الذي كانت فرنسا تحرص على الوصول إليه.

أ. معاهدة ديمشيل:

جرت المفاوضات بين الأمير عبد القادر والجنرال ديمشيل بخصوص الأسرى الذين احتجزهم الأمير عبد القادر إثر كمين نصبه لهم جيشه، وبخصوص المتاجرة التي تمت بين قدور من البرجية ومجموعة من الفرنسيين نهاية 1833. والسؤال: كيف تم ذلك؟.

كانت بداية المعاهدة مراسلة من ديمشيل الذي أعرب للأمير على ضرورة إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين على أن يتم ذلك دون شروط ومن دون تردد في التنفيذ. لكن الأمير عبد القادر رفض مطالب ديمشيل وتمنى لقاءه خارج حصون وهران² فما كان منه إلا

¹ - العربي إسماعيل، " حكومة الأمير عبد القادر"، ص. 227.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 47.

الهجوم على قبائل الدوائر والزمالة، فتوجه الأمير لنجدهم وتمكن من تحقيق انتصار أرغم به الطرف الفرنسي على الانسحاب والتحصن داخل أسوار وهران.

وأمر الأمير قبائل الدوائر والزمالة بالانتقال إلى سهل واسع بتلمسان حتى لا يكونوا عرضة للهجمات، وإن كان الهدف الحقيقي من الأمير هو منع الصلة بينهم وبين الفرنسيين كي لا يخالفوا أوامرهم أو يتحالفوا معهم.

ولما انسدت الأبواب ولم يعد أمام ديميشيل سوى حلين إما الجلاء وإما السلام، كتب إلى الأمير يطلب توقيف إراقة الدماء وفتح باب التفاوض لعقد هدنة.

قابل الأمير عبد القادر رغبة ديميشيل بداية الأمر بالامبالاة، لكن مراسلة ديميشيل للمرة الثالثة دفعت الأمير للرد عليه قائلا: "إذا كنت تود الاحتفاظ بالمكانة البارزة التي وضعتك الظروف فيها، فإنك لا تستطيع في نظري أن تفعل أفضل من أن تقبل دعوتي، لكي تتركس القبائل وقتها لحرثة الأرض وتتمتع بثمار وبركات السلام في ظل معاهدة تربطنا معا رباطا أكيدا".

إذن عندما أدرك الفرنسيون بأنهم أمام قوة جديدة يحسب حسابها التزموا التفاوض مع الأمير على أساس الاعتراف بسيادته على المناطق الداخلية مقابل اعترافه باحتلال الفرنسيين للمناطق الساحلية، وبالرغم من أن هذا الأمر لا يحقق السيادة الجزائرية على كامل الأرض إلا أن الأمير لم يكن لديه ما يمنعه من قبول اتفاق يتيح له الوقت الكافي للتنظيم الداخلي والقضاء على المتقاعسين والمتمردين ومن ثم تتعزز مكانته وبالتالي مكانة الدولة الجزائرية، وهو الأساس في نظرنا الذي دفع الأمير لقبول التوقيع على معاهدة مع ديميشيل³. وقد أظهر الأمير الشروط في أسلوب جعل الجنرال لا يتردد في قبولها⁴.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 75-76.

³ - عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص. 99.

⁴ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 220.

• عقد المعاهدة:

نصت المعاهدة التي أمضاها عبد القادر مع القائد ديميشيل في 27 شوال 1249هـ/ 1834م على جملة من الشروط ترمي في مجملها إلى إقرار السلام بين الطرفين، واحترام كل طرف للآخر، سواء فيما تعلق بقضية "الحدود" أو العشائر الموالية لهذا الطرف أو ذلك، أو ما يتعلق بالتعاملات التجارية وكذا التنقلات، ويمكن إجمالها فيما يلي:

1. إقرار المودة والسلام بين الفرنسيين والجزائريين، وتعزيزه بتعيين وكلاء عن الأمير عبد القادر في وهران ومستغانم وأرزيو، وبالمقابل وكيل عن فرنسا في معسكر.
2. احترام ديانة المسلمين الجزائريين وعاداتهم.
3. ردّ الأسرى من الفريقين.
4. إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.
5. يلتزم العرب بإرجاع كل من يفر إليهم من المعسكر الفرنسي و يلتزم الفرنسيون بإعادة كل من يفر إليهم من أهل الجزائر، الهاربين من القصاص، إلى وكلاء الأمير في المدن الثلاث (وهران وأرزيو ومستغانم).
6. من أراد من الأوروبيين أن يسافر إلى داخل البلاد يجب أن يكون مصحوبا برخصة من وكلاء الأمير، يصححها الجنرال ديميشيل، وبذلك يحصل على الحماية في جميع الأقاليم¹.

وبعد عقد المعاهدة عين الأمير ممثلين في الجزائر العاصمة و وهران وأرزيو ومستغانم المحتلة من طرف الفرنسيين، وهم على التوالي مردخاي بن دران، والحاج حبيب ومحمد بن ياخو، والآغا خليفة بن محمود، وهؤلاء الممثلون الذين هم بمثابة قناصل لعبوا دور الوساطة بين الأمير عبد القادر وفرنسا. وقد اختارهم من اليهود لأنهم على دراية بالحيل الدبلوماسية، ولمّون باللغتين الفرنسية والعربية. وبالنسبة لفرنسا مثلها في معسكر عبد الله

¹ - بالنسبة لشروط المعاهدة أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 185.

• سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص-ص. 74-75.

عصبون أو كما يسميه المؤرخون الفرنسيون (Abdallah d'Absonne)¹.

وبالنسبة لتحليل بنود المعاهدة، وأثرها على الطرفين الجزائري والفرنسي فلقد اعترفت المعاهدة لعبد القادر بلقب أمير المؤمنين، وفي هذا الصدد يقول باردون (Bardon)² أن الأمير أعمى ديميشيل وأرغمه على إنجاز معاهدة من خلالها يكون أميراً للمؤمنين، وحامياً للإسلام في الجزائر، والمدافع الشرعي عن استقلال العرب، وقد وضعتة الند للند بالتساوي مع الفرنسيين، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فقد كانت المعاهدة خدعة من الأمير بحيث تكون المعاملات التجارية في أرزيو لا في غيرها وتحت نظره لا دخل للفرنسيين فيها، وأن جميع ما يأتي من داخل البلاد لا يباع إلا في أرزيو ولا يشحن إلى بلاد أوروبا إلا منها.

إضافة إلى أن المعاهدة لم تبين الحدود، ولم تحدد نهاية لسيادة الأمير دلالة على أنه يريد بسط نفوذه على جميع الأقاليم.

وكان الطرف الفرنسي غير راض خاصة حول ما يتعلق بالمعاملات التجارية. وأن ديميشيل كان عليه أن يفاوض الأمير في إطار اعترافه بسيادة فرنسا، وأنه أخطأ وتبرير هذا الخطأ راجع لكونه تصرف من نفسه ورفع من شأن الأمير إلى درجة مفاجأته هو نفسه، وأنه لم يقدر الأمور جيداً لأنه اعتمد على العرب واليهودي بوشناق، وهو لا علم له بعادات ولغة العرب³. هذا ما فسره الساسة الفرنسيون على أنه تقصير من ديميشيل.

¹ - هو عبد الله عصبون من أصل سوري، التحق بجيش نابليون بمصر، وعين في حرس المماليك وترقى في رتب الجيش إلى أن بلغ رتبة (كمدان)، وقد عين ترجماناً من الدرجة الثالثة في جيش إفريقيا سنة 1830 المعد لاحتلال الجزائر. التحق بديميشيل فاستخدمه في مفاوضاته مع الأمير، وعين إثر ذلك قنصلاً لفرنسا في معسكر فشغل هذا المنصب إلى أن تم نقض المعاهدة في سنة 1835. أنظر ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 87.

• الأمير عبد القادر، المذكرات، ص. 153.

² - Xavier (B.), Op.cit, p.225,

³ - Pelissier (R. De), Op.cit, T. 2, p. 177.

لكننا نذهب إلى رأي آخر وهو أن ديميشيل تصرف بقناعة محكمة إلى خطاب التيار السان سيموني آنذاك -ومن غير المستبعد أن يكون سان سيمونيا- الداعي إلى ضرورة الإنصاف في حق الجزائريين بأن يكون لهم نظام حكم في إطار الوحدة الإنسانية وهو الأمر الذي كان يرفضه المستعمرون المستوطنون المتطرفون. ومن ثم فهذا التبرير لا معنى له، وديميشيل لم يكن معنيا كما زعم المؤرخون الفرنسيون فمن خلال خطابه وتصريحاته في 9 جوان 1836 إلى غرفة النواب، ثم في 5 جويلية إلى غرفة باريس أقر أنه يرفض تحطيم القومية العربية، وأنه يلاحظ أن الأمير هو الممثل المتميز لهذه الوطنية. ثم إن موقف الأمير هو الذي فرض على ديميشيل إقرار ما أقره، فقد كان على حد قول كوكنبوت (Cokenpot) بما يمكن ترجمته: كان الأمير ذكيا جدا ونبها في تعامله معنا، وأن نبهه وسموه جعلنا له طموحا كبيرا كي يحقق الاستقلال لوطنه، وكان عليه أن يلعب دورين: دور القائد المسلم الذي عليه أن يحقق مبادئ القرآن الكريم، ودور الوسيط السياسي الملزم بمبادئ التفاوض. والأمير عندما أراد السلم كان ذلك مقرونا بهدف أساسي وهو تنظيم دولته دون التخلي عن الروح الإسلامية، ولهذا كان من الصعب إرجاعه إلى صفا والقضاء على نفوذه¹.

• نقض معاهدة ديميشيل:

في سنة 1834 أوصت اللجنة الإفريقية بالبقاء على الممتلكات الفرنسية، وفي الحال أصدرت فرنسا قرارها بإلحاق الجزائر بفرنسا، وهذه العملية تعني زيادة العمليات العسكرية، فعزل الجنرال ديميشيل وعين مكانه تريزيل (Trezel) سنة 1835.

وكان هدف الحاكم العام السعي إلى ضرورة الحيلولة دون زيادة قوة الأمير حيث ذكر: "سأقبل بالوضع الحالي في الوقت الذي أعمل فيه في السر لوضع حد لنمو قوة الأمير العسكرية وأحافظ على العلاقات القائمة بيننا وبينه، ولكنه إذا قطع هذه العلاقات، بالرغم من حرصنا عليها، فسوف لن نعدم أية وسيلة لوقفه عند حده بتأييد منافسيه وأعدائه بالمال

¹ - Cokenpot (Ch.) , Op.cit. p-p.169-170.

والسلاح... فأنا سأحاول إذا حملة على عقد معاهدة جديدة تسوي نهائيا وضعه السياسي اتجاه فرنسا¹.

كان هذا التفوق في نمو قوة الأمير موضع اهتمام السلطة الفرنسية إذ انعكس في تعليمات الحاكم العام "دروي ديرلون" إلى الجنرال تريزيل منها:
"أعلمك أن نييتي ونية الحكومة هي منع نمو قوة الأمير عبد القادر نموا كبيرا وأنه يجب علينا تبعا لذلك العمل لحملة على عقد معاهدة جديدة تقوم على أساس اعترافه بالسيادة الفرنسية، على الأقل من الناحية القانونية، وعلى أساس تحديد تخوم الأراضي التي يمتد عليها سلطانه ونمط تجارته مع الخارج²."

وأوحى الوالي العام إلى تريزيل بأن يعمل على إقناع الأمير بأن مصلحته السياسية والتجارية تقتضي تحديد علاقاته مع فرنسا بصورة نهائية. ومن ثم على رجال السلطة الفرنسية أن يعملوا جاهدين لكسب ثقة الأمير وعدم إثارة شكوكه في أن يعتقد بأن فرنسا تفكر في فسخ معاهدة ديميشيل لأن هذا قد يحمله على قطع السلام، ويبحث مشروعاته للاستيلاء على ولاية تيتري.

ويؤكد "دروي ديرلون" في رسالته إلى وزير الحربية بتاريخ 1 أبريل 1835 بأن المفاوضات لن تكون سهلة مع الأمير وفق ما تملية المصلحة الفرنسية خاصة فيما يتصل باعترافه بالسيادة الفرنسية.

لقد كانت أهداف الوالي العام ترمي إلى أن يعمل الأمير على ضمان بعض المزايا للطرف الفرنسي في مقدمتها تعزيز الأمن في المنطقة والسماح للفرنسيين باحتلال البليدة، وتأمين أملاك الفرنسيين في سهول متيجة بإقرار السلام فيها، وبالتالي يجب أن لا تكون لدى الأمير فكرة التوسع ومد سلطانه إلى إقليم قسنطينة.

¹ - مقتطف من رسالة مبعوثة من الوالي العام إلى وزير الحربية بتاريخ 12 مارس 1835. نقلا عن:

العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص.86.

² - العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص.87.

- وقد تفاوض تريزيل مع قبيلتي الدوائر والزمالة وتم توقيع اتفاق بينهما¹. وهذه الظروف في رأي وزير الحربية كانت تبدو ملائمة لدفع المفاوضات خطوة إلى الأمام على أساس اقتراحات الطرف الفرنسي لتكون أساسا للمفاوضات مع الأمير، وهذه الشروط يحددها الوزير في صورة تعليمات للوالي العام وتنص على ما يلي:
- يعترف الأمير بالسيادة الفرنسية (السيادة المطلقة)؟
 - تحديد مملكة الأمير بنهر الشلف شرقا.
 - الترخيص للفرنسيين وغيرهم بالسفر في ولاية وهران.
 - ضمان التجارة بحرية تامة.
 - التزام الأمير بالأعمال التجارية التصدير من وإلى الموانئ التي يحتلها الفرنسيون².

ولضمان تنفيذ هذه الشروط يقدم الأمير رهائن يقيمون عند قائد وهران، وفي نفس الوقت يعرب الوزير عن موافقته على تزويد الأمير بالأسلحة والذخيرة. وقد احتج الأمير لدى الحاكم العام على تصرف تريزيل وأنه نقض لديميشيل ولكن الحاكم العام رد بتفسير آخر للفظ " هارب" دون الالتجاء، ودعا الأمير للإبقاء على السلم، ولكن الأمير راسل الحاكم مرة ثانية ملحا على إعادة الدوائر أو إعلان الحرب³. ثم إن عزل الحاكم العام دوري ديرلون وتعيين كلوزيل (Clauzel) بدله كان حتما سيفتح باب الصراع والحرب من جديد لأن هذا الأخير كان يفضل سياسة التوسع والاستعمار.

ب. معاهدة تافنة:

من غير المستبعد أن تكون السلطة الفرنسية أكدت أنه من الاستحالة المجابهة في جهتين في وقت واحد خاصة بعد أن فشلت قواتها عام 1836 في السيطرة على إقليم

¹ - بالنسبة لنص الاتفاقية بين قبيلتي الدوائر والزمالة والحكومة الفرنسية بتاريخ 16 جوان 1835، انظر: قنان جمال، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830 - 1914)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993، ص.96.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.90.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.235.

قسنطينة، لهذا قررت إرسال الجنرال بيجو ليتولى حاكما على منطقة الغرب الجزائري لينفذ أحد الأمرين إما عقد الصلح مع الأمير وإما القضاء عليه وتحطيمه ولما كانت الإمكانيات العسكرية لا تسمح بالحل الثاني، خاصة ما تستدعيه معركة قسنطينة من استعدادات، قرر بيجو إجراء الصلح والتفاوض مع الأمير وعرض شروط السلم عليه، وقد خولت له الحكومة كل الصلاحيات لتحقيق ذلك¹.

وكانت اقتراحات الطرف الفرنسي كما يلي:

- الاعتراف بالسيادة الفرنسية المطلقة.
- تحديد منطقة نفوذ الأمير بنهر الشلف.
- دفع "الجزية" لفرنسا.
- تسليم الرهائن كعربون وتنفيذ أي معاهدة مستقبلية يمكن الاتفاق عليها².

ورغم أن الأمير كان محتاجا إلى فترة هدنة لإخماد الفتن الداخلية ولجمع كلمة المسلمين وتنظيم شؤون الدولة العسكرية والمالية والإدارية، وإقامة علاقات خارجية لجلب الأسلحة والذخيرة وبالتالي الدخول في مفاوضات مباشرة مع الجنرال بيجو إلا أنه أكد بواسطة ابن دران عدم الرضى إلا بما اعترفت به معاهدة ديميشيل لأنه لم يهزم حتى تفرض عليه الشروط، وهدد بالحرب إن حاولت فرنسا فرض سلطتها عليه بالقوة.

وقد عبر عن ذلك من خلال ما يلي:

- لا ولا الدين يسمح له بالتخلي عن وضع نفسه تحت حمايته.
- لا يجوز أن يخضع جزائري عربي مسلم لسلطة مسيحية.
- ليس من مصلحة فرنسا أن تمد سلطانها على سكان معارضين تماما لها، بل عليها أن تحصر نفسها في مشاريعها التجارية في المدن الساحلية.
- التنازل للأهالي عن بعض المناطق التي تشجع مركز نفوذهم الساحلي (سهول الجزائر) ماعدا البليدة - متيجة - (المنطقة القريبة من وهران بين بريديّة والمقطع).

¹ - مناصرة يوسف، المرجع السابق، ص. 23.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 110.

• رفع الاحتكار عن التجارة مع السماح بحرية كاملة، وضمن الأمن، وتعويض الخسائر لكل من يستوطن المنطقة الداخلية¹.

وقد تبين لبيجو ما في هذه المراسلة من حدة وإملاء للشروط التي حاول الأمير فرضها ومع ذلك فضل التفاوض، وقد منعت الحكومة الفرنسية من أن يعطي أي توسع إقليمي جديد للأسير، وبالمقابل فهي تعلم أنه لن يتخلى عن أي جزء كان تحت يده، فقررت إعطاء إقليم التيطري للأمير على مسؤولية "بيجو" الخاصة، شرط أن يعترف بتبعيته لفرنسا.

وقد صيغ الإنذار مع التنازلات الهامة وبعث به إلى الأمير ومضمونه كما يلي:

1. يعترف الأمير عبد القادر بسيادة فرنسا.

2. تحتفظ فرنسا بحزام عرضة (10-12 فرسخا) في إقليم وهران يمتد من

(Riosalado) وينتهي عند نهر الشلف، كما تحتفظ بمدينة الجزائر وكل الإقليم الذي يحمل ذلك الاسم، وتترك فرنسا للأمير إقليم التيطري وإقليم وهران باستثناء الحزام المذكور.

3. يدفع الأمير "جزية" سنوية في شكل قمح وما يشبهه.

4. تكون حرية التجارة كاملة.

5. كل المقتضيات التي حصل عليها الفرنسيون أو قد يحصلون عليها في البلاد

ستكون مضمونه لهم من طرف الأمير عبد القادر².

ووصل الإنذار إلى الأمير وهو في المدينة. وقد فتح معه الحاكم الجديد دامريمون

المفاوضات؛ حيث حدث تنافس حاد بينه وبين بيجو في عملية التفاوض، وأخيرا حسم الموقف لصالح بيجو بتدخل من وزارة الحربية.

وعندما أبلغ الأمير القرار عاد إلى وهران ليرد على إنذار بيجو كما يلي:

1. يعترف الأمير بسيادة فرنسا، طبعاً ضمن المنطقة التي تحتلها فقط.

2. كل المسلمين القاطنين خارج المدن هم تحت السلطة الشرعية.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص، 110-111.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص، 111-112.

3. تتحصر منطقة الفرنسيين غرب وهران في البلاد الواقعة بين "بريدية" والبحر وتمتد إلى المقطع، وأما في منطقة الجزائر فإن الفرنسيين سيحصلون على المنطقة بين تلك المدينة ووادي بني عزة.
4. يمنح الأمير خلال هذه السنة فقط عشرين ألف مكيال من القمح، وعشرين ألف مكيال من الشعير وثلاث آلاف رأس من الماشية.
5. من حق الأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت والسلاح.
6. يحتفظ الكراغلة الذين يفضلون البقاء في تلمسان بأماكنهم ويكونون تحت سلطتنا وعليهم أن يمتلكوا لقوانين بلادنا.
7. كل من يهرب من المنطقة الفرنسية أو من منطقة الأمير يغاد مبادلة بطلب من الطرف المعني.
8. تتخلى فرنسا عن ميناء رشقون، وتلمسان وقلعتها، وعن المدافع التي احتوت عليها القلعة، ويلتزم الأمير بنقل أمتعة الحامية الفرنسية من (تلمسان إلى وهران).
9. التجارة تكون حرة بين العرب والفرنسيين.
10. يلتزم العرب باحترام الفرنسيين، كما يلتزم الفرنسيون باحترام العرب.
11. المزارع والممتلكات التي امتلكها الفرنسيون في متيجة تكون مضمونة، وتكون لهم كامل الحرية في التمتع بها.

ولم يشر الأمير إلى قضية التنازل عن إقليم وهران وتيطري على أساس أنه أمر مفروغ منه، فبالنسبة للتيطري لم يكن للفرنسيين سلطة فيه، ولكنه أصر على جلائهم عن إقليم تلمسان والتخلي عن ميناء رشقون.

12. كل مسلم يقيم في منطقة فرنسية يجب أن يكون تحت سلطته الشرعية هو فقط، وهو بذلك سعى إلى تطبيق مبدأ قائم مستمد من القرآن الكريم وهو أنه لا يجوز لأي مسلم مهما كانت الظروف أن يعترف عن طواعية أو يستسلم لحكم مسيحي.¹

ومما سبق ذكره، فإن الأمير قد وصل إلى ذروة المجد في مهمته خلال هذه الفترة، وإن المعنى الحقيقي الواضح لتلك الشروط يظهر في وجوب الاعتراف به سلطانا

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 113.

على الجزائر، بينما يعيش الفرنسيون على هامش إمبراطوريته، مستفيدين فقط من أرباح التجارة لرعيته.

ولم يكن ليصل إلى هذا لولا علمه بما يجري في فرنسا واستغلال ذلك في انتصار شروطه، وتحقيق فكرة "جزائر مستقلة"، وذلك من خلال:

1. ما كان له من اشتراك منتظم في الصحافة الفرنسية، فكان على وعي بتوجهات الرأي العام، وكانت مناقشات البرلمان والمقالات الهامة عن الجزائر تترجم له، خاصة موقف الحزب الليبرالي الرافض للاحتلال " إذا كنا لا نود أن نرى آخر رجالنا وآخر أبنائنا يبتلعون ابتلاعا في الجزائر"¹.

2. تردد فرنسا وتأكيدها على أن السياسة الحقيقية يجب أن تكون مجرد الاحتفاظ بمراكز ساحلية بهدف منع القرصنة وإقامة علاقات سليمة مع أهالي البلاد.

3. ارتفاع شكاوي الحكومة بإهدار المال الكثير والدّم من أجل " حلم " يصعب تحقيقه.

4. إستجابة البرلمان الفرنسي عمليا لهذه الآراء برفضه التصويت على إضافة أكثر من ثلاثين ألف جندي إلى جيش الجزائر.

5. أغلبية الرأي العام كانت تحبّب الجلاء بعد نكبة قسنطينة².

ثم يجد الطرف الفرنسي في شروط الأمير ما يخدم مصالحه فقرّر استئناف الحرب، لكن موارده ضئيلة وأمامه مقاومة الشرق الجزائري، فكان السلام مع عبد القادر مهما كان مهينا ضرورة لا مناص منها.

ومن هنا بعث بيجو إلى الأمير عبد القادر يعلمه بأن الباب لا يزال مفتوحا للمفاوضات، ويطلب منه مهلة للتفكير.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 114.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص-ص. 114-115.

وبشأن التفاوض من جديد مع الطرف الفرنسي عقد الأمير مجلساً ضم زعماء القبائل وشيوخها الكبار والزعماء العسكريين والمرابطين وافتتح المجلس يوم 25 ماي 1837¹ بالكلمات الآتية:

"لا أريد أن أسمح لأحد منكم يتهمني بالرغبة في عقد السلام مع المسيحيين، إن قضية السلام والحرب هي قضية أنتم الذين تبتون فيها"². ثم شرح لهم طبيعة المراسلات بينه وبين بيجو.

فكانت ردود الفعل متباينة، فبينما طالب البعض بالحرب، اقترح البعض الآخر وهم فئة المرابطين قبول السلام، مع تنبيههم التفريق بحكمة بين سلام مقبول وسلام مطلوب، فالقرآن الكريم لم يقر إهدار الدم دون جدوى بعد استسلام الكفار ووضعهم السيف في الغمد.

ثم إن الفرنسيين هم الذين طلبوا الصلح وأن الأمير هو الذي له الحق وكل الحق في إتمام شروطه، ونجح هذا المنطق، وقرر المؤتمر السلام لأن ما ستجنيه عامة الشعب من هذا السلام يبرر التنازل عن البلدة وسهل مدينة الجزائر.

ثم إنه لا شيء يدعو إلى الريبة مادام كل مسلم حرفي الانتقال بين المناطق تحت سلطة فرنسا وبينها تحت سلطة الأمير بشرط رفض دفع الجزية. وبعث الأمير عبد القادر إلى مركز القيادة الفرنسية على التافنة بهذه التنازلات³ :
1. التخلي عن البلدة.

2. عدم المطالبة بأية سلطة على المسلمين المقيمين في المنطقة الفرنسية.

3. السماح له بالتوسع في الحدود الفرنسية.

وعندما علم بيجو أن تأخيراً آخر لن يجد نفعاً، وقّع اتفاقاً مع الأمير عرف بمعاهدة تافنة في 30 ماي 1837، وقد صيغت شروطه كما يلي⁴:

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.116.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.116.

³ - كان الأمير مصراً على عقد المعاهدة وقد شرح لسلطان فاس المغزي منها.

أنظر النص. Azan (P.), *Bugeaud et l'Algerie*, p.46.

⁴ - بالنسبة لشروط المعاهدة أنظر: تشرشل هنري، المصدر السابق، ص - ص.117-119.

1. يعترف الأمير بسلطة دولة فرنسا على مدينتي الجزائر وهران¹.
2. يبقى لفرنسا في إقليم وهران : مستغانم ومزرغان، وأراضيها وهران وأرزيو وأراضيها يحد ذلك شرقا، نهر المقطع والبحيرة التي يخرج منها جنوبا خط ممتد من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجاري إلى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد، ومن هذا النهر إلى البحر، بحيث يصير كل ما في هذه الدائرة من الأراضي للفرنسوية، وفي إقليم الجزائر: مدينة الجزائر مع الساحل وأرض متيجة يحد ذلك شرقا وادي القدرة وما فوقه، وجنوبا رأس الجبل الأول، مع الأطلس الصغير إلى نهر الشفة مع البليدة وأراضيها، وغربا نهر الشفة إلى كوع مزرغان، ومن ثم بخط مستقيم إلى البحر، فيكون ضمنه: القليعة، مع أراضيها بحيث يصير كل ما في داخل هذه الدائرة من الأراضي للفرنسوية.
3. على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطوي، والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا، من إقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني، ولا يسوغ للأمير أن يمد يده لغير ما في أرض الجزائر.
4. ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا، وبياح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا.
5. تمارس القبائل العربية الساكنة في الأراضي الفرنسية ديانتها بحرية تامة، ولهم أن يبنوا مساجد، ولهم أن يسلكوا بموجب شريعة دينهم تحت سلطة علماء دينهم الإسلامي.
6. على الأمير أن يدفع للعساكر الفرنسية ثلاثين ألف كيلة قمح، ومثلها من الشعير، وخمسة آلاف رأس بقر، يؤدي ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة أقساط: الأول من شهر أوت إلى 15 سبتمبر 1837، والقسطين الآخرين يُدفعان بانتهاء كل شهرين قسطا.
7. للأمير الحق في شراء البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

١ - هناك اختلاف في البند الأول بين النص العربي والفرنسي، فالفرنسيون أقرّوا بأن الأمير يعترف بسلطات فرنسا في إفريقيا، أما النص العربي فقد جاء فيه: أن أمير المؤمنين يعترف بأن سلطان فرنسا قوي. وهو المقبول عند الأمير لأن القرآن يحرم عليه الاعتراف بالكفار. وهذا ما أورده بيجو في كتابه.

8. الكولوغلي الذين يريدون أن يقيموا في تلمسان، أو غيرها من المدن الإسلامية، لهم أن يتمتعوا بأملآكهم بكامل الحرية ويعاملون معاملة الحضر، والذين يريدون منهم الانتقال إلى الأراضي الفرنسية، تكون لهم الرخصة على بيع أملآكهم وإيجارها بكل حرية.
9. على فرنسا أن تتخلى للأمير عن ميناء " رشقون " ومدينة تلمسان وقلعة المشور، مع المدافع القديمة بها، ويتعهد الأمير بنقل الذخائر والأمتعة الحربية، للعساكر الفرنسية في تلمسان إلى وهران.
10. النّجارة تكون حرة بين العرب والفرنسوية، ولهم أن ينتقلوا عبر حدود كل طرف ويتاجروا.
11. ضمان الاحترام والوقار للفرنسيين عند العرب، وللعرب مثل ذلك عند الفرنسيين، وكل ما يملكه هؤلاء أو يتملكونه في بلاد حدود الأمير، يكفل لهم حفظه، بحيث يتمتعون به بكل حرية، ويلتزم الأمير بتعويض أية خسارة تلحق بهم نتيجة لضرر يتسبب فيه بعض الجزائريين.
12. يكون المجرمون (قتل - قطاع طرق - متلفي أموال) من الطرفين بالتبادل.
13. يتعهد الأمير بأن لا يعطي أحدا من الدول الأجنبية قسما في الشاطئ إلا برخصة من فرنسا.
14. ممارسة التجارة من بيع وشراء لا يكون إلا في الأسواق الفرنسية.
15. لدولة فرنسا أن تعين في المدن التي في مملكة الأمير وكلاء ينظرون في مصالح الرعايا الفرنسيين، وحل المشكلات التجارية بينهم وبين الجزائريين، وكذلك على الأمير أن يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت إدارة دولة فرنسا¹.
- وهكذا يكون الأمير ابتداءً من يوم 24 صفر 1253هـ الموافق لـ 30 ماي 1837 قد أصبح في نظر الفرنسيين أميراً للمؤمنين، معترفاً بسيادته وبسلطانه على الجزائر، وقد تولّى السّلطة على ثلاث أرباع القطر الجزائري، بينما انحصر الفرنسيون في بضعة مدن ساحلية¹ مع مناطق مجاورة ضيقة جداً، بينما بقيت كل القلاع والمراكز الهامة في داخل البلاد في يد الأمير.

¹ - أنظر نص المعاهدة الأصلي، سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص- ص.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص.111.

هذا من جانب ومن جانب آخر، أهمية هذا الانتصار من حيث التأثير والسلطة، حيث أصبح الأمير يتمتع بفائدة الظهور أمام العالم كصديق وحليف لفرنسا. إضافة إلى أن الأمير استغل المعاهدة لتقوية جيشه، حيث كانت بالنسبة إليه معركة سياسية مكنته من كسب الوقت لتقوية أركان دولته، والقضاء على خلافت العشائر، وتصفية الباحثين عن مصالحهم الشخصية ولو على حساب الوطن¹. والملاحظ أن الأمير رغم فرصة المعاهدة إلا أنه لم يعمل على تمديدتها إلى صلح دائم ورفض أن يقتسم البلاد بينه وبينه المحتلين حتى لا يعترف بدوام شرعيتهم وسلطتهم.

وبالنسبة لردود الفعل على المعاهدة فقد كان مختلفا بالنسبة للطرف الفرنسي والجزائري. فبينما رحبت الحكومة الفرنسية بها اعتبرها الشعب الفرنسي إهانة للحكومة كانت تفخر بأن عبد القادر قد تحول نتيجة المعاهدة من عدو إلى حليف، بينما رأى الشعب أنها تنازل عن إقليم فرنسي إلى سلطة منافسة².

أما رد فعل الشعب الجزائري، ففي المناطق الجنوبية من إقليم تيطري رفض السكان هذه المعاهدة، ومطالب الأمير الخاصة بالمساعدة المالية المعنوية، وكونوا لذلك جمعية لمقاومة تلك المساعدة بزعامة ابن المختار الذي كان رئيسا هاما في الصحراء قرب قصر البخاري، فبنوا مختار وبنوا نائل وبنو عبيد والزناخرة كلهم شكلوا اتحادية كبيرة. وشعر الأمير أنه لا بد من القضاء على المعارضة، فأعد جيشا وطلب مساعدة بن علال وقبل أن يستعمل القوة استعمل الترغيب حيث راسل القبائل النافرة بأن يطيعوه ويقتدوا بقبائل الشمال والغرب في الطاعة وأن يحذروا كلام المغرضين. ورغم الترهيب والترغيب فالرسالة لم تأت بفائدة، فاستسلم ابن المختار وأعلن الطاعة فمنحه الأمير العفو وعينه خليفة له على القبائل المنهزمة فأصبح من أكثر أنصار الأمير إخلاصا له.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.238.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.125.

• عمار قليل، المرجع السابق، ج.1، ص.39.

² - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.125.

كان لخضوع هذه القبائل أثر في خضوع قبائل جديدة والمقصود بها كل القبائل الواقعة على الحدود الجنوبية لإقليم قسنطينة، حيث أرسلت ممثلين عنها للأمير، داعين إياه للقدوم، ولم يمنعه من حمل لوائه إلى جدران قسنطينة سوى اعتداله وحسن نيّته بالإضافة إلى التزامه المخلص بمعاهدة تافنة، وهذا يدل على مدى خلق الأمير السياسي¹.

ويتجلى أثر المعاهدة من جانب آخر في اتساع دائرة علاقات الأمير الخارجية حيث اتصل بدول أوروبية مثل إسبانيا وإنجلترا كما حاول أن يقترب من أمريكا بواسطة قنصلها في الجزائر².

• نقض معاهدة تافنة:

هناك جملة من الاعتبارات أدت إلى نقض المعاهدة منها :

◊ مسألة تعيين كزماني:

لأنه لما تم أمر المعاهدة، عين الأمير وكلاءه في وهران ومستغانم وكتب إلى كزماني وهو إيطالي الأصل، ووكيل أمريكا في الجزائر للقيام بأعباء الوكالة لصالحه³. رفضت فرنسا تعيينه خوفا من إقامة علاقات ودية بين الأمير وأمريكا. ولكن الأمير أصر على تعيينه لأنه أعقل الناس وأعلمهم بطرق السياسة كما جاء في احتجاجه لدى الحاكم على رفض تعيينه.

وقد أكد له أن هذا ذريعة لعودة الاحتلال وأن موقفكم من كزماني ليس بسبب أنه غير عربي كما ادّعى ذلك المارشال "فالي" بل لأنه أقام الحجة على أعمالكم فيما يتعلق بمنع الذين أرادوا أن يأتوا ويستوطنوا أراضينا، لا بالقوة الجبرية بل بالسجن كأنهم مجرمون. فلم يكن أمام الطرف الفرنسي سوى قبول تعيينه، وتأكيد الحاكم العام على إبقاء السلام.

1 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 128.

2 - "ملئى العلاقات الخارجية لدولة الأمير"، العصر، ع. 14، الجزائر 1418 هـ / 1998م، ص - ص. 11-8.

3 - أنظر نص الوثيقة التي بعث بها الأمير عبد القادر إلى كزماني لتعيينه وكلاء.

ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 331.

إن نجاح الأمير من خلال المراجعات بينه وبين الحاكم يرجع إلى تقطنه ونكاته السياسي خاصة فيما يتعلق بتعيينه جواسيس حذاقا تخبره على الدوام بحقائق الأحوال، وهذا هو الذي أوجب تثبيت وظيفة كزماني وتجاوز سببا من أسباب نقض المعاهدة¹.

◊ تعدي بيجو على حدود الدولة الجزائرية:

سير بيجو جيشا من أرزيو إلى مستغانم على طريق البر لاختبار الأمير هل هو متعطن أم لا ولما علم الأمير استاء للأمر وكتب إلى بيجو محتجا على هذا التصرف المناقض لما تنص عليه المعاهدة². فلما وقف الجنرال بيجو على مكتوب الأمير علم أنه على غاية من الحزم في أموره فلم يسعه إلا السكوت.

◊ الإختلاف حول لفظة "وادي القدرة":

بعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة أرادوا السيطرة على المنطقة الممتدة بينها وبين الجزائر، وجاء هذا التصرف بناء على تفسير فرنسا للفظـة " ما وراء وادي القدرة " من البند الثاني من معاهدة "تافنة" حيث أرادت منها المنطقة الواقعة في إقليم الجزائر وراء وادي القدرة إلى إقليم قسنطينة، وهم يرمون من وراء ذلك إلى خلق طرق اتصال جديدة. وكتمهيد للمشروع قام المارشال "قالي" مع فرقة من العسكر بالسير من الجزائر إلى قسنطينة على طريق البر، ولما وصل الخبر إلى الأمير استاء وأقام الحجـة على "قالي" انطلاقا مما نصت عليه المعاهدة.

وأجاب "قالي" بأن فرنسا وهيتك ما وهيتك بما جاء في المعاهدة وأن إقليم قسنطينة خارج عن الحدود ولا كلام عليه في المعاهدة، وأنه كان واقع تحت سلطة أحمد باي عند انعقادها.

فاشتاط الأمير غضبا خاصة على لفظة "وهيتك" وأكد أن قسنطينة لم تكن تحت أيديكم عندما وقعت المعاهدة، ونتيجة لذلك فإنه من الواضح أنكم لا تستطيعون أن تحجزوا لأنفسكم قطعة من الأرض الواقعة بينها.

¹ - لمزيد من التفصيل أكثر فيما يتعلق بما وقع فيه الخلاف بين الأمير والمارشال "قالي" حول مسألة تعيين كزماني وكيدا، أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، صفحات 331، 332، 333.

² - أنظر نص الرسالة، ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 334.

وقد أكد الأمير في ردّه أنه جعل حدود فرنسا محصورة في ضواحي مدينة الجزائر، ولمّا ألح عليه "بيجو" في توسعة الحدود وامتدادها، جعلت وادي القدرة حدًا لكم في الجهة الشرقية، وإلى البليدة من الناحية الغربية.

وبيّن لهم خطأ الترجمة لكلمة "فوق" بـ "وراء" فهي لا تعني شيئاً وغير مرادفة تماماً لوراء في عرف العرب.

وكلمة "إلى" عربية وضعت لانتهاه الغاية، فما فهمتموه من كلمة "فوق" وكلمة "إلى" غير مطابق لما وضعنا له، وعندكم من علماء اللغة العربية من يحقق لكم ما ذكرنا، وبالتالي سيركم تعدي صارخ لبنود المعاهدة.

وهذه المراجعات كلها لم تجد نفعا وازدادت المشاكل يوماً بعد يوم.

وكان رد فعل الأمير أن أتم الاستيلاء على مجانة والزيبان وغيرهما من النواحي الشرقية والجنوبية، وإن تصرفه هذا قد فتح أمامه باباً عظيماً لتوسيع مملكته، ومدّ له طريقاً متسعاً لنفوذ كلمته، حيث وضع يده على الأماكن الواقعة عليها النزاع كالزيبان ومجانة وجبال البربر الشمالية وما إليها، وسلّم للفرنسيين استيلاءهم على قسنطينة ولم يسلم لهم دعوى تابعة البلاد التي استولى هو عليها¹.

هذا إضافة إلى عدة مشاكل حدثت يعتبر فيها سكوت المارشال فالي، خرقاً للسلام الذي بين فرنسا والأمير، وتوجد عدة وثائق تشير إلى تجاوزات من طرف الفرنسيين، في شكل رسائل بعث بها الأمير إلى فالي منها²:

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.336.

² - أنظر مضمون هذه الرسائل.

• Gouvernement général de L'Algérie, correspondance du maréchal valée, T.1, Paris 1839, p.p. 49-50, p.160, p.215, p.191, p.31.

1. إحتجاج الأمير على وضع مصطفى بن صاري من مشاهير تلمسان في السجن والمعاملات السيئة من طرف الفرنسيين في وهران.
2. تحدّثه عن وكيله بوهران الحاج الحبيب وما تعرض إليه، من تعسف القائد الفرنسي وسكان وهران ويطلب منه أن يسمح له بمغادرتها. ويؤكد على أنه في سلام وفي إطار مبادئ المعاهدة.
3. مسير ابن الملك من قسنطينة وتعدّيه على حدود الدولة برئاسة عبد القادر رغم معاهدة "تافنة" وإعلامه باستئناف الحرب.
4. حدوث سرقة وعدم اتخاذ أي إجراء.
5. مهاجمة فرقة قناصي إفريقية حوش أولاد سيدي يحي وأخذ متاعهم فطلب من المارشال اتخاذ الإجراء للمحافظة على السلم.
6. أهالي بن موسى بعضهم حبس من طرف العسكر الفرنسي، فطلب الأمير وجوب تسريحهم.

ورغم هذه المشاكل فالأمير بقي مصرا على السلم، وأكد أكثر من مرة على ذلك للمارشال فالي حيث بين له أنه رجل يريد البناء ويسعى إلى السلام وينتظر هذا بالمقابل من الطرف الفرنسي¹.

لكن الطرف الفرنسي كان مصرا على نقض السلام، حيث وجه نيقولاما نوتشي إلى الأمير ليعرض عليه المناورة والاستسلام، لكنه رفض، ثم أوعزت إليه أن يعرض على كل خليفة الاستقلال عن الأمير، والاعتراف من طرف الفرنسيين باستقلال ولايته إذا خرج عنه، لكنه لم يجرأ لأن أول خليفة سيقطع رأسه².

ويبقى السبب المباشر لنقض المعاهدة هو القبض على وكيل الأمير بتهمة تزويده بالأسلحة والذخيرة وإرسال فرنسا عدم اعترافها بـ (GRAVINI) عميلا للأمير بعد سنتين

¹ - راجع نص الوثيقة التي بعث بها إلى المارشال فالي بتاريخ 28 شوال 1254.

• Corsepondance du marechal Valée, p.p, 14-15.

² - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 119.

من عمله ورداً على احتجاج الأمير، أنهم فهموا من المعاهدة أنه لا يتعين للقنصلية إلا العرب.¹

لكن السبب الحقيقي الذي أدى بالفرنسيين إلى نقضها هو ما سمّوه بالأخطار الناجمة عن التنظيم المحكم الذي كون به الأمير عبد القادر دولته الناشئة.

ومن جهته استاء الأمير عبد القادر من المشاكل التي أثارها فرنسا وخاصة من طرف المارشال فالتي وقد اتهمه بالخيانة، وأن أمته لا عهد لها ولا وفاء، وأكد استئناف الحرب.²

ولكن فرنسا في تفسير تتصلها من المعاهدة، أنها كانت تقيم علاقاتها مع الدولة الجزائرية على أسس منطلقة من متطلبات الاستعمار، أسس غير معروفة بين الدول المنحصرة، فقد كتب "بوديشون"، داعية "الاستعمار الفوري" في كتابه خواطر حول الجزائر ما نصه:

"لا بأس من خروج فرنسا على أعراف الأخلاق الدارجة في سلوكها السياسي أحياناً، المهم هو أن تقويم المستعمرة القوية وأن تخضع البلدان المتوحشة بعد ذلك للاستعمار الأوروبي"³.

وهكذا نقضت المعاهدة واستأنفت الحرب، ووجهت جميع الإمكانيات للقضاء على قوة الأمير ودولته.

¹ - الكولونيل اسكوت، المذكرات، ص. 115.

• تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 166.

² - أنظر نص الوثيقة: *Correspondance du marchal Valée*, p.p, 229-230.

³ - حاتم عماد، "الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع.14، الجزائر 1393 هـ/1973م، ص.126.

◊ سفارة الميلود بن عراش¹ :

إن رغبة الأمير في توسيع نفوذه إلى إقليم قسنطينة، والإبقاء على السلم لمدة أطول وإحساسه بمحاولة "فالي" لإفشال خططه جعله يتصل بملك فرنسا مباشرة ليجعله الند للند وإثبات مكانته على المستوى الدبلوماسي والدولي.

ذلك أن "لويس فيليب" عند عقد تافنة بعث بهدية ضخمة من الأسلحة إلى الأمير والذي بعثها بدوره إلى ملك المغرب، فأراد الأمير أن يرد الجميل فبعث بهدية مكونة من ستة أحصنة عربية مسومة إلى ملك الفرنسيين، وكان الهدف منها تصفية الجو، وتخفيف أي توتر قد يوجد لدى الحكومة الفرنسية ضده، وتوضيح تحركاته الأخيرة، بحيث تترك انطبعا حسنا، والحصول إن أمكن على موافقة الحكومة على نسخته من المعاهدة المتنازع عليها. لكن المارشال "فالي" علم بمضمون المهمة، خاصة فيما يتعلق بالمادة المتنازع عليها، فحذر الحكومة الفرنسية، واستقبل الوفد بحفاوة ولكن عندما يصل إلى المادة محل النزاع، تنهرب الحكومة، وبالتالي لم تثمر المهمة.

وعندما عاد الوفد إلى الجزائر وتفاوض مع "فالي"² الذي أخرج نسخة المعاهدة التي تظهر الأرض المتنازع عليها في حوزة الفرنسيين، وفي مقابل ذلك حصل عبد القادر على مناطق بني جاد، حمزة، وونوغة، ويعفى من دفع مكابيل القمح والشعير التي تعهد بدفعها في المعاهدة.

لكن ابن عراش أعلن له أنه لم يكن مفوضا للتفاوض، ولكن تحت إلحاح شديد رضي أن يضع ختمه على الوثيقة، دون أن يكون ذلك تعبيراً على رأي سيده عبد القادر³.

¹ - حول هذه السفارة استشار الأمير ملك المغرب. انظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص-ص. 339-342.

² - بعث فالي رسالة إلى الأمير يعلمه فيها بعودة الميلود بن عراش، وأن الملك بعث بهدايا تدل على الصداقة التي يكنها له. انظر. Correspondance du Maréchal Valée, p.206.

³ - ذكر في التحفة أن ابن عراش ذيل على المعاهدة مستعملا عبارة "لقد اطلعت عليه واستحسنته" ولكن الأمير لم يقبل هو ومجلس الشورى بهذا التذييل، وقرر انتقاض المعاهدة. انظر : ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 348-349.

ثم إنه خاف من الأمير فأظهر المرض ولاذ بالفرار إلى معسكر، وعند عودة الأمير إلى تاقدمت في 10 جانفي 1839¹، استمع إلى الميلود بن عراش وقد رفض تماما ما صنعه والتنازل للفرنسيين.

مع ذلك بقي الأمير يرغب في السلم مع عدم المساس بالحدود المتفق عليها. وقد بعث رسائل إلى كل من (تيير *Thiers*) وجرار يشرح فيه الوضع، فذكرهما بأن البلاد التي ذكرها الحاكم في تذييله هي بلاد سبقنا نحن إليها، ووضعنا أيدينا عليها وهي في حكم الموات لا حاكم لها بمقتضى الشرع.²

وعن مضمون هذه الرسائل وما جاء فيها، فبالنسبة لرسالة الأمير إلى لويس فياييب التي بعثها في إطار إرادته ومساعيه لتحمي الاعتداءات ودرء أسباب الحرب³، مبرزاً من خلالها عدة نقاط هامة أبرزها:

تصور الأمير للشعب والحرب: فإذا كان المسيحيون ينظرون إلى الحرب على أنها مجرد وسيلة لانتفاع دينوي، فبالنسبة إليه ولعامة الجزائريين مجرد التزام ديني لرد الإعتداء المسيحي على الأرض الإسلامية، وبالتالي فأى تنازل هو تناقض مع الدين الإسلامي، ولهذا لا يجوز التخلي عن القبائل التي أعلنت خضوعها لي، وتتوسل أن أكون حاكماً عليها، لتخضع لنير المسيحيين.

- تدعيم السلام من الطرفين منذ أن تقرر وقف المعاهدة.

- إذا كان الفرنسيون أصدقائي فلا يرغبون في شيء يحط من قيمتي، ويفقد ثقة

شعبي بي.⁴

ثم إن الأمير عندما لم يجد ردا على الثلاث رسائل التي بعث بها إلى الملك، عاود مراسلته للمرة الرابعة واقترح أن تبرير عدم الرد عليها راجع إلى احتجازها في الطريق، وتمنى أن تحظى هذه الرسالة بنجاح أفضل، وكان مضمونها كما يلي:

1. عدم اطلاعكم على ما يجري من سلوك غير عادل من طرف ممثليكم، لأن الثقة

في عدلكم كبيرة.

1 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.166.

2 - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.350.

3 - لاکوست، المصدر السابق، ص.273.

4 - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.174.

2. أن هناك مساعي من طرف البعض تثير أنني عدوا لك، وأنا أكذب ذلك ولا أدل على صدقي من عدم استئنافي الحرب ضدكم.¹

3. التجاوزات التي يقوم بها الممثلون من تعسف وظلم واعتقال لجنودي دون سبب وكذا إساءة معاملة وكلائي إضافة إلى وقف عملية استيراد الحديد والرصاص إلى بلادي. ومع أن الطرف الفرنسي يضعني في صورة عدو لك فإنني لم أقم بتجاوزات في حق ممثليكم فقد سهلت وصول كل منتوجات بلادي إلى أسواقكم، واستخدمت الأوروبيين بما فيهم الفرنسيين لأبعث الحياة في الصناعة، وأصدرت أوامري الصارمة بأن يؤمن في السفر تجاركم، ورجال العلم، ويعاملوا بكرم وحسن ضيافة. ونجد الأمير يذكر الملك بخلف وعد الفرنسيين له، وتبدل الصورة الحسنة عنهم وذلك من خلال:

• عدم تمويته بالبنادق والبارود والرصاص والكبريت حسب ما نصت عليه المعاهدة، وبقاء الدوائر والزمالة وعدم نقلهم إلى فرنسا.
• وبالتالي فتوقيع معاهدة أخرى مع أناس لا يلتزمون بالوعد والشرف أمر فيه خوف ومجازفة، ثم يذكر الملك بأن شخصه يختلف عن ممثليه الذين هدفهم التوسع، لأنه من المؤكد أن هدفه هو أخذ الشعب الجزائري بأسباب الحضارة وغرس روح الحرية فيه. لا أن يكون عبدا لفرنسا – فهل بقوة السلاح يحقق هذا الشعار؟²

وإذا ما استأنفت الحرب يقول الأمير فلسست غيبا فأدعي أنني أستطيع أن أقف وجها لوجه ضد جيشكم، ولكني أستطيع أن أناوشه بدون هوادة، ولا شك أنني سأضطر إلى التراجع، ويبقى إلى جانبي خبرتي بالبلاد، وحكمة وحماسة الشعب وإرادة الله عز وجل.³ وأؤكد أنه إذا كان لديكم رغبة في السلام فسيعيش شعبينا بأمن وضمن كل طرف حقوقه، وسيختلط الشعبان أكثر فأكثر، ويكون لكم الفضل في إدخال الحضارة التي يدعو إليها المسيحيون في بلادنا. وأرجو أن لا يفهم تصرفي إزاء عدم توقيع المعاهدة رغبة مني في استئناف الحرب.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.172.

² - يكذب بطريقة غير مباشرة شعار فرنسا نحو المستعمرات، ويقدم الحجة على ملك الفرنسيين.

³ - عدم الاكتراث بتبيان ضعفه وغروره.

ومما يستنتج أن لغة الأمير وطريقة مناقشته تدل على أنها لا تصدر إلا عن عقل واع يدعمه صواب المبادئ التي يؤمن بها، معتمدا بإيمان لا يتزعزع على عدالة قضيته، وهكذا يتخذ الدبلوماسية وسيلة لخدمة دولته.¹

ثم إن أسلوب أو صيغة الجدل التي تتسم بالضراعة لهذه الرسالة البسيطة تدل على قلق الأمير من المظهر الذي أخذته العلاقات بين الطرفين، والأهمية الكبيرة التي يعلقها على استمرار السلام.

هذا عن مضمون رسالته إلى لويس فيليب، أما بالنسبة لمضمون المراسلة التي تمت بينه وبين (Thiers) فقد كان التركيز فيها على ضرورة تحقيق شعار فرنسا نحو مستعمراتها بالسهر على مصالح جزء من إفريقيا قد أصبح فرنسيا، وفي هذا استعمال للحيلة والمراوغة، وتقوية وتدعيم السلام الذي ينبغي أن يقوم على أساسين هما:

- تحقيق الحضارة والتقدم للجزائريين.

- تحقيق المجد لفرنسا بأنها ساهمت وساعدت على تحقيق هذا التقدم وتلك الحضارة.

وقد واصل الأمير عبد القادر إصراره على السلام ومطالبة فرنسا بتدعيمه، وأن هذا السلام مقرون بشرط هو عدم تجاوز أحكام الدين الإسلامي والقيام بالواجبات التي يفرضها عليه. وهذا من خلال رسالته إلى المارشال جيرار.²

ومما نستخلصه من هذه المراسلات، أن الكلمات التي راسل بها الأمير عبد القادر حكام فرنسا كريمة لعظمة ندائها، وكريمة في دلالتها على الكفاح البطولي، هزت ومزقت رجل واع بسلطانه، متحرق لتنفيذ خطته الكبرى، ومتأرجح بألم في نفس الوقت بين قلق تمديد السلام الذي سيمكنه من أن يظهر للعالم دولة إسلامية متقدمة ومزدهرة وبين عزم صارم على التخلي حتى عن هذه الرغبة الداخلية والتنازل عن المستقبل الباسم إذا كانت تلك الأهداف لا تتحقق إلا بالخضوع للدليل ولو مؤقتا إلى تلقينات متغترسة من أناس تجاوز طموحهم أبعد الحدود.

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 174.

² - أنظر نص الرسالة كاملا، تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 177.

إن إصرار الأمير عبد القادر على السلام هو رغبته المخلصة في خدمة الصالح العام، واستمرار التحالف والاتحاد لدى الأهالي الذين ما يزالون في بداية الطريق الذين يجنون منه ثمرات السلام والعمل المنتج.¹

لكن عهد العبارات الودية والصدقة الفارغة والتحالف المنافق قد انتهى من طرف الفرنسيين، وأصبح التعايش بينهم وبين عبد القادر مستحيلا على أرض الجزائر، فكان نقض المعاهدة وكان الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لتفادي اعتداءات جديدة تكون نتيجتها انهيار دولته بالتدريج.

2. 1. 2 / العلاقات مع المغرب :

الذي كان يستمد منه الأمير عبد القادر لفترة طويلة الدعم المادي والمعنوي قبل أن تتدخل فرنسا وتمنع ذلك مهددة بغزو المغرب.

مما لا شك فيه أن الجوار ووشائج الدين واللغة والوحدة والتاريخ المشترك كلها عناصر جوهرية لقيام روابط التفاهم والأخوة بين الجزائر والمغرب الأقصى.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر دخل أهل تلمسان في طاعة السلطان المغربي فلم ير الأمير في ذلك بأسا واعتبر نفسه من رجاله وقائدا من قواده.

والدليل على ذلك أنه لما بويع بعث إلى السلطان يستشيريه ويطلب إقراره ومباركته للأمر، حيث أدرك أهمية علاقات حسن الجوار مع المغرب لإيجاد المقاومة.

وإكن السؤال بالنسبة لتوجه الأمير إلى إقامة علاقات مع المغرب، هل كان القصد منها الولاء والطاعة أم البحث عن الدعم والمساعدة وإسكات الأصوات التي قد تطعن في شرعية حكمه؟.

بتحليلنا للعلاقة التي قامت بين الأمير والمغرب الأقصى ابتداء من 1832 إلى غاية 1847 يمكن تحديدها بمرحلتين أساسيتين:

¹ - تشرشل هنري، المصدر السابق، ص. 178.

• المرحلة الأولى (1832. 1843):

إنها فترة الوئام والتفاهم المتبادل والتأييد للجهاد في الجزائر وتقدير كل من القائدين للآخر، فعندما بويع الأمير كان يحكم كصاحب سيادة، يحمل لقب أمير المؤمنين، وسالطان الجزائر، ولكنه كان يجاري سلطان فاس عبد الرحمن بن هشام، فلبس القفطان الذي جاءه منه في المناسبات، ويذكر اسمه في خطبة الجمعة، مع إغفال ذكر اسمه في العملة.¹ وتوطدت العلاقات بينهما أكثر، فكانت هناك مراسلات ومبادلات في المجالين السياسي والتجاري، مما أثار تخوف الفرنسيين من خلال التقرير المفصل لديميشيل إلى وزير الحربية بتاريخ جانفي 1834، مبرزاً فيه خطورة هذا الحدث الذي سيزيد من ثقة الشعب في الأمير.

لكن ورغم التهديدات الفرنسية، إلا أن العلاقات بين الأمير وسلطان المغرب تبقى قائمة ومتينة، ففي سنة 1837 ورد سؤال من الأمير إلى علماء فاس يستفتيهم ويشرح لهم أحوال الكفاح في الجزائر وما يعتريه من مشاكل مختلفة.

وقد أجاب عن هذا السؤال الفقيه أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي² إجابة طويلة مفصلة وانطلاقاً من هذا يزداد تدعيم المغرب الأقصى للأمير، يقول التسلاوي: "ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن على ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين وحماية بيضة المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قام بنصرة الإسلام حين لا ناصر له فصار السلطان يمدّه بالخيول والسلاح والمال.³ ويقول المؤرخ الفرنسي (Emerit) لقد بقي المغرب الأقصى مدة طويلة دار الصناعة ومنجم الذهب للأمير⁴.

1 - سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية، ج.1، ص.214.

2 - الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي، المتوفى 1253هـ، أنظر الناصري أبو العباس، الاستقصاء، ج.9، ص - ص.45-46.

أنظر نص السؤال وهو عبارة عن أربعة عشر سؤالاً حرّ في 19 ذي الحجة 1252هـ.

ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ج.1، ص.320 إلى 329.

3 الناصري أبو العباس، الاستقصاء، ج.8، ص.44.

4 - Le conflit franco-Marocain de 1844 d'après les notes de warnier, in R.A, 1950 p-p.329-425.

وكانت الأسلحة والذخيرة الحربية الواردة من جبل طارق تفرغ بموانئ المغرب وكذا الأسلحة المرسلّة عن طريق المغرب من متاجر سولال بمدينة مرسيية، وأمام تقاقم الوضع وتزايد الصفقات وحجم الإرسالات التي أفلقت الضباط الفرنسيين، أوفد هؤلاء ضابطا ساميا دولارو (F. de la rue) إلى مكناس سنة 1836، " يحتج لدى السلطان مولاي عبد الرحمن على المدد الذي يتلقاه الأمير من قبل الرعية مشيرا إلى عمليات انتقام إن تكرر الأمر".¹

وكانت متطلبات الحرب تقتضي شراء اللوازم من المغرب نفسه ففي رسالة بعث بها الأمير إلى ممثله هناك وهو الحاج طالب بن جلون بتاريخ 16 جمادى الأولى 1294هـ / 8 أوت 1838، يلح فيها على تزويده بالأسلحة، وإلحاح الأمير ما يبرره، فقد ذكر دوماس أن مصنع تاقدمت مثلا كان لا ينجز سوى بندقية واحدة في اليوم، وفي رسالة الجنرال راباتيل بتاريخ 31 مارس 1838 قال: " إن صناعة المدافع بتلمسان لم تتجح وأنهم يقتصرون حاليا على صنع البارود " وكان يؤتي من المغرب أيضا بخشب خاص لصنع يد البنادق.²

ولكي نأخذ فكرة عن نشاط الحاج بن جلون³، نشير إلى ما ورد في تقرير لدوماس بتاريخ نوفمبر 1838⁴ إلى قائد جيش وهران ما يلي: إن الشخصية التي تقوم بتزويد عبد

¹ - بلحميسي مولاي، " الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام"، أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، 1988، ص.48.

² - بلحميسي مولاي، " الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام"، ص.48.

³ - شخصية مغربية تمتعت بكثير من النفوذ والثراء في عهد المولى سليمان وفي أوائل عهد المولى عبد الرحمن حيث لعب دورا أساسيا في سياسة المغرب الأقصى، الأمر الذي استحق به ثقة التجار والوسطاء من مختلف الأجناس في عمليات سرية دقيقة.

وبفضل الاتصالات السرية، كان على اطلاع دقيق بمجريات الأحداث والتطورات السياسية الأوروبية، وهذه الصفة جعلت استفادة الأمير منه ذات فائدة خاصة.

للمزيد من المعلومات أنظر: العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص.229.

⁴ - Yver (G.), correspondance du G.Daumas, p.372.

نقلا عن: بلحميسي مولاي، " الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام"، ص.231.

القادر في المغرب بما يحتاج إليه من الأسلحة، هو تاجر من فاس يدعى الطالب بن جلون ويتعامل مع جبل طارق بواسطة يهودي يدعى ابن عبي¹ الذي يعمل بصفته قائما بأعمال سلطان المغرب في هذه المدينة.

إضافة إلى العاملين الحاج الطاهر، و الحاج بن جلون، فقد كان على رأس الطرف المقابل للشواطئ المغربية "مانوتشي" الذي أقام في جبل طارق يمثل مصالح الأمير حتى سبتمبر 1841م، وقد أحاط نفسه بعدد من الأعوان لمساعدته في مهمته نذكر منهم اليهودي الثري "كوردو" الذي كان يعمل قنصلا لتونس في جبل طارق، وآخر من الصويرة اسمه "بينطو" وشخصا آخر اسمه "صامويل ينصور".

وهذان الشخصان الأخيران هما اللذان كانا يوصلان الأموال إلى "مانوتشي" عبر المضيق ويتوليان نقل الأسلحة وتدبير القوافل التي تنقلها إلى الشواطئ المغربية.²

والملاحظ أن عمليات البيع والشراء التي تجري على نطاق واسع في جبل طارق مع السلطات المغربية، لم تكن بالطبع لتتم في أرض خاضعة للسيادة البريطانية ويحكمها ضابط برتبة جنرال بدون رضی الحكومة البريطانية بل ربما بتواطئها أيضا.

والطريف أن هذه الحقيقة يعرفها الفرنسيون جيدا، ولكنهم وقفوا مكتوفي الأيدي أمامها، حيث لم يكن في وسعهم أن يقدموا احتجاجات إلى بريطانيا مماثلة للاحتجاجات التي يقدمونها للمغرب بين الحين والآخر.³

وفي هذا الصدد كتب بيجو بعد معركة موازيه إلى وزير الحربية يقول:
"لقد لاحظت أن جميع البنادق التي جمعناها في ميدان القتال هي من صنع المصنع الملكي للأسلحة بلندن."⁴

1 - الاسم المستعار الذي يعمل به السنيور مانوتشي.

2 - العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص. 231.

3 - العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص. 232.

4 - العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص. 232.

ولولا مساعدة الإنجليز ومساعدة سلطان المغرب لأصبح عبد القادر منذ وقت طويل في ضيق شديد". والمهم أن الأمير كان حريصا على اطلاع سلطان المغرب على مجريات الأمور بواسطة مندوبه في فاس ابن جلون وهذه المبادرات كان لها فضل لا ينكر في تأييد السلطان عبد الرحمن لمشروعات الأمير أو على الأقل في عدم معارضته لها.

وقد عزز الأمير ثقة السلطان فيه بمراسلاته المختلفة، مرة بشأن هدف عقد معاهدة تافنة، وأخرى بشأن حصار عين ماضي¹ وشكايته من موقف التيجاني، وكذا استشارته له عندما عزم على توجيه بعثة بن عراش إلى باريس.

وقد أظهر المغرب الأقصى وشعبه حماسا وعطفا كبيرين للنجاح والانتصارات التي حققها الأمير بعد استئناف القتال سنة 1839.

وهو ما عبر عنه قنصل فرنسا في طنجة "دوري بينيون" إلى وزير الخارجية في 8 يناير 1840².

وعندما كان الأمير في أوج قوته بعث إلى سلطان فاس ليتنازل عن الحكم³، وكان رد السلطان أنه يرفض حتى أن يسمح لحظة واحدة بهذا التخلي من شخص أظهر كفاءة عظيمة في القيادة والتنظيم والتجديد وإنقاذ البلاد. وقد دعاه باسم الإسلام أن يظل كما كان بطل جهاد وأن يكمل عمله الشريف، وأن يوسع وينجز رسالته.

ولكن ما إن انتهت سنة 1838. حتى بدأ الجو يتعكر بين الرجلين نتيجة الدعاية الفرنسية من جهة خاصة وأن الأمير ازدادت شعبيته في أنحاء كثيرة من المملكة، وكذلك

¹ أنظر رسائله التي أوردها ضمن:

• Yver (G.), *Op.cit.*, p.232, p. 294..

نقلا عن: بلحميسي مولاي، "الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام"، ص.231.

² - أنظر نص المراسلة، العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص.235.

³ - بالنسبة لمضمون نص التنازل أنظر: تشرشل هنري، المصدر السابق، ص.154.

الطريقة التيجانية - العدو اللدود للأمير-، التي حركت أتباعها الكثيرين في جنوب المغرب وحتى في القصر السلطاني فهل كان لهم يد في تردّي العلاقات ونزع الثقة¹.

• المرحلة الثانية (1843 . 1847):

كان استيلاء العدو على القواعد الخلفية للأمير (بوغار . تازا . سعيدة . تاقدمت) كارثة بالنسبة للأمير خاصة وأنها جاءت بعد سقوط المدينة ومليانة في السنة التالية.

وخطورة الوضع في هذه المرحلة تتجلى في أن العدو بالإضافة إلى القضاء على المراكز العسكرية، قد مسّ المقاومة في الصميم من حيث أن المملكة فقدت أهم أسسها السياسية والعمرانية، فقد أصبح تنظيم القبائل إداريا واقتصاديا وجباية الضرائب الآن أمرا غير ممكن.

وبالتالي فإن الدولة قد فقدت إلى جانب سلطانها السياسي الموارد الضرورية للكفاح من الرجال والمال، وهذا الوضع هو الذي ستستغلّه بعض القبائل الضعيفة الإيمان والولاء لتحذو حذو الدوائر والزمالة وتضع نفسها تحت تصرف العدو .

والجانب الآخر للمشكلة تتصل بسمعة الأمير في الخارج، وفي المغرب الأقصى بالذات، حيث كان الهاربون من المقاومة يتواطئون مع أعوان فرنسا ومأجوريها ليذيعوا قصصا لا صلة لها بالحقيقة عن تقلص نفوذ الأمير، بقصد إضعاف مركزه، والتقليل من شأنه في نظر السلطان فقد جاء في تقرير لقتنصل فرنسا في طنجة إلى وزارة الخارجية بتاريخ جانفي 1842: "أحدثت هذه الحالة أثرا عميقا وشاملا من القلق في فاس فإن الجميع يتوقعون الآن أن يجد عبد القادر نفسه مضطرا إلى الالتجاء بالمغرب الأقصى ووجود الأمير هنا سوف يجز عواقب لا يمكن تقديرها"².

¹ - بلحميسي مولاي، "الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام، ص. 49.

² - Brissac (Ph.De), Op. cit, p.65.

وعندما تضعف شوكة الأمير، سوف ينتجاً إلى المغرب، معتمداً على مساعدة بعض القبائل المغربية، للقيام بغارات على الأراضي الجزائرية.

ومنذ هذا الوقت ستقوم خطط الأمير العسكرية على أساس عدم وجود حدود مع المغرب، فهو سيناضل في الجزائر كلما كانت فرص النجاح مواتية، ومتى ساءت الأحوال ينتقل إلى المغرب ليضمه جراحه ويسترجع قوته.

ويرى جوليان أن هدف الأمير كان لجر الجيش الفرنسي إلى التدخل في المغرب ليثير بذلك نزاعاً عاماً تستفيد منه الجزائر.

ومن أسباب اختيار الأمير للمغرب الأقصى طبعاً له:

1. طمعه في مساعدة البلاد على القيام بأمر الجهاد.
2. إطمئنان من كان يميل إليه من بني وطنه لوجوده في مأمن، وإمكانية الهجرة إليه.
3. إذا أراد الغزو يترك الزمالة في مأمن.

وعندما اتصل الأمير بالسلطان يخبره عن أحواله تعذر عن مجيئه للقتال معهم، بما أنه يخضع للتأثرين، ثم إنه لما استقرت الزمالة تابع جهاده ضد العدو، وأخضع القبائل المغربية ضد السلطان من أجل استنهاضه للجهاد، لكنه لم يرد على نداء الأمير.¹ وقد كان ملك المغرب واقعا تحت التهديدات الفرنسية، فقد وجه جيزوت إلى قنصل فرنسا في طنجة ليوجه احتجاجين صيغ كل منهما في لهجة شديدة إلى السلطان، أحدهما قدم في 14 أبريل، والثاني في 14 ماي 1842، مضمونه أنهم لا يريدون من السلطان أقل من منح الأمير أن يعبر الحدود عائداً إلى بلده.

وعلى الصعيد الدولي، كان الرأي العام السائد أن عدم مهاجمة فرنسا للمغرب يعود إلى تخوفها من ردود الفعل الأوروبية والبريطانية بصفة خاصة.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص. 440.

وكذلك اعتبر تدخل القنصل البريطاني في طنجة "دريموند هاي" لدى السلطان لحمله على الاستجابة للمطالب الفرنسية دليلا على الأهمية التي تعلقها بريطانيا على المغرب، وبالتالي ضمانا بعدم إطلاق يد فرنسا في المنطقة.

ولكن السلطان فهم المساعي البريطانية على أنها نوع من التواطؤ بين بريطانيا وفرنسا حيث أصدر ظهيرا يمنع المغاربة من إقامة أية علاقات مع الجزائريين. واستنادا إلى هذا القرار أخذت السلطات المغربية تستولي على شحنات الأسلحة الموجهة إلى الأمير في الصيف والخريف من سنة 1842.

وكان لهذه الإجراءات وقع سيئ على الأمير عبد القادر الذي لا يستطيع أن يستغني عن المغرب بوصفه جسرا لعبور الأسلحة. ولندرك مدى تأثره، يكفي أن نشير إلى أنه لأول مرة منذ قيام العلاقات بين البلدين امتنع عن تقديم الهدايا التقليدية التي تعود أن يوجهها إلى السلطان مع تهانيه في عيد الأضحى الذي يوافق 13 يناير 1843.

ومما زاد الأمر سوءا، أن قطاع الطرق والقبائل التي تعيش على النهب والسلب استقبلت هذا القرار بكثير من الارتياح حيث اعتبرت نفسها الآن مطلقة اليد في الاستحواذ على أموال المهاجرين الجزائريين والقبائل الجزائرية عند الحدود. ولكن هذا لم يمنع من أن القبائل الشرقية وقطاعات من جيش السلطان المرابط في الشرق تظل على ولائها للأمير وتتبنى النضال الجزائري.

ومع ذلك نجد أن الأمير وفي أوائل 1844. يقرر القيام بمبادرة دبلوماسية تمثلت في إخضاع قبائل الحميان التي كانت تقوم بغارات متوالية على الأراضي المغربية، وتوجيه خمسين من زعمائهم مقيدون بالأغلال إلى عامل وجدة، ليثبت للسلطات المغربية أنه متى كان العدو واحدا يتحتم على الطرفين مواجهته.

وقد أعقب هذه المبادرة بمبادرة أخرى حيث وجه بعثة تحمل هدايا ثمينة بقيادة الميلود بن عراش مع شخصيات مهمة (محمد بن عيسى البركاتي، ولد الحاج علي، محمد بوزيد).

وقد كلف هذه البعثة بمهمة تحذير السلطان من المشروعات التي أعدها الفرنسيون لغزو المغرب، ولعرض مقترحات عليه للاشتراك معا في إحباط الخطط الفرنسية. والبعثة تلقت في طريقها استقبالا حماسيا أبدى الشعب المغربي أثناءه ما يكف عن التقدير والعطف على نضال الجزائر، ومن العداوة والبغضاء للفرنسيين. ولما وصل الوفد إلى فاس استقبله محمد بن السلطان والوزير بياس اللذان أكرما إقامته، ثم نظما سفر الوفد إلى مراكش أين استقبله السلطان وزوده بكميات من الأسلحة والذخيرة.

ولكن بعض المصادر تذكر أن هذه البعثة تختلف عن البعثات الأخرى التي تحمل الطابع الأخوي الذي دأب الأمير على توجيهها إلى سلطات المغرب بين الحين والآخر. يشير (Warnier) الذي كان ملحقا بقنصلية فرنسا في معسكر) في مذكراته أن الأمير كان مدينا في أواخر عهد تافنة بمبلغ ستة ملايين فرنك وهذه الديون كان سلطان المغرب لا يفتأ يطالب الأمير بتسديدها على الرغم من معرفته بتضاؤل موارد الأمير المالية. ويضيف أن الهدايا التي بعث بها الأمير إلى السلطان والتي قدرت قيمتها بمبلغ سبعون ألف فرنك إنما تمثل قسطا من تسديد هذه الديون.¹

وأمام تزايد التهديدات الفرنسية التي عززت بضغط عسكري، أصبح الموقف خطيرا وينذر بتطورات قد تؤدي إلى استسلام السلطان المغربي للفرنسيين. وهنا نجد تدخل بريطانيا عن طريق قنصلها في تونس "توماس ريد" الذي سافر إلى جبل طارق حيث اجتمع بحاكم الجزيرة "روبرت ولسن" وأقنعه بضرورة التدخل لدى السلطان للدفاع عن قضية الأمير ولتشجيعه لمقاومة الضغوط الفرنسية. ولكن المشكلة أن بريطانيا لم تكن تؤيد مساعي ممثلها إلا في حدود رغبتها في إبقاء النزاع بين فرنسا والمغرب محصورا في نطاق ديبلوماسي وسلمي، ومما أكد هذا المسعى عرضها على فرنسا القيام بمساعي حميدة لتسوية النزاع فيما بينها وبين المغرب وهو مسعى رفضه "جيزوت" الذي فضل الحل العسكري لأنه اقتنع أن بريطانيا لن تدخل الحرب من أجل المغرب، وبالمقابل لم يعر السلطان المغربي مسعى بريطانيا من أجل حثه

¹ - Le conflit Franco-Marocain de 1844 d'après les notes de warnier, in R.A, 1950, p.404.

على مساندة الأمير أدنى اهتمام حيث كانت مخاوفه من التهديد الفرنسي أقوى من أمله في أن يجد مساندة حقيقية من بريطانيا.

فكان التدخل العسكري من خلال معركة " إيسلي " (15 شعبان / 14 أوت 1844) وكان هدفها الوحيد هو قطع الدعم الذي يلقاه الأمير وقد تأكد هذا من خلال إبرام معاهدة طنجة في 10 سبتمبر 1844 حيث نص البند الرابع على ما يلي: " يتعهد السلطان على أن يجعل من عبد القادر خارجا عن القانون وأن يلاحقه إلى أن يقبض عليه أو أن يطرده من المملكة."¹

إن كان هدف فرنسا هو القبض على الأمير عن طريق سلطان المغرب، بعد أن عجزت جيوشها عن ذلك، ومن هنا يتحرك السلطان لمطاردة الأمير ودعوته باللفظ تارة وبالشدة أخرى لاستسلامه.

وقد عززت معاهدة " طنجة " باتفاقية لآ مغنية 18 مارس 1845 والتي يتم بموجبها رسم الحدود بين البلدين² وأن ليس للحاج عبد القادر الاستفادة من حق اللجوء.

و كرد فعل من طرف القبائل المغربية قررت الانتفاض على السلطان والدخول في طاعة الأمير ولكن رده " أنني دخلت بلاد السلطان لا لأكون ضده، أو لأأخذ منه ملكه، وهذا مما لا يقول به عاقل."³

¹ أنظر نص المعاهدة كاملا:

• Lamartinière et Iacrosic, document pour servir à l'histoire du nord.

نقلا عن العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص. 246.

² - للمزيد من التفاصيل حول علاقة الأمير بالمغرب الأقصى في هذه المرحلة وقضية رسم الحدود:

أنظر: جلول المكي، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من (631هـ إلى 1263هـ / 1234 إلى

1847م)، ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر. 1413هـ/1993م.

³ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 449-450.

مع ذلك فالرأي العام المغربي فرض وجود دائرة¹ الأمير على السلطان، فخرج النواحي الشرقية عليه ووجود قواعد جزائرية بجوار نهر " الملوية " ضعفت الأمن والاستقرار على الحدود، فتعزز عندئذ التضامن الفرنسي المغربي لمحاربة الأمير في أوائل 1846.

ومن هنا بدأت الحملة على القبائل الجزائرية التي وثقت بعهود السلطان بأن يمددها بالملجأ والحماية، ثم اتخذ إجراءات عسكرية على أوسع نطاق وذلك لمطاردة الأمير والتضييق عليه.

ولكن الأمير لم يأبه بكل هذا وفي 22 سبتمبر 1845، اجتاز الحدود الوهمية التي رسمتها معاهدة لالا مغنية على رأس جيش إلى الأراضي الجزائرية، وينزل بالفرنسيين هزيمتين منكرتين الأولى في جبل كركور والثانية في سيدي ابراهيم.

ولكي ندرك إلى أي مدى خيب الأمير آمال أعدائه، يكفي أن نقرأ كلمات كافينياك إلى الجنرال لا مورسيير بتاريخ 30 ديسمبر 1845، إن عبد القادر سيد البلد بأسره من الحدود الشمالية حتى أعالي " تافنة " إنه لنصر عظيم لعبد القادر² .
وتوجه فرنسا اللوم أكثر للمغرب، ولولا تخوفها من قيام تعقيدات دبلوماسية مع بريطانيا لانتقلت منه عسكريا.

ولكن المغرب أعرب عن عدم جدوى ومقاومة الأمير والعمل لتحرير بلده عبر حدود غامضة رسمت على الورق بطريقة الاملاء والتحكم، والحوار معه أصبح أصم، فقام بتوجيه إنذار للأمير " أنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين إما أن تسلم نفسك إلينا، وإما أن تخرج من الحدود، فإن أبيت أن تجري أحدهما طوعا فنحن نجريه كرها. " ثم دس إلى

¹ - الدائرة: مجموعة من الدواوير تمتد على 3 أو 4 كم، وكانت تنتقل حسب الظروف في منطقة العدو

الشمالية لنهر الملوية. وكانت وسط الخيام خيمة أم الأمير وزوجته، وعلى مسافة، مخيم به الأسرى الفرنسيين بعد معركة سيدي ابراهيم وعين تموشنت 1845 وعددهم ثلاثمائة.

² - العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ص. 249.

القبائل القريبة من الدائرة في التصييق عليها¹، وقطع الميرة عنها والتجافي عن مواصلتها، بكل ما يعود بالنفع عليها، فوجم الأمير لهذا وكتب إلى السلطان:

" أما بعد فإنني كاتبكم أولا والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا، وتعديها على من تبغني لأن كلهم أولاد دين واحد وشريعة واحدة فلم يأتني جواب عن ذلك، ولم يحصل لهم ردع من طرفكم، ومع هذا كله فأنا صابر ومتحمل لما يجرونه، كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر، طمعا في رجوعكم عن البغي والطغيان إلى العدل والإحسان مع قدرتي عليهم في كل آن فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم، وترجعهم عن قبائح تصرفاتهم ألتمز المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي ولدا بادرت بإخباركم والسلام عليكم"².

ولكن السلطان لم يلتفت إلى نداء الأمير وواصل دعوته إلى القبائل المغربية إلى الوقوف والتصدي له ومن هنا تصبح القطيعة نهائية وينفتح باب الصراع على مصراعيه. ومع محاولة الأمير تجنب المواجهة العسكرية، وحرصه على حقن دماء المسلمين، ودعوة السلطان للمسالمة وإقتسامه بالله أنه لا يضم أي شر للملك مع ذلك أبي هذا الأخير إلا القتال، وهنا قرر الأمير أن يدافع عن حوزته وشرف من معه، وقد أجاز علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ " عليش " أن يقاتله لأنه مرق من الدين.³

وكانت وقعة " تافريست " (19 ديسمبر 1847) بين الأمير ومولاي عبد الرحمن، واهتز شعب المغرب الأقصى لهذه الواقعة، ونقموا على سلطان قاتل المسلمين المهاجرين الذين التجأوا إلى بلاده.

وهنا تتكسر شوكة الأمير، ويجد نفسه مطاردا من القوات الفرنسية في الشرق ومحاصرا من طرف القوات المغربية في الغرب، فيحس أنه وحيد لا نصره له في مقارعة

¹ - جريدة المبشر (تصدر من طرف الإدارة الفرنسية) ابتداء من سنة 1847، عدد شوال 1225 هـ / 10 سبتمبر 1847 م، ص.15.

² - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.470.

³ - استفتى الأمير علماء مصر في شأن سلطان المغرب. حول هذه المراجعة أنظر: ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص.471-480.

العدو فيتوقف عن الجهاد ويعلم بذلك الجنرال " لامورسير " لا محمد بن السلطان عبد الرحمن.¹

وهكذا تغلبت الحسابات السياسية على التضامن الإسلامي، وهكذا على داعي مصلحة الدولة على باقي الاختيارات ذات الصيغة الدينية وأصبح الكفاح من أجل إنقاذ الجزائر من المستحيل. وترك الأمير مغربا ممزقا يتخبط في الفوضى التامة، ترنو إليه عيون دول الغرب، وتجلت أطماعها، ولم تنته الأزمة الفرنسية كما كان يتوهم، بالعكس أخذت بعدا خطيرا وشكلا جديدا.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان للأمير أطماع في عرش المغرب؟ قد روج جواسيس فرنسا وعملاء انجلترا دعاية أن الأمير خلف للمولى عبد الرحمن، طبعاً الهدف تسميم العلاقة بينه وبين سلطان المغرب حفاظاً على مصالحهم وامتيازاتهم، وقد تبرأ الأمير مما نسب إليه، قال السلوي: " ولما وصل الخليفة المولى محمد إلى سلوان بعث إليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدي يتصل مما رمي به وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان....."²

أو لم يرفض اقتراحات المعجبين من المغاربة قائلًا: "... العدو هناك والقتال هنالك" مشيراً إلى الجزائر.

ولو قبل الأمير ما عرض عليه لأصبح مغتصباً لأن السلطان الشرعي المبايع لا زال على العرش وهو مدرك لذلك.

وهل الأمير مسؤول إن غطت شعبيته وبطولته شخصية المولى عبد الرحمن، وإن التفت حوله المستنكرون لسياسة أهلهم الذي وقع على معاهدات مهينة ومخزية.

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص - ص. 492-493.

² - الناصري أبو العباس، المصدر السابق، ج. 8، ص. 56.

وهل كان الأمير يستطيع قبول عرش لبلاد منهوك القوى ضعيف الجيش، تئن رعيته تحت ثقل الضرائب، وكثرة التجاوزات واستعداد الغرب لتفاسمه.

2. 1. 3/ العلاقات مع إنجلترا وأمريكا:

قدّم الأمير عبد القادر في نهاية سنة 1835 وبداية سنة 1836 اقتراحات دبلوماسية سرية للقنصلين البريطاني والأمريكي المعتمدين في المغرب، ولم تجد هذه الاقتراحات سوى اهتماما بسيطا من المؤرخين الجزائريين ولعل مرد ذلك أنها انتهت بالفشل، وسنبيّن أهميتها سواء للأمير عبد القادر أو الجزائر بصفة عامة.

تعدّ إنجلترا من أكبر الدول المؤثرة في العلاقات الخارجية لدول البحر الأبيض المتوسط ومنها دولة الأمير عبد القادر هذا الأخير الذي كان من المفروض عليه إقامة علاقات طيبة معها، خصوصا وأنه يدرك مكانتها الدولية على المستوى الخارجي آنذاك ومدى التنافس بينها وبين فرنسا.

ففي 11 جانفي 1836 وصل محمد بن قلة مبعوث الأمير إلى القنصلية البريطانية بطنجة حاملا رسالتين من الأمير عبد القادر حررنا في شهر سبتمبر أو أكتوبر 1835، إحداهما موجهة إلى القنصل البريطاني العام في المغرب وهو (*Drumond Hay*¹) والأخرى إلى الملك بريطانيا وليام الرابع.

وقد عبر الأمير من خلالها عن رغبته في إقامة علاقات معها، وأن السبب في عدم وجود مراسلة بين الطرفين، إنما راجع لعدم وجود من يعرف هذا الوطن وأراضيه وكذلك بالنسبة للغة التخاطب مع حكامه.

وقد تضمنت الرسالة عناصر هامة ينبغي الإشارة إليها:

¹ توجد النسخة الأصلية وترجمتها في:

• Raphatel Danziger, Abd El - Qadir first overtures of the british and the Americans (1835-1836), in revue de l'occident musulmane et de la mediterraniée N° 18, 1974, p.55.

- أن الأمير لقب نفسه بالسلطان مع أنه لم يعترف دوليا بهذا اللقب إلا لسلطان المغرب والدولة العثمانية، ويبدو أن عبد القادر أراد أن يظهر نفسه للإنجليز أنه مسؤول كبير وأن التعامل في الشؤون الجزائرية لا يتم إلا معه فقط.

- أنها المرة الأولى التي يتصل فيها الأمير بدولة أوروبية غير فرنسا وإنما القصد أن الأمير يرغب من ملك بريطانيا أن يتوسط بينه وبين الفرنسيين باسم الإنسانية فقط وأنه يريد وقف سفك الدماء التي لا مبرر لها.

ورغم ما تقدم به الأمير عبد القادر للإنجليز بمنحهم:

- 1- ميناء تجاري.
- 2- إمدادهم بالمواد الأولية من الداخل والتسويق معهم.
- 3- منحهم امتيازات تجارية¹.

إلا أن الحكومة البريطانية ورغم تقديمها الشكر لمحاولة الأمير إلا أنها أعربت عن طريق رئيس وزرائها وكاتب الدولة للخارجية بالمرستون أنها لا تستطيع أن تستجيب لمطالب الأمير وأن تعقد معه معاهدة، لأن المسألة الشرقية كانت تعيق أي مسعى سياسي لصالحه، ذلك أن العلاقات الفرنسية - الإنجليزية كانت متوترة نتيجة لتضارب المصالح، فإنجلترا كانت قلقة على سلامة الطرق المؤدية إلى الهند، فأثارت شعورا معاديا في أوروبا ضد فرنسا.

وكان لمعاهدة لندن 15 جويلية 1840 مع النمسا وبروسيا وروسيا والباب العالي والتي استثنيت منها فرنسا دوارا مؤثرا في انفعال الرأي العام الفرنسي وبالتالي تهيأ بلاده للحرب.²

وخلال هاته الأزمة كان بالمرستون مصرا على رفض مطالب الأمير لأن هذا حتما سيفتح الباب وتكون الحرب محققة.

وعليه كتب إلى قنصله بجبل طارق بتاريخ 6 أكتوبر 1840 طالبا منه أن يبعث بمحتوى رسالته إلى مبعوث الأمير عبد القادر، وقد جاء في رده:

¹ - التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص. 200.

² - التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص. 201.

إن الحكومة البريطانية تشكر الأمير عبد القادر عرضه عليها ميناء بالتزاب الجزائري، إن جلالة ملكة بريطانيا لا ترغب في الحصول على ممتلكات على ساحل البحر الأبيض المتوسط لإفريقيا، كما أن الحكومة البريطانية لا تتحاز إلى أحد الشقين المتنازعين¹. وقد كان لهذا الرد الأثر السيئ على الأمير، ومع ذلك تجده يراجع الإنجليز في مبادرة أخرى ربما بناء على نصيحة الكولونيل اسكوت، الذي كان أول شخصية بريطانية تقدم معلومات مباشرة عن بريطانيا وعن سياستها إلى الأمير من خلال إقامته في زمالته. ففي اجتماع عقده اسكوت على انفراد مع الأمير، ولم يحضره سوى سي الجيلالي في 22 سبتمبر 1841، عرض عليه أن يقوم بجولة في أوروبا لمحاولة إجراء اتصالات والقيام بمفاوضات متى اقتضى الأمر لصالح القضية الجزائرية. وكذلك طلب إليه أن يرفق به نيكولا مانوتشي ليستعين بمعرفته للغة العربية في الطريق وبمعلوماته عن شؤون الأمير السياسية. وقد استجاب الأمير لطلبه، ولكن مرض مانوتشي جعله يتخذ القرار بأن يسافر اسكوت بمفرده.

ومما يدل على الأهمية التي كان الأمير يعلقها على هذه السفارة، أنه أحاط هذه المقابلة بسرية تامة بحيث أنه لم يسمح بحضورها حتى بالنسبة لكاتب سره². وقد حمل الأمير سفيره رسالة إلى الوزير الأعظم في دولة إنجلترا، بالإضافة إلى رسائل أخرى إلى كل من السلطان العثماني والصدر الأعظم، وسي حمدان خوجة، وكلفه أن يسلمها إلى وزير الخارجية البريطاني ليحولها إلى القسطنطينية. وفي إنجلترا قام " اسكوت " باتصالات هنا وهناك بقصد التعريف بقضية الجزائر، وبشخصية الأمير عبد القادر.

وفي أواخر فيفري سنة 1846، تقدم اسكوت إلى السفارة الفرنسية في لندن، وعرف نفسه للمسؤولين الفرنسيين بأنه قائم بأعمال سمو الملكي الأمير عبد القادر. وأبلغهم بأنه مزود بجميع الصلاحيات الضرورية للتفاوض من أجل إقرار السلام وقد ذكر لهم بأن الأمير الذي بلغ علمه أن الدول الكبرى تتفاوض بشأن إعادة الجزائر إلى

¹ - التميمي عبد الجليل، المرجع السابق، ص. 202.

² - الكولونيل اسكوت، المصدر السابق، ص. 200.

الباب العالي، قد كلفه بمهمة التدخل في هذه المفاوضات للدفاع عن مصالحه، وأضاف أنه ورغبة منه في إخراج القضية الجزائرية من الإطار الدولي الذي يجعل بريطانيا وتركيا أطرافا فيها، يعرض على فرنسا عقد معاهدة صلح على غرار معاهدة تافنة.¹

والشروط التي عرضها اسكوت على الطرف الفرنسي، مقارنة للشروط التي نصت عليها المعاهدة " تافنة "، فقد أعرب الأمير بلسان مندوبه عن استعداده لأن يجعل التبادل التجاري مقصورا على فرنسا، بشرط الاعتراف بعلمه في البحر.

وهو في نفس الوقت يتنازل لفرنسا عن مدينة وهران وضواحيها وعلى منطقة تمتد بين المقطع وتشمل مستغانم وأرزيو ومزگران، وعلى منطقة أخرى حول الجزائر وتشمل متيجة والبليدة والقلعة.

وفي مقابل ذلك تعترف فرنسا للأمير بمملكة تشمل ولاية تيزي وزو وباقي ولاية وهران والجزائر إضافة إلى ذلك يطالب الأمير بالتنازل له عن ولاية قسنطينة في مقابل ضريبة يدفعها لفرنسا.

والشيء الذي يلفت الانتباه بصفة خاصة هو إصرار الأمير على عدم تنازله عن مطالبه الأساسية في ولاية قسنطينة رغم أن العدو الآن يسيطر على جميع مدنه. ومهما يكن من شيء فقد حول "سانت أولير" سفير فرنسا في لندن المقترحات التي قدمها اسكوت باسم الأمير إلى حكومته، وبعد ما درسها مجلس الوزراء الفرنسي قرر رفضها في 3 مارس 1842.²

وعقب ذلك أجرى اسكوت مقابلة مع وزير خارجية بريطانيا أبردين وتباحث معه في شأن الجزائر، وعلى الرغم من معرفته بأن موضوع المقابلة هو الجزائر والأمير عبد القادر فقد رفض أن يستقبل اسكوت بوصفه مبعوث الأمير أو بوصفه هو وزير الخارجية، وإنما بوصفه مواطنا بريطانيا يريد أن يتحدث إليه في الشؤون الخاصة.

¹ - Seres (J.), *la politique turque en Afrique du nord sous la monarchie de juillet*, Paris, 1925, p.125.

² - Seres (J.), *Op.cit*, p.215.

وقد صرح أبردين منذ الوهلة الأولى بأن حكومته لا تتوي التدخل في شؤون الجزائر وزيادة على ذلك فقد أبلغ سفير فرنسا خبر هذه المقابلة لكي يتجنب أي لوم أو عتاب من فرنسا وقد تحدث "اسكوت" من ضمن ما تحدث به إلى وزير الخارجية عن سفينة إنجليزية تحمل شحنات من الأسلحة إلى الأمير، قال أنه ينتظر أن ترسو في الميناء الوحيد الذي لا يزال خاضعا له وسأله ماذا سيكون رد فعل السلطات البريطانية إذا تعرضت لها السفن الحربية الفرنسية واعتقلتها.

ولكن "إبردين" رفض أن يقدم أي التزام بهذا الشأن واحتفظ لنفسه بالحق في اتخاذ الموقف الذي يراه مشرفا ومفيدا لبريطانيا.

وهنا تخيب آخر محاولة لإقامة علاقات مع بريطانيا والتي سيكون لها نتائج مؤسفة في فترة حرجة يمر بها الأمير، وتفشل مساعيه لخلق منافس مماثل لقوة فرنسا في المنطقة.

• علاقات الأمير بأمریکا:

تزامن اتصال الأمير بأمریکا مع اتصاله ببريطانيا حيث سلم مبعوثه خطابا حرره في حدود شهر مارس 1836 للقنصل الأمريكي المقيم بطنجة ر. ليب (James. R. Leib¹) الذي كان متواجدا آنذاك بجبل طارق.

وتتضمن رسالة الأمير عيد القادر إلى القنصل الأمريكي عرضا مماثلا للذي قدمه للانجليز ولكن مع اختلاف شديد، فقد قدم عرضا للأمريكيين بامتلاك ميناء جزائري مقابل إبرام معاهدة وتزويدهم بما يحتاجونه من داخل الجزائر، في حين قدم للانجليز ميناء لغرض تجاري فقط.

ويبدو الاختلاف واضحا وذا دلالة، فعبد القادر كان يخشى من إبرام معاهدة مع دولة كبريطانيا سيكون تواجدها دائما في حالة امتلاكها لميناء، مثل جبل طارق، أما أمريكا فيرى

¹ - Lvella, J.hall, the united states and marocco 1776-1956 (Metuchen) N.J, the scarecrow press, 1971, p-p.110-114.

نقلا عن تابلت علي "إتصالات الأمير عبد القادر بالقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب (1835-1836)" أعمال ملتقى الأمير عبد القادر، الجزائر 1998، ص.76.

أنها بعيدة عن الجزائر، وبلد غير مؤذ، ومع هذا وذاك، فإن الأمير يعتبر بريطانيا أفضل في معاملتها مع فرنسا من أمريكا.

ويلاحظ أن العرض الذي تقدم به عبد القادر للأمريكيين له دلالة إضافية، أي أنه كان مستعدا أن يتنازل عن قطعة أرض جزائرية إسلامية لتمتلكها قوة مسيحية برغم من مبادئه الإسلامية.

ولكن لم يقرر ذلك إلا بعد إيفاد بعثات إلى علماء فاس والأماكن المقدسة لاستشارتهم.

بعث القنصل رسالة الأمير باللغة العربية إلى كاتب الدولة للخارجية في 30 أبريل 1836، وقام بترجمة رسائل الأمير لكاتب للتقنصلية العامة بالجزائر " ويليام برون هودسون".
(William Brown Hodgson) الذي انتقل إلى المغرب خصيصا لهذا الغرض.

ومما يستخلص من قراءة رسالة الأمير عبد القادر إلى القنصل الأمريكي، أنه كان على اطلاع واسع بشؤون العالم، فقد كان على علم بالأزمة الواقعة بين أمريكا وفرنسا على إثر عدم التزام هذه الأخير بدفع الـ 25 مليون فرنك وفقا للمعاهدة التي وقعت بين البلدين في 4 جويلية 1831، تعويضا للسلب والنهب الذي أصاب السفن الأمريكية أثناء حروب نابلليون، ولكن فرنسا لم تدفع عند تاريخ الاستحقاق.¹

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل رفض مجلس النواب الفرنسي ما تضمنته معاهدة 1831 من دفع الأقساط المالية، مما دعى بالرئيس الأمريكي جاكسون إلى التهديد العسكري في شهر ديسمبر 1834.

وبلغت الأزمة ذروتها في بداية سنة 1836، عندما قطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين كلية، لذلك حاول الأمير أن يستغل سوء العلاقات بين البلدين ليكسب إلى طرفه أمريكا.

¹ - تابلت علي، " إتصالات الأمير عبد القادر بالتقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب (1835-1836)" ، ص.78.

لكن لسوء حظه أن بريطانيا تدخلت وسوت الخلافات بين البلدين بالطرق السلمية، إذ دفعت فرنسا أربعة أقساط من التعويضات لأمريكا. وعليه فإن رسالة الأمير عبد القادر في 19 مارس 1836 وصلت متأخرة، ولقد رد "ليب" أنه ما دامت العلاقات بين فرنسا وبلده حسنة، فإنه لا داعي أن تدعم عبد القادر ضد فرنسا.

• القنصل الأمريكي في الجزائر:

اقترح الرئيس الأمريكي على مجلس الشيوخ تعيين (Gravini Carlo) كقنصل لأمريكا في الممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا في 12 جانفي 1837 و (Gravini) تاجر إيطالي عمل قنصل مؤقتا منذ 7 مارس 1835. وقد استلم تعيينه من ملك فرنسا كقنصل لأمريكا في الجزائر في 24 أبريل 1837، ونشر قرار الوالي في 1 فيفري 1838¹ وعليه فقد أراد عبد القادر التقرب من أمريكا فطلب من قنصلها في الجزائر أن يمثله هو الآخر لدى الفرنسيين كقنصل له. وقرر الأمير تعيين (Gravini) قنصلا له في 9 أكتوبر 1837، وبلغ قراره هذا في اليوم الموالي للفرنسيين، غير أن الحكومة الفرنسية رفضت تعيينه كقنصل للأمير، وأمام هذا الرفض بعث الأمير برسالة شديدة اللهجة إلى الوالي العام. فكان رده في 1 فيفري 1838، بنشر مرسوم وقعه الملك في 15 جانفي 1838 يقضي بسحب أوراق اعتماد (Gravini) بصفته قنصلا لأمريكا في الجزائر. رفض الأمير ذلك وفي 5 فيفري 1835 بعث برسالة إلى وزير الحربية يطالب بإلغاء الإجراءات غير القانونية في حق (Gravini).

حاول الأمير أن يكسب إلى قضيته العادلة موقف كل من بريطانيا وأمريكا بواسطة مراسلاته مع ممثلي هذين البلدين في المغرب، ولكن آماله خابت ولم تأت هذه الاتصالات بنتائج وإنما أعطت دفعا قويا للاكتال على الذات ومعرفة الأحداث الدولية الراهنة.

¹ - Moniteur algerien, du 24 fevrier 1837, et Gravini to gaverneur general, Algiers, Feb.26, 1836, Afrique française, vol, I. 1838, p.225.

نقلا عن تابليت علي، "إتصالات الأمير عبد القادر بالقنصلين البريطاني والأمريكي في المغرب (1835-1836)", ص.80.

2. 1. 4/ العلاقات مع إسبانيا:

كانت ظروف الأمير السياسية والاقتصادية سنة 1847 معقدة تسير من سيء إلى أسوأ فهي تمثل للأمير الفترة الحاسمة من كفاحه وجهاده، لأنه تعرض خلالها لصعوبات كثيرة.

وكان موقف الغرب المعادي - كما ذكرنا - هو أخطر ما تعرض له الأمير في هذه المرحلة، حيث ألجأته محاصرة السلطان للتراجع إلى شاطئ ممليلية الإسبانية وفي هذه الظروف حاول أن يجري اتصالات مع الحكومة الإسبانية بواسطة حكامها العسكريين بممليلية المجاورة "للحدود الجزائرية"، عله يصل إلى مساعدة تسمح له بفك الحصار عن نفسه.

وقد أشار كل من فرانسيسكو زافالا، وبول آزان وفيليب دوكوسي بريساك إلى اتصالات الأمير هذه، وإرساله عدة رسائل إلى ملكة إسبانيا. وافترض آزان أن هذه الاتصالات من جانب الأمير كانت محاولة منه ليتخذ من إسبانيا صلة الوصل بينه وبين الإنجليز في جبل طارق.

وأشار زافالا أن ملكة إسبانيا في ردها على تلك المراسلات قدمت للأمير عدة نصائح في إطار الإجابة في أن يسلم نفسه للفرنسيين على أن تتوسط له في ذلك. وأكد أن إسبانيا وإن حرصت أن تكون صديقة لفرنسا وأن يكون موقفها نبيلًا اتجاهها واتجاه المغرب الأقصى إلا أنها لم تكن تجهل فوائد دعمها للأمير عبد القادر الذي اقترح أن يلتجئ إليها.¹

¹ - Francisco Zavala, la Bandera Espanola in Algeria, Anales historico de la domination espanola en argelia desta 1500 hast 1791 (Alger 1885-1886).

نقلا عن بو عزيز يحي، "الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين

بممليلية"، الثقافة، ع.64، الجزائر 1401 هـ/1981م، ص.114.

• دوايبالزا ميكاييل، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بممليلية

ترجمة وتقديم وتعليق بو عزيز يحي، ط.1، دار البحث للطباعة والنشر، قسنطينة 1402 هـ/1982،

أما فيليب دو كوسي بريساك فقد ذكر أن اتصالات الأمير بحاكم مليانية نتج عنها حصوله في المعدل على بعض الخدمات، كما أن عدة بواخر إنجليزية قدمت عدة مرات إلى ساحل كبدانة الصحراوي وأنزلت به لصالحه خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 1847، شحنات من المدافع والبنادق والبطاريات وبعض قطع مدافع رمي الميدان، الأمر الذي مكنه من مجابهة قوات سلطان المغرب في شهر ديسمبر وقد لعب "سان ليجر قرنفل" (*Leger "Saint- Grenfel")* وجون دريموند هاي" (*John Drunnond Hay*) الكاتب الخاص للتفصل البريطاني دورا في هذه المساعدة.¹

ولكن هذه الإشارات جميعها - لا نقول مردودة - وإنما تستدعي تدقيقا وتمحيصا، لأن الأمير عندما استجد بإسبانيا كانت تعيش في ظروف جد صعبة، حيث أن أوضاعها مضطربة وغير مستقرة من الناحية السياسية، بسبب الحرب الأهلية الأسرية حول وراثة العرش التي كانت الملكة الطفلة إيزابيل الثانية وأمها ماريا كريستانو صاحبة السلطة الفعلية في مدريد، وبين صف من يدعون الكريستالس وهم أنصار عمها "كارموس" الناثر في كل الجهات وخاصة شمال إسبانيا وفي هذا الجو سعت الحكومة الإسبانية للحصول على الاعتراف بالملكة إيزابيل الثانية من طرف البلدان الأوربية، وكانت فرنسا هي الوحيدة التي اعترفت بها باعتبارها من عائلة البوربون الفرنسية.

فعندما استجد بها الأمير، كانت ترغب أن تتابع سياستها الاستعمارية في الشمال الإفريقي، وتدخل في صراع مع فرنسا في إقليم الريف المغربي والمنطقة الوهرانية، لكن هذا كان يبدو بعيدا إذ لم تكن تملك القوات العسكرية الكافية، ولا الإدارة السياسية بسبب الحرب، ولهذا اتبعت التسوية والتمويه والتهرب وتضييع الوقت على الأمير.

وقد أوضح يحي بوعزيز الملف الذي يشتمل على الرسائل الذي بعث بها الأمير إلى الحكومة الإسبانية ومحتواها جميعه، ورغبة الأمير في توسط إسبانيا بينه وبين فرنسا للحصول على مساعدة عسكرية، وموقف الساسة الإسبان خاصة وزير الحرب، والوزير الأول ووزير الخارجية، والملكة وحاكم مليانية وحاكم غرناطة العام.

¹ - Brissac (Ph.De.), *Op.cit.* p-p 203-212.

ويمكن تقديم محتواها على الشكل التالي:

أولاً: تحدثت الوثائق عن رغبة الأمير في وساطة إسبانيا بينه وبين فرنسا حتى يتمكن من العودة إلى الجزائر، ورغبته في السماح لمبعوثه بالدخول إلى مملكة ليسلوا إلى حاكمها رسائله ويتفاوضوا معه، وبالمقابل يعرض الأمير خدماته.

وقد أُلحَّ الأمير على هذه الوساطة ويظهر أنه كان يعلق عليها آمالا كبيرة¹.

ثانياً: تحدثت عن سعي الأمير للحصول على بعض الأسلحة وقطع الغيار وخيوط الفتيل والقضبان الحديدية والسجلات (دفاتر) والفوسفور (كبريت)، ورد ذلك في وثائق أرقام 6.5.4.

ثالثاً: تحدثت عن سعي الأمير للحصول على القمح والشعير والخرطال من حاكم مملكة بالتبادل بالتمور، والأصواف، والسمن والعسل والأغنام وغيرها من البضائع التي يحصل عليها من الصحراء وقد حرص الأمير على الحصول على الحبوب بعد أن اشتدَّ حصار المغاربة له على ما يظهر، واقترح على حاكم مملكة إقامة سوق خاصة لعملية التبادل هذه تحت 3 حراسته وورد ذلك في وثيقتي رقم 4 ورقم 5.

رابعاً: تحدثت عن عداة القبائل المغربية، وخاصة القلايعة للإسبان في مملكة وورد ذلك في وثيقتي رقم 4 ورقم 12.

خامساً: تحدثت عن السعي لقضاء مصالح خاصة لحاكم مملكة ومنها قيام الأمير بشراء حصان له. وتمت المراجعة حول هذا الحصان في وثيقتي رقم 9 ورقم 19.

سادساً: تحدثت عن مواقف الساسة الإسبان من علاقات الأمير عبد القادر ومراسلاته معهم، فحببها البعض كثيراً وألحَّ على ضرورة استغلالها إلى أبعد حد لصالح إسبانيا طبعاً، وعلى رأس هؤلاء فرانسيسكو باشكو الوزير الأول ووزير الخارجية، وحذر البعض الآخر منها ورأوا ملازمة الحذر حتى لا تستثار فرنسا الصديقة والحليفة، بل إن البعض منهم طلبوا طمس هذه القضية ودفنها بصفة نهائية حفاظاً على صداقة فرنسا. وعلى رأس هؤلاء الجنرال "مانويل دومازاريدو" وزير الحرب. وورد ذلك في وثائق أرقام: 1 و 11 و 20 و 21 و 22.

¹ - ورد ذلك في الرسائل التي عليها رقم 1 و 2 و 3 و 9، و 14، 15، 16، 20، 21، 22 وعرض حتى تقديم من ينوبه في تلك المفاوضات.

سابعاً: تحدثت عن المصاريف التي أنفقت في هذه القضية، والمراجعات التي تمت في شأنها، وإصدار الملكة أمرا باستقطاعها من ميزانية الجوسسة والأسرار الحكومية. وورد في ذلك وثيقتي رقم 17 و 18.

ثامناً: تحدثت عن محاولة التعرف على ما يجري بين المغرب وفرنسا من مفاوضات في شأن الأمير. وطلب كل من الأمير وحاكم مليلية أن يزود بعضهما بأخر الأخبار عنها. وتبذلت بينهما رسائل ومنها وثيقة رقم 4 و 5.

تاسعاً: تحدثت عن سيطرة الأمير على القبائل المغربية المحيطة بمليلية وإخضاعها له، وأهمية ذلك بالنسبة لإسبان. وورد ذلك في وثائق رقم 5 ورقم 6 ورقم 12.

عاشراً: تحدثت عن اقتراب الأمير من مليلية، ووصفت اللقاء الذي تم بينه وبين حاكمها "ديمتريو دوبينيطو". وورد ذلك في وثيقة رقم 12¹.

2. 1. 5 / علاقات خفاء الأمير ببيات تونس²:

منذ بداية القرن التاسع عشر والعلاقات الجزائرية التونسية تتميز بالحروب بين البلدين خاصة على عهد حمودة باشا والرايس حميدو.

وفي سنة 1234 هـ / 1818 وقع الصلح بين الجزائر وتونس بأمر من الدولة العلية، وفيها عزل حاكم وهران محمد باي بن عثمان الكردي "فاتح وهران" وتولى مكانه "حسن باي".

¹ - دوايبالزا ميكايل، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحاكمها العسكريين بمليلية، ص-ص 29-30.

بالنسبة لملف الرسائل، يذكر بو عزيز أنه تمكن منه بالتعاون مع الأستاذ الدكتور ميكايل دوايبالزا، وكذا الأستاذ ماريانو أريباس بالو.

وعن محتوى هذه الرسائل ونصوصها أنظر: دوايبالزا ميكايل، المرجع السابق، قسم الملاحق.

² - فيما يتعلق بشرح وافي للعلاقات بين الأمير عبد القادر وبيات تونس أنظر: السايح فيلاي، العلاقات السياسية الجزائرية التونسية (1792-1837)، ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة.

وعندما احتلت فرنسا الجزائر أظهر باي تونس ميلا كبيرا لفرنسا خاصة فيما يتعلق بمؤامرة التدخل في إقليم وهران وقبوله بببيعة من ينوبه لخلافة الجزائر تحت السيادة الفرنسية¹.

وعند ابتداء أمر الأمير لم يلق هذا الأخير تأييدا رسميا من تونس على الرغم من أن العاطفة الشعبية كانت مستتكرة، وقد بررت السلطات موقفها بما يلي :

1. قوة فرنسا في احتلال الجزائر والمقاومة الأليئسة والفراع الرهيب الذي أحدثته انهيار الدولة.
2. إنقسام الجزائر إلى زعامات (غرب، شرق ووسط).
3. ضعف موقف الخلافة العثمانية إزاء الاحتلال.
4. التهديد الفرنسي وضعف الجيش التونسي وقلة الموارد، ذلك ما جعل تونس تقف موقف الحياد.

ولكن مؤامرة تدخل تونس في الجزائر تلغي جميع هذه الاعتبارات وتجعلها واهية، وتبين حقيقة النوايا التي يبيتها الباي للجزائر عامة وللأمير خاصة. ورغم هذا الموقف التونسي إلا أن هذا لم يمنع الأمير من السعي إلى إقامة علاقات مع تونس حيث رغب إلى طارطوز ممثل الدولة التونسية بجبل طارق أن يبتاع له يومئذ شيئا من الأسلحة، فيتلقى، طارطوز من المشير أحمد باشا رسالة لاذعة يقول فيها: بلغنا أنه عندك خلطة مع الأمير عبد القادر بإعانتة في بعض مهماته، فتغيرنا من سماع ذلك لأن دولتنا مع دولة فرنسا في غاية المحبة والصفاء، لا نعين القائميين عليها بوجه، مثل غيرها من أحبائنا الدول، لا نعين القائم عليهم²

وبعد إبرام معاهدة تافنة مع الفرنسيين في 30 ماي 1837، سعى الأمير لمد نفوذه وسيطرته إلى شرق مدينة الجزائر، وبمرور الزمن ألف ثلاث ولايات هي:

¹ - ابن عبد القادر محمد، المصدر السابق، ص.124. وعن أطماع بايات تونس في الجزائر.

أنظر: سايح فيلالي، المرجع السابق، ص-ص.115-125.

² - المدني أحمد توفيق، "الأخوة الجزائرية التونسية أيام الأمير عبد القادر"، ص.154.

- ولاية برج حمزة (البويرة حاليا) وتشمل معظم جبال جرجرة وقسم من الهضاب العليا الوسطى وعين عليها الشيخ المجاهد أحمد الطيب بن سالم.
- ولاية مجانة: وعليها محمد بن عبد السلام المقراني ثم محمد الخروبي القليعي، ثم محمد بن عمر العيسوي.
- ولاية الزيبان بسكرة: وعين عليها علي التوالي فرحات بن سعيد فالحسن بن عزوز وأخيرا محمد الصغير بن عبد الرحمن بن أحمد الحاج العقبي¹.

وتعاون معه في هاته الولايات الشرقية خلفاء وأعاونهم في تنظيم حركة الجهاد والمقاومة، وربط العلاقات الطيبة مع بايات تونس ووزرائها من أجل تأمين الدعم للمقاومين الجزائريين، وفي هذا الإطار وجه الأمير رسالة إلى باي تونس "محمد بن حسن باي"، يهنئه فيها ويرجو منه ربط الصلة والعلاقة ومما قاله له : " فإننا بعثنا إليكم من يقوم مقامنا في التهنئة لكم وعقد المحبة بيننا وبينكم وحسن الجوار معكم"².

ووجه رسالة إلى القائد المجاهد محمد الحسناوي بن بلقاسم الحناشي وطلب منه الثبات في الجهاد، وأخبره بأنه يتتبع أخباره عن كثب ويتشوق للقائه عندما تسمح الظروف بذلك.

ووجه رسالة أخرى إلى علي بن سالم الورفلي أخبره فيها بأنه يتتبع أخباره عن طريق الخليفة محمد الصغير بن عبد الرحمن العقبي، وحثه على استقصاء الأخبار من طرابلس الغرب إلى حيث يتواجد بالزيبان، ويوافيه بها ويراقب الأوضاع عن كثب.

أما خلفاؤه ومنهم الحسن بن عزوز البرجي وجه رسالتين إلى الباي "حمده باشا" أخبره في الأولى عن غزو جيش الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة واحتلالها، وعن استجادهم بالأمير عبد القادر الذي لبي طلبهم وزار المناطق الشرقية، وخلص بعد ذلك للغرض الذي يريده وقال له: فإن ظهر لك أن نكون صلة بينك وبينه الأمير عبد القادر في المعرفة لتزول الأمور المختلفة وتجتمع الكلمة الشريفة وندخل في قوله تعالى: "..... ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" فنحن بذلك بعلاء وبإثباتها حفلاء، ثم إنه حذره من مغيبة تقرب الفرنسيين منه قائلا: "ولا تظن وُدّهم من جانب الحب بل من جانب المكر والخديعة،

¹ - بو عزيز يحي، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ص - ص. 92-95.

² - بو عزيز يحي، "جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية"، الأصالة،

وما شغلهم عنكم إلا نحن، ولو لا نحن لرجعوا لكم، وها نحن مشغولون إلا بهم وأنت منا وإينا، والحب بيننا سابق ولا حق لا ينفك أبدا.¹

وأخبره في الثانية عن نفس القضايا، وجدد الرغبة في ربط الصلة بينه وبين الأمير، وحذره مرة أخرى من مكر الفرنسيين وخداعهم.

والخليفة محمد الصغير بن عبد الرحمن حرص كثيرا على تمتين العلاقات بين الأمير عبد القادر وساسة تونس، وقام بنشاط مكثف في هذا الميدان وسافر بنفسه إلى هناك حاملا هدايا الأمير إلى الأمراء والباشوات.

وفي رسالة له إلى الداي أحمد باشا بنفسه، يأمر من الأمير عبد القادر قال له فيها: " فإننا كلنا السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين، أن أقدم إلى حضرتك السعيدة والحميدة بحول الله وقوته، ويريد حبك وقربك، وأنت سلطان تونس يحتاج إليك القوي والضعيف، تكون بينك وبينه مودة ومحبة..."²

وهكذا أراد الأمير عبد القادر أن يجعل من تونس قاعدة خلفية ملتزمة له، لكن ضغط ضباط جيش الاحتلال الفرنسي على حكّامها حال دون ذلك.

2. 1. 6/ علاقة الأمير بالدولة العثمانية :

إن اتصال الأمير بالدولة العثمانية طرح عدة تساؤلات من طرف المؤرخين، لماذا ومتى وكيف تم الاتصال؟

فاختلفت الطروحات وفق المعطيات التي اعتمدها كل فريق. فيذهب بعض المؤرخين في تحليلهم لهذه العلاقة على أنها كانت علاقات تجاهل متبادل بين الطرفين وأن الأمير عبد القادر لم يهتم في بادئ كفاحه بالإعانة التي يمكن أن يقدمها له الباب العالي، وأنه أظهر عدم اكتراث على أساس أنه يوجد سلطان المغرب الذي كان مستعدا لتقديم مساعدة.

¹ - بوعزيز يحي، "جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية"، ص.9، وثيقة رقم 33، الأرشيف الوطني التونسي "A.N.T".

² - بوعزيز يحي، "جهود الأمير وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية". ص.16، وثيقة رقم 36، الأرشيف الوطني التونسي، "A.N.T".

لكن وللموضوعية التاريخية نعتقد أن هذا الزعم بعيدا نوعا ما عن الحقيقة خصوصا وأن موقف الدولة العثمانية من احتلال فرنسا للجزائر كان واضحا ويثير الاستغراب حيث أنها لم تحرك ساكنا ولم تهدد بعمل حربي ولم تقدم احتجاجا ضد المعتدي، مع أن الجزائر كانت ولا تزال تابعة للدولة العثمانية ولو إسميا، أفلا يجب أن يتجه الأمير إلى من يقدم له يد العون.¹

ومع كل ما تقدم نجده يتصل بالباب العالي بإشارة من حمدان خوجة طالبا منه ربط علاقات بالسلطان والشعوب الإسلامية.

وهو ما أشار إليه التميمي حيث نوه بالدور الذي لعبه حمدان خوجة، وحشونة الدغيس الطرابلسي في العاصمة العثمانية في حث الأمير عبد القادر على الاتصال بالباب العالي.²

وتوجد بأرشيف رئاسة الوزراء بإسطنبول عدة رسائل مخطوطة تدل على ذلك، فبتاريخ 24 أكتوبر 1840، وجه الأمير رسالة إلى السلطان العثماني مضمونها مدافعة الأمير عن نفسه ضد مأخذ الحاج أحمد باي، هذا مقتطف من مضمونها:³

"لم أكن متفقاً مع الفرنسيين إذ لم يقع ذلك البتة، وحسب مبادئ الإسلام يسمح باستعمال الحلية والمداهنة مع العدو وهذا ما قمت به اتجاه الفرنسيين."

وما يذكر أن الباب العالي لم يقدم أي مساعدة للأمير عبد القادر ما عدا بعض النصائح في حثه على الجهاد وتصديه للعدو.

وأهم ما نستخلصه من هذا الفصل، وإجابة على التساؤلات التي طرحناها، فإن الأمير عبد القادر وما أقامه من علاقات مع الدول الخارجية تدخل في إطار العلاقات الدبلوماسية استنادا إلى مفهوم الدبلوماسية على أنها مجموعة المفاهيم والقواعد والإجراءات والمراسيم والمؤسسات والأعراف الدولية التي تنظم العلاقات بين الدول بهدف خدمة

1 - التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص.198.

2 - هذا حسب ما ذكره عمير اوي حميدة في كتابه دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، ص.205.

3 - أنظر رسالة الأمير عبد القادر إلى حمدان خوجة رقم 7 في كتاب بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، ص.202.

وقد ذكر التميمي أنه لم يعثر على موجز تلك الرسالة إلا باللغة التركية.

المصالح العليا والسياسات العامة للدول، وإجراء المفاوضات السياسية وعقد الاتفاقيات والمعاهدات الدولية.

وأنها أداة من أدوات تحقيق أهداف السياسة الخارجية و التأثير على الدول والجماعات بهدف استمالتها وكسب تأييدها بوسائل شتى.

فالأمير عبد القادر عمل في هذا المسعى منذ ميايعته، حيث ربط علاقات مع السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان ليضمن المساعدة المتواصلة والتأييد المطلق، وهذا كان له أثره في الاطمئنان على الحدود المغربية لدولته من جهة ومن جهة أخرى جر السلطان بصفة غير مباشرة إلى الوقوف بجانب المقاومة الجزائرية، وإخضاع القبائل التي كانت معارضة داخل الوطن تقليدا للسلطان وطاعة لشيخ العامة.

وبفضل شجاعته وعزمه وثباته انتزع من عدوه الاعتراف بشرعيته واضطره إلى الدخول في مفاوضات وإمضاء معاهدتين وتبادل ممثلين دبلوماسيين.

وحيثما وقع الأمير اتفاقات تجارية مع إنجلترا وأمريكا طلب من قنصل هذه الأخيرة بالجزائر العاصمة أن يكون ممثله لدى الوالي العام الفرنسي، وكان غرضه استغلال دهاء هذا القنصل وكسب مودة دولته التي ستصبح مؤيدة للدولة الجزائرية الفتية.

وسمح الأمير لتجار إنجلترا ويهود بشحن سفنهم بالجنوب من قرب تلمسان فاستطاع أن يدخل عن هذا الطريق في محادثات مع حاكم جبل طارق ويحصل على أسلحة وعتاد. ثم يعاود الاتصال ببريطانيا في سنواته الأخيرة من إمارته قصد مواصلة العلاقات الخارجية بينه وبين دولة كبرى وكم كان في حاجة إلى تأييدها.

ونجده يتصل بالباب العالي مستجدا، بصفته الركن الحصين الذي يلجأ إليه المسلمون عند بلواهم لأنه لم يكن مستعدا للتخلي عن استقلال الوطن، وكان يرجو من اعترافه وإعطاء ولائه تجديد ربط علاقات وطيدة بين دار الخلافة والإيالة الجزائرية.

ولكي يعطي الأمير بعدا ونجاحا لعلاقته استعان في سياسته الخارجية بيهود جزائريين مثل ابن دران الذي نشأ بفرنسا و اكتسب خبرة بحكم اتصالاته بالأوساط التجارية والصناعية، يستشير في علاقته مع الحكام الفرنسيين.

وعين للخارجية الميلود بن عراش الذي كان يعتمد عليه الأمير في مفاوضاته الرسمية مع فرنسا، ومن براعته في المحادثات السياسية أنه كان دائما يختتمها بمعاهدة ترضي الأمير.

إضافة إلى أن بن عراش كان تاجرا ناجحا في تجارته في عهد العثمانيين وكانت له خبرة بالرجال ومهارة في ربط العلاقات ومراعاة المصالح الخاصة بالدولة.

ومنه فإن الأمير عبد القادر مارس الدبلوماسية بكل ما تحمله الكلمة من دلالة، واجتهد في إقامة علاقات خارجية متنوعة دبلوماسية وتجارية وتعاونية مع دول البحر الأبيض المتوسط وغيرها وتبادل معها الهدايا والمراسلات وأثبت عن طريقها سيادته وشرعية دولته، وأعطى الممثل الأعلى كمسؤول سياسي مارس علاقاته السياسية والخارجية وفق مبدأ سام وهو الجمع بين الأخلاق والسياسة.

خاتمة:

أهم النتائج المستخلصة من هذا الباب ما يلي:

1. تأسيس الأمير قواعد اقتصادية لدولة مركزة الهدف منها خلق وسائل لإنتاج العتاد والتموين اللازمين لتكوين جيش قوي قادر على حماية الوطن.
2. اهتمام الأمير بتطوير قطاع الزراعة بتشجيع الفلاح ودفع الانتاج.
3. سعي الأمير لتطوير قطاع الصناعة من تقليدي إلى حديث عن طريق بناء المصانع وجلب الخبراء.
4. تركيز الأمير على النشاط التجاري وذلك بإنشاء الأسواق التجارية داخل مدنه وتعيين عملاء تجاريين من أجل القيام بمبادلات تجارية مع الدول الخارجية.
5. طبيعة الزراعة ريفية وخصائصها قد حددتها وضعية الأرض بموجب قوانين الإمارة الداخلية، فكانت في مظاهرها انعكاسا لهذه الوضعية وذات فائدة كبيرة للدولة.
6. الصناعة لم يكن لها إلا دورا محددا في وضع نوعية بنائها، كما كانت موردا ضئيلا لخزينة الدولة.
7. النشاط التجاري كان له الدور الأكبر في إمداد خزينة الأمير بالأموال اللازمة لإرساء دعائم دولته وبناء جيشه.
8. صك الأمير لعملة بما تحمله من نقوش وكلمات تعبر عن استقلاليتها وتحرره من النفوذ الأجنبي.
9. حرص الأمير على التقيد بأحكام الشريعة الإسلامية في تحصيل الضرائب وإلغاء ما كان مستحدثا من مغارم في إطار العهد السابق.
10. عدم تمكن الأمير من إقرار نظام نقدي خاص به يخدم مصالح دولته في المجال الاقتصادي رغم إنشائه لدار السكة وتمكنه من إصدار مجموعة من النقود الفضية والنحاسية بسبب شيوع العملات الأجنبية.

11. الأمير وما أقامه من علاقات مع الدول الخارجية تدخل في إطار العلاقات الدبلوماسية استنادا إلى مفهوم هذه الأخيرة ودلالاتها.
12. استغلال الدبلوماسية لتحقيق أهداف السياسة الخارجية و التأثير على الدول والجماعات بهدف استمالتها وكسب تأييدها.
13. اجتهاد الأمير في إقامة علاقات خارجية متنوعة دبلوماسية وتجارية وتعاونية مع دول البحر المتوسط وغيرها، ليثبت عن طريقها سيادته وشرعية دولته.

الأمير عبد القادر للعوم الإسلامية

الجمهورية الإسلامية

أهم النتائج المستخلصة من البحث ما يلي:

1. دولة الجزائر الأميرية تعتبر القاعدة بالنسبة للدولة الجزائرية الحديثة، لقد استعمل الأمير مبادئ وأسس إسلامية كي ينشئ وطنية جزائرية قادرة على الدفاع على البلد العربي الإسلامي ضد الفرنسيين.
 2. بناء الدولة الجزائرية الأميرية الحديثة يأتي في إطار مواصلة الصراع الحضاري، والأمير في ذلك البناء مر بمرحلتين:
 - مرحلة مشروع شخصية اشتهرت بتلاحمها وتلاصقها بشخصية والده.
 - مرحلة مشروع الدولة، أين تحول على إثرها الشاب إلى أمير حامل لواء مشروع دولة، ولم يندرج عمله في ردة فعل حماسية، بل كان في سياق عمل سياسي منهج أخذ في الحسبان موازين القوى على الأرض والمتغيرات الجيوستراتيجية وما يتبعها من تحولات فكرية وثقافية.
- لقد كان عمله من أجل خلق عناصر تقنية لإنتاج المعنى السياسي الذي يؤسس لدولة حديثة وذلك بواسطة:
- أ. إنتاج الإرادة الجماعية.
 - ب. إنتاج المراكز السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الثقافية التي لا تكون بدونها حداثة الدولة.
 - ج. إعطاء مفهوم جديد للوطنية.
3. دولة الجزائر الأميرية انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية في عهد كانت فيه الدولة في العالم الإسلامي تعيش على السلطانية والحكم الموروث، ودعائم دولته هي:
أولاً: ما أسماه بالترام " رأي الجماعة" إذ كان بالفعل أغلبية الجزائريين تتأصره،
تقابله أقلية من خصومه ومنافسيه ومعارضيه.

ثانياً: مبدأ الالتزام بحكم القانون مهما كان بسيطاً التزاماً عملياً، والقانون عنده هو الشريعة الإسلامية وحدها.

ثالثاً: الدولة عند الأمير متشعبة بروح الدين وليس بأحكامه الفقهية وحدها والدليل تفضيله لمبدأ الجهاد.

رابعاً: تأكيده رغم حالة الحرب على جبهة البناء الداخلي واعتبارها أهم من الجبهة الحربية وكانت المعاهدات واتفاقات الهدنة التي أمضاها مع الفرنسيين من أجل التفرغ أكثر لتمتين دعائم دولته الناشئة.

خامساً: تشريك مجلس العلماء معه في الحكم وفي اتخاذ القرارات حتى يكون حكمه مبنياً على مبدأ الشورى أو ما أسماه بحكم الجماعة.

سادساً: ربطه بين الحكم والتوحيد، أو بين الخروج عن حكمه وبين الخروج عن الدين والوقوع في الشرك، لأن الدولة إسلامية في قوانينها، وهي في حرب مع عدو كافر لتدافع عن هذا الدين نفسه.

4. كفاءة الأمير عبد القادر في مجال التسيير والتنظيم من خلال الأجهزة التي أقامها.

5. إنشاء حكومة لا تعتمد على تقاليد في الحكم سبقتها بل أقامها الأمير على العدم، ولا تعتمد على سلطة سياسية وعسكرية ورثها، مع ذلك كان من السهل عليه أن يكون وحدة إدارية وقضائية وعسكرية واقتصادية أصح وأصدق من التي قامت عليها السلطة العثمانية في الجزائر.

6. توسيع الفضاء الحربي باسم الدين ليتمكن من العدو وذلك من خلال استفتاءاته للفقهاء، التي تعتبر دعوة خفية لإعلان الحرب على فرنسا وتحريض من بيدهم الأمر على ذلك.

7. الأمير عندما توقف عن الجهاد واختار الهجرة، نظر ببصيرة العالم المؤمن الذي يستشعر المستقبل من أحداث الماضي وإدراك أن أي عمل ثوري بناء لن يكتب له النجاح إلا بتماسك الشعب بأكمله في وحدة وطنية قوية، وكان ذلك مرهوناً بقناعة الشعب بمساوئ الاستعمار والسيطرة الأجنبية.

8. مشروع الدولة عند الأمير عبد القادر كان عبارة عن محاولات إصلاحية وتجديدية، فمقارنة مع الحركات الإصلاحية خلال القرن التاسع عشر انطلاقاً من محمد بن عبد الوهاب إلى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده التي لم تخرج عن إطار مبادئ الإسلام

وقيمة ومعالجة الجمود والانحراف الذي طرأ على مستوى نظام الحكم ممثلاً في الخلافة العثمانية والمجتمع الإسلامي عامة، فإن إصلاح الأمير لم يخرج عن هذا الإطار وتلك الأهداف، بل أعاد لنظرية الخلافة واقعيته على المستوى التطبيقي، فالدولة عنده انبثقت عن إرادة شعبية وبيعة شرعية، حين عجزت كبريات الدول الإسلامية عن التنصل عن نظام الوراثة.

والإصلاح عند الأمير لا يختلف عنه عند الأفغاني حيث توجه كل منهما إلى التركيز على جوانب متكاملة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، على أساس أن الإصلاح يتطلب من الحكام جهداً وأنه لا بد أن يقفوا عند أحكام الشريعة وتنفيذها وأن يقوموا بالنهوض بالأمة عن طريق تحقيق العدالة التي تقوم على الإخاء والشورى.

ثم إن جميع الحركات قامت وحققت وعيا قوميا وتغيرا اجتماعيا، لكن ولا واحدة منها ارتقت إلى تحقيق واقعية مصدر السيادة للأمة الإسلامية كما فعل الأمير.

9. الأمير ينطلق في تصوره للدولة من نظرة صوفية فهو يعتبر نفسه نائب عن الله عز وجل، وهو خليفة متحقق وإرادته بالتالي تابعة لإرادته بمعنى اتحاد الإرادات أي نسبة الفاعلية إلى الله مع إقرار أن أوامره ونواهيته عز وجل فيها عصمة وفقاً للقاعدة: "ليكن الفرق في لسانك موجودا وليكن الجمع في قلبك مشهودا، ومنه تفسر قضية الاستسلام للقدر في مواقف الأمير المختلفة.

وهذا لا يعني وجود تعارض بين تصوف الأمير وممارسته للسياسة والحكم، فتدبير شؤون الدنيا على مقتضى النظر العقلي سياسة، وتدبير شؤون الدنيا والآخرة على مقتضى الشرع سياسة ثانية، وتدبير شؤون النفس بالمجاهدة والمحاسبة على مقتضى الإيمان سياسة ثالثة.

وانطلاقاً من تحميل الأمير نفسه لأعباء الجهاد، فإنه يصبح بالإمكان وضع تصنيف عام لمفاهيمه السياسية، يحدد داخله مكانة كل سياسة ومجال اختصاصها.

العلم نور

جامعة الأمير
القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم (1)

رسالة الأمير عبد القادر حول أسباب محاربتة للتيجاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ولا يدوم إلا وجهه، صلى الله على من نبي بعده.

الحمد لله. هذه نسخة مكتوب صدر من أمير المؤمنين بخط يده لبعض من اعترض عليه بقتاله لأهل عين ماضي نص أولها:

الحمد لله حمد مقصر في حمده، وصلى الله على عين العوالم محمد رسوله وعبده، من عبد القادر بن محي الدين لطف الله به وبأحبته، والمؤمنين في الدنيا ويوم الجزاء والدين، وجعله وأياهم على جادة الفوز والسعادة الأبدية من المجدين آمين.

إلى أخينا فلان بن فلان علمك الله ما جهلت، وأبان لك ما عنه صرفت وعدلت، وسلام عليك ورحمة الله وبعد: فإن كتابك إلينا قد وصل وأعرب لنا عما عندكم في جانبنا قد حصل، وأمرتني فيه بالمنكر، ونهيتني عن المعروف، لما قام لك ولديك وهو معروف، وحسبك ما ظننته فينا من سوء، ونحن بعون الله على بصيرة في ديننا، ولنا من أضواء الشريعة المحمدية بعض الضوء: خصلتان ليس فوقهما من الشر شيء الحديث.

وكيف تأمرني بترك قتال قد أوجب الشرع علي، وتوجه خطابه إلى ظنا منك أنك قد حصلت على شيء، وفي زعمك أنك حققت، وأن ليس وراء همتك مرقا. كلا، ولا حيث خلقت. وكيف يسوغ لعافل غير مكابر أن يتكلم فيما عنده غابر.

وكيف لا يسوغ لي قتاله وهو قد كاتبني بتأقمت: لا تقدم إلى الصحراء، وإن جنتها تتدم ولا تجد مسلكا لا أماما ولا وراء. وجمع جموعه لقتالي ولاترك ممن أطاعه لا أول ولا تالي. أبعد هذا الأمر حراجة. وقد نقل عن إمامي مالك أنه قال في العتبية جهادهم أحب إلي من جهاد الكفار.

وكيف لا يسوغ قتاله وهو قد صرح بأنه خليفة الله في أرضه وبلده، وكتابه بأيدينا بخط يده، وقد قال مولاي وسيدي في صحيح مسلم: من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع (كذا) فاضربوا عنقه كائنا من كان.

وكيف لا يسوغ لي قتاله وقد كاتبته مرتين على أداء الزكاة على ما جاءت به السنة والكتاب، فأبى حتى من رد الكتاب، وقال سيدي رئيس الصديقين: والله لو منعوني عقاب

بغير أو عناقا لقاتلتهم علي منعه. وإن بلغت توبته حيث كنت بالمدينة، فإنما ذلك من دسائسه الرديّة (كذا) وقد أبدا (كذا) ما دس بعد ذلك في أحسن ابتغاء، فلا شك أنه كان يصر حسدا في ارتقاء.

وكيف لا يسوغ لي قتاله وقد قتل من أهل عين ماضي تسعة عشر رجلاً، واستولى على ديارهم وأملاكهم، وهم الآن معنا يطلبون حقهم.

وكيف لا يسوغ ليس قتاله وعنده في المدينة محضية كلهن هربن من أزواجهن وبعض منهم حاضر لدينا ينادي بالشرية عليهن.

وكيف لا يسوغ لي قتاله وقد خرب تاولاته وأخذ أهلها وقتل منها خمسا وعشرين رجلا مع أنه ما كلفه الله بأمر ولا نهي.

وكيف لا يسوغ لي قتاله وهو يعاقب في جميع أهل الصحراء، بالنفي وأخذ الأموال، ليس إن تركته كنت أظلم منه، وكنت غاشاً لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - . وقد قال: "من ولي من أمر أمتي شيئاً و غشهم، لم ير حتى رائحة الجنة". رواه مسلم. وكان الواجب عليك أن تسألني عن وجه الأمر حيث حاك في صدرك مني فإنني بحول الله لا أقدم على أقل من هذا إلا بدليل شرعي، فكيف بأمر فيه يسفك دماء المسلمين، وما أبريء نفسي، وإن حصل لك ضرر من كتابي فاعلم أن الصادق الأمين - صلى الله عليه وسلم -، قال: ما سبب قوم أميرهم إلا حرموا خبره ومن وراء إدراك عقلك للعقول إدراك، فلا تخال أن العقول كلها في شباك، واشراك.

وأما ما ارتكبه هو وأصحابه من البدع في الدين، فقد كاد أمرهم أن يجوز الملحدين. ولو قصصنا عليك ما أطلعنا عليه من اعتقاداتهم الفاسدة لقال العالم هؤلاء أحق باسم الملاحدة، وقد قال غير واحد إذا ظهرت البدعة وسكت العالم فعليه لعنة الله. فإن كانت هذه القبائح التي هي للعلمين كيد ولايح (كذا) لم تردكم عن اعتقادكم، وتعمى عنه وجوه انتقادكم، فلا يضر الشمس إلا يراها العميان، ولا يضر السماء سقوط البنيان. نسأل الله التوفيق والهداية لنا ولكم والسلام.¹

¹ - ابن التهامي مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم وتعليق بو عزيز يحي، ط. 1،

دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995. ص-ص. 345-349.

ملحق رقم (2)

رسالة اعتذار من الأمير عبد القادر إلى محمد الحبيب التيجاني

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وبعد إلى السيد محمود الحبيب ابن العلامة السيد أحمد التيجاني.

لقد وصلني جوابك الذي لا إماء وبعد أن عجزت عن الولوج داخل حصنكم وبعد أن أدركت حقيقةكم وعملت أن ما دار بيننا إنما هو وشاية فقط، وتدخل الفتانين بيننا، ولهذا فإني أرجو عفوكم عنا، وهذه هدية متواضعة تصلكم مع ابنكم أحمد؟ عساها تجدد الروابط الأخوية بيننا. من الفقير إلى مولاه الغاني (كذا) كثير الذنوب والأوزار، عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار عامله بلطفه في الدنيا ودار الموتى.

ثلاث وعشرون من ذي القعدة عام أربع وخمسين ومائتين وألف والسلام.

Handwritten text in Arabic script, likely a continuation of the letter or a related document. The text is dense and partially obscured by a watermark.

ملحق رقم (4)

خطاب الأمير لأهل جرجرة

... إن الله قد بعث لي بالنصر لوضوح أهدافي التي تقودني وتوجهني وإلى جانب ذلك فأنتم تعلمون ما نص عليه القرآن الكريم من أن القوة تغلب العدد... وتأكدوا أنني لو لم أفق بشدة في وجه الفرنسيين المعتدين ولو لم أظهر لهم ضعفهم وعدم قدرتهم، لانقضوا عليكم... إن الفرنسيين قد تركوا بلادهم ولم يأتوا إلا لاحتلال أرضنا واسترقاق أهلها، استيقضوا يا أهل جرجرة وثقوا أن ليس في قلبي سوى الرغبة في سعادة وصلاح ورفاهية جميع المسلمين.

إن كل ما أطلبه منكم اليوم هو الطاعة والوفاق والمحافظة التامة على قوانين ديننا المقدس، لكي نتنصر على الكفار، ولا أطلب منكم لتعزيد جيشنا سوى ما فرضه الله عز وجل.

إنني أدعوكم إلى الجهاد في سبيل الله فاخاروا رئيسا عليكم، إنني أقترح عليكم ابن سالم... إنني أحاول إقناعكم بالتي هي أحسن لا بالقوة، وإنني أدعو الله أن يهديكم إلى سواء السبيل¹.

¹ - تشرشل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ص - ص. 150-151.

ملحق رقم (5)

مرسوم تعيين خلفاء المقاطعات

مرسوم التعيين بختم بخاتم الإمارة، خاتم كبير مستدير الشكل نقش في دائرته. "ومن يكن برسول الله نصرته إن تلقاه الأسد في آجامها تجم" وفي جوانبه عبارات: الله محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي. وفي وسط الدائرة: الواثق بالله القوي المتين، ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، والتاريخ 1248هـ.¹

¹ - ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ص.308.

نص نموذج مرسوم التولية للسيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى الأغواطي

"هذا ظهير شريف، يتضمن الترغيب في جمع كلمة الرعية، والترهيب من السعي في تفريق الجماعة، والدعاء إلى التمسك بأوامرنا المطاعة، أصدرناه للمكرم المحترم: السيد الحاج العربي الأغواطي، وذلك انه لما تقرر لدينا عدله وفضله، رأينا أنه أحق من تقلد الأمر الأكيد، ونرمي به الغرض البعيد، ونستفسر به أحوال الرعية حتى إنه لا يغيب عنا شيئاً من أحوالها ولا يخفي علينا ما يتجسدها، من طارق أهوالها، وينهي إلينا جميع ما يحدث فيها، إنهاء يتكفل بجلاتها ودقائقها، وجعلناه نائباً عنا وخليفة لنا في قبائل الأغواط الغرابية والشرافة ومن إليهم من القبائل الصحراوية في الجهات الجنوبية.

فيجمع سائر وجوهها وأعيانها، ويخبرهم بأمرنا هذا، ويتلو عليهم ما قلدهنا به، ويقرر لديهم وجوب طاعته ولزوم اتباعه والإذعان لأوامره ونواهيته، وقد عينا له من العسكر النظامي ما يتوصل به إلى تقرير الأحكام وجباية الأموال، وقهر الظالم والأخذ بيد المظلوم. هذا مع ما نعتد عليه من انقياد رعيتنا للأحكام الشرعية والأوامر المرعية، ولذلك لم نبالغ بالاستكثار من العسكر، لخدمة خليفتنا المذكور، فكونوا أيها الناس - لأمره - السالك فيه على جادة الحق والعدل، سامعين، ولكلمته مطيعين واعلموا: إن من نكث فإنما ينكث على نفسه، والله ولي المتقين.¹

حرر عن إذن مولانا، ناصر الدين، عبد القادر محي بن الدين.

¹ - بن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ص. 292.

ملحق رقم (7)

دستور الحكم الشرعي الخاص بجيش الأمير عبد القادر

- نقد سنّ الأمير أحكاما للجند، ونشر تنظيمات عسكرية تحتوي على آخر التفاصيل المتعلقة بالانضباط ، وكانت هذه التنظيمات تقرأ مرتين في الشهر لمختلف الوحدات.
1. أوجب على رئيس العسكر أن يتفقد عدد العسكر وكسوته وسلاحه في كل يوم سبت، وإن تخلف عن ذلك لغير عذر ظاهر يحبس عشرين يوما.
 2. لا يغش الأغا في شيء ولا يأخذ رشوة لا من العسكر ولا من السيف ولا من كبير الصف ولا من غيره درهما فإن ثبت عليه شيء من ذلك فإن اسمه يمحي من الديوان ويطرد ويهان. أوجب على السيف أن يتفقد ما تحت يديه في كل يوم اثنين وخميس، فإن تخلف عن ذلك بغير عذر ظاهر فإنه يحبس عشرة أيام، ويجب عليه أن لا يظلم العسكر، ولا يأخذ منهم دراهم، ولا يغش في شيء ولا يخونه فإن فعل وثبت عليه ذلك يحبس سنتين يوما.
 3. تحقق طاعة السيف للأمير ولا يخالفه في شيء.
 4. يجب على كل سيف أن لا يركب أثناء التدريب، ولا في يوم القتال، وإنما يكون مع مائته ماشيا وذلك ليرتب صفوفهم في التدريب أو القتال ويشجعهم، فلا بد أن يعد السلاح ويتفقد، لأنه هو الضامن المتكفل به، بحيث إذا مات العسكري أو غاب أو كانت المكحلة بيده يعطيها ليد الخليفة ويأخذ هذا الأخير بيان مكتوب تبرئة من الضمان، فإن غابت المكحلة، ولم يأخذ السيف براءة من عند الخليفة أو السلطان فإنه يضمنها.
 5. على رئيس الصف أن يتفقد ما تحت حكمه من العسكر كل يوم صباحا ومساء، بحيث يقفون صفا، وخوجة الطريق (المكلف بشؤون السقر) في يد الدقتر، يسمي واحدا واحدا وهم يجيبونه، ومن لم يجب فإنه غائب، فإن كان لعذر فلا بأس وإلا يحبس يوما وليلة.
 6. يجب على عموم العسكر طاعة عموم رؤسائهم، فمن عصي رئيسه في شيء يحبس خمسة عشر يوما.
 7. من سمع الطبل كعلامة للخروج إلى التدريب ولم يخرج فإنه يحبس يومين.
 8. من سمع الطبل كعلامة للخروج للقتال ولم يخرج فإنه يحبس شهرا.
 9. من خرج للحرب بغير كسوة السلطان يحبس يوما وليلة سواء جندي أو آغا أو سيافا أو

10. من ترك الصديد في سلاحه أو كسوته يحبس ثلاثة أيام.
 11. من أتلّف أو أفسد سلاحه في غير يوم الحرب فإنه يضمن قيمته.
 12. من هرب من خديمة العسكر ورجع باختياره، فإنه يحبس بقدر ما هرب، ومن هرب وأتبعه السلطان وقبضه، فإنه يحبس بحسب اجتهاده.
 13. من وجه بارهواً ليلاً ونهاراً لغير مصلحة فإنه يحبس يوماً وليلة.
 14. وإذا نام العسكري في العسة القائم هو بها، فإنه يحبس ثمانية أيام.
 15. إذا باع العسكر البارودة وثبت عليه، فإنه يحبس شهراً.
 16. إذا فعل أحد كبراء العسكر ما يستوجب له العزل فإنه يصير عسكرياً ويلبس لبسة العسكر، وكسوة الملف ترجع لبيت المال.
 - وما يطبق على سياف العسكر، يلزم سياف الخيالة، وكل ما يلزم العسكري ويلزم الخيال، وكذا سلاح المدفعية .
 17. إذا ركب الخيال فرسه دون موجب فإنه يحبس يوماً وليلة.
- وبالنسبة لتطبيق الأحكام بالنسبة لأفراد العسكر، فتتوجب على رؤساء الصفوف، وإذا فرط رئيس الصف في الحكم القانوني، فإن السياف يحكم فيه (أي في رئيس الصف)، وإذا فرط رئيس العسكر في الحكم بالقانون فإنه يعاقبه أمير المؤمنين أو خليفته حيث فرط في الحكم بالقانون.²
- ولقد حضر الكولونيل اسكوت وشاهد مدى الانضباط الذي حرص عليه الأمير في جيشه، حيث ذكر أنه أعلن "أمر ملكي" بواسطة تشكيلة تتكون من عشرين جندياً بلباس زي جيش تاقدمت مع عدد من ضاربي الطبول مؤداه: أن على كل من تغيب عن صفوف الجيش دون أن يحصل على إجازة أن ينضم إلى فرقته في اليوم التالي. ومن خالف هذا الأمر، تصدر ممتلكاته، إذا كان يملك شيئاً، وإلا فيسجلد مائتي جلدة ثم يلقي به في السجن، للمدة التي يراها السلطان.³

¹ ابن رويلة قدور، وساح أنكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، ص - ص. 68-70.

• ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ص. 207.

² - قدور بن رويلة، وساح الكتائب و زينة الجيش المحمدي الغالب، ص. 72، ابن عبد القادر محمد، تحفة

الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ص. 208.

³ - الكولونيل اسكوت، مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر. ص. 146.

جداول العملات الجزائرية المتداولة أثناء العهد العثماني
جدول النقود الذهبية الجزائرية

المصادر والملاحظات	قيمة النقود الذهبية	أنواع النقود الذهبية
Emerit. "Le voyage", 377 • -A.N.P. Tarif comparatif ¹ • -Boutin, p.82 • -D. Thainville, p.142 • -D'Estry, p. 138. • نفس المصدر	8.5 ب.ش 13.5 ب.ش 10 ب.ش أو 11 ف 9 إلى 10 ب.ش 8.5 ف 28.56 ف	السكة الجزائرية أو السلطاني
• A.N.P. Tarif comparatif • D'Estry, p.138 • نفس المصدر ص 140	6.75 ب.ش أو 14.28 ف 4.449 ف	نصف سكة أو نصف سلطاني
• A.N.P. Tarif comparatif. • Shaler, p.307. • D'Estry, p.138.	3.60 ب.ش 3.80 ف 7.14 ف	ربع سكة أو ربع سلطاني
ضرب في عهد محمود الثاني (1807-1829م)	8.89 ف	السلطاني الجديد

¹ - A.N.P. F 80, 970 procès-verbal de l'établissement d'un tarif des monnaies en usage en Afrique.

جدول النقود الفضية الجزائرية

المصادر والملاحظات	قيمة النقود الفضية	أنواع النقود الفضية
• المصادر المعتمدة:		ريال بوجو ¹
• A.N.P. Tarif comparatif	3 ب.ش، أو 1.86 ف	أو بدقة قوردة
• D. Thainville, p. 143.	1.80 ف ²	أو قرش الجزائر
• G. de Bussy, p. 136.	1.60 ف	أو قرش صغير .
• Baudicour, p.34.	0.75 ف	ربع بوجو
• Tachriffat, p.81.	0.471 ف	
• D'Estry, p. 140.	0.45 ف	
• Aperçu 3° éd. p.97.	0.375 ب.ش	
• Benachneb, p.24.	0.225	
	0.229	
	6 ب.ش	
	3.723 ف	
	0.125 ب.ش	
	0.75 ف	
	0.25 ب.ش	
	3.155 ف	

¹ - البوجو القديم يساوي 1.883 ف ، والبوجو الجديد المضروب في سنة 1829 يساوي 1.805 ف، أنظر :
- D'Estry, p.140.

² - يقوم الآن بحوالي 5.5 د.ج أو 5.5 ف.ف، ومتوسط وزنه 10 غ.

جدول النقود الفضية الجزائرية (تابع)

المصادر والملاحظات	قيمة النقود الفضية	أنواع النقود الفضية
• G. de Bussy, p.136.	0.45 ف	بدقة شيك أو ريال درهم ¹
• D'Estry, p.140.	0.578 ف	
• A.N.P. Tarif	0.33 ف	
• Apperçu 3° éd. p.97.	8 م	
• Dictionnaire géné. ³	0.62 ف	
	1.38 ف	نصف بدقة شيك
	0.31 ف	
	0.17 ف	الصائمة ²
	4 م	
	0.2890 ف	
	150 س	

¹ - ضلّت حتى سنة 1822 تعتبر عملة حسابية فقط.

² - عملة تستعمل لإجراء المعاملات الحسابية وتسديد أجور موظفي الدولة، كثيرا ما تختلف قيمتها من وقت لآخر.

³ - Dictionnaire général de la Biographie de l'Histoire de Mythologie, de géogrophy ancienne et moderne, Fd. Tandou, Paris 1803, p.2051.

المخلصه
رحم الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم



من احلى ما تفرج به كثر من العوده واعلم بانتم تشتم الخواطر المستعده سلام
 لآله العود مبتدا ودعاء بربريه الصديق محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
 الكيا والطف من نسيم الصبا انصرف به حشرة انساى العقل ومغلة اما فيه
 ومراجع هضمية الكمال ورافى موقيد شذرت على الحاسا اطرافه وما اختلفت
 الا للجاندا شوفاقد سيادة الوزير الاعظم والامير الابطح السيد محمد طهى (الكرم)
 علينا من حشرتك العلية كتاب برورى الناظر ويسر الخاسر ويغنى عند نوره التبع
 الزاهر بحسبة المثال الشريف والتميز السامع المشيع بتلغينا همسا
 بالقبول والتعظيم وقابلناهما بالذكريم والتبجيل اعطاء لقا مهما العال
 حشر وحس موفعهما المتعال مستغف وكعب ومزلا حاشا عنوانا على حسن التيه
 مرصاه الطوبى وتذكرة بالعهد الذى اسست عليه العوده وكلاز داد على نوال الازمان
 راجده ثم بلقنا ما ثلث الفقيه راكولكم في القلوب المحبة الغلبه وعطر الجاهل
 بالاشية والادعيه وهو فيون الحفرة العلية للمهاجرت اولاد صفران بلحمتا
 لهم بالوحنون تحت اظلالها السنيه والانفراط بملد مملكتها المبرسة المحمديه
 مياها من مرتبة عظيمة لا يقع بشكرها ولا يزال التامر طيب ذكرها ثم انا
 القاير الكيلونى كان حضر لظرفنا منذ مشهور وهو الان عندنا حليب شبا عتنا
 بالمرصوب من المقام الامنى والجناب الامنى ان يلحقهم بهم في الاذان والسنن ويشمله
 معونه وسما يلقونه به بما يعيهم من النافع والمنى لازلنا حلفتهم تغليد اعناني
 الرجاء بقلل يد نيمها وتهدج وياخذ الامال بجهول كل سحب كرمها وانتم ابغاكم
 الله ومنع المسلي بطول اوتقايتم حيث انه لم تنزل عليكم في اقتساب الحامس
 منتهة السنات فرحبهت بحياكم كلها فريات وحسنات ملامتكم بجزء الجواب
 يلقى سراج هذا الامور من يد الاعتزاز والله تعالى يشكر من اعلمكم الحيسه
 وعوايد زبكم العوده بينه وكرمه

الرائع الخالص
عبد القادر الحسنى

رشيف الوطني التونسي
سنة ١٤٩٤
١٤٩٤ هـ



نجاها بما فيها من اوان الكيلونى منعت حيا جابة لطلبه مراتح سب

رسائل موحدة في إطار سعي الأمير لقضاء مصالح خاصة
 للمهاجرين الجزائريين بتونس
 رسالة رقم 01

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله تعالى بحمده وكرمه ومعجزاته وبتوحيده وتوحيده
 الامام لا يبع انفسهم على ما يشاءون من الله ورسوله وكان له وقرآ
 ن وصحاح عبيده ورحمة الله وبركاته ورضوانه ونجاة ما تعاقب العلم وفي
 عيشه عذر كبري الله لما ملك عروا الله ارض بل فسكنه وانقلب ك
 ويشلون وضعفهم الذي ودار العرو وارا داه يملك لا ارض امتنا انا
 يابها الذين اسواق اقول الذين يلبون من الكبار وليبدوا بجمع غلظته
 مؤثرا نصير حاج غير انفا وانا تعلم فيهم من النجاة والقوة ونهت الا سلا
 كثر عسرة ويزان ففصم با اصلاح لاقته وطلبتار منه ان يجرس في لائل فكل
 حضرت واليت عرسامة حتى تلي قوله تعالى وكان عفا عني نصر الرضيت وه
 القلعة ورسا بجلة عبيده واخر خط من كان يهاب من العبدون وما نحن باه
 مقدر والعدا عرفنا امير الرضيت فالذي نحبها وبما رغبة فكسبها واما مشاه
 من نشوة لا مشق واروت عرسامة لعم عليهم السطاع وفتح العتلات من انقلبت والركبة
 وانه يجمع الكبري وانتم منة الرضيت وان ظهر الخ ان تكون وطنة يندم منه
 ترويض من المختلفة والجمع اللثة الشريعة ونهت ان قوله تعالي بها قار عفا عني
 ونظم في قوله تعا ونور اعلى ليرى الفعوى وقال صلى الله عليه وسلم المرسل كالنبياني
 يشربونهم بعضا نبي ذلك لعلنا وياتيا تب جعلنا اذ هو في اولاد الرسول الاتا لانه
 ولا اوتي منه اربع نلت في قوله تعالي فنعلم ان الله عليه وسلم لا يبعهم من مؤمن ولا يبد
 عبيدهم منكم الشرح الضاهر بالبدن ودار في سائر المذموم والمحاسن انا
 ومعه اولاد الرسول ان ترويض عفا وبعده عفا واولادها وانفسهم واولادها
 بعد ان هيب كرسى لادعائية وما علمنا ان هذا الا الكونك خاوا اليها
 ولكن الجليلك ونعمه لثب ارجاه ونهت في نبي الدين والهدى لانه
 العسى يرضون في امة ام الرضيت نصرى الله ارضي ولا عفا

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على
 سيدنا محمد وآله الطيبين
 الطاهرين
 وبعد
 فاعلم ان هذا الكتاب
 هو من كتب الفقه
 الحنفي
 وهو من كتب
 الفقه الحنفي
 وهو من كتب
 الفقه الحنفي
 وهو من كتب
 الفقه الحنفي

اللاوي الرضوي الترمذي

رسالة رقم 102

هو الله في شئ وهو محمود ووجهه



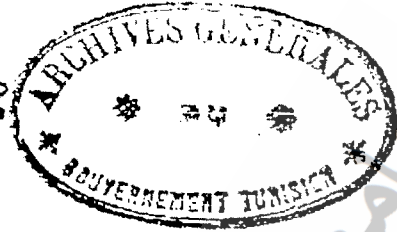
الحمد لله



والوجه
 يسوع (أغوار) والتجود أو رحمت الله وبركاته ما تعاقب الملوك بالعد
 على الوصوف باشتهاج عنة والجلود: اخنا للواتق بالحق الوكيل القوي: السبع الحسد
 لاسع الله حلاله وحلاله: وبلغه الزاير لاملنا وامله: وبعرايه العاير الجار
 لالصاير المكلبة اسمع الله خير: ووقاد بلحيد ضم: انا الجهاد شعاع
 وحرمة المؤمن اتقاء: باحد الله الما شرد اليه: وسله ان يشترك ويترك
 الم تعلم ان الله يقول لصوته وعزيم: ما عشتير وايي علم الم بايقم به: بعد ان فان
 لشتر من المؤمن انصيرهم وامواهم بان لهم اجند: بلانظي بالاعم اسعد الله ان
 وفان يغفلون به نسيلا الله: محفوز الم المعنى والمستقر بل الله: فيقتلوه ويقتلوه
 بكن من لا يظلمون به ذلك طعنا واشتغابيه التوتيل^{وقال} وبتغير العنوان وتلهيك هذا
 نشر بالعلو جز الشان: ولتفروج الله الحاد والجاهد به ابي ابي: ورد
 ما لا يله من العظ والعمارة: يقال تعالرو وفضل الله الجاه وترى انقاد
 مجازاين ذلك دون انقادهم شربا وتعلمها: جرد ومواعظ الله وسئلوا من
 زعمون جمل وانتموا واتخذوا وانتم اعلون حاص^{وقال} لله من الحب ان الله ما يرشرك
 للجهاد بها امر اذ جرحى الرضا والبر فضل الله الجاهد بها امر الله وانفسهم من
 ومثلها امر اذ به عزيا ونكلا: وفان لو خجوا فيكم مزاودهم اخبالا: ما به
 على بلانق ولا سمع كلام الكشف الميل المعاني: وتذير نون تغار الذين فال
 ان انتم قد جمعوا الكرم في شوق مزاودهم ايماننا وفالوا حسينا الله ومع الوكيل
 انما لان صاعر احواكم سلايمر وللعلم كمثل قير وكرم بالحمي داعير واختاركم
 فضل الله من جمعنا بكم به احب انا وفزت اليوم وام كوا للبر على احصى ال: وقال
 ويرسل الصواب بيبس: لا من يشاء وهو معتز بل انى وكتب: امر تام للبر وامان
 سواها ومسير احاج عيدا لاعد ربح الله بها انتم الله

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين
 والصلاة والسلام على
 سيدنا محمد وآله
 وسلم

رسالة رقم 03



على السيد علي سيرا في يومه

الجزيرة وهران

سعادة الوزير الأعظم والجناب الحاج ناشر لواء العزل على رؤوس من سير الوزراء (أ) باطل جامع اسباب العلم والجد
 امير لواء السير محكمي باسنا بالبرولة التونسية ايرالده دولته الباهرة وايد صولته الفانيه اما بعد السكك
 الكابو بالفتح انه بلغنا دخول البنية المرفانين واواد بليس في ديرة دولتك السامية كبريت لجماعة المنع مستعنا
 جنابها الربيع مشغولي العرصه بدمع ما حل بهم من عضيخ الغصه ولقد سلكن في فخرهم سزا احادة (أ) صابة وبعث
 على من لاجابه وجرعت دواعي المناه والاسباب بالماملول من الجناب الشامي تصدق لهم وراعتنا بشانهم واد
 يلاحظهم بعين الرحمة ويساعدهم بقر النعمه فانه ابناؤه الله حسري بلنا حسان اليهم حفيق بالتعجب اعليهم اذ قد
 امد الثاني من كل مكان محييت بخافرتهم حكاره فخامة الرحيين بموالين وفق الشاء بسرفه وجرى التزامهم الرب
 زاد له باع بصله امته اد او شعاع كرمه اشتداد اذ لو نحن نعلم انهم سيستأفرون من حضرتكم الصليه مكنيا يقبلون ما
 التماس وخالع بعد يكلع عليهم بيننا (أ) ما ان جريا على سبتكم الحسنة وتطويقا لسيرتكم الصلة تحسنته ولكن قد
 من السيادة على البروز بالمساعي الناجحة والمتاجر المراهجه ثم اذا كان به لالتفات اليهم مانع وعن لادفبال اا
 فاطح بانثيرت عليهم بالتوجه الي بعزوا البكاد الشامية جانت الاسباب المعاشرة ضافية نمران عوض ولربنا الصي
 محكمي العفنين ما اذ قل علينا وانزده ثابته لينا (أ) وهو يزكر من فراياكم السنيه وسجاياكم البهيه ماما كاله
 مبره والسامع مسره بالمربوم من سنى مكم ان كما مضمون بعين العصبه وتعاملوه معاملته لاجابه والله ولا
 المتوطين الى افوع كهرين وفق على محبتكم والرعاه لكم ملاذ منا والس

الذاعني الخلد
حميد القواد والحمد

الارشيف الوطني التونسي ٥٥٠٠ ربع الثاني



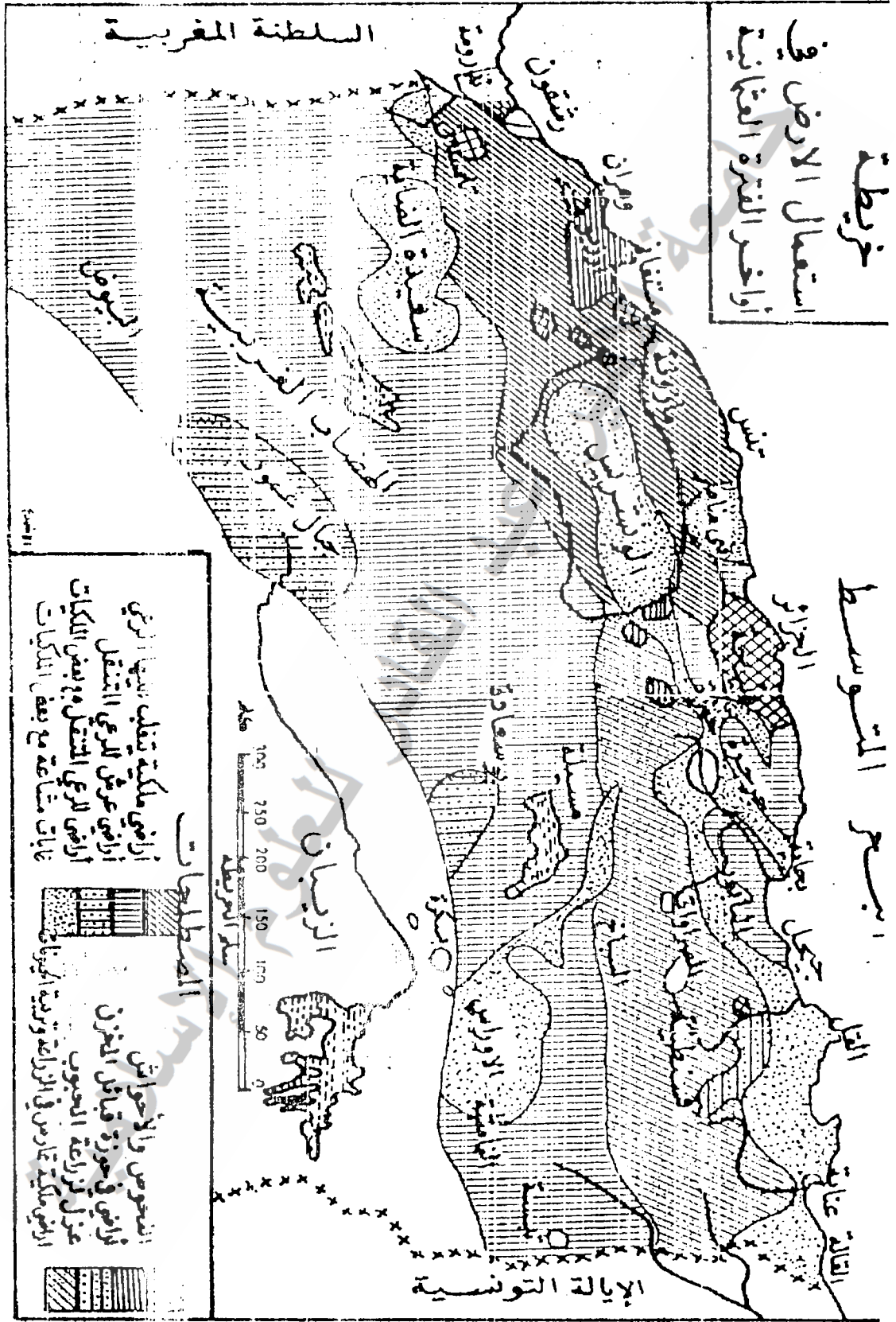
من جناب باه باه هـ سوكا، تقضى بعلامه كرمي بمتوسطه كلها للاسما وقد
 انظر لزلله تعريه به ودر طيبه ولنزلني بفتح ما يرك على من يركه بهم بان سيب
 كاله عنى حين عر هبنا برك لهما مومع زلديه من خصوصه سوكا لزوج الاعتبار حاله
 سلسله

رسالة رقم 04

الحمد لله الذي جعلنا من عباده
 من عباده القادرين على الرتبة الاخرى
 السيد احمد حفيدك الله ووفقك وكان
 لك وسلك عليك وعلى والدتنا والذئذ
 اما بعد فانه وقلنا متنوبك وجرحنا
 به ولا تفلح عنا اخذارك ونرجوا
 من بقله نعلي ان يحمس عما فينا
 وعافيتك وتبولانا جميعا بانولي
 به من بحبهم ونحن كلنا بخير وما
 ننسىك من الدعاء والمأمول من
 كرم الكرم القبول لعشر بعين
 من صعب لساننا وعلينا السلام من
 رخصتنا انظرها رعتك وطاؤ الذئذ في السلام
 واحلنا بسلامنا والذئذ كثيرا

نموذج من خط الأمير (رسالة خاصة)

خريطة استعمال الارض في
أواخر الفترة العثمانية



السلطنة المغربية

البحر المتوسط



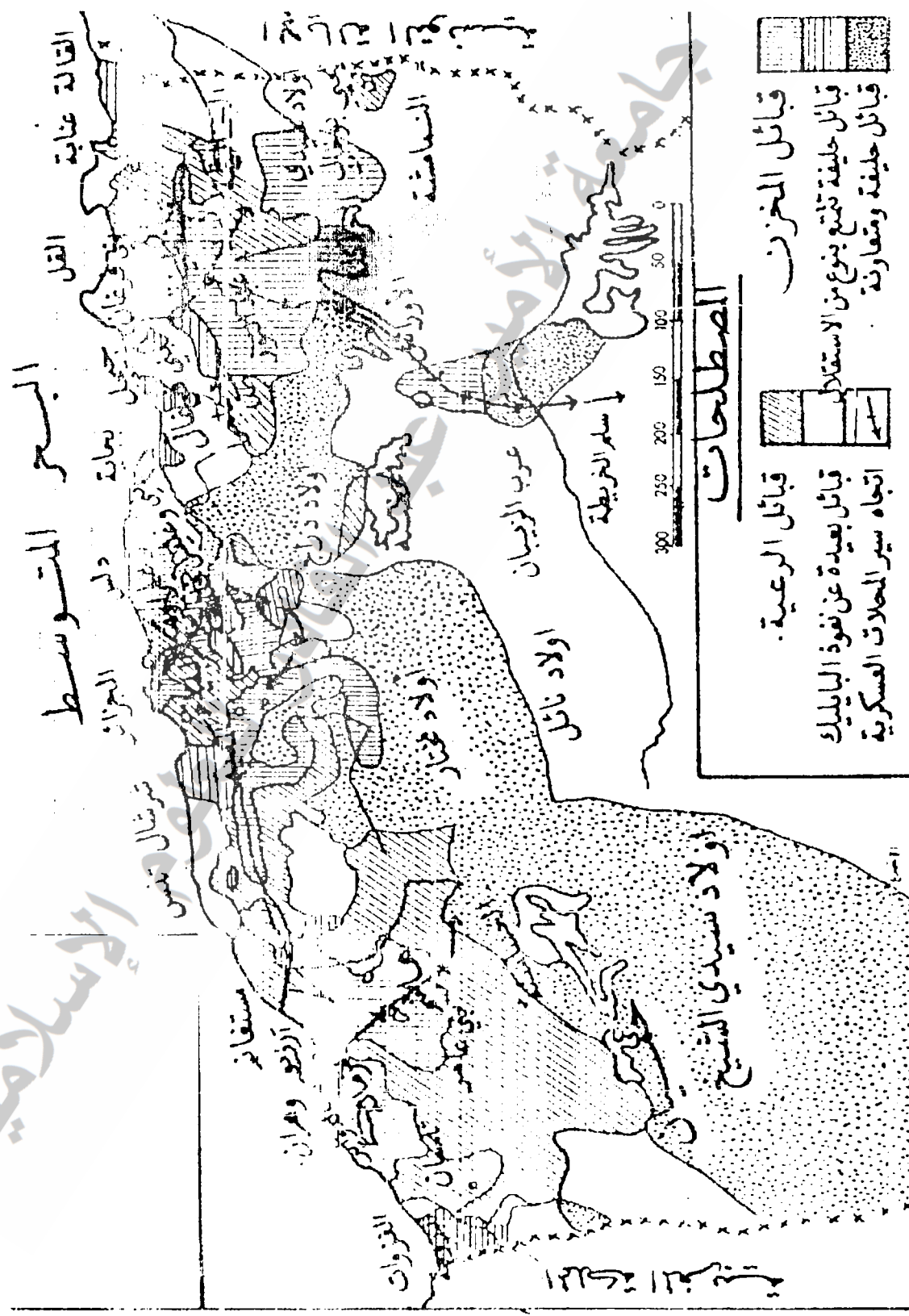
المصطلحات

أراضي ملكية تنقلب إليها أراضي
أراضي عرش للبري المتقل
أراضي البري المتقل؛ وبعض الملكيات
نبات مشاعة مع بعض الملكيات

الأراضي والأحواش
أراضي في حوزة قبائل المغرن
عزل لولاية المحبوب
أراضي ملكية تدارس في الولاية وتربية الحيوانات

الإيالة التونسية

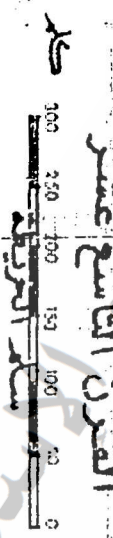
خريطة ضرائب القطائع الريفي بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر



خريطة توزيع السكان بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر



5- خريطة توزيع السكان بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر

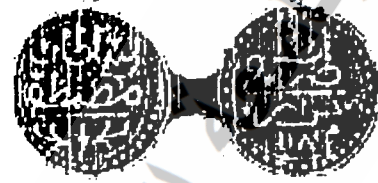


ملحق رقم (16)

نماذج من العملة الجزائرية المصروية بدار السكة من 1144-1240 هـ / 1731-1824



ريال بوجو « فضة » ضرب
بالجزائر سنة 1238



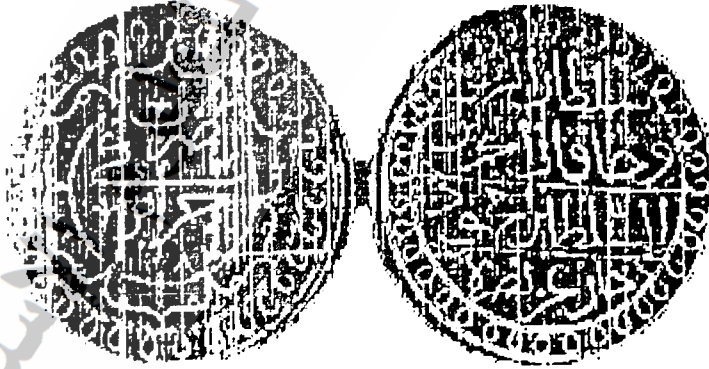
بدقة شيك « ربع بوجو »
النوع القديم « فضة » ضرب
بالجزائر 1185 هـ



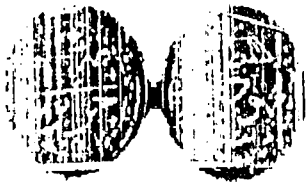
زوج دراهم سفار
« اثنين : اسبرتيك »
نحاس ، الجزائر 1237



خروبة « نحاس مغلف
بالفضة » مصروية
بالجزائر 1237 هـ



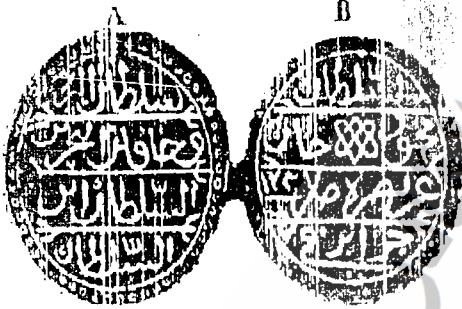
زوج بوجو « دوروي الجزائر »
(فضة) ضرب بالجزائر 1233 هـ



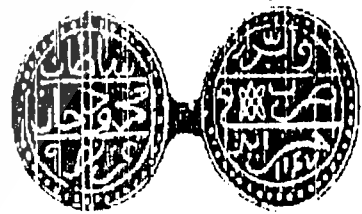
خمسة دراهم صغار
ضرب بالجزائر 1137 هـ



نصف سلطاني «النوع القديم»
ذهب ، ضرب بالجزائر 1144 هـ



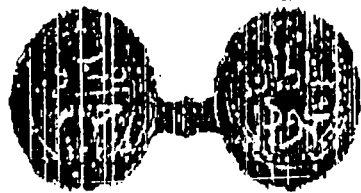
سلطاني «سكة الجزائر»
ذهب ، ضرب بالجزائر
1237 هـ



نصف سلطاني أو نصف
سكة ذهب ، ضرب
بالجزائر 1147 هـ



نصف سلطاني «ذهب»
ضرب بالجزائر 1237 هـ



ربع سلطاني «ربع سكة»
ضرب بالجزائر 1240 هـ

العلم نور والعلماء أمم

جامعة الأمير

مركز الأبحاث للعلوم الإسلامية

1. الآيات الكريمة والأحاديث النبوية:

- سورة الخشر الآية 06.
- سورة البقرة الآية 44.
- سورة النساء الآية 59.
- سورة ص الآية 31-32.
- سورة الأنبياء الآية 92.
- البخاري (87/4) كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "سترون من بعدي".
- مسلم (1302/3): كتاب القسامة (28) باب (6) ما يباح به دم المسلم. البخاري (38/4): كتاب الدايات: باب قوله تعالى "النفس بالنفس والعين بالعين".
- مسلم (1475/3): كتاب الإمارة (33) باب (13): وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

2. الدوريات والرسائل الجامعية:

أ. الدوريات:

- أرزقي نسيب، "الظاهرة الدستورية في المجتمع الإسلامي"، بحوث، ع.2، جامعة الجزائر 1994.
- أوهانيسيان يوري ستيبا نوفتش، "الأمير عبد القادر"، صادر عن دار مؤلودايا غفاريان، في موسكو 1968، من تأسيس مكسيم غوركي سنة 1922، عرض: عماد حساتم، الثقافة، ع.1، 1973.
- ابن هذوقة عبد الحميد، "الأمير عبد القادر والمجاهدة اللامتكافئة"، الثقافة، ع (خاص).75، 1403 هـ / 1983 م.

- الأخصري محمد الصغير، "نشأة الدولة في التاريخ"، القبس، ع.1، 1966.
- البوعبدلي المهدي، "وثائق أصيلة عن حياة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع (خاص).75، 1403هـ/1983م.
- التكريني ناجي، "أصل الدولة والمجتمع عند الفارابي"، دراسات عربية إسلامية، ع.3، جامعة بغداد: كلية الآداب، 1983.
- التميمي عبد الجليل، "الحاج أحمد باي وبايك قسنطينة (1830-1837)"، الأصالة، ع.64، الجزائر 1399هـ/1978م.
- العربي إسماعيل:
- ◀ "مسالك الإسلام العربية إلى الصحراء الكبرى"، الثقافة، ع.62، 1401هـ/1981م.
- ◀ "حكومة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع (خاص).75، 1403هـ/1983م.
- الغماري أحمد، "المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الأجانب من التدخل المغربي في تلمسان إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ع.2-3، سنتي 1980-1979.
- المدني أحمد توفيق، "الأخوة الجزائرية التونسية أواخر أيام الأمير عبد القادر" الثقافة، ع (خاص).75، 1403هـ/1984م.
- النجار عبد الحميد، "الدولة والسياسة في فكر المهدي بن تومرت"، الثقافة، ع.81، 1984.
- النجاري علي حيدر، "الأمير عبد القادر قصيدة مخطوطة في رثائه"، الثقافة، ع.37، 1397هـ/1977م.
- بلحميسي مولاي، "الأمير عبد القادر والسلطان مولاي عبد الرحمن من الألفة والوئام إلى الجفوة والخصام". منتقى الأمير عبد القادر الجزائر 1998.
- بلغراد محمد، "الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر"، التاريخ، ع(خاص)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1993.
- بن علو أحمد، "بناء الدولة في الفكر العربي الإسلامي"، القبس، ع.6، 1969.
- بنت الشاطي، "عبد القادر الجزائري قصة بطولة وكفاح في سبيل الوطن العربي"، الهلال، مج.55، ج.1، دار الهلال 1958.

• بو عزيز يحي:

◀ "جهود الأمير عبد القادر وخلفائه في تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية" الأصالة، ع.48، الجزائر 1977.

◀ "الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليالية"، الثقافة، ع.64، الجزائر 1401 هـ/1981م.

• بورويبة رشيد، "القلاع والحصون والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير"، الثقافة، ع(خاص).75، 1403 هـ/1983م.

• بو طبة زكية، "طبيعة النظام العثماني بالجزائر وعلاقاته بالشعور القومي العربي من خلال نموذجين للثورات الداخلية في الجزائر"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع.5-6، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية و التوثيق والمعلومات، زغوان 1962.

• بونار رابح، "الأمير عبد القادر حياته وأدبه"، آمال، ع (خاص).8، الجزائر 1983.

• تابلت علي:

◀ "الأمير عبد القادر بين الدهاء السياسي والعسكري"، جريدة السلام، ح.2، الأحد 16 جمادى الأولى 1417 هـ الموافق لـ 29 سبتمبر 1996.

◀ "إتصالات الأمير عبد القادر بالفرنسيين والبريطاني والأمريكي في المغرب (1835-1836)"، ملتقى الأمير عبد القادر، الجزائر 1998.

• جريدة المبشر (تصدر من طرف الإدارة الفرنسية) ابتداء من سنة 1847، عدد شوال 1225 هـ/10 سبتمبر 1847 م.

• حاتم عماد، "الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع.14، الجزائر 1393 هـ/1973م.

• سعيدوني ناصر الدين، "النظام الضريبي في دولة الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع (خاص).75، 1403 هـ/1983م.

• شريط عبد الله، "مشكلة الحكم الإسلامي في دولة الأمير عبد القادر ونظرية ابن باديس" الثقافة، ع.57، 1403 هـ/1983م.

• صاري جيلالي، "دور البيئة الطبيعية في استراتيجية الأمير عبد القادر"، الثقافة، ع(خاص).75، 1403 هـ/1983م.

• طالبى عمار، "النظرية السياسية لدى ابن رشد"، بحوث، ع.2، جامعة الجزائر 1994.

- فركوس صالح، "سر الخلاف بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي"، مجلة النهضة، ع.7، الجزائر 1991.
- قداش محفوظ، "جيش الأمير تنظيمه وأهميته"، الثقافة، ع(خاص).75، الجزائر 1403هـ/1983م.
- كاتب ياسين، "الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر"، الثقافة، ع(خاص).75، 1403هـ/1983م.
- مزيان عبد المجيد، "عبقريّة متكاملة"، الثقافة، ع(خاص).75، 1403هـ/1983م.
- ملتقى العلاقات الخارجية لدولة الأمير"، العصر، ع.14، الجزائر 1418 هـ / 1998م.
- نايت بلقاسم مولود بلقاسم، "استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر أو الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية"، الثقافة، ع(خاص).75، 1403هـ/1984م.
- هندي إحسان، "القومية والدولة"، العربي، ع.157، 1971.

ب. الرسائل الجامعية:

- السايح فيلاي، العلاقات السياسية الجزائرية التونسية (1792-1837)، ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة.
- بلقاسمي مصطفى، الإسلامية والصراع الحضري في شعر مصطفى بلغماري، ماجستير.
- جلول المكي، مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من (631هـ إلى 1263هـ / 1234 إلى 1847م)، ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر. 1413هـ/1993م.
- درياس يمينة، السكة الجزائرية في العهد العثماني، دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1987-1988.
- زروخي إسماعيل، الدولة في الفكر النهضوي العربي خلال القرن التاسع عشر، ج.1، أطروحة دكتوراه الدولة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة.
- معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ (16م) إلى القرن 13هـ (19م)، ماجستير، قسم التاريخ، معهد العلوم الاجتماعية - قسنطينة 1411-1412هـ/1990-1991م.
- ملاح أحمد، التصوف والإصلاح عند الأمير عبد القادر، دراسة تحليلية نقدية، ماجستير، قسم الفلسفة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر.

3. المعاجم والقواميس ودوائر المعارف والموسوعات:

أ. المعاجم ودوائر المعارف والقواميس:

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي كبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- البستاني بطرس، دائرة المعارف، مج.9، دار المعرفة، بيروت (د.ت).
- الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين، ج.4، دار العلم للملايين، بيروت 1986.
- دائرة المعارف الإسلامية، بإشراف محمد ثابت الفندي وآخرون، مراجعة محمد مهدي علامة، مج.10.
- كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، ج.5، دار إحياء التراث، بيروت (د.ت).
- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط.3، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت 1983.

ب. الموسوعات:

- الكيالي عبد الوهاب، موسوعة السياسة:
 - ◀ ج.2، ط.2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981.
 - ◀ ج.3، ط.2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993.
- الموسوعة العسكرية، ج.1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981.

4. المخطوطات:

- مخطوط رقم 2093 " أحمد التيجاني شيخ طريقة زويتو في عين ماضي قبلة الغوط"، مكتبة الحامة.

5. المصادر والمراجع بالعربية

أ. المصادر:

- أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي الماوردي، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ/ 1983.
- أجرون شارل روبير، تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1976)، ترجمة عيسى عصفور، منشورات عويدات، بيروت 1983.
- أرجمنت كوران، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ترجمة عبد الجليل التميمي، ط.2، تونس 1974.
- أرسلان شكيب، حاضر العالم الإسلامي، مج.2، (د.ط)، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة 1352هـ.
- ابن التهامي مصطفى، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم وتعليق بوعزيز يحيى، ط.1، بيروت 1995.
- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج.1، ط.2، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1961.
- ابن رويلة قدور، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، (د.ط)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1963.
- ابن عبد القادر محمد، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج.2، شرح وتعليق حقي ممدوح، ط.2، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، دمشق 1384هـ/ 1966م.
- الأمير عبد القادر :
 - ↳ ذكرى العاقل وتبنيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، (د.ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة 1976.
 - ↳ كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج.1، ط.2، منشورات دار اليقظة العربية، دمشق 1387 هـ/ 1867م.

مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، مراجعة محمد الهادي الحساني، ط.2، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر 1995.

- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج.3، ط.6، دار الثقافة، بيروت 1403هـ/1983م.
- الحسني بديعة ، أصحاب الميمنة.
- السيوطي جلال الدين، تاريخ الخلفاء، (د.ط.)، دار الفكر، بيروت (د.ت).
- الفارابي أبو نصر، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وحققه ألبير نصرى نادر، ط.1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1964.
- الكولونيل اسكوت، مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر (1841) ، ترجمة وتعليق العربي إسماعيل؛ (د.ط.)، ش.و.ن.ت، الجزائر 1981.
- المدني أحمد توفيق، كتاب الجزائر، ط.2، دار الكتاب، البليدة 1372هـ/1963م.
- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.8، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1996.
- الهلالي المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج.3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د.ت).
- تشرشل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمه وقدم له وعلق عليه سعد الله أبو القاسم، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982.
- تقي الدين، أبو العباس، أحمد ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، (د.ط.)، دار الجيل، بيروت 1988.
- خير الدين محمد، مذكرات الشيخ خير الدين، ج.1، الجزائر 1985.
- دوإيبالزا ميكايل، الجديد في علاقات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بمليية ترجمة وتقديم وتعليق بوعزيز يحيى، ط.1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة 1402هـ/1982م.
- روسو جان جاك، في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان فرقوط، ط.1، دار القلم، بيروت (د.ت).

ب. المراجع:

- أبو سليمان أحمد عبد الحميد، أزمة العقل المسلم، ط.2، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 1413 هـ/1992م.
- أبو فارس محمد عبد القادر، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان للطباعة والنشر، عمان 1989.
- أركون محمد، الإسلام والأخلاق والسياسة، ترجمة صالح هاشم، منشورات اليونسكو - باريس - بالتعاون مع مركز الإنماء القومي، بيروت 1990.
- أمين سمير، المغرب العربي الحديث، ترجمة كميل داغر، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (د.ت).
- أنور عبد الملك، الفكر العربي، ترجمة بدر الدين عرودكي، ط.3، بيروت، دار الآداب 1981.
- أو صديق فوزي، النظام الدستوري الجزائري، "دولة الأمير عبد القادر" (دراسة تحليلية مقارنة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.
- ابن أشنهو عبد اللطيف، تكون التخلف في الجزائر (1830-1962)، ترجمة نخبة من الأساتذة، ش.و.ن.ت، الجزائر 1979.
- الأشرف مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، م.و.ك، الجزائر 1983.
- التميمي عبد الملك خلف، الخليج العربي والمغرب العربي، دراسات في التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي، دار الشباب، قبرص 1986.
- التميمي عبد الجليل، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائري وتونس وليبيا (1816-1871)، زغوان 1986.
- الجابري محمد صالح، التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس، فصل "أصداء جهاد الأمير عبد القادر"، (د.ط)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.
- الحصري أبو خلدون ساطع، آراء وأحاديث في القومية العربية، ط.2، م.د.و.ع، بيروت 1985.
- الزبيري محمد العربي، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ش.و.ن.ت، الجزائر 1973.

- السيد فؤاد صالح، الأمير عبد القادر متصوفا وشاعرا، (د.ط)، م.و.ن.ك، الجزائر 1985.
- السيد محمد علي الوزير، الأمير عبد القادر ثقافته وأثرها في أدبه، (د.ط)، م.و.ن.ك، الجزائر 1986.
- الطمار محمد بن عمرو، تاريخ الأدب الجزائري، ش.و.ن.ت، الجزائر (د.ت).
- الطماوي سليمان محمد، السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة وفي الفكر السياسي الإسلامي، دراسة مقارنة، ط.6، دار الفكر، القاهرة 1996.
- العربي إسماعيل:
- ◀ العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982.
- ◀ المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ط.2، ش.و.ن.ت، الجزائر 1982.
- الغزالي محمد، الإسلام والاستبداد السياسي، ط.2، دار الكتب الحديثة، مصر 1380هـ/1969م.
- المحامي محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت 1397هـ/1977م.
- النوري حمو محمد عيسى، نبذة عن حياة الميزابيين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505هـ إلى 1962م، ج.1، دار الكروان للطباعة والنشر، باريس (د.ت).
- الورتلاني الفضيل، الجزائر الثائرة، دار الهدى، عين مليلة 1992.
- بلاسي أحمد نبيل، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1990.
- بن حسين محمد، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، ط.1، دار الرياح الأربع للنشر، تونس 1986.
- بوالشعير سعيد، النظام السياسي الجزائري، ط.2، دار الهدى، الجزائر 1993.
- بوعزيز يحيى:
- ◀ الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ط.2، دار الكتاب العربي، الجزائر 1964.
- ◀ بطل الكفاح: الأمير عبد القادر الجزائري، ط.1، نشر وتوزيع المكتبة الشرقية، تونس 1376هـ/1957م.

- جورجى زيدان، تاريخ أداب اللغة العربية، ج.4، تقديم ابراهيم صحراوي، دار مكتبة الحياة، بيروت 1983.
- حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847)، 2. ج، ش. و. ن. ت، 1403 هـ/1983م.
- حقي إحسان، الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد، ط.1، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت 1961.
- حلمي مصطفى، مناهج البحث في العلوم الإنسانية بين علماء الإسلام وفلاسفة الغرب، ط.2، دار الدعوة للطبع والنشر و التوزيع، الإسكندرية 1412 هـ / 1991م.
- خرفي صالح، في ذكرى الأمير، م. و. و. ك، الجزائر 1984.
- دروزة عزة محمد، حول الحركة العربية الحديثة، ج.1، (د.ط)، منشورات المكتبة، بيروت (د.ت).
- دودو أبو العيد، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830-1855)، م. و. و. ك، الجزائر 1989.
- رضا جواد محمد، صراع الدولة القبيلة في الخليج العربي، أزمت التتمية وتنمية الأزمت، ط.1، م. د. و. ع، بيروت 1992.
- سعد الله أبو القاسم:
- ◀ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط.2، ش. و. ن. ت، الجزائر (د.ت).
- ◀ أفكار جامحة، م. و. ن، ك، الجزائر 1988.
- ◀ الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج.2، ط.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.
- ◀ الحركة الوطنية (1830-1900)، ج.1، ط.1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.
- تاريخ الجزائر الثقافي، (16-20م)، 2. ج، ش. و. ن. ت، الجزائر 1981.
- رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنابي صاحب كتاب السعى المحمود في نظام الجنود، ط.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990.
- محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال -، ط.3، ش. و. م. ت، الجزائر 1982.
- محمد الشاذلي القسنطيني (1807-1877) دراسة من خلال رسائله وشعره، (د.ط)، ش. و. ن. ت، الجزائر 1974.

- سعيدوني ناصر الدين:
- ✧ النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني، ط.2، م.و.ك، الجزائر 1985.
- ✧ دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)، م.و.ك، الجزائر 1984.
- سلسلة أبطال العرب، الأمير عبد القادر الجزائري، (د.ط)، دار العودة بيروت 1975.
- صيام زكريا، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
- طلاس مصطفى، الأمير عبد القادر فارس الجزائر، ط.2، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1984.
- عبد السلام أحمد، دراسات في مصطلح السياسة عند العرب، (د.ط)، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985.
- عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830 - 1960)، ترجمة جوزيف عبد الله، ط.1، دار الحداثة، بيروت 1983.
- عطا محمد صالح زهرة، العثمانيون وعملية التغيير الاجتماعي، الاستعمار والفراغ، مجموعة البحوث المقدمة في المؤتمر العالمي حول الاستعمار والفراغ، قسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد، ط.1، منشورات جامعة قاربانوس - بنغازي، ليبيا 1991.
- عمير اوي حميده، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، ط.1، دار البعث، قسنطينة 1987.
- عوض صالح، معركة الإسلام والصليبية في الجزائر من سنة (1830-1962) دراسة تحليلية، ج.1، (د.ط)، الزيتونة للإعلام والنشر، الجزائر (د.ت).
- عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، دار المعارف، مصر 1957.
- فودة عز الدين، المجتمع العربي - مقومات وحدته وقضاياها السياسية - ط.2، دار الفكر العربي، القاهرة 1966.
- قدورة زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت 1985.
- قليل عمار، ملحمة الجزائر الجديدة، ج.3، ط.1، الجزائر 1412هـ / 1991.
- قنان جمال، نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر (1830 - 1914)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.

- كاتب ياسين، الأمير عبد القادر واستقلال الجزائر، ترجمة محمد هناد، م.و.ك، الجزائر (د.ت).
- لاکوست ، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح إسطنبولي ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.
- مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، (د. ط)، (د.ن) 1971.
- مصطفى شاکر، أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، نشرت ضمن دراسات أخرى أقيمت في ندوة فكرية بالكويت في أبريل 1974.
- معمر علي يحيى، الإباضية في الجزائر، ج.2، تصحيح أحمد عمر أوبكة، غرادية (د.ت).
- مناصرية يوسف، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847)، م.و.ك، الجزائر 1990.
- نصور أديب، وطنيون وأوطان (الوطنية كما فهمها أنبل رجال الفكر والعمل في التاريخ)، ط.1، دار العلم للملايين، بيروت (د.ت).
- هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830-1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.
- يحيى جلال، السياسة الفرنسية في الجزائر (من 1830-1960م)، ط.1، دار المعرفة، القاهرة 1959.

6. الدوريات بالأجنبية :

- A.O.M, Constantine, le 26 Août 1939, Rapport du général Gullios au Gouvernement général.
- Bulletin de correspondance Africaine 1886.
- Ghlamallah (F.) « Un projet romantique », le cheval de Troie, revue semestrielle des littératures et cultures méditerranéennes.
- Bruno (E.), « La Smalah une conferie namade », Gouvernement général de L'Algérie, correspondance du maréchal valée, T.1, Paris 1839.
- Lamartinère et Iacrocis, document pour servir à l'histoire du nord.
- conflit Franco-Marocain de 1844 d'après les notes de warnier, in R.A, 1950.
- Ministère de la guerre (France), Rapport adressé à M.le président de la republique par le ministère de la guerre sur le gouvernement et l'administration des tribus arabes de l'Algérie, Paris.
- Moniteur algérien, du 24 février 1837 .
- Revue d'histoire moderne et contemporaine 1967.
- Revue de l'orient spectateur militaire, T.36, 15 février 1844.
- Rinn (L.), « Le royaume d'Alger sous le dernier Dey », in R.A, 1897.
- Yacono (X.), Peut on évoluer la population de l'Algérie vers 1830, in R.A, 1954, 3 ème et 4 ème trimestre.

7. المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

- Abd El Kader Boutaleb, l'emir abd el kader et la formation de la nation algérienne, de l'emir abd el kader à la guerre de libération, « éditions dahleb, 1990.
- Augustin (B), l'Algérie, Paris 1929.
- Azan (P.), Bugeaud et l'Algérie, préface de M. André Maginot, Paris, 1930.
- Azan (P.), L'Emir Abd El Kader (1808-1883) du fanatisme musulman au patriotisme français, Paris , 1925.
- Azan (P.), Les grands soldats de l'Algérie, Algérie, Algerie, 1931.
- Baudicours (L), la guerre et le gouvernement de l'Algérie, Paris, 1853.
- Bellemare (A.), Abd El Kader sa vie politique et militaire, Hachette, paris 1863.
- Benhachenhou (A.), L'état algérien en 1830, ses institutions sous l'Emir Abd El Kader, Alger, 1969.
- Berque (J), Maghreb Histoire et société, sociologie nouvelle, SNED, Algérie.
- Bouchenaki (M.), la monnaie de l'emir Abd El Kader, SNED, Alger, 1976 .
- Brissac (Ph. De.), Rapport de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie (1830-1847), Paris, 1931.
- Cokenpot (Ch.), Le traité Desmichels, Paris, 1924.
- Capolani (X). les confréries religieuses musulmanes.
- Cleach (A), Visage de l'Algérie, éditions des horizons de France, Paris.
- Dieuzaïde (V.A.), Histoire de L'Algérie (1830-1870), T.1, Oran, 1880.
- Ideville (G.H), Le marechal Bugeaud d'après sa correspondance intime et des documents inédits (1784-1849), 3 ème édition, Paris, 1885.
- Jule (D.), l'Algérie et les colonies françaises, préface de M. Labaulaye, Paris, 1877.
- Julien (Ch.), Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les debuts de la colonisation (1827-1871), Paris, 1964.
- Khoudja (H.), Le Miroir, traduit par H.D., Goetschy, Paris, 1833.
- Lamunière (M), Histoire de l'Algérie illustrée de 1830 à nos jours.
- Le duc d'Orléans, Compagnes de l'armée d'Afrique (1835-1839), Paris, 1870.
- Marçel (E.), l'Algérie à l'époque d'Abd El Kader, Larose, Paris, 1951.
- Nettement (A.), Histoire de la conquête de l'Algérie, écrite sur des documents inédits et authentique, 2^{ème} édition, Paris.
- Neveux (E.De), Les khouans ordres religieuses chez Algiers, 3ème édition, 1913.

- Notice sur l'expédition qui s'est terminer par la prise de la Smalah d'Abd El Kader, le 16 Mai 1843.
- Pelissier (R.De.), Annales Algeriennes, T.2, Paris, 1854.
- Roche (L.), Trente deux ans à travers l'Islam, (1832-1864), T.1, Paris, 1884-1885.
- Roche (L.), Trente deux ans a travers l'Islam, (1832-1864), T.2, Paris, 1884-1885..
- Roches (L.), Dix ans à travers l'islam (1834-1844), 3^{eme} édition, Paris, 1904.
- Seres (J.), la politique turque en Afrique du nord sous la monarchie de juillet, Parie, 1925.
- Smati (M), La formation de la nation algérienne, Alger.
- Tournier (J.Le.), La conquête religieuse de L'Algérie, 8 éme édition, Paris, 1930.
- Wahl (M.), l'Algérie.
- Warnier (A), L'Algérie devant l'empireur Challamel, Paris, 1965.
- Xavier (B.), Histoire Nationale de L'Algérie, 2ème Edition, Paris, 1986.

جامعة القاهرة
عبد القادر للعطوف الإسلامية

قسمنا فهرس البحث إلى أربعة: الأول خاص بأكثرية أسماء الأعلام والثاني بأسماء أهم القبائل والجماعات والثالث للأماكن والبلدان والرابع للملاحق؛ من دون إدراج إسم الأمير عبد القادر لوروده باستمرار في النص.

فهرس الأعلام

أ

- أبي محمد الحاج مولود بن عراش
128-259-315-316-323-
- أبو عبد الله الرزوالي
326-348.
- أبي البركات السيد محمد بن الجيلاني
211.
- أبي العلاء بن إدريس الجراري
128.
- أبي المكارم السيد محمد بن السيد
88-90.
- العربي
128.
- أبي سعيد محمد بن فاخة
129.
- أبي عبد الرحمن الحاج الطاهر أبو
128.
- زيد
128.
- أبي عبد الله الحاج الجيلاني بن
فريخة
- أبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية
128.
- أبي مدين بن أبي دغن
129.
- أحمد الطيب بن سالم
187-197-198-199-200-
- أحمد باشا
201-344.
- أحمد باي
343-345.
- أحمد باي
85-175-176-178-179-
- أحمد باي
180-181-187-311-346.

.197	أحمد بن الحاج
.51	أحمد بن الخوجة
.51	أحمد بن الطاهر
.121	أحمد بن الطاهر بن الشيخ المشرفي
.203-121	أحمد بن الهاشمي المرّاحي
.99	أحمد بن حوا بن يخلف
.262	أحمد بن سالم
.165	أحمد بن طاهر
.99	أحمد بن علي
.128	أحمد بن علي بن أبي طالب
.160	أ.دموند بورك
.336-335	أبردين
.63	أرسطو
.65	الأصبحي
.63	أفلاطون
.276	ألكبير كاز
183	أميني الحاج داود
.183	أميني الحاج يوسف بن محمد بن موسى
183	أميني محمد بن صالح
.253	أورليان (الدوق)
.121	إبراهيم بن القاضي
.160	إبرهم لنكون
-290-283-280-277-194	إبن دران
.348-302-297	
.250	إدريس الأول
.274	إرستيد جلبر
.43	إسماعيل بن الحاج عبد الرحمن

340.	إزابيل الثانية
320.	إمریت
121.	ابن التهامي
43.	ابن الكبابي
254.	ابن بكير
161-140.	ابن تيمية
259.	ابن خرّوب
161-143-142-139-51.	ابن خلدون
139.	ابن رشد
187-184.	ابن زعموم
185-56.	ابن سالم
139.	ابن سينا
173.	ابن غماري
69.	ابن مالك
184.	ابن مبارك
309.	ابن مختار
186-92.	ابن نونة
334-294-283-280-242.	اسكوت
173-93-87-86-85-59.	الباي حسن
342.	
261-60.	البخاري
129.	البدالي بن شافعية
201-196-191-187-62.	البركاني
326-265.	
196-194-191-186-56.	البوحميدي
264.	
323-171.	التيجاني
254.	الجيلالي

.313-297	الحاج الحبيب
.199 - 184	الحاج السّعدى
.322	الحاج الطاهر
.171	الحاج الطيّب
.171	الحاج العربى
.90	الحاج العربى الشرف وزان
.198	الحاج العربى بن الحاج عيسى
.183	الحاج دادى بابى
.171	الحاج على
.43	الحاج محمد التومى
. 344-197-187	الحسن بن عزوز
.178	الذابى حسين
.67	الترديرى
.342	الرايس حميدو
.82	الزركلى
.320	السلوى
.81	الستدوبى
.68	الستوسى
.67	الشافعى
.92	الشرف بالحمرى
.80	الطنطاوى
.86	العنابى
.140	الغزالى
.139	الفارابى
.64	القاضى عىاض
.44	المارشال سولت
.141-140	الماوردى
.185	المختار بن عودة

.51	المسعودي
.261	النّوي

ب

-201-196-191-170-62	بن علّال
.309-259	
.298	باردون
.333	بالمرستون
.183	باي احمد باي بن أحمد بن بابا عيسى
.261	بديعة الحسني
.71	بطرس البستاني
.184	بلقاسم أوقاسي
.56	بلمار
.203	بن عبّ بن مصطفى المشرفي
.254	بن عبّو
.254	بن فاخة
.254	بو شليحة
.261	بو معزة
.173	بوايي
.202	بوجولا
.145	بودان
.314	بوديشون
.339-244	بول أزان
.160	بولين بروك
.327	بياس (الوزير)
-264-262-201-200-83	بيجو
-306-305-303-293-267	
.322-312-311-307	

ت

.301-174	تريزيل
.173	تشرشل
.160	توماس جفرسون
.145	توماس هويز
.318-316	تبير

ج

.337	جاكسون
.161	جمال الدين الأفغاني
.81	جمال الدين القاسمي
.80	جواد المرابط
.160	جوتيه
.82	جورجي زيدان
.160	جوزيف مازيني
.130-125	جوليان
.340-332-326	جون دريموند هاي
.248	جون قياريتز
.145	جون لوك
.318-316	جيرار

ح

.346	حشونة الدغيس الطرابلسي
------	------------------------

خ

.60	خالد النقشبدي
.297	خليفة بن محمود

ء

-215-184-174-169-166	ءيميشيل
-297-296-295-282-216	
.320-299-298	
.303-87	ءامريمون
.323	ءروي بينيون
.301	ءروي ديرلون
.83	ءوبوش
.283	ءوكاس
.321	ءولارو
.284-247-227-84	ءوماس
.261	ءومال (ءوق)
.251-250	ءون خوسي
.85	ءي بورمون
.254-253-251-227	ءي فرانس
.201	ءي كاستلان
.189	ءي لاكروا

ر

.338-336	ر. ليب
.284	رابطيل

- .161 رفاعة الطهطاوي
 .146 روسو
 .76 روسيّي

س

- .160 سقراط
 .919 سالم آغا الزتجي
 .340 سان ليجر قرنفل
 .335 سانت أولير
 .43 سحنون بن الحاج أحمد
 .40 سعد الله
 .185 سيدي أحمد بن يوسف
 .217 سيدي الحبيب بالنزاري
 .64 سيدي عبد العزيز
 .56 سيدي مبارك
 .42 سيدي محمد بن رجب الجزائري
 .42 سيدي محمد بن عبد المالك الراشدي

ش

- .92 الشّريف بلحمري
 .92 شارل دومورناري
 .46 شامل الداغستاني
 .251-201 شانغارني
 .81 شكيب أرسلان

ط

- .121 طاهر المحفوظي
 .343 طارطوز
 .323-322 طالب بن جلون

ع

- .334-32 عبد الرحمن الجيلالي
 .60 عبد الرحمن الكزبري
 .99 عبد الرحمن بن حسن الدحاوي
 .252 عبد الرحمن بن رستم
 -265-264-100-90-88 عبد الرحمن بن هشام
 .347-331-321-320
 .330-70-67 عبد الرحمن عيش
 .81-80 عبد الرزاق البيطار
 .60 عبد القادر الجيلاني
 .129 عبد القادر بن أبي معزة
 .81 عبد القادر بن أحمد
 .121 عبد القادر بن روكش
 .121 عبد الله السقاط المشرفي
 .129 عبد الله بن يوسف
 .298 عبد الله عصبون
 .21 عبد المجيد
 .80-71 عبد المجيد الخاني
 .88 عبد الهادي العلوي
 .99 علي بن أبي طالب
 .344 علي بن سالم
 .92-91-90 علي بن سليمان
 .217 علي بن عومر المستغانمي

.281	علي خوجة
.169-47	عمر بن عبد العزيز
.259	عمر بن فراح

ف

.341-339	فرانسيسكو زافالا
.341	فرانسيسكو باشكو
-312-311-310-262-188	فالي
.313	
.63	فيتاغورس
.146	فريدريك وتكنز
.146	فولتير
.340-339-173	فيليب دوكوسي بريساك
.181	فاليو
.197-187	فرحات بن سعيد

ق

.217	قدور بن بحر
.122-75-74	قدور بن رويلة
.197	قدور بن عبد الباقي

ك

.242	كلير
.172	كاتب ياسين
.340	كارموس
.329	كافينياك

188	كاتبه
188	كاتبه
82	كاتبه
311-310	كاتبه
302-252-251-93-92	كاتبه
322	كاتبه

ل

267-266-253-244-239	ليون روتش
277-261	لاكريتا
331-329-263-68	لومبير
329-328	لوتش
318-316-315	لوتش فيليب
276	لوتش فيليب

م

340	مابيا كاستيلو
227	ماده
195-169	مالك
341	ماتويل دومازاردو
194	ماتويل داتوتشي
121	محمد ابن المختار بن المكي
282	محمود (السلطان)
124	محمود بن حوا المجاهدي
196-191	محمد اليكابي

166. محمد البغدادي
 360-88-67. محمد التسولي
 344-196-131. محمد الخروبي القليعي
 170. محمد السعيد بن عودة
 68. محمد الشاذلي القسنطيني
 171. محمد الصغير التيجاني
 344. محمد الصغير الحناشي
 345. محمد الصغير بن عبد الرحمن العقبي
 197. محمد الصغير بن عبد الرحمن
 43. محمد العنابي
 121. محمد المحفوظي
 43. محمد المشري الساتحي
 342. محمد باي بن عثمان
 175. محمد بكداش
 68. محمد بن أبي زيد القيرواني
 99. محمد بن الثعالبي
 129. محمد بن الحاج علي الرحاوي
 129. محمد بن الخروبي
 217. محمد بن الستوسي
 42. محمد بن المسبح القسنطيني
 170. محمد بن سالم التيجيني
 129. محمد بن عبد الرحمن المرسلي
 344-196. محمد بن عبد السلام المقراني
 76. محمد بن عبد الكريم
 99. محمد بن عبد الله المشرفي
 344-196. محمد بن عمر العيسوي
 196-191. محمد بن فريحة المهاجي
 131. محمد بن فغي

.99	محمد بن معروف
.297	محمد بن ياخو
.161	محمد عبده
.209-177-108-58-44	محمد علي
.39	محمد عمارة
-91-89-86-71-61-59-48	محي الدين
-101-99-97-96-95-94	
.345-130-106	
.80-70-64	محي الدين ابن عربي
.129	محي الدين بن عبد الله
.261	مسلم
-220-196-191-129-122	مصطفى بن أحمد التهامي
.259-229	
.173	مصطفى بن إسماعيل
.60	مصطفى بن المختار
.313	مصطفى بن صاري
.73	ممدوح حقي
.184-169	موسى الدرقاوي
.91	مولاي سليمان
.146	مونتسيكو

ن

.334-322-313-280	نيقولا مانوتشي
.241-68-58	نابليون
.190	نوشي

هـ

.127

هارون الرشيد

و

.337

وليام برون هودسون

.326

ولد الحاج علي

.332

وليام الرابع

.185

ولد السايح

ي

.277

يهودا بن دران

فهرس القبايل والجماعات

أ

.185-166

أولاد المختار

.167

الأنجاد

.92

أولاد إسماعيل

.289

أولاد درقاوة

.262-240

أولاد سيدي الشيخ

.313

أولاد سيدي يحي

.265-166

أولاد نايل

.187

الحرشاوة

.102-91

الحشم

.257	الحشم الشراقة
.257	الحشم الغرابة
.317-301-296-175-92	الدوائر والزمالة
.187	الدواوذة
.309	الزناخرة
.187	الزواتنة
.189	الصبائحية
.286	الغرابة
.187	القسطولة
.187	النزلية



.265	بنو حسن
.309	بنو عبيد
.309	بنو مختار
.309	بنو نائل
.187	بني خلفون
.263	بني سناسن
.91	بني شقران
.265	بني صهيب
.186-101-89	بني عامر
.101	بني عباس
.250	بني عبد الواد
.170-166	بني عراش
.259	بني عياد
.101-91	بني مجاهر
.166	بني مديان

.185	بني مناد
.194-185-169	بني مناصر
.183-182-181	بني ميزاب
.186-101-91	بني هاشم
.259	بني ورغة
.101	بني يعقوب

ح

.185	حجوط
------	------

ع

.166	عكرمة
------	-------

ف

.167-166	فليئة
.187	فليسة

ق

.289	قبائل السبخة
.326	قبائل الحميان
.194	قبائل الطرارة

م

.263	مطير
------	------

ن	
نفزاوة	.186
ه	
هأشم	.286

فهرس الأماكن

أ	
القبطنة	.94-59-50
الأستانة	.263-70-69
أرزبو	-298-297-290-191-175-165-51
أشبر	.311-307
الأغواط	.252-247
أمبواز	.198-171-170-43
أمريكا	.83-78-77-68
أوروبا	.346-338-337-336-332-310
إسبانيا	.334-298-59-57
إسطنبول	.341-340-339-310
الإسكندرية	.346-20
إفريقيا	.61
الإقليم الشرقي	.334-45
الإقليم الغربي	.179-85
	.94-85

340.	إقليم القلايعة
85.	إقليم الوسط
-334-332-331-310-294	إنجلترا
347-346.	
346.	الإيالة الجزائرية
328-264-263.	إيسلي
247.	البرج
-312-307-306-302-300	البلدية
335.	
343.	البويرة
348-334.	البحر الأبيض المتوسط
183.	البخاري
-191-185-28-24-22-85	التيطري
307-305-304-303-196	
306.	التافنة
-39-34-33-31-24-21-20	الجزائر
-71-59-58-44-43-41-40	
-117-116-92-83-73-72	
-177-176-130-120-119	
-184-182-181-179-178	
-194-190-188-186-185	
-250-248-244-204-200	
-277-274-266-254-253	
-298-295-294-282-279	
-307-306-305-304-303	
-315-312-311-310-308	
-327-325-322-320-318	
338-337-335-335-334	

-188-87-86-85-42-34	الجزائر العاصمة
.346-297-294	
.179	الجنوب
.183	الجلفة
.267	الحجاز
.212	الرباط
.340	الريف
.187	الزاد
.276	الزكار
-256-255-246--327-325	الزمامة
.259-258-257	
-262-192-191-187-312	الزيبان
.349	
.73-69	الشام
.305-186	الشرق الجزائري
-301-289-191-167-166	الشلف
.303	
-248-247-309-187-171	الصحراء
.341-265-256-253-249	
.197-192	الصحراء الشرقية
.197-192-186	الصحراء الغربية
.322	الصويرة
.267	الطائف
.332-302-289-40-36	الغرب الجزائري
.204-61-60-59	القاهرة
.61	القدس
.334	القسطنطينية
.304-247-186	القلعة

335-307-200-64	التقليعة
.267-61-60	التقويوان
.61-60	التدقيق المتوردة
-187-185-184-183-169	المدنية
-248-247-245-199-191	
-282-265-259-255-251	
.323-303	
.252	المسيلة
.83-81-80-96-65-61	المشرق
.175-93	المشور
-173-91-88-87-67-61	المغرب
-282-263-205-179-178	
-323-322-321-318-315	
-331-328-327-326-325	
-339-338-337-333-332	
.345-342	
-252-240-204-83-45-40	المغرب الأقصى
.293-289-260	
.252-250-91-89-88-83	المغرب الأوسط
.88-64	المغرب العربي
335-304-302-217	المنقطع
.328	الملوية
.333	النمسا
.349	الهضاب العليا
.349	الهضاب الوسطى
.333	الهند
.289-283-259-167	الونشريس

ب

.322-299-251-78-77	باريس
.185-252	بجاية
-197-192-191-187-185	برج حمزة
.344	
.97-94	برج رأس العين
.60	برقة
.78-69	بروسة
.333	بروسيا
.304-302	بريدية
-333-327-326-322-240	بريطانيا
.346-336-335-334	
.344-248-197-191-187	بسكرة
.61-60	بغداد
.191	بلاد الجبال
.199	بلاد القبائل
.248	بلخورط
.313	بن موسى
.183-182-181	بني مزاب
.324-288-251-248-247	بوغار
.73	بيروت

ت

-283-265-249-248-247

تازة

324-288	
.330	تافرست
-310-250-216-187-177	تافنة
-327-323-315-313-311	
.344-335-328	
-248-247-245-241-127	تاقدمت
-259-255-254-252-251	
-293-288-283-280-262	
.324-321-316	
.252-247	تاهرت
.335	تركيا
.254	تقرت
-92-90-89-88-87-42-28	تلمسان
-194-191-186-94-93	
-247-216-209-197-196	
-253-252-251-250-248	
-308-304-296-283-282	
.346-318-313	
.171	تماسين
-212-209-204-94-61	تونس
-268-267-252-240-232	
.345-343-342-327-322	
.252	تيارت
.335	تيزي وزو
-305-304-196-191-185	تيطري
.307	

ج

.262-185	جنوب الصحراء
.312	جبال البربر الشمالية
.192	جبال القبائل
.240	جبال الونشريس
.187	جبال زناتة
.262	جبال عمور
.200	جبل دخلة
-322-290-283-280-240	جبل طارق
-343-339-337-333-327	
.346	
.228	جبل كركور
.262-185	جرجرة
.263	جزيرة موجدور

ح

.169	حجوط
------	------

خ

.97-94	خندق النطاح
--------	-------------

د

-80-72-71-70-69-61-60	دمشق
.81	

.70

دمر

ر

.294

روسيا

.303

ريوسالادو

.191

رشكون

س

.288-263-248

سبدو

.284

سدنة خوشة

.262-191-187

سطيف

.324-288-251-248-247

سعيدة

.253

سلا

.262

سور الغزلان

.248-245

سيباو

.328

سيدي ابراهيم

ش

.338-64

شمال إفريقيا

.191-170-169-64

شرشال

ط

.259

طاكين

.344-232-60

طرابلس

-325-324-323-263-92

طنجة

.336-328-326

.61

طنطا

ع

.323-244-186-171

.60

عين ماضي

عين غزالة

غ

-106-102-99-91-59-50

.291-275-257

.340

غريس

غرنا

ف

-107-106-93-85-83-77-72-69

فرنسا

-213-200-189-187-183-173-171

-295-294-293-277-269-263-240

-307-306-305-304-303-302-300

-318-317-315-312-311-309-308

-328-327-326-325-324-323-319

-339-338-337-336-333-332-331

.348-346-343-342-341-340

-212-204-126-94-91-90-88-87

-324-322-320-294-280-266-241

.337-327

.21

فينا

.259

فلينة

ق

191-188-187-177-93-61-42-22	قسنطينة
-311-310-305-302-300-277-248	
.340-336-313	
.308	قلعة المشور
.309	قصر البخاري
.60	قالس

ك

.340	كبدانة
.307	كوغ مزعران
.60	كرداسة

ل

.329-328-263	لالا مغنية
.335-334-333-322	لندن

م

.247-175-28	مازونة
-304-302-300-199-184	متيجة
.335-307	
.349-312-196-191-187	مجانة
.340	مدريد
.327-284-92	مراكش

321.	مرسيلية
335-307.	مزعران
-297-290-175-87-28	مستعالم
311-310-307.	
-212-209-108-67-61-59	مصر
267.	
-107-100-95-93-91-28	معسكر
-183-123-122-121-120	
-203-200-197-196-191	
-220-217-215-212-204	
-251-248-247-245-241	
-277-255-254-253-252	
327-316-297-284-282.	
61-60.	مكة
321-88.	مكتس
-194-191-185-170-91	مليانة
-247-245-216-197-196	
283-282-276-248.	
183.	مليلة
342-341-340-339.	مليلية
322.	مولايه
308-304.	ميناء رشقون

ن

61.	نجد
253.	نغار
307.	نهر الشفة
307.	نهر السطع

و

-93-92-87-86-85-60-59-42-28-22	وسرا
-175-171-170-166-165-131-97-94	
-295-277-276-263-259-252-188	
-307-304-303-302-301-297-296	
.321-313-310-308	
.66	وادي الحمام
.307	وادي القدرة
.304	وادي بني عزة
.100	وادي خصيبية
.254-191	وادي سوف
.99	وادي فروحة
.200	وادي فضة
.343-342-335-326-88	وجدة
.254	ورقلة

فهرس الملاحق

صفحة	موضوعه	ملحق رقم
.356-355	رسالة الأمير عبد القادر حول أسباب محاربتة للتيجاني	1
.357	رسالة اعتذار من الأمير عبد القادر إلى محمد الحبيب التيجاني	2
.358	ردّ بني ميزاب على دعوة الأمير لهم للخضوع والطاعة	3
.359	خطاب الأمير لأهل جرجرة	4
.360	مرسوم تعيين خلفاء المقاطعات	5
.361	نص نموذج مرسوم التولية للسيد الحاج العربي بن السيد الحاج عيسى الأغواطي	6
.363-362	دستور الحكم الشرعي الخاص بجيش الأمير عبد القادر	7
.366-364	جداول العملات الجزائرية المتداولة أثناء العهد العثماني	8
.370-367	رسائل مودة في إطار سعي الأمير لقضاء مصالح خاصة للمهاجرين الجزائريين بتونس	9-10-11
.371	نموذج من خط الأمير (رسالة خاصة)	12
.372	خريطة استعمال الأرض في أواخر الفترة العثمانية	13
.373	ضرائب القطاع الريفي بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر	14
.374	خريطة توزيع السكان بالجزائر أوائل القرن التاسع عشر	15
.375	خريطة المواصلات والتقسيم الإداري بالإيالة الجزائرية في أوائل القرن التاسع عشر	16
377-376	نماذج من العملة الجزائرية المضروبة بدار السكة من (1824-1731/هـ/1240-1444)	17
		18

01 شكر وتقدير
02 المختصرات المستعملة في البحث
03 مفاهيم محلية مستعملة في البحث
04 مقدمة
08 1. دواعي اختيار الموضوع
08 2. إشكالية البحث
09 3. هيكل الموضوع
12 4. منهج البحث
12 5. الصعوبات
13 6. نقد لأهم المصادر
	الباب الأول: شخصية الأمير عبد القادر وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي
19 مقدمة
20	الفصل الأول: الوضع العام في الجزائر أواخر العهد العثماني
20 1. 1/ الوضع السياسي - الإداري
26 1. 2/ الوضع الاقتصادي والاجتماعي
26 1. 2. 1/ الوضع الاقتصادي
27 1. 2. 1. 1/ نظام ملكية الأراضي
33 1. 2. 2/ الوضع الاجتماعي
39 1. 3/ الوضع الثقافي
46	الفصل الثاني: جوانب من شخصية الأمير عبد القادر
48 2. 1/ مولده ونشأته
52 2. 2/ مقومات شخصيته
59 2. 3/ أثر رحلة الحج في شخص الأمير عبد القادر
63 2. 4/ مستوياته الفكرية
68 2. 5/ محنة وفاته
72 2. 6/ آثاره العلمية
72 2. 6. 1/ الآثار الشعرية
74 2. 6. 2/ الآثار النثرية

85	الفصل الثالث: البيعة وتأسيس الدولة
91	3. 1/ بيعة أهل الغرب الجزائري لمولى السلطان المغربي.....
99	3. 2/ بيعة الأمير عبد القادر.....
102	3. 2. 1/ البيعة العامة.....
106	3. 3/ تأسيس الدولة.....
109	3. 3. 1/ أسس الحكم.....
112	3. 3. 2/ مبادئ الحكم.....
116	3. 3. 3/ التنظيم الدستوري لدولة الأمير عبد القادر.....
120	3. 3. 4/ سلطات الدولة.....
132	خاتمة.....

الباب الثاني: التصور المؤسساتي للدولة الجزائرية الأميرية

135	مقدمة.....
-----	------------

الفصل الأول: مصادر فكرة الدولة عند الأمير عبد القادر

136	1. 1/ مفهوم الدولة.....
149	1. 2/ سلطات الدولة.....
154	1. 3/ دستور الدولة الإسلامية.....

الفصل الثاني: تصور الأمير لمجال السيادة في الدولة الجزائرية

164	2. 1/ تصور الأمير لمجال السيادة.....
169	2. 2/ المواجهات الداخلية.....
175	2. 2. 1/ العلاقات السياسية بين الأمير عبد القادر والحاج أحمد باي.....
181	2. 2. 2/ علاقة الأمير ببني ميزاب.....
184	2. 3/ إتساع إقليم الدولة.....
184	2. 3. 1/ في الوسط.....
186	2. 3. 2/ السيادة في الغرب.....
186	2. 3. 3/ امتداد نفوذ الأمير عبد القادر إلى الشرق.....

190	الفصل الثالث: التصور المؤسساتي المدني للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر
190	3. 1/ الإدارة.....
192	3. 1. 1/ خلفاء الأمير.....
203	3. 2/ مكانة القضاء.....
207	3. 3/ نظام التعليم.....
208	3. 3. 1/ مراحل التعليم.....
213	الفصل الرابع: التصور المؤسساتي العسكري للدولة الجزائرية عند الأمير عبد القادر
213	4. 1/ التنظيم العسكري.....
227	4. 2/ جراية الرواتب.....
232	4. 3/ تدريب الجيش.....
236	4. 4/ القضاء العسكري.....
236	4. 4. 1/ تأليف المحاكم وتشكيلاتها.....
236	4. 4. 2/ صلاحيات المحاكم.....
237	4. 4. 3/ الجرائم العسكرية.....
247	4. 5/ بناء المنشآت العسكرية.....
261	4. 6/ توقف الأمير عن مواصلة الجهاد.....
262	4. 6. 1/ سياسة بيجو وأثرها في إضعاف قوة الأمير.....
264	4. 6. 2/ موقف المغرب المعادي للأمير.....
266	4. 7/ موقف العالم الإسلامي وأثره في توقف الأمير عن مواصلة الجهاد.....
267	4. 7. 1/ فتوى ليون روش.....
270	خاتمة.....
	الباب الثالث: التصور الإقتصادي والدولي للدولة الجزائرية الأميرية
272	مقدمة.....
273	الفصل الأول: التصور الإقتصادي للدولة الجزائرية الأميرية
274	1. 1/ الزراعة.....
276	1. 2/ الصناعة.....
277	1. 3/ التجارة.....
279	1. 4/ التنظيم المالي.....

280 1. 4. 1/ سك النقود
282 1. 4. 2/ شكل العملة
283 1. 4. 3/ موارد العملة
284 1. 4. 4/ سك العملة
286 1. 5/ النظام الجبائى

الفصل الثانى: العلاقات الخارجية للدولة الجزائرية فى عهد الأمير عبد

القادر

294 2. 1/ علاقات الأمير بالدول الخارجية
295 2. 1. 1/ العلاقات بفرنسا
319 2. 1. 2/ العلاقات مع المغرب
332 2. 1. 3/ العلاقات مع إنجلترا وأمريكا
339 2. 1. 4/ العلاقات مع إسبانيا
342 2. 1. 5/ علاقات خلفاء الأمير ببايات تونس
345 2. 1. 6/ علاقات الأمير بالدولة العثمانية
349 خاتمة
351 خاتمة البحث
355 الملاحق
 المصادر والمراجع المعتمدة
 فهرس الأعلام
 فهرس القبائل والجماعات
 فهرس الأماكن
 فهرس الملاحق

جدول التصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ص1	س6	الأستاذة	الأستاذ
ص3	س16	المعروف	المعروف
ص14	س8	يكون	يكاد يكون
ص32	س19	إشارة	إشارة
ص54	س4	و الفرنسيين	الفرنسيين
ص65	س12	على المستوى	على ذلك المستوى
ص70	س2	26 أو 25 ماي	25 أو 26 ماي
ص75	س2	اكتاب	الكتائب
ص95	س8	بغلظة	بغلظة
ص124	س15	فعنداما	فعندما
ص138	س13	الكون	للكون
ص163	س1	تكرير العبارة	و ترى
ص169	س5	و شرعية	شرعية
ص171	س5	التيجاني	التيجيني
ص188	س19	يتظنون	يتضمون
ص222	س20	العسكري	العكري
ص223	س9	عسكري	عكري
ص223	س20	مستحقة	مستحقة
ص224	س17	الجوف	الجوخ
ص225	س12	طبجيا	طوبجيا
ص232	س9	خصبا	خاصبا
ص232	س10	جددت	جددت
ص235	س3	خيمة	خيمه
ص242	س18	خلفائه	خلفائه
ص252	س10	في النصف الثاني الهجري	في النصف الثاني
ص253	س15	بايداع	بايداع
ص253	س18	أزنان	أزان
ص258	س5	قطعانكم	مدينتنا
ص261	س9	ليتحدوا	ليتخذ
ص280	س12	لتوقف	توقف
ص280	س10	لعملات	العملات
ص296	س17	المتقاعسين	المتقاعسين
ص297	س20	الواسطة	الواسطة

الصفحة	المسطر	الخطأ	الصواب
300ص	س3	إاذ نعكس	إذا انعكس
301ص	س16	دوري ديرلون	دروي ديرلون
314ص	س10	المتحصرة	المتحصرة
316ص	س5	فيه	فيها
327ص	س9	سلطات	سلطان
329ص	س16	و مقاومة	مقاومة
330ص	س12	و اقتسامه	و اقتسامه
331ص	س4	الصبغة	الصبغة
332ص	س15	الملك	ملك
333ص	س18	دوارا	دورا
337ص	س13	الأخير	الأخيرة
338ص	س18	5 فيفري 1835	5 فيفري 1838
341ص	س13	3 حراسته	حراسته
345ص	س21	مساعدة	المساعدة
351ص	س9	منهج	منهج
381ص	س8	و علاقته	و علاقته
381ص	س914	ح.ع 2	ع.ع 2
382ص	س15	الخضري	الخضاري
382ص	س19	جامعة الجزائر معهد التاريخ جامعة الجزائر	جامعة الجزائر معهد التاريخ
384ص	س13	و البربر	و البربر
388ص	س25	ش.و.م.ت	ش.و.ن.ت
391ص	س6	namade	nomade
391ص	س10	conflit	le conflit
392ص	س8	Algerie. Algeria 1931	Algerie 1931
405ص	س2	كانوبير	كانروبير
413ص	س7	الزاد	الزاب

الاصواب	الخطأ	مطر الهامش	الصفحة
سبع	سطح سبع	س4	ص41
paris	parie	س9	ص48
الاستقصا	الاستقصاء	س1	ص86
1969	19669	س3	ص95
méditerranéennes	méditéraéennes	س5	ص99
بترانه	بترانه	س1	ص109
op.çit	L'Algerie.paris 1929	س14	ص109
بدر الدين	بدر اللدين	س1	ص136
البايات	البايات	س2	ص142
راعوا	راعوا	س2	ص142
قد تراجع عن	قد تراجع ن	س5	ص171
عمّار قليل	عمّار قليل	س1	ص177
رئيس	رئيس	س10	ص217
عبد القادر	عبد لقادر	س2	ص224
عبد القادر	عبد لقادر	س3	ص225
nomade	namade	س6	ص258
سلطان	بسلطان	س2	ص307
méditerranée	méditeraniée	س3	ص332